تاريخ مصر البيزنطية

دكتور
محمد محمد مرسى الشيخ
أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب
بجامعة الإسكندرية ورئيس قسم التاريخ سابقاً

١٩٩٩

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٢٤٥ / ١٩٩٩
الترقيم الدولى I. S. B. N. 977-19-8748-8

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

من الفترات التي لم تنل حظها من الدراسة ،ولم تظفر بعناية المؤرخين كثيرا، خاصة في الشرق، فترة الحكم البيزنطي في مصر أو تاريخ مصر البيزنطية ،أي الفترة التي كانت فيها مصر ولاية بيزنطية وقطرا من الأقطار التابعة للإمبراطورية البيزنطية ،على الرغم من أن هذه التبعية استمرت نحو ثلاثة قرون و نصف القرن تقريبا ،الأمر الذي يدعو للعجب فعلا ،لا سيما إذا وضعنا في اعتبارنا ما نالته مصر من اهتمام المؤرخين و الدارسين لتاريخ الفترات السابقة على هذه الفترة كفترة تبعيتها للإمبراطورية الرومانية و كذلك فترة حكم البطالمة والإغريق فيها من قبل .

و يبدو أن ذلك راجع بالدرجة الأولى لإحساس المؤرخين أن مصر بخضوعها لبيزنطة في تلك الفترة قد فقدت جانبا كبيرا من أهميتها ،خاصة الأهمية السياسية و العسكرية ،على اعتبار أنها لم تكن مقرا لرأس الدولة أو حاكمها ،و إنما تولى أمرها وال يسير أمورها من قبل الحكومة المركزية في العاصمة البيزنطية ،و يلتزم بتنفيذ أوامر الإمبراطورية في القسطنطينية ،فلم تعد مصر مركز الأحداث أو حجر الزاوية ،و إنما مجرد ولاية ضمن ولايات كثيرة لا يعتد كثيرا بما يحدث فيها من أحداث داخلية ،ليس لها كبير تأثير على سياسة الدولة أو اتجاه الحكومة المركزية في العاصمة البيزنطية .

و إذ درج المؤرخون منذ القدم على الاهتمام بالأحداث السياسية والعسكرية و أخبار الغزو و الفتح و اتجاه المعارك و نتائج الحروب على أوضاع القوى المختلفة ،و عدم الاهتمام كثيرا بغير ذلك، انصرف اهتمامهم -طبقا لهذا - عن فترة تبعية مصر لبيزنطة من هذا المنظور ،على اعتبار انه لم يكن ثمة ما يجذب الانتباه في تاريخ مصر في تلك الفترة ،الذي اعتبروه

تاريخا محليا يخلو كثيرا من الأحداث السياسية و العسكرية ،و لا يؤثر في نفس الوقت على أوضاع مصر ذاتها أو غيرها من الولايات التي ترتبط بالتبعية للإمبراطورية ،التي تحظى عاصمتها بكل الاهتمام و يوضع إمبراطورها في بؤرة الأحداث بحروبه في الشرق و في الغرب ،و بسياساته مع القوى الأخرى المحيطة و البعيدة .فأين مصر من هذه القوى و ما حجم هذه الولاية لتكون محل الاهتمام ؟

و إذ طغى الاهتمام بهذه النواحي السياسية و العسكرية ، على الاهتمام بالجوانب الأخرى في حياة الشعوب في مدنها و قراها و حقولها ومصانعها و معابدها و فرحها و ترحها ،لم تنل مصر كبير اهتمام من المؤرخين لهذه الأسباب ،لان تاريخ مصر البيزنطية كولاية تابعة لبيزنطة تبلور حول شئونها الدينية و تنظيماتها الإدارية ،و أحوالها الاقتصادية والمالية ،وأوضاعها الأمنية و القضائية ،و حياتها العلمية و الفكرية ،وحياتها الاجتماعية ،وحياتها اللغوية والأدبية ،ثم تعرضها للغزو في نهاية هذه المرحلة،ولم يتعد ذلك كثيرا ،باعتبار أنها ولاية تابعة لغيرها .يتلقى واليها وحكامها الأوامر من العاصمة البيزنطية وينفذون مشيئة تلك العاصمة .

ولم يكن ذلك من العدل في شئ ،لان تاريخ مصر البيزنطية أو تاريخ الفترة التي تبعت مصر فيها الإمبراطورية البيزنطية رغم قصره يستحق كل الاهتمام ،وأكثر من الاهتمام،لان مصر شهدت تحولات خطيرة في كل شئونها في تلك الفترة ،في عقيدتها وشخصيتها وتراثها ،وقيم شعبها ومثله وما قدمته مدرستها العلمية وجامعتها من علم وفن وحضارة ،وتبلورت فيها الوطنية والنزعة القومية مثلما لم تتبلور في أي فترة أخرى ،و تشكلت و برزت عاداتها وتقاليدها بما انساب إليها من موروثات قديمة وما استجد من هذه العادات والتقاليد في تلك الفترة ،لتخط مصر تاريخا اجتماعيا نابضا بالحياة،وحياة اجتماعية ثرية التقت فيها موروثات القدم بما استجد من هذه

الجوانب ،و لازلنا تعيش بعض جوانب تلك الحياة الاجتماعية المميزة حتى الآن .

فليس التاريخ للأباطرة والملوك والحكام هو عصب التاريخ ،و إنما الأهم منة التاريخ للشعوب والحضارة و الدين و العقائد والمثل و القيم و الوطنية والعلم و الثقافة و الحياة الاجتماعية و غير ذلك مما أثرت به الشعوب تاريخها و صاغته الأمم بكفاحها و نضالها ،حتى في فترات التبعية لغيرها من القوى السياسية و العسكرية ،و كل هذه المعاني نجدها في تاريخ مصر البيزنطية و الفترة التي تبعت فيها مصر بيزنطة ،على الرغم من أنها ـ تعد في عمر الشعوب ـ فترة قصيرة لم تزد عن ثلاثة قرون و نصف القرن ،لكن أثرها كان بعيدا في تاريخ الشعب المصري .و إسهامها كان عظيما في نهضة هذه الأمة ،وفيما سطرته من أحداث في العصور اللاحقة .

فلا يستطيع أحد أن ينكر الدور الذي لعبته الكنيسة المصرية ورجال الدين في الإسكندرية في بلورة و تحديد التعاليم الأساسية للمسيحية في كل أنحاء العالم المسيحي بل في كل أنحاء الدنيا في ذلك الوقت ،ولا أحد يستطيع أن يغفل أن هذه الكنيسة عنيت بتوجيه ما نشب من خلافات دينية و حسمها في العالم المسيحي بأسرة ،و الانتصار للرأي الأمثل في نظر الكنيسة المصرية ولو دفعت مصر في ذلك ثمنا من حريتها و سيادتها و تعرضت لسيل من الاضطهاد و التنكيل ،فلا زالت الكنيسة المصرية في مصر البيزنطية أعظم كنائس الدنيا و أكثرها حدبا على العقيدة و جوهر هذه العقيدة وفلسفتها،ولعب رجال الدين في الإسكندرية دورا بارزا فيما جرى من خلافات حول أسس العقيدة المسيحية و أبرز قضاياها في القرنين الرابع والخامس الميلاديين، وكان يمكن لبطريرق الإسكندرية أن يصبح أكبر شخصية دينية في الدنيا ،و تتبوأ الإسكندرية المكانة التي حازتها روما بعد ذلك ،لولا ما جرى من حقد على الإسكندرية و مكانتها و اتفاق بين كل من القسطنطينية و روما ضد الإسكندرية في مجمع خلقدونيا الذي عقد في مستهل

النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي (٤٥١ م)، و جرى فيه تحجيم دور الإسكندرية و الوقوف في وجهها ،و محاولة التقليل من شانها ،ليس انتصارا للحق و العدل ،و إنما حقدا و بغضا و كراهية .

و ليت الأمر توقف عند هذا ،بل انه تعدى ذلك كثيرا حين حاولت بيزنطة فرض ما لا تقبله مصر من نحل و مذاهب على أهلها بالقوة أحيانا و اللين أحيانا أخرى ،فاستخدمت القسوة و العنف في أكثر الأحيان لإخضاع المصريين لمشيئتها ومذهبها و عرضتهم لشتى أنواع التنكيل و التعذيب لحملهم على التحول إلى مذهبها ،و على هذا جرى التاريخ البيزنطي في مصر ،و لهذا كرهها المصريون و تمنوا زوالها و أبغضوا الحكم البيزنطي بغضا شديدا ،فلم تكن ثمة قوة كرهت في مصر مثلما كرهت بيزنطة ،و لم يبغض المصريون محتلا أو مسيطرا مثلما أبغضوا بيزنطة طوال فترة حكمها في مصر ،ولم تكن ثمة فترة تعرض فيها المصريون لكل هذا الإذلال مثلما تعرضوا في الفترة البيزنطية و كل هذه الأحداث نراها في تاريخ مصر البيزنطية .

كما لا يستطيع أحد أيضا أن يتجاهل ما كانت علية مصر من ثراء و عظمة اقتصادية في فترة تبعيتها لبيزنطة ، و ما حفلت به مصر من غنى وثراء في قرون التبعية لتلك الإمبراطورية ،و لعل ذلك كان السبب الرئيسي الذي من أجله واصلت بيزنطة احتلالها لمصر و إخضاعها لسيطرتها ،بعد أن اعتادت الاعتماد طويلا على ما كانت تجود به تلك الولاية من قمح وأموال، حصلتها كضرائب متنوعة تفننت طويلا في تصنيفها و تسمياتها .و إن هدفت كلها لاستنزاف ثروات البلاد و استغلال شعبها ،و الاستحواذ على ما يمكن أن تبتزه من أموالها و ثرواتها على مدى الفترة كلها ،فلقد واصلت بيزنطة الإفادة من هذا الثراء و اضطرت أحيانا ألي استخدام القسوة و العنف في جباية ما كانت تقره من ضرائب و مكوس و قمح على أهل مصر،وعرضتهم لشتى أنواع التنكيل و الجور للاستحواذ على ما في أيدي الناس و الحصول على أرزاقهم لا سيما القمح الذي بلغ ما كان يشحن منة إلى القسطنطينية في

بعض السنوات نحو ثمانية ملايين أردب في كل عام ،فضلا عما كانت تحجزه في مصر من القمح لإطعام جيوشها و موظفيها ،و ما تجود به على فئات أخري من رعاياها في تلك الولاية المنكوبة .

ولعل ذلك العسف والجور والقسوة في جباية الضرائب والمكوس هو الذي أضاف إلى كراهية المصريين لهذه السلطة، وجعلهم يتمنون زوالها ويواصلون الكفاح للخلاص منها ففجروا الثورات وأحدثوا في وجهها الاضطرابات والقلاقل على مدى الفترة كلها، ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا الفكاك وضاعت صرخاتهم في خضم ذلك المحيط من السيطرة والتحكم، ولم تفلح جهود المصريين في الخلاص، فتطلعوا إلى من يخلصهم من هذا الجور ويعطيهم فرصة العيش في أمن وأمان وعدل وتسامح، فكان الغزاة هم الفرس وكان الفاتحون هم العرب.

وأهم من ذلك كله ما حدث من تبلور النزعة القومية المصرية وبروز الروح الوطنية الأصيلة في هذه الفترة والشعور القومي الطاغي، الذي لم يظهر في مرحلة مثلما ظهر في هذه المرحلة من تاريخ مصر، فقد كان اعتزاز المصريين بمذهبهم الديني وإخلاصهم لهذا المذهب سبباً فيما لجأت إليه بيزنطة من اضطهادات دينية لهم، فأسهم ذلك كله في بلورة الروح القومية وبروز الشعور الوطني عند المصريين. ولا زال قارئ تاريخ هذه الحقبة يبدى تعاطفاً وميلاً إلى أولئك الوطنيين الذين تفانوا في وطنيتهم وتحملوا من أجلها مالا يطيقه أحد وبلوروا روح مصر الأصيلة ونزعتها الوطنية الطاغية واعتزازها بقوميتها الأصيلة في مواجهة هذا المسيطر البغيض.

ولا أحد يستطيع أيضاً أن يتجاهل الدور الذي لعبته مدرسة الإسكندرية العلمية وجامعتها بمكتبتها ومتحفها في إثراء الحركة العلمية في مصر البيزنطية، وجعل الإسكندرية مركز الإشعاع الثقافي والفكري في مصر كلها وعلى الأقطار القريبة والمحيطة جميعاً، ومقصد طلاب العلم من كل أنحاء الدنيا ومحط رحال العلماء والدارسين من كل حدب وصوب يفدون إلى

هذه المدرسة العلمية المميزة والجامعة التي أثرت الدنيا علماً وحضارة ليس في العلوم النظرية فحسب، بل أيضاً في العلوم التطبيقية أو التجريبية بعلمائها الكبار الذين ذاع صيتهم في الرياضيات والعلوم والكيمياء والطب والفلك، فضلاً عن الفلسفة والمنطق والآداب واللاهوت وبقية العلوم النظرية الأخرى، وإذا كان بعض هؤلاء العلماء في مدرسة الإسكندرية وجامعتها ظل على وثنيته شطراً من القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، ولم يتحول إلى العقيدة المسيحية التي سادت في مصر في ذلك الوقت، فقد أسهم العلماء المسيحيون أيضاً في إثراء الحركة العلمية والنهضة الثقافية في مصر البيزنطية كثيراً، وأعطوا لمدرسة الإسكندرية العلمية شهرة عظيمة في كل أنحاء الدنيا في ذلك الوقت، فضلاً عن أن العلم لا وطن له ولا عقيدة ولا يختص به الوثنيون أو أصحاب العقيدة أيا تكون .

ولا أحد ينكر أيضاً إنه في مصر البيزنطية التقت الموروثات المصرية القديمة في التقاليد والعادات والحياة الاجتماعية ، بما استجد من هذه الجوانب في الفترة البيزنطية في مصر -كما سبق أن أشرنا- حيث شهدت مصر حياة اجتماعية مميزه، لازلنا نعيش جانبا كبيرا منها حتى الآن، ونعلم تماماً ما امتزج فيها من موروثات القدم بما عاشته مصر البيزنطية من تقاليد وعادات مستمدة من العقيدة المسيحية التي انتشرت في مصر في تلك الفترة انتشاراً واسعاً والتي مهما كان للدين فيها من تهذيب وتقويم فلا بد أن يتسلل إليها تراث الأقدمين وقيمهم وإن أجهد المصريون أنفسهم في إلباس هذه الموروثات لباساً جديداً يساير ما أصبحوا يؤمنون به ويقرونه من قيم ومثل مستمدة من عقيدتهم ودينهم في تلك الفترة .

ونأتي إلى جانب آخر برز في تاريخ مصر البيزنطية أيضاً، وهو الحياة اللغوية والأدبية ، وقد أجابت لنا مصر البيزنطية على تساؤلات كثيراً ما ألحت علينا لم نكن ندري لها جواباً، ما بال ما يتخلل لغتنا العربية من كلمات وتعبيرات ومصطلحات نشعر أنها ليست من العربية ولا تمت لها

بصلة فإذا بها قد انسابت من لغتنا المصرية القديمة، التي غدت في الفترة البيزنطية اللغة القبطية أو بمعنى أدق اللهجة القبطية، التي غدت الدارجة من اللغة الديموطيقية ، وهي آخر مرحلة من مراحل تطور اللغة المصرية القديمة، والتي ظلت تستخدم في مصر حتى بعد الفتح العربي وانتشار اللغة العربية بين المصريين وانحسار اللغة اليونانية التي كانت لغة الدواوين في البلاد في تلك الفترة ثم بدأ انحسار القبطية التي كانت لغة الحديث والتخاطب بين المصريين، لتصبح لغة الأقلية وتتوارى شيئاً فشيئاً بمرور الوقت لتحل محلها العربية، بعد أن انسابت فيها تلك الكلمات والتعبيرات والمصطلحات بعد معايشة للعربية فترة ليست قصيرة وتلك هي الإجابة على ما عن لنا من تساؤلات .

لهذه الاعتبارات كلها أحسسنا بأهمية هذه الفترة الزمنية من تاريخ مصر، وشعرنا بمدى عظمة ما شهدته مصر خلالها من تحولات، فكانت جامعة الإسكندرية أول جامعة تولى هذه الحقبة اهتماما خاصا فوضعت "تاريخ مصر البيزنطية" في لائحتها لأول مرة وضمن المقررات التي تدرس لطلاب قسم التاريخ بكلية الآداب، وذلك منذ نحو عشرين عاما، وكان لي شرف القيام بتدريس هذا المنهج لأول مرة في ذلك الوقت. وإذا لم يكن أمامنا من الوقت حينئذ ما يمكننا أن نقدم في هذا الموضوع ما كنا نؤمل ونتمنى ، وأجبرنا على أن نضع في عجالة ما يوفى بهذا الغرض ويسد هذا الفراغ، إكمالا لما يدرسه الطالب من تاريخ "الإمبراطورية البيزنطية، فإننا الآن نحاول أن نضع هذا الموضوع في درجته من الأهمية، ونقدم تاريخا دقيقا وشاملا لأحداث هذه الفترة مدعما بالمصادر والوثائق والبرديات والمراجع التاريخية العربية على قلتها والأجنبية على كثرتها، آملين أن يلقى ذلك كله ما هو جدير به من الاهتمام والتقدير.

ولست بحاجة إلى القول بأن المؤرخ لتاريخ مصر البيزنطية في وقتنا الحاضر لا يتوقع أن يجد سهولة في استقاء مادته أو الحصول على مصادر هذه

الفترة، كما لا يتوقع يسرا في عرض ما يمكن استقاؤه من تلك المصادر، لأن هذه الفترة بالذات من أكثر فترات التاريخ المصري غموضا وصعوبة فضلا عن أن مصر باعتبارها ولاية من ولايات الإمبراطورية البيزنطية ،لم تحظ بما يمكن أن تحظى به العاصمة من اهتمام المؤرخين المعاصرين وكتابات المؤرخين المعاصرين لتلك المرحلة، فاقتصر الأمر على ما ورد في كتابات المؤرخين البيزنطيين أمثال بروكبيوس وثيوفانيس وبعض المؤرخين المصريين الذين عاصروا نهايات هذه المرحلة وشهدوا جزءا من تاريخ المسلمين في مصر بعد الفتح العربي لها أمثال المؤرخ ورجل الدين المصري حنا النقيوسى ، هذا فضلا عن مجموعات أوراق البردي خاصة تلك التي اهتم بها وترجمها ونشرها المؤرخ والأثرى ذائع الصيت ماسبيرو أو التي استفاد منها في مؤلفاته الكثيرة بالفرنسية فضلا عن بعض الوثائق والمدونات، وما ورد في كتب سير القديسين والرجال الصالحين وكتابات آباء الكنيسة الأول ورواد الرهبانية والديرية ورجال الدين في مصر البيزنطية، وكلها تلقى الضوء على جانب أو آخر من تاريخ هذه الحقبة، وإن كانت هناك صعوبة في الاستفادة من كل ذلك. أما المراجع الحديثة فللأسف الشديد لم يكتب منها عن هذه الفترة في الشرق سوى القليل، وهذا القليل تناول جانبا أو آخر من تاريخ هذه الحقبة باستثناء ما كتبه المرحوم الأستاذ الدكتور/ السيد الباز العرينى في ذلك، ولهذا وجدت من واجبى أولا تناول كل الجوانب في تاريخ هذه الفترة من ناحية ومحاولة تقديم الجديد بالنسبة لما قدم من قبل من ناحية أخرى، خاصة وأن تلك المؤلفات على قلتها كتبت منذ نحو ثلاثين أو أربعين عاما كشف خلالها عن كثير من الوثائق والبرديات ونشرت كثير من المراجع الحديثة في الغرب بالفرنسية والإنجليزية، فكان لابد من الاستفادة من كل ذلك للإحاطة بكل جوانب هذا التاريخ في هذا المؤلف المتواضع.

وسوف يجد القارئ إن شاء الله الجديد في هذا المؤلف ويستطيع أن يلم بالإضافات التي حرصت على إبرازها في كل فصل من فصول هذا الكتاب،

خاصة فيما يتعلق بالدين والشئون الدينية، وفى دراسة التنظيمات الإدارية والمالية والاقتصادية ، ويجد فصلا جديدا ومطولا عن الإسكندرية في العصر البيزنطي باعتبار هذا الكتاب محصلة لاهتمام جامعة الإسكندرية بتاريخ مصر البيزنطية، كما تناولت النواحي العلمية والفكرية في مصر البيزنطية، وفصلا مستقلا عن أثر المسيحية في حياة الشعب المصري في تلك الفترة بالإضافة إلى دراسة الحياة الاجتماعية والحياة اللغوية والأدبية، فضلا عن أن الفصل الخاص بالفتح العربي في نهاية العصر البيزنطي في مصر عرضته عرضا مفصلا ومن منظور مصر البيزنطية معتمدا في جله على ما دونه المؤرخ المصري ورجل الدين المعاصر حنا النقيوسى مدعما بما ورد في حوليات ثيوفانيس البيزنطي ومقارنا بما سجلته المصادر الإسلامية المعاصرة والقريبة العهد فضلا عن عدد كبير من المراجع التي صدرت في الشرق وفى الغرب على حد سواء، وكل هذه الجوانب لقيت منى عناية واهتماما خاصا وحاولت جاهدا أن أضيف فيها الجديد.

فعسى أن يحظى هذا العمل المتواضع بالرضى والقبول ويكون للقراء والدارسين وطلاب الدراسات العليا إسهاما متواضعا لإجلاء ما غمض من تاريخ هذه الحقبة، لا نبغي به سوى وجه الله سبحانه وتعالى ووجه العلم، كما أتمنى أن يجد فيه السادة الزملاء بعض ما يؤملون وأن يأخذ هذا العمل المتواضع مكانة في المكتبة العربية مرجعا من مراجع التاريخ بصفة عامة والتاريخ المصري بصفة خاصة.

وعلى الله قصد السبيل

والله أسأل أن يوفقنا ويلهمنا الصواب والرشاد

إنه نعم المولى ونعم النصير

محمد محمد مرسى الشيخ

الفصل الأول

أحوال الإمبراطورية من عهد دقلديانوس

إلي عهد هرقل

نظم الدولة وسياستها، ليتفادى ما يمكن أن يحدث من انهيار تام لها ، ويمنع حدوث الاضطرابات والانقلابات العسكرية التي كانت تقع عادة عند انتهاء عهد إمبراطور وتولي إمبراطور آخر ، وما كان يحدث من بروز طموح القادة العسكريين، وتحكم فرقهم العسكرية في سياسة الدولة ، ورفع الأباطرة إلى السلطة أو الإطاحة بهم بعيدا عنها. (٦)

وفي سبيل ذلك جعل دقلديانوس من الإمبراطور شخصية مقدسة تؤدي له فروض الطاعة والتقديس من خلال طقوس خاصة في العبادة، استمدها أو استمد الجانب الأعظم منها من طقوس الشرق وتقاليده(٧)، كما جعل الإمبراطور مهابا له حكم مطلق ، ويجمع في يده كل السلطات السياسية والإدارية، وترتب على ذلك الإقلال من سلطة مجلس السناتو وإلغاء وظيفة المستشار ، كما لجأ دقلديانوس إلى إدماج الولايات في وحدات إدارية كبيرة ، وركز كل إدارات الإمبراطورية في أيدي موظفين كبار، وجعلهم جميعا تابعين مباشرة للإمبراطور ، وفصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية(٨)

كما آمن دقلديانوس أن الدفاع عن إمبراطورية مترامية الأطراف لا يتأتى لإمبراطور واحد، وأنه كلما تزايد عدد الأباطرة قلت الفرص أمام الثائرين وتضاءل أملهم في الفوز بالمنصب الإمبراطوري (٩) ، فحمله ذلك على أن يشرك زميله مكسيميان معه في الحكم ، ويمنحه لقب أوغسطس، كما رفع

---

(6) Rice: Byzantium, p. 10

(٧) جيبون : اضمحلال الإمبراطورية الرومانية ج١ص ٢٨٧ (مترجم)

(٨) نورمان بينز : الإمبراطورية البيزنطية ص ١٤٥-١٦٨

(9) Ostrogorski : op, cit pp . 31-32
Maclagan : The city of constantinople , p. 17

أثنين آخرين إلي منصب الإمبراطور، ومنح كلا منهما لقب قيصر واقتسم الأربعة أركان الإمبراطورية الرومانية (١٠) ، وأسند إلى مكسيميان مهمة الدفاع عن الغرب، واحتفظ لنفسه بمهمة الدفاع عن الشرق.

وبذلك حقق دقلديانوس عدة أهداف في وقت واحد، فعالج الأحوال السياسية، وقضى على الانقلابات العسكرية ، ومنع الطموحين والمتهورين من التطلع إلى السلطة ، وفي نفس الوقت أسند مهمة الدفاع عن البلاد إلى عدد من الأباطرة إلى جانبه(١١) ، كانوا أصلا من القادة العسكريين ، فغدت الأقسام الرئيسية للدولة تحت حماية أربع من الأباطرة إثنين يحملان لقب أوغسطس، والاثنين الآخرين يحملان لقب قيصر، فانتهت بذلك متاعب الإمبراطورية في الجانب السياسي والدفاعي.

ولقد وقع عبء إكمال هذا البرنامج الإصلاحي علي الإمبراطور قنسطنطين الكبير (٣٠٦-٣٣٧م) الذي خلف دقلديانوس في حكم الإمبراطورية ، والذي ما لبث أن انفرد بالسلطة دون بقية الأباطرة ، وبدأ عهداً جديداً في تاريخ الإمبراطورية باعترافه بالمسيحية كإحدى الديانات في الدولة (١٢) ورفع الغبن والاضطهاد عن أتباعها، الأمر الذي اعتبره كثير من المؤرخين فاتحة التاريخ البيزنطي.

كما شيد قنسطنطين مدينته الجديدة التي نسبت إليه وعرفت بالقسطنطينية مكان مدينة بيزنطة القديمة وفي موضعها ، لتصمد هذه المدينة

---

(10) Katz: op. cit. p, 44

(11) Rice : op. cit .pp. 10-11

فشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ق١ ص٣ ،

جيبون : المرجع السابق ص ٢٩٠

(12) Chadwick : op. cit. p. 122

الجديدة للأحداث والمحن أكثر من ألف عام ولتحمل ملامح العصر الجديد في ذلك القسم من الإمبراطورية ، بل إنها ما لبثت أن بزت روما وتفوقت عليها[١٣]، خاصة بعد أن اضمحلت هذه وضعفت على إثر تعرضها لمخاطر الغزو الخارجي وتهالك الحكام وضعف السلطة ، في الوقت الذي نجح فيه قنسطنطين في إتمام الإصلاحات التي كان قد بدأها دقلديانوس وأعطاها الصيغة النهائية[١٤] لتصبح الإمبراطورية البيزنطية ذات طابع خاص، وتسير في اتجاه خاص بها ، انحصرت فيها السلطة الإدارية والسياسية في البلاط الإمبراطوري.

وخلال عصر دقلديانوس حدثت اضطهادات شديدة لأتباع المسيحية وأشياعها ، وخاصة في مصر التي كانت إحدى الولايات التابعة للإمبراطورية، والتي انتشرت فيها المسيحية انتشارا حثيثا، بما كانت تمثله من تحد كبير لسلطة الإمبراطورية، وترهص بالقضاء على الولاء للإمبراطور[١٥]، لذا اشتد دقلديانوس في اضطهاده لأهل مصر ، وأذاقهم ألوان العذاب، حتى شهدت السنوات الأخيرة من عهده محنة حقيقية لأقباطها راح ضحيتها أعدد كبيرة منهم ، فضلا عمن نفي وسجن أو هام على وجهه في الصحاري والقفار، كما أحرقت كتبهم المقدسة ، وهدمت دورهم وكنائسهم. وتعرضوا لأشد أنواع التنكيل[١٦].

---

(١٣) جيبون: المرجع السابق ج١ص٥٠٥،

Bynes & Moss : Byzantium , p .53

(14) Hussey : op. cit. p. 13

Burckardt: The Age of constantine the great. P.342

(15) Lot :The end of the Ancient world , p. 24

جيبون : المرجع السابق ج١ ص ٤٤٦

(16) Ostrogorski :op. cit pp. 42- 4

وإذا كان قنسطنطين الكبير قد وضـع حـدا لهـذه المحنـة ، باعترافـه بالمسيحية كإحدى الديانات في الدولة، فقـد أعطـى بذلـك للكنيسـة المصريـة فرصة عظيمة للنمو والازدهار ، لتدلى بدلوها في الأحداث وتوجه العالم بأسره في الأمور الدينية ، وتتصدر الموكب الديني الذي أصبح أحد المعـالم الرئيسـية للحقبة الجديدة، والذي أسهمت فيه مصر بالنصيب الأوفر (١٧)، كما سـوف يتضح في الصفحات التالية.

فلقد شهدت الحقبة الممتدة من سنة ٣٠٦م بولاية قنسطنطين الكبـير، وحتى سنة ٦٤١م أي عند وفاة الإمبراطور هرقل، وهي الفترة الـتي امتـدت نحو ثلاثة قرون وثلث تقريبـا، والفـترة الـتي اصطلح المؤرخـون أيضـا علـى اعتبارها الحقبة البيزنطية في مصر ، أو الحقبة التي كانت فيها مصـر تابعـة لبيزنطة ، شهدت هذه الحقبة حكم أربع أسرات بيزنطية وبداية حكم الأسرة الخامسة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية(١٨).

إذ حكمت أسرة قنسطنطين في القسطنطينية حتى مستهل الربع الأخير من القرن الرابع الميلادي، أي فيما بين سـنتي ٣٠٦و٣٧٨ م ، لتليـها أسـرة ثيودسيوس العظيم فيما بين ٣٧٩و ٤٥٧م ثم أسرة ليو التي أمتـد عـهدها مـن سنة ٤٥٧ إلى سنة ٥١٨ م ، فأسرة جستنيان فيما بين سـنتي ٥١٨ و ٦١٠ م ثم عهد الإمبراطور هرقل حتى سنة ٦٤١م (١٩) .

---

(17) Chadwick : op. cit. p. 125
Ostrogorski : op. cit. p. 44

(١٨) محمد الشيخ: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ص ٢٦-٧٤

(19) Ostrogorski : op. cit. pp. 101-103

وعند وفاة مؤسس الأسرة الثانية من هذه الأسرات في تاريخ الإمبراطورية "ثيودسيوس العظيم" سنة ٣٩٥م ، انقسمت الإمبراطورية إلى قسمين قسم في الشرق وقسم في الغرب، جرت فيهما الأمور بطريقة مختلفة ، وأكد هذا الانقسام تجسيد الكيان البيزنطي في الشرق [٢٠]، حيث تطورت المسيحية في الشرق بطريقة تختلف عما تطورت به في الغرب ، بالإضافة إلى أن القوة العظمى للإمبراطورية أخذت تنمو في الشرق أكثر من نموها في الغرب، فضلا عما حدث من تعرض الغرب الأوربي لهجمات البرابرة والجرمان الأمر الذي جعل الأحداث تجري فيه بطريقة تختلف عما جرت به الأحداث في الشرق[٢١].

فضلا عن أن بعض أباطرة هذه الأسرة الثانية كانوا ضعافا ، عانت الإمبراطورية خلال عهودهم كثيرا، وكذلك خلال عهود أباطرة الأسرة الثالثة التي تلتها، وهي أسرة ليو، التي لم تقدم للإمبراطورية ما كانت في حاجة إليه من القوة أو المنعة والازدهار، و تقلب على الحكم خلال عهدها عدد من الأباطرة الضعاف حتى نهاية عهدها سنة ٥١٨ م [٢٢]، واعتلاء أسرة جستنيان العرش وهي الأسرة التي حكمت فيما بين سنتي ٥١٨و٦١٠ م والتي بدأت فترة جديدة في تاريخ الإمبراطورية وفي تاريخ أوربا في ذلك الوقت، لأن الإمبراطور جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) لم يساير الأباطرة قبله في سياستهم التقليدية بالتضحية بسلطانهم في الغرب في سبيل الحفاظ على سلامة الشرق

---

(20) Lot : op. cit. p. 201
(21) Keen : A Hist . of Med Europe, p. 6
العريني : تاريخ الدولة البيزنطية ص ٣٩
(22) Bury : A Hist. Of the later Roman Empire , 1, p 406
Katz: op. cit. p. 73

وسلطانهم في الشرق، بل تطلع إلى استرجاع سلطان الإمبراطورية في الغرب الأوربي. وبعث الإمبراطورية الرومانية القديمة من جديد، واستعادة سلطتها على الأقاليم الغربية التي خضعت للجرمان خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين. (٢٣)

فقد بدأ جستنيان سلسلة من الحروب الضارية في شمال إفريقيا وفي إيطاليا وعلى سواحل أسبانيا الشرقية والجنوبية الشرقية، محاولا إعادة البحر المتوسط بحيرة رومانية كما كان من قبل ، وطرد الجرمان من أقاليم الإمبراطورية الغربية، واستنفذ في ذلك جانبا كبيرا من جهود الدولة ونشاطها ،وأنهك في ذلك قواها وأفلس خزائنها ، في الوقت الذي اشتدت فيه مطامع الفرس فيها من الشرق (٢٤) أي أنه أشترى الجزء الغربي بتعريض الجزء الشرقي للإخطار الشديدة ، واضطر أحيانا إلى أن يطأطأ الرأس للفرس، ويعقد معهم صلحا مهينا دفع بموجبه الجزيه للفرس ، وأتبعه بمعاهدات أخرى دفع فيها أموالا باهظة أنهكت الدولة وأفلست خزائنها ، وترك الإمبراطورية أقل رومانية مما كانت عليه قبل اعتلائه العرش ، وتسبب في تعريضها لأخطار جسيمة. (٢٥)

وإذ اهتم جستنيان ببعث الإمبراطورية الرومانية القديمة ، وإحياء سلطانها في الغرب ، حاول أيضا إعادة وجهها الحضاري، وإبراز واجهتها

---

(23) Pirenne: Mohamed and Charlemagne , p. 68
Vasiliev: The Byzantine Empire ,1, pp. 135 - 139
(24) Ostrogorski : op. cit. p. 72
Cantor . Med . Hist . p. 164
(25) Vasiliev: op. cit. v. 1, p. 161
Ostrogorski: op. cit. p. 72

الحضارية ، خاصة في ميدان التشريع مدركا بذلك عظم الفائدة التي يمكن أن تعود على الإمبراطورية من جمع مصادر القانون الروماني ونشرها على الناس بشكل يمكن تداوله والرجوع إليه في يسر وسهولة [٢٦]، لأن روما كانت في مقدمة الأمم التي عنيت بالتشريع بل هي التي أسست علم القانون ، في الوقت الذي كان فيه القانون الروماني لا زال معمولا به في عصر جستنيان ، فكلف جستنيان لجنة من أبرز فقهاء القانون الروماني بهذه المهمة فنهضوا بهذا العبء على خير وجه[٢٧]وأصدروا في النهاية مجموعة القانون المدني الروماني، وهي المجموعة التي نسبت إلى جستنيان ، وخلدت ذكره في الخافقين، وغدت المرجع الأصيل الذي تعتمد عليه المحاكم ومدارس القانون في كل أنحاء الإمبراطورية، بل أنها غدت المصدر الذي استمد منه القانون المدني الحديث بكل ما يحمله هذا من معنى. [٢٨]

كما انعكست إصلاحات جستنيان الداخلية على أحوال الأقاليم التابعة للإمبراطورية بما في ذلك مصر، فقد التفت جستنيان للمشكلات التي عانت منها الإمبراطورية طويلا في الداخل، وقام بعدة إصلاحات هدف منها القضاء على تذمر الرعايا في أنحاء الإمبراطورية، خاصة وقد أظهر كثير من الناس استياءهم من خلال ثورة فجروها في القسطنطينية سنة ٥٣٢ م وهي الثورة التي عرفت بثورة نيقا[٢٩] ، والتي كادت تطيح بالإمبراطور بعد سنوات قليلة

---

(26) Savigny : The Hist . of Roman law during the Middle Ages, V.I pp. 10-15, in Cantor : the Med. World, p. 85

(27) Bury : op. cit . 2, p. 396

(28) Cantor : The Med. World, 300- 1300; p. 83
Rice : op. cit . pp. 36-37

(٢٩) فشر : المرجع السابق ج١ ص ٤٦ ،

من اعتلائه العرش ، لولا ثبات زوجه ثيودورا وإصرارها على الحفاظ على العرش الإمبراطوري ، مما عجل بإنهاء هذه الثورة ، والقضاء على رؤوس الفتنة الذين أشعلوها.[٣٠]

واتخذ جستنيان كذلك خطوات من شأنها إصلاح أحوال الحكومة وتقوية سلطتها فرفع رواتب الموظفين وألغى في نفس الوقت الوظائف الزائدة، وأعاد الجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية[٣١] وجعل للموظفين بعض الاستقلال في الإدارة مع ربط الإدارات بالسلطة المركزية، وحد من امتيازات كبار الملاك الذين كانوا خطرا داهما على الطبقة الوسطى وعاملا هاما في إعاقة الدولة عن تحقيق التقدم والرفاهية. [٣٢]

غير أن حاجة جستنيان للأموال لتمويل مشروعاته الحربية لمواجهة النفقات الباهظة لإقامة منشآته المعمارية ، قد ألجأه إلى استعمال القسوة في جمع الضرائب مما ألقى بأعباء كثيرة على الشعب فقد ألزم عماله وموظفيه باتباع الشدة في جباية الضرائب والشدة في طلب المال بكل الطرق ، فضلا عن أنه غير العملة وجعل الموظفين مسئولين شخصيا عن جمع الضرائب فاتخذ الموظفون من جانبهم إجراءات تعسفية لجمع المال من الشعب إرضاء للإمبراطور ، فتسبب ذلك في اضطراب الشئون الاقتصادية في الإمبراطورية، والتأثير الكبير في الحركة الإصلاحية التي قام بها جستنيان .[٣٣]

---

(30) Lemerle : Histoire de Byzance, p. 47,

بينز : الإمبراطورية البيزنطية ص ٣١ (ترجمة د. حسين مؤنس محمود زايد)

(31) Vasiliev :op. cit. V.1, p. 159

(32) Lemerle : op. cit. p. 61,

العريني: تاريخ أوربا في العصور الوسطى ص ١٤١

(33) Vasiliev . op. cit. V.1, p. 142

فاضطر جستنيان تحت وطأة المحنة الاقتصادية إلى إيقاف ما كان قد بدأه من أعمال إنشائية كثيرة كان قد صرف عليها جانبا كبيرا من دخل الدولة حين مد الطرق وأنشأ القناطر وشيد الحصون والقلاع وبنى الكنائس والأديرة (٣٤)، قبل أن يوقف كل ذلك بعد أن أثقلت الضرائب كاهل الناس، فضلا عما لقيته الإمبراطورية من معوقات تجارية من قبل الفرس الذين سيطروا على أحد الطرق الهامة التي تصل من خلالها متاجر الشرق من الهند والصين عبر الخليج إلى العراق، فحاول جستنيان تحويل التجارة إلى الطريق الشمالي الذي يمر بوسط آسيا فبحر قزوين فالبحر الأسود أو الطريق الثالث عبر البحر الأحمر فمواني مصر، إلا أنه لم يستطع ، وفشل في التخلص من منافسة الفرس الاقتصادية ومغالاتهم في فرض الضرائب الجمركية ، كوسطاء تجاريين (٣٥) .

وفي الوقت الذي حاول فيه جستنيان التغلب على المصاعب الاقتصادية، ومنع تفاقم المشاكل الاقتصادية في الدولة ، شهدت صحارى مصر نشأة وتطور حياة الرهبنة والرهبان الذين راحوا يتمتعون بحرية واسعة جعلتهم يتدخلون تدريجيا في الحياة السياسية والحياة العامة، وأخذ عددهم يزداد بمرور الوقت، (٣٦) ونفوذهم يقوى في المجتمع ، وأوقفت عليهم الأوقاف والهبات والتبرعات التي كانت معفية من الضرائب في كثير من الأحيان ،

---

(٣٤) كانتور: التاريخ الوسيط، القسم الأول ص٢٢٠ (ترجمة د: قاسم عبده قاسم)

(٣٥) أسد رستم . الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ج١ ص ١٧٧

(36) Meinardus : Monks and Monasteries of the Egyptian deserts, p. 180

مراد كامل حضارة مصر في العصر القبطي ص ٢١١-٢١٢

فظهرت بذلك طبقة جديدة في المجتمع غدا لها دور هام ، خاصة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية أيضا. (٣٧)

أما سياسة جستنيان الدينية وانعكاساتها على مصر البيزنطة ، فيبدو أنه اعتقد أن بوسعه أن يعيد الوحدة الدينية إلى المسيحية مثلما أعاد لهم الوحدة السياسية ، مع حماية العقيدة المسيحية من كل ما يتهددها لا سيما من قبل المهرطقين (٣٨)، ومعتنقي المذاهب الفلسفية ، فأظهر حرصا صادقا على حماية العقيدة، وأمر بإغلاق مدارس أثينا الفلسفية سنة ٥٢٩ م ، وجرى إبعاد كل من تثور الشكوك في صدق عقيدته، كما أبعد اليهود من المناصب الهامة في الدولة فتعرضوا في عهده لاضطهاد عنيف (٣٩)

لكن على الرغم من ذلك عزت الوحدة الدينية على التحقيق ، لأن جستنيان تجاهل ما بين الشرق والغرب من اختلاف مذهبي(٤٠). حقيقة بني جستنيان آراءه وأفكاره على مبدأ السلطة الاستبدادية وافترض أن كل شيء في الدولة إنما يخضع لسلطة الإمبراطور ، وأنه يصح للحكومة أن تستخدم الكنيسة لتحقيق أهدافها واتخاذها سلاحا قويا ضد أعداء الدولة ، لذلك بذل جستنيان كل ما في وسعه لإخضاع الكنيسة وجعلها في خدمة الدولة ، إلا أنه

---

(٣٧) عزيز سوريال عطية ومنير شكري : عبقرية الأنبا باخوم وأثرها على الرهبنة والحضارة الغربية ص ١٠٦

(٣٨) بينز : المرجع السابق ص ١٠٧-١٠٨

(39) Vasiliev op cit. v.1, p. 150
Ostrogorski: op. cit. p. 71
محمد الشيخ : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ص ٦٢ (ط ١٩٩٤)

(40) Chadwick op. cit. pp. 208-209

مع ذلك لم يستطع تحقيق الوحدة الدينية للإمبراطورية أو تحقيق ما كان ينشده من خضوع الكنيسة لسلطان الإمبراطور .(٤١)

ذلك أنه بينما تحمست الأقاليم الشرقية في الإمبراطورية ، لا سيما مصر والشام وفلسطين لمذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزيتي)، تمسك الغرب الأوربي بمذهب الطبيعتين وأمعن فى تسفيه المونوفيزيتية(٤٢) وحرص على إرضاء البابوية وكنيسة روما وإقامة علاقات الود معها، خاصة وقد اعتنق الغرب الأوربي هذا المذهب وتحمست له البابوية ، إذ كان جستنيان في حاجة ماسة لمساندة البابوية خلال حروبه في إيطاليا ضد القوط الشرقيين، فأظهر حماسة لمذهب الطبيعين لكسب ود البابا والغرب ، إلا أن عاملا جديدا ما لبث أن أجبره على تغيير سياسته الدينية، وإدخال تعديلات جوهرية على تلك السياسة ، ذلك أن زوجه ثودورا كانت تعتنق المذهب المونوفيزيتى وتساند أتباعه(٤٣)، لهذا دفعت جستنيان إلى تغيير سياسته والتحول لمناصرة هذا المذهب وأتباعه. وحين أعلن البابا معارضته لهذه السياسة تعرض لنقمة جستنيان الذي جد في فرض سياسته الدينية باستخدام القوة حينا والتشريع الإمبراطوري والمجامع الدينية أحيانا أخرى(٤٤). وترتب على مناصرة جستنيان للمونوفيزتية وصلابة موقفه من أعدائها أن قوى أشياع هذا المذهب في الشرق وقامت كنيسة منفصلة عرفت باسم كنيسة اليعاقبة نسبة إلى مؤسسها يعقوب أسقف الرها في القرن السادس الميلادي(٤٥).

---

(41) Rice : op. cit. p. 48
(42) Ostrogorski : op. cit. p. 71
(43) Lemerle . op. cit. p. 59
(44) Cantor Med. Hist. p. 160
(٤٥) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى ج١ ص ١٢١

وهكذا باءت محاولات جستنيان للتوفيق بين أتباع المذهبين ، وإعـادة الوحدة الدينية إلى ربوع الإمبراطورية بالفشل الذريع، وحتى المونوفيزيتيون لم يقنعوا بما حصلوا عليه من امتيازات وظلوا خاصة في مصـر- ينـاوئون الدولـة ويتخذون موقفا عدائيا منها ، وبذلك لم يحقـق جستنيان هدفـه ، فلم يقـم كنيسـة موحـدة ، ولم يسـتطع إرغـام شـطري الإمبراطوريـة علـى الانصيـاع لسياسته، فظلت النحل المختلفة من المانوية واليهوديـة والوثنيـة قائمـة، ولم تتحقـق الوحـدة الدينيـة(٤٦) وأخـيرا توفـى جسـتنيان سـنة ٥٦٥ م وتـرك الإمبراطورية أفقر مما كانت حين تولي أمرها وأشد ما تكون قربا مـن التدهـور والانهيار،وأقل رومانية مما كانت عليه. (٤٧)

ولم يظـهر خلفـاء جسـتنيان إلا اهتمامـا ضئيـلا بالشـطر الغربـي مـن الإمبراطورية ،ولم يحفلوا بسياسة جستنيان اللاتينية، فاعتبرت الفترة الواقعة بين سنتي ٥٦٥م و ٦١٠ م من أسوأ فترات التاريخ البيزنطي وأشدها ضعفا ، لما استشرى خلالها في أوساط الإمبراطورية من الفوضـى والاضمحـلال ، ومـا اجتاح البلاد من الفقر والأوبئة وسوء الأحوال ، فقد خلف جستنيان أربعة من الأباطرة ميز سياستهم خلال تلك الفترة اتجاههم الواضح نحو سياسة شـرقية بيزنطية دون اهتمام كبير بما كان يجري في الشطر الغربي من أوربا.(٤٨)

---

(٤٦) العريني: تاريخ الدولة البيزنطية ص ١٠١
محمد الشيخ تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ٦٢

(47) Vasiliev op. cit V 1, p. 161
Ostrogorski op, cit p. 72
Katx op. cit p. 117
lot op. cit. p. 265

(٤٨) العريني المرجع السابق ص ١٠٢.

ثم اعتلى هرقل العرش (٦١٠– ٦٤١م) لتبزغ مرحلة جديدة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية فقد كان القرن السابع أكثر عصور التاريخ البيزنطي حلكة وأكثرها ركودا بالنسبة للحضارة البيزنطية، كما كانت الفترة التي حكمها هذا الإمبراطور أي النصف الأول من ذلك القرن خاتمة العهد في خضوع مصر للإمبراطورية البيزنطية ، وآخر فترة في تاريخ التبعية المصرية لبيزنطة، جرى في مصر ما جرى في بقية أنحاء الإمبراطورية، إذ عم الخوف الناس وانتشرت البدع والخرافات، وجرى رد فعل عنيف لمحاولة جستنيان الفاشلة لإعادة الروح الرومانية إلى الإمبراطورية ، وتوحيد الشرق والغرب في دولة واحدة. (٤٩)

ولم يكن هناك مناص من أن تنحني الدولة وتعترف بالعوامل الجغرافية والعرقية والاقتصادية والدينية التي تميزها عن الغرب الأوربي، فتغير اتجاهها تغيرا واضحا فأضحت الإمبراطورية يونانية شرقية ترتكز على أسس الحضارة الإغريقية وعلى تقاليد الإغريق القديمة (٥٠) بعد أن كانت إمبراطورية رومانية لاتينية تتشبث بأهداف الماضي وتحاول معاندة الزمن ، وكان الفضل في هذا التغيير واتخاذ اللغة اليونانية لغة الدولة حديثا وكتابة ، وإظهار وجه بيزنطة الحقيقي إنما يعود للإمبراطور هرقل، وبفضل بعد نظره وبصيرته ، ولهذا فقد اعتبره المؤرخون صانع بيزنطة العصور الوسطى دون جدال (٥١)

---

(49) Ostrogorski : op. cit. pp . 75-78
(50) Katz : op. cit. pp. 111-112
(51) Vasiliev : op. cit . V.1, p. 194

ولعل في ذلك يكمن كيف حافظت بيزنطة على تراثها، وحاولت حماية وجودها ، بعد أن استولى العرب على أهم أقاليمها في الشرق، واستولى السلاف على معظم شبه جزيرة البلقان ، ولم يبق لبيزنطة إلا القليل ومع هذا بقيت تتحدى الزمن وواصلت تاريخها نحو ألف سنة أخرى أي إلى قرب منتصف القرن الخامس عشر الميلادي (٥٢)

---

(٥٢) العريني : نفس المرجع ص ١١٨ ،

Ostrogorski : op. cit. p. 85

الفصل الثاني

الشئون الدينية في مصر في العصر البيزنطي

الفصل الثاني

الشئون الدينية في مصر في العصر البيزنطي

ظهور المسيحية وبداية انتشارها في مصر :

طغى الإحساس بالفراغ الروحي على رعايا الإمبراطورية الرومانية، ولم تسطع عبادة الإمبراطور أن تملأه أو الآلهة القديمة التي كان يعبدها الناس، أو اتجاه المثقفين نحو المذاهب الفلسفية أو التماس الخير والسعادة في الآلهة اليونانية أو الإيطالية ، أو الاتجاه نحو العبادات الشرقية أو الوافدة من الشرق. لأن كل هذه المعبودات بعدت عن الآفاق السماوية، واتسمت بالتطرف والجمود، ولم تستطع أن تقدم حلولا لمشاكل الناس الحاضرة أو المستقبلة، أو تقدم لهم المعونة في أوقات الشدة وعند نزول الملمات ، ففقدت الآلهة القديمة بمرور الوقت ما كان لها من الاحترام والتبجيل في عيون المتعبدين [1]، واستمر الفراغ الروحي لدى رعايا الإمبراطورية، لا سيما بين المثقفين منهم وأصحاب الفكر المستنير.

ووسط ذلك الفراغ الروحي بدأت المسيحية تتفوق على ما عداها من عقائد وطقوس، وتتقدم نحو آفاق جديدة لتملأ ذلك الفراغ الروحي في حياة شعوب الإمبراطورية الرومانية. وكان السيد المسيح قد ولد زمن الإمبراطور الروماني أوغسطس في بيت لحم بفلسطين. وبدأت المسيحية متواضعة بين رسله وتلاميذه الذين أخلصوا له وتعهدوا تعاليمه حتى توفى المسيح سنة ٣٠ بعد الميلاد، فواصل أتباعه ممارسة الطقوس المسيحية، وتعبدوا في هيكل

---

(١) أسد رستم : الروم ج١ ص ٣١

سليمان وتجمعوا في أروقته وكانوا جميعا يهودا من الطبقات الدنيا في المجتمع[٢]، ومن أنحاء مختلفة ومدن متعددة من القدس والجليل ومن سائر أنحاء فلسطين، وبعضهم كان من مصر ومن ليبيا والقيروان ومنهم بعض العرب من الجزيرة العربية ، وما لبثت المسيحية أن أخذت تنتشر انتشارا حثيثا في الجهات المجاورة. [٣]

ثم انتشرت المسيحية بين الطبقات الدنيا في المجتمع أكثر من انتشارها بين الطبقات العليا ، إذ اعتنقها الفلاحون والعبيد والكادحون وقليل من علية القوم، فلم تعدم دخول بعض أفراد الطبقة المميزة في المجتمع ، [4] وإذا كانت معلوماتنا عن تلك الفترة المبكرة من عهد المسيحية معلومات ضئيلة، إلا أن هناك ما يدل على تقدم الرسل الاثنى عشر بين المسيحيين ، وعلى تقدم التلاميذ السبعين بعد هؤلاء ، وهناك ما يدل أيضا على تميز بعض الرسل مثل: بطرس ويوحنا ويعقوب، فضلا عما أداه بولس من خدمات جليلة للمسيحية بعد ذلك[٥]وارتبط تاريخ المسيحية في الفترة الأولى بثلاث شخصيات كان لها دور كبير في تقدمها وانتشارها وإرساء أسسها وتنظيم لاهوتها وهم: بولس وبطرس ومرقس[٦] أما بولس فقد ولد في طرسوس بين السنة الخامسة والسنة العاشرة بعد الميلاد، ودرس الشريعة اليهودية والناموس ونال قسطا من

---

(٢) أسد رستم : نفس المرجع ج١ ص٢٤

(3) Henry Chadwick : op. cit. pp. 15-16

(4) Camb. Med Hist. V.1, pp 95-96
Thompson : The Middle Ages , V.1, p.32
Chadwick : op. cit. pp. 16-17

(٥) أسد رستم : المرجع السابق ج١ ص ٢٥

(٦) مرقس هو الذي أسس كنيسة الإسكندرية ، ونشر المسيحية بها فاستقرت المسيحية في الإسكندرية بفضل جهوده انظر
Hardy : Christian Egypt , p.11

الفلسفة بطريق التحصيل الشخصي لا بالدرس أو التعلم، لأن والده أبعده عن المدارس اليونانية، ورحل في صباه إلى بيت المقدس في طلب العلوم الدينية، فتعصب كثيرا لليهودية، وتعقب من اعتنق النصرانية أو مال إليها ليضطهدهم باسم الناموس (٧) فذهب سنة ٣١ م إلى دمشق ليتصدى للنصرانية ويوقف انتشارها بين اليهود، وما أن اقترب من دمشق – كما تذهب الرواية – حتى " أبرق نور من السماء فسقط على الأرض وسمع صوتا يقول له: شاؤول لماذا تضطهدني ؟" فكان ما كان من أمر تنصره.(٨)

بدأ بولس التبشير بالمسيحية بين اليهود في دمشق ، ثم ذهب إلى أنطاكية التي انتشرت المسيحية بين أهلها انتشارا واسعا، فقضى بها سنوات حتى اختاره كبير المسيحيين بها للتبشير بالمسيحية في الأقاليم المجاورة، فقام برحلات متعددة من أجل ذلك (٩)، فيما بين سنتي ٤٥، ٥٨م ، وعاونه مرقص وبعض الرجال الأتقياء في أداء مهمته ، وفي سنة ٥٨ م ثار عليه اليهود في هيكل سليمان، وسيق إلى السجن بأمر الحاكم الروماني ، حيث قضى نحو عامين ، ثم أرسل إلى روما لمحاكمته أمان نيرون ، ويرجح أنه أعدم سنة ٦٤م مع بطرس وغيره من ضحايا نيرون. (١٠)

ولقد قدم بولس خدمات جليلة للمسيحية بمثابرته ودأبه، حتى استطاع أن يحول الكنيسة البادئة إلى هيئة منظمة ورسالة عامة، ونجح في أن يستخلص من تعاليم السيد المسيح أسس الدعوة المسيحية ، وأن يرسي دعائم

---

(7) Chadwick : op. cit. p.16

(٨) أسد رستم : المرجع السابق ج١ ص٢٨

(9) Chadwick : op. cit. p.16

(١٠) أسد رستم : نفس المرجع ج١ ص ٣٠

اللاهوت المسيحي وأسس الكنيسة العالمية(١١) ، كما نجح في التبشير بالمسيحية حتى انبثت في سائر أنحاء الشرق، ثم امتدت إلى إيطاليا وأوربا.

أما ثاني الشخصيات المسيحية الهامة فهو بطرس، الذي كان من تلامذة السيد المسيح ورسله أو حوارييه ، بشر بالمسيحية في فلسطين بين اليهود، وتابع رسالته في مدينة يافا حتى رأي أن الله يأمره بالتبشير لكل العالم اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها فلما شرع في ذلك قبض عليه وجرى سجنه سنة ٤١ م (١٢) ، وعندما خرج منه توجه إلى أنطاكية سنة ٤٥م وأقام بها ثماني سنوات حتى سنة ٥٣م، ثم سافر إلى روما في نفس العام ليؤسس فيها الكنيسة المسيحية (١٣)ثم جرى إعدامه مع بولس وغيره على يد نيرون سنة ٦٤ م على الأرجح.

أما ثالث الشخصيات المسيحية الهامة فهو مرقس الإنجيلي ، فقد أسس كنيسة الإسكندرية بعد حياة حافلة في خدمة العقيدة ومعاونة صادقة لبولس في التبشير، وسافر إلى روما أيضا ولكنه عاد مباشرة إلى الإسكندرية للتبشير فيها بين اليهود، فنزل بحي اليهود بالإسكندرية، فكان أول من بشر بالإنجيل في مصر، كما غدا أول أسقف مسيحي بالإسكندرية، وعلى يديه اعتنق أول رجل للمسيحية في مصر من اليهود (١٤)وفي الإسكندرية لقى مرقس حتفه سنة ٦٢م أو سنة ٦٨م في بعض الروايات،(١٥)ونقل البنادقة رفاته إلى مدينتهم في القرن التاسع الميلادي.

---

(11) Rostovtzeff: A Hist. of Ancient world,V.2 .p.335,

عاشور : أوربا العصور الوسطى ج١ ص٣٤ (ط٦)

(١٢) أسد رستم : ج١ ص ٢٧

(13) Chadwick : op . cit . p. 18

(١٤) العريني : مصر البيزنطية ص ١١

(١٥) أسد رستم : المرجع السابق ج١ ص٣١

أما عن دخول المسيحية إلى مصر ، فيبدو أنه حدث منذ البداية، فقد كان ضمن المسيحيين الأوائل الذين تعبدوا في هيكل سليمان عدد من المصريين، ثم حمل التجار إلى الإسكندرية ومصر تباشير العقيدة الجديدة والذين لم تنقطع وفودهم عن مصر والإسكندرية من كافة الأنحاء، وهيأت التجارة الواسعة لمصر وقربها من فلسطين فرصة سهلة للديانة الجديدة النفاذ إليها (١٦) ، فبدأ بعض أهل مصر اعتناق المسيحية، ثم بدأت تنتشر في سائر أنحاء مصر ، فقد عثر على أربع برديات قديمة في مصر الوسطى تتعلق بالعقيدة المسيحية وترجع إلى منتصف القرن الثاني الميلادي، مما يؤكد وصول المسيحية إلى تلك المناطق في تلك الفترة المتقدمة ، ثم انتشرت المسيحية في الوجه القبلي في أواخر القرن الثاني الميلادي.(١٧)

ومن العوامل التي ساعدت على سرعة انتشار المسيحية في مصر: الاستعداد الفطري لدى الشعب المصري للإيمان بإله واحد، لأن المصريين كانوا أول الشعوب التي آمنت بالوحدانية منذ عهد إخناتون، فضلا عن إيمانهم بالحياة بعد الموت والحساب والعقاب في الحياة الأخرى أو الحياة الآخرة (١٨)، بالإضافة إلى أن قصة السيد المسيح وآلامه والمبادئ السامية التي دعا إليها وأكدت عليها المسيحية وأبرزها: الوحدانية والتطهر والمساواة ، كانت من عوامل الجذب الهامة للمصريين للدخول في العقيدة الجديدة، إذ بلغ من شدة تأثرهم بالمسيحية أنهم لم يكونوا في حاجة إلى دراسة أصولها Christology(١٩) فضلا عن أن المصريين ربما وجدوا في العقيدة الجديدة

---

(16) Hardy : Cristian Egypt , p .11 (N.Y. 1952)
(17) Chadwick : op. cit. p. 64

(١٨) العريني : المرجع السابق ص ١٧
(١٩) العريني : المرجع السابق ص ١٦

فرصة للتعبير عن معارضتهم للسلطات الرومانية بعد أن فقدت مصر استقلالها، وغدت ولاية تابعة لروما ثم لبيزنطة [٢٠]، هذا إلى جانب ما أبداه المصريون من إعجاب بالمعجزات وما شاع من قدرة المسيحيين على دفع الشياطين وشفاء المرضى، وإحياء الموتى، وكلها أمور جذبت انتباه المصريين للعقيدة الجديدة، وهيأت أذهانهم لاعتناق المسيحية.[٢١]

الاضطهادات الدينية للمسيحيين في مصر :

على الرغم من أن الاضطهاد الديني أمر مريع ومخيف لأي جماعة أو أشياع عقيدة أو مذهب أو رأي،وعلى الرغم أيضا من أن الاضطهاد الديني أثار كثيرا من الفزع والأسى في نفوس المسيحيين الأوائل خلال عهود الاضطهاد، إلا أن هذه الاضطهادات الدينية هي التي صهرت المسيحيين وأظهرت قدراتهم، وكان لها فضل عليهم، لأنها كانت سببا في زيادة انتشار العقيدة الجديدة وذيوعها، حتى جرى الاعتراف بها، ثم غدت في نهاية الأمر الدين الرسمي للدولة.[٢٢]

ولقد حصر المؤرخون الاضطهادات الدينية التي نزلت بالمسيحيين منذ بداية انتشار المسيحية حتى صدور مرسوم التسامح الديني والاعتراف بالمسيحية ، أي في الفترة الواقعة بين سنتي ٦٤م ، ٣١٣ م بعشرة اضطهادات[٢٣]، بداية من التشريع الخاص الذي أصدره الإمبراطور نيرون سنة ٦٤م والذي حظر بموجبه اعتناق المسيحية على رعايا الإمبراطورية ، ومن خالف ذلك عرض نفسه للعقاب فكثرة ضحايا هذه الاضطهادات حتى لا

(20) Camb. Med . Hist . V. 1, pp. 504-517

(٢١) إنجيل متى : الإصحاح ١٠ ف ٨

(22) Bury : op . cit. V.1, p. 349

(٢٣) أسد رستم : المرجع السابق ج١ ص٣٣

يمكن تحديد أعدادهم من رجال الدين ومن عامة المسيحيين[٢٤]على الرغم من أن هذه الاضطهادات لم تكن في كل الأحوال عامة أو شاملة ، لأنها ربما جرت في إقليم دون الآخر، وربما حدثت في مصر دون بقية أنحاء الإمبراطورية الرومانية والعكس. [٢٥]

وسنقصر تناولنا لهذه الاضطهادات على تلك التي جرت في مصر منذ بداية انتشار المسيحية حتى عصر الإمبراطور دقلديانوس، أي إلى أواخر القرن الثالث الميلادي ومطلع القرن الرابع الميلادي.

فعلى أثر ما جرى في روما في عصر الإمبراطور نيرون من اضطهاد وقتل وتعذيب للمسيحيين راح ضحيته الرسولان بولس وبطرس [٢٦]، هجم الوثنيون في الإسكندرية علي كنيسة للمسيحيين بشرق المدينة سنة ٦٨ م، فقتلوا القديس مرقس بعد أن جروه بالحبال في شوارع المدينة حتى مزقوا لحمه[٢٧]،وتكرر الاضطهاد قرب أواخر القرن الأول الميلادي سنة ٩٨ م على عهد الإمبراطور تراجان حيث لقى بعض الأساقفة في مصر وفي الإسكندرية حتفهم، وجرى التنكيل بالمسيحيين في مصر وإخضاعهم لشتى أنواع التعذيب خاصة الذين امتنعوا عن تقديم القرابين.[٢٨]

وعلى عهد الإمبراطور سبتموس سيفروس أي في أوائل القرن الثالث الميلادي تصاعدت الاضطهادات خاصة بعد أن قام هذا الإمبراطور بزيارة لمصر سنة ٢٠٢م، فأذاق المسيحيين ويلات العذاب وبلغ من شدة الاضطهاد أن

---

(24) Painter: A Hist. Of the Middle Ages, p. 11

(٢٥) العريني : مصر البيزنطية ص ١٢

(26) Chadwick: op. cit. p. 18, pp. 25-6

(٢٧) أسد رستم : نفسه ج١ ص ٣١

(٢٨) العريني : المرجع السابق ج١ ص١٣

واجه المسيحيون المـوت والتعذيـب، وملئـت السـجون في الإسـكندرية وبقيـة أنحاء مصر بالنصارى، وأرسل كثير من المسيحيين من سائر الجهات في مصر ليحاكموا في الإسكندرية، فلقي كثير منهم شتى أنـواع التعذيـب علـى أيـدي الجلادين . (٢٩)

ويبدو أن الرومان لم يلجأوا إلى اضطهاد معتنقي هذه العقـائد إلا حـين شعروا أن نظمهم وتقاليدهم أخذت تتعرض للهدم والتدمير على أيـدي أشـياع هذه العقائد ، فالاضطهاد ليس مقصودا بـه النيـل مـن هـذه العقـائد الدينيـة ذاتها، وإنما المقصود هو ما يكمن خلفها من مبادئ سياسية وأخلاقيـة، ومـا يصاحبها من تهديد لنظم الدولة وأمن المجتمع، إذ كـان مطلوبـا مـن النـاس مشـاركة الدولـة في الطقـوس والشـعائر الـتي تـألفت منـها الوثنيـة ، وتقديـم القرابين لآلهتها ومعبوداتها، ولم تكن الوثنية ديانة وعقيدة وإنما تـألفت مـن طقوس وشعائر ينبغي احترامها من قبل الرعايا لأنها كانت رمز الدولة ودليل سطوتها على الشعب. (٣٠)

وعلى عهد الإمبراطور دكيوس (٢٤٩-٢٥١ م) أي قرب منتصف القرن الثالث الميلادي جرت محاولة أخرى للقضاء علـى المسـيحية والتخلـص مـن أتباعها ، فقد أصدر هذا الإمبراطور مرسـوما يحتـم علـى كـل شـخص تقديـم شهادة تثبت أن حاملها قام بتقديم القرابين باسم الإمبراطور في المعابد الوثنية إلى لجنة مـن رجـال السـلطة شـكلت لهـذا الغـرض، ومـن لم يفعـل تعـرض

---

(29) Chadwick : op. cit. p. 91 , p. 100

(٣٠) العريني : المرجع السابق ص ١٢ ،
Hardy : studies in Roman Hist. V.1. p. 34

للتنكيل، فلقى كثير من المسيحيين في مصر وفي الإسكندرية حتفهم في هذا الاضطهاد. (٣١)

ثم لاحق الإمبراطور فاليريان (٢٥٣–٢٦٠) زعماء المسيحيين والكهنة ، فحرم على المسيحيين الاجتماع في دور العبادة أو في المقابر ، وتعرض عدد كبير من المسيحيين للموت والاختناق في أحد السراديب حيث كانوا يتعبدون، وأعدم في الإسكندرية عدد كبير من رجال الدين ومن عامة المسيحيين. (٣٢)

ومن أكبر الاضطهادات الدينية وأقدمها تلك التي جرت على يد الإمبراطور ذائع الصيت دقلديانوس (٢٨٤ – ٣٠٥م) الذي كره المسيحية كعقيدة جديدة/نشطت للقضاء على ولاء الناس للإمبراطور وأرهصت بتحطيم وحدة الإمبراطورية، وزاد سخط هذا الإمبراطور حين اشتطت المسيحية وتطرفت وبدأت تخير أتباعها بين الولاء للمسيح أو الولاء للإمبراطور وحين تعدت نطاق التأثير في المجتمع إلى التأثير في الجيش، وقضت على ولاء كثير من الجند للإمبراطور، ومثلت دولة داخل الدولة، وشكلت جماعات سرية بدا من نشاطها أنها لا تقيم وزنا كبيرا لنظام الدولة ورسومها (٣٣).

فجرى اضطهاد كبير للمسيحية وأتباعها قبل سنوات قليلة من اعتزال دقلديانوس السلطة، أي في أوائل القرن الرابع الميلادي، فبدأت سنة ٣٠٢ ميلادي أكبر حركة اضطهاد للمسيحيين جرى في البداية طردهم من البلاط ومن صفوف الجيش، ونفيهم إلى جهات نائية، وحرمانهم من حقوق

---

(31) Chadwick : op. cit. p. 118

(٣٢) أسد رستم : المرجع السابق ج١ ص٣٥

(33) Rostovtzeff : op . cit . V.2, p. 346
Lot : op. cit. P. 24

المواطنة، ومنعهم من تولي الوظـائف الإدارية، وحـرق كتبـهم المقدسـة وهـدم كنائسهم[٣٤]، ومنع عتق الأرقاء منهم، ثم أتبع ذلك بالعقوبات البدنية كصلـم الآذان وجدع الأنوف وفقأ الأعين وتهشيم الأسـنان وقطـع الأطـراف والألسـن ودق الحديد في البطون،ثم أتبع ذلك بحركة قتل وتنكيل سنة ٣٠٤ م فأحدث مذابـح بشـرية رهيبـة جـرى فيـها إعـدام كثـير مـن المسـيحيين في مصـر وفي الإسكندرية بالذات وإذاقتهم ألوان العـذاب[٣٥]، إذ قـذف الكثـيرون منـهم في حفر النيران المشتعلة أو صلبوا وأشعلت تحتهم النيران أو أدخلوا أقفاص أسود جائعة وحيوانات مفترسة، الأمر الذي أدى إلى تخلي بعضـهم عـن عقيدتـه، وجعل السنوات الأخيرة من حكم هذا الإمبراطور محنة حقيقية للمسيحيين في مصر[٣٦]، حتى أطلق المصريون علي عهد هـذا الإمـبراطور "عصـر الشـهداء"، واتخذت الكنيسة القبطية بدء تقويمها بسنة ولاية هـذا الإمـبراطور (٢٨٤م)، وسمي هذا التقويم بتقويم الشهداء .

غير إن هذه الاضطهادات الدينيـة جـاءت بنتيجـة عكسـية، وكـانت عاملا من عوامل انتشار المسيحية، لأن بطولة هـؤلاء الشـهداء جذبـت انتبـاه كثير من الوثنيين وأثارت اهتمامهم بالعقيدة الجديـدة، فمـا لبثـوا أن دخلـوا فيها فانتشرت المسيحية وسادت في الإسكندرية وجهات أخري من مصر [٣٧].

ثم جاء الاعتراف بالمسـيحية علـي يـد الإمـبراطور قنسـطنطين الكبـير بمقتضى مرسوم التسامح الديني أو مرسـوم ميـلان سنة ٣١٣ م نهايـة لفترة أليمة في تاريخ المسيحية وفي تاريخ الشرق بأسره وفي مصر بالذات، إذ توقفت

---

(34) Chadwick :op. cit. p. 121

(٣٥) العريني: المرجع السابق ص ١٤

(٣٦) أسد رستم : الروم ج١ ص٣٦

(37) katz : The Decline of Rome, p. 94

الاضطهادات الدينية وتهيأت الأحوال لانتشار المسيحية في مصر في يسر وسهولة[٣٨]، لا سيما أن المبشرين الأوائل كانوا يتحدثون اليونانية فغدا السكان اليونانيون في الإسكندرية وفي مصر من أوائل الجماعات التي اعتنقت المسيحية، ثم أثرت المسيحية في السكان الوطنيين الذين كانوا يتحدثون اللغة المصرية، ثم اكتمل التأثير في نهاية القرن الثالث الميلادي وبدايات القرن الرابع الميلادي، إذ وجدت شروح إنجيلية باللغة القبطية ترجع إلي تلك الفترة، ودل ذلك علي أن بعض المصريين كانوا يترجمون من اللغة اليونانية إلي اللغة القبطية[٣٩] .

كنيسة الإسكندرية :

يمكن تمييز فترتين واضحتين في تاريخ كنيسة الإسكندرية، الفترة الأولي هي التي شغلت القرون الأولي للميلاد، أي الفترة الأولي في تاريخ المسيحية حتى الاعتراف بالمسيحية سنة ٣١٣ م ، ثم الفترة الثانية التي واكبت تاريخ مصر البيزنطية بعد سنة ٣١٣م أي خلال الخلافات الدينية التي حدثت في جوف العقيدة وفجرتها كنيسة الإسكندرية، وأسهمت بالنصيب الأوفر في توجيهها في العالم المسيحي بأسره في ذلك الوقت[٤٠] .

فلقد أسس القديس مرقس كنيسة الإسكندرية وكان أول أسقف لها، ودفع حياته في النهاية ثمنا لإخلاصه لها، إذ دهمه الوثنيون وجروه بالجبال في شوارع الإسكندرية حتى مزقوا لحمة سنة ٦٢م أو سنة ٦٨م ميلادي في بعض الروايات– كما سبق أن أشرنا – ليصبح أول أسقف في الإسكندرية يلقي

(38) Vasiliev: op. cit. V.1, pp. 50-52
(39) Hardy : Christian Egypt . p. 11
(40) Chadwick:op. cit p. 168, pp. 171-2

حتفه علـي أيـدي الوثنيـين[٤١]، لكـن كنيسـة الإسـكندرية تـابعت مسيرتها وازدادت قوة بمرور الوقت حتى اكتمل تنظيمها وغدت تماثل في تنظيمها ما كان سائدا في روما[٤٢] .

فقد استخدمت كنيسة الإسكندرية في القرون الأولي للميلاد اللغة اليونانية في طقوسها وشعائرها وتعاليمها وتبشيرها، وضمت عددا من الذين تولوا تعليم الناس أصول العقيدة والرسوم المسيحية وقواعد الدين المسيحي والمبشرين الذين تولوا تقديم المتنصرين الجدد لرجال الكنيسة لتعميدهم[٤٣] .ولم يكن في الكنيسة الأولي في الإسكندرية ما يدعوا إلي وجود الشقاق الديني أو الاختلاف في الرأي حول أسس العقيدة، لأن المسيحيين في عصر الرسل تأثروا بما كان في حياة السيد المسيح من عاطفة ومثل، وآمنوا بالبعث بعد الموت وعودة المسيح، ولم يحفلوا بالأفكار الدينية المعقدة أو المفلسفة . حقيقة ربما بدا في رسائل القديس بولس بداية علم اللاهوت أو أصول الدين، إلا أن ذلك كان في صورة أولية غير معقدة أو مفلسفة [٤٤].

أما في الفترة التي تلت عصر الرسل، وحين أخذت الكنيسة في النمو وازداد عدد المسيحيين وأقبل الوثنيون علي اعتناق المسيحية، ومنهم من اشتهر بالعلم ومعرفة الفلسفة والتعمق فيها، وكثير منهم كان من المثقفين والمفكرين الذين مرنوا علي أساليب الجدل والمنطق والفلسفة، وألفوا التفكير

---

(٤١) أسد رستم : الروم ج١ ص ٣١

(٤٢) العريني : المرجع السابق ص ٤٠، Lot : op. cit. p. 303

(43) Hardy : op. cit. p. 11

(٤٤) العريني : المرجع السابق نفسه ص ١٦

العلمي الكلاسيكي[٤٥]، فضلا عن إن عددا كبيرا منـهم كـان لا يـزال يتمسك بالتقاليد القديمة، خاصة المستمدة من الوثنية أو من التقاليد المصريـة القديمـة ولذلك حـدث في الكنيسـة في أول عـهدها هرطقـات ربمـا كـانت نوعـا مـن المحاولات التي عمد إليها المتنصرون لتشكيل عقيدتهم الجديدة بصورة قديمة أو مستمدة من تقاليد قديمة[٤٦]، إذ لم يكن من السهل التخلـي عـن العـادات القديمة والتقاليد الموروثة، وكـانت مصـر بـالذات مرتعـا خصبـا لبعـض هـذه الهرطقات، لأنها كانت من أعظم وأقدم مواطن الديانة في العالم القديم، فضلا عن اختلاف عناصر سكانها وشهرتهم في الاعتقاد في الآخرة والبعث[٤٧].

ومن الهرطقات التي حدثـت في تلـك الفـترة والـتي انتشـرت في سـائر أنحاء الدنيا " الغنوصية " gnosticism[٤٨] التي كانـت شديـدة الارتبـاط

(45) lot :op. Cit . p . 373

(46) Chadwick : op.cit, p. 35

(٤٧) العريني : مصر البيزنطية ص ١٧

(٤٨) كلمة gnosis في أصلها كلمة يونانية تعني " المعرفة" فقد شغل كثير من النـاس في العالم اليوناني أنفسهم بالتفكير في الكون وطبيعته، وكيف جاء الإنسان إليه وما هو مصيره، فأطلق على الجماعة التي تهتم بهذه المعرفـة لفـظ " الغنوصيـين" وازداد عـدد الغنوصيـين في القرنـين الأول والثـاني الميلاديـين، فلمـا أخـذت المسـيحية في الانتشار جذبت فريقا من هؤلاء الغنوصيين إليـها ، فمـزج هـؤلاء بـين أفكـارهم عـن الكون و الإنسان وبين تعاليم المسيحية ، بل خرجوا بأفكار لم توافق عليها الكنيسـة، لأنهم أنكروا بعض ما جاء في الإنجيل فيما يختص بحمل مريم للمسيح ومولد المسيح والثلاثين سنة التي سبقت رسالته وقالوا أن المسيح ظهر في صورة الرجولـة الكاملـة، ولكنها كانت صورة فقط دون أن تكون مادة وشكلا بشـريا خلقـة الله القـادر. وهكـذا كان المسيح- في رأي هؤلاء- موجودا بروحه لا بجسده، بل أنهم ذهبوا إلى القول بان الخلاص يمكـن أن يتـم بالمعرفـة دون الإيمـان. والمعرفـة في رأي هـذا الفريـق تعـين الشخص على تحرير الروح من ربقة الجسد، ولهذا كله نـاصبت الكنيسـة أصحـاب هذا المبدأ العداء في القرن الثاني الميلادي وما بعده، واعتبرت أصحـاب هـذا المذهـب من المارقين الناهضين للكنيسة.

أنظر Chadwivh: op. cit. pp. 33-41

وانظر أيضا : العريني : مصر البيزنطية ص ١٧-١٨

بمصر، والتي تأثرت بالأفكار المصرية ، ولهذا غدا على رجال الكنيسة المصرية أمران : الأول إقناع أولئك المثقفين بقضايا العقيدة الجديدة ومبادئها والرد على استفساراتهم عن كثير من تلك القضايا، والأمر الثاني مقاومة النزعات المنحرفة والميول المتطرفة والهرطقات التي حدثت في تلك الفترة، فتولى الأمر الأول عدد من كبار مفكري المسيحية الذين أطلق عليهم " آباء الكنيسة" الذين آمنوا بضرورة إقناع الناس بالمودة والموعظة الحسنة والرد على استفساراتهم(٤٩).

ومن هؤلاء كلمنت السكندري وأوريحين في القرن الثالث الميلادي، إذ ترك كل منهما عددا كبيرا من المؤلفات التي ناقشت قضايا العقيدة، وكل ما يتعلق بكنيسة الإسكندرية، وقدمت المسيحية في قالب يتقبله المثقفون مستخدمين في ذلك الفلسفة القديمة لتبرير آرائهما وتأييد هذه الآراء(٥٠)، وتولى الأمر الثاني رجال كنيسة الإسكندرية الذين أنشأوا المدرسة التبشيرية بالإسكندرية، التي اتخذت من متحف الإسكندرية مقرا لها، وكانت مهمتها تعليم المسيحيين وتحصينهم ضد التعاليم المستمدة من المدرسة الوثنية، وتولى رئاسة هذه المدرسة التبشيرية في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الميلادي أيضا كلمنت السكندرى، فقام بهذه المهمة خير قيام وألف كتبا عديدة دارت معظمها حول قضية الدفاع عن المسيحية والتصدي لأعدائها(٥١).

ثم خلف أوريجيين كلمنت السكندري في رئاسة هذه المدرسة التبشيرية وبقى في رئاستها حتى سنة ٢٣٥م واعتبر أشهر شخصية مسيحية (٥٢) فضلا

---

(49) Vasiliev : op , cit ,1,p. 116, Painter : op cit , p,15
(50) Chadwick :op. cit pp. 94-101, pp. 171-2
(51) Painter : op. cit p.15

(٥٢) أسد رستم : الروم ج١ ص ١٤٥-١٤٦

عن ورعه وتقواه على الرغم من أنه اتهم بعد وفاته بالهرطقة والإلحاد، لأن بعض آرائه لا سيما ما يتعلق منها بالتثليث لم تكن تتفق تماما مع الأرثوذكسية الخالصة(٥٣).

وازدادت مكانة كنيسة الإسكندرية في حياة المجتمع المصري ، خاصة حين سار التنظيم الكنسي على نسق التنظيم الإداري في الإمبراطورية اقتفى أثره فامتدت سلطة أسقف الإسكندرية إلى خارج مصر وبلغت أقاليم برقة وتقلد أسقفية الإسكندرية عدد من الأساقفة البارزين أهمهم بطرس(٥٤)، الذي ولي الأسقفية سنة ٣٠٠م وكان من أكفأ علماء الدين المسيحي في مصر وأكثرهم شهرة وظهرت في عهده هيمنة كنيسة الإسكندرية وسيطرتها على الأمة خاصة حين أصدر الأوامر بعقاب المرتدين عن المسيحية خلال عهود الاضطهاد ، والذين أرادوا العودة إلى حظيرة الكنيسة من جديد غير أن نهاية هذا الأسقف كانت مؤلمة إذ جرى القبض عليه سنة ٣١١م في آخر موجة من موجات الاضطهاد الديني على عهد جاليريوس، وجرى إعدامه بأمر هذا الإمبراطور، فكان بطرس آخر الشهداء من رجال كنيسة الإسكندرية وخاتمهم(٥٥).

وانتهت بذلك المرحلة التي عاشت فيها كنيسة الإسكندرية في ظل الإمبراطورية الوثنية وبزغت مرحلة جديدة في تاريخها بعد الاعتراف الرسمي بالمسيحية (٥٦)، فإذا كان مرقس هو أول شهيد من أساقفة الإسكندرية، فإن بطرس كان آخر شهيد من شهداء الكنيسة وخاتمهم.

---

(53) Vasiliev:op. cit, V. 1,p.54
Lot : op, cit . p. 153
(54) Chadwick: op. cit. p. 124
(٥٥) العريني : المرجع السابق ص ٤٢
(56) Ostrogorski : op. cit. p. 43

* الخلافات الدينية في المسيحية :

نأتي إلى الفترة الثانية في تاريخ كنيسة الإسكندرية، وهي الفترة التي فجرت فيها كنيسة الإسكندرية الخلافات الدينية ووجهت مسار هذه الخلافات في العالم المسيحي بأسره [٥٧]. فإذا كان المسيحيون في الفترة الأولى لم يختلفوا في العقيدة أو يحدث بينهم شقاق ديني حول المسيحية، ألا انهم في هذه الفترة الجديدة مالوا نحو فلسفة العقيدة واختلفوا في جوهرها وعند تحديد العلاقة بين المسيح الإبن والإله الأب، وهي المشكلة التي أثارت الخلاف بينهم وتسببت في حدوث نزاع طويل وفجرت صراعا رهيبا بين أشياع المسيحية[٥٨].

فقد احتدم الخلاف بين كاهنين من كهنة كنيسة الإسكندرية حول تحديد هذه العلاقة،فذهب أحدهما وهو أريوس Arius– وكان كاهنا مثقفا– إلى أن منطق الأمور يحتم وجود الأب قبل الابن ، ويؤكد أن هذا الإبن أصغر من الإله الأب ، أي أنه ما دام المسيح هو ابن الله فلا بد وأن يكون أقل منه شأنا وأدنى منزلة، لأنه أقل في المستوى والقدرة من الإله الأب[٥٩] ، إذ لا يمكن أن يتساوى الأب والابن في المكانة والمنزلة والقدرة بحكم أن المسيح الابن مخلوق للإله الأب،فالأب أكبر وأسبق والإبن أصغر ولاحق، وإذا كان الخلود هو صفة الله الذي لا أول له ولا آخر، فإن المسيح ليس خالدا لأن له بداية، ولهذا فليس المسيح إلها، أي أن أريوس أنكر ألوهية المسيح وأنزله إلى رتب البشر[٦٠].

---

(57) Vasiliev :op.cit. v.1 p.54
(58) Thom pson: op.cit v.h,p.37
(59) Camb. Med. Hist. V. 1 p. 119
(60) Lot: op. cit p. 43

على حين ذهب الكاهن الآخر وهـو أثناسيوس Athanasius إلى أن الإله الإبن وإن كان مختلفا عن الإله الأب، إلا أنـهما متسـاويان في المستوى والمكانة والقدرة بحكم أنهما من عنصر واحد ويستمدان صفتيـهما مـن الصفـة الأزلية،، أي أن الابن مساوي تماما للإله الأب، وأن فكرة الثالوث المقدس: الأب والابن والروح القدس تدعو إلى اعتبار المسيح إلها لا يقل شأنا عن الإلـه الأب، أي أن أثناسيوس رفع المسيح إلى مصاف الإله الأب ليكون مساويا لـه في كل شيء(٦١).

وهكذا تفجر الخلاف الديـني في القرن الرابع الميلادي بين أريـوس وأثناسيوس في كنيسة الإسكندرية وترتب على ذلك ظـهور مذهـب أريـوس أو المذهب الأريوسي وسيادته في الشطر الشرقي من الإمبراطوريـة بسـبب إقامتـه العقيدة المسيحية علـى أسـس مـن المنطـق والعقـل(٦٢)، ولهـذا سـاد في القسـم الشرقي من الإمبراطورية الذي كـان مـهد الحضـارة اليونانيـة ومركـز الثقافـة والفكر وموطن الفلاسفة والمفكرين، على حين كان مذهب اثناسيوس يستقيم وفكـر البسـطاء مـن النـاس و عامتـهم ولهـذا سـاد في الشـطر الغربـي مـن الإمبراطورية، حيث انتشرت الحضارة اللاتينية الـتي تختلـف عـن قرينتـها اليونانية في الشرق وقل مستواها الثقافي والفكري عما عرفه الشطر الشرقي من الإمبراطورية وما عرفه الشرق من علم وحضارة(٦٣).

ونظرا لتداعيات هذا الخلاف وما يمكن أن يسببه من شقاق بين أتبـاع المسيحية بما يترتب على ذلك مـن تـهديد لوحـدة الدولـة واسـتقرارها، رأى قنسطنطين الكبير أن يفض هذا الخلاف ويوقف آثاره، فأمر بإرسال مبعوثين

---

(61) Vasiliev : op. Cit .v1,pp.55-57

(62) Painter :op.cit p.16

(٦٣) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى ج١ ص ٤٣

من لدنه إلى الإسكندرية للقاء أريوس وأثناسيوس لمحاولة تسوية هذا الخلاف والاتفاق على صيغة واحدة مرضية للطرفين[٦٤]، إلا ان الرجلين لم ينصتا لما قيل ولم يعيرا هذه المحاولة كبير اهتمام، فاستمر الخلاف قائما الأمر الذي جعل الإمبراطور قنسطنطين يدعو إلى عقد مجمع ديني في مدينة نيقية بآسيا الصغرى سنة ٣٢٥م لمناقشة هذه القضية ووضع حد لهذا الخلاف[٦٥].

وعقد المؤتمر المسكوني الأول في تاريخ المسيحية فعلا وحضره نحو ثلاثمائة من كبار رجال الدين في الشرق وفي الغرب على حد سواء، وناقش المجتمعون آراء أريوس وآراء أثناسيوس، وانتهى المجمع إلى إدانة أريوس ونفيه إلي إقليم إيلليريا في البلقان وإحراق كتاباته وتحريم تداول آرائه واضطهاد أتباعه ومشايعيه [٦٦]، على حين أقر آراء أثناسيوس وساوى بين الأقانيم الثلاثة للثالوث الأقدس، وأقر بأن المسيح "من نفس جوهر الأب" واعتبر آراء أثناسيوس ومذهبه هو المذهب العالمي أو الرأي العالمي أو الكاثوليكي[٦٧]، لأن المسيح" إله من إله ونور من نور وإله حق من إله حق ومولود غير مخلوق".

وحازت الإسكندرية بذلك مكانة هامة بين الكنائس المسيحية في العالم بأسره، وغدا أسقف الإسكندرية في أواخر القرن الرابع الميلادي من أكبر رجال الدين مكانة في العالم المسيحي وأكثرهم نفوذا خاصة وقد توالى على أسقفية الإسكندرية ثلاثة رجال فيما بين سنتي ٣٨٥و ٤٥١م أضافوا إلى عظمة

---

(64) Chadwick :op.cit.p 129
(65) Bynes : Constantine and the Christian Church, pp. 19.22
(66) Cam . Med . Hist. V.1,pp. 122-3
(67) Chadwick :op. Cit, pp. 129-130

الإسكندرية وشهرتها الكثير وإلى مكانتها سموا وهم : ثيوفيل وكيرلس وديوسقوروس[٦٨].

أما الأول ثيوفيل (٣٨٥-٤١٢م) فقد جاهد جهادا عظيما لإزالة بقايا الوثنية وقد ظلت للأفكار الوثنية مكانة هامة حتى القرنين الرابع والخامس. وظل معظم الأساتذة والفلاسفة على وثنيتهم حتى أواخر القرن الخامس الميلادي وتوفى ثيوفيل سنة ٤١٢ بعد ان لعب دورا هاما في تاريخ كنيسة الإسكندرية، وجرى انتخاب ابن أخته كيرلس Cyril بطريرقا على الإسكندرية فسار على نهج سلفه خاصة وقد اشتهر بقوة المنطق والذكاء ومضاء العزيمة، ونال حظا كبيرا من الثقافة والتعليم فاستمر في أداء رسالته نحو ثلاثين عاما اصطدم خلالها بالسلطات الحكومية وعمل على الحد من نفوذ اليهود وأخذ في طردهم دون أن يكترث بالوالي البيزنطي[٦٩].

لكن شهرة كيرلس(٤١٢-٤٤٤م) تستند كلية على دوره في الخلاف الديني الجديد الذي اندلع في القرن الخامس الميلادي، مع استمرار الجدل حول طبيعة المسيح وهل تجتمع في المسيح الطبيعة البشرية والطبيعة الإلهية معا أم تغلب إحداهما على الأخرى؟ [٧٠]، وفجرت هذا الخلاف الجديد مدينة أنطاكية الشامية التي كانت قد تأثرت بالأرسوسية وبالأفكار الشرقية في المسيحية، فجعلت الطبيعة البشرية هي الغالبة في المسيح، وقال الأنطاكيون أن للمسيح طبيعة بشرية مكتملة، ورفضوا تسمية العذراء بأم الإله لأنها لم تلد إلها وإنما ولدت بشرا وإنسانا[٧١]. وتمسكت أنطاكية برأيها خاصة بعد أن

---

(٦٨) العريني المرجع السابق ص ٥٧-٥٧

(٦٩) العريني. نفس المرجع ص ٥٧ ٦١

(70) Buty Hist Of the later Roman Empire/ ,pp.216-217

(٧١) أسد رستم الروم ج١ ص ١٢٣

تولى بطريرقية القسطنطينية نسطوريوس الذي كان من أصل سوري، وأظهر حماسا شديدا لآراء أنطاكية. غير أن الإسكندرية صاغت رأيها في هذه المسالة – على عهد كيرلس– على أساس أنه عند تجسد المسيح ذابت الطبيعة البشرية في الطبيعة الإلهية وبقيت الطبيعة الإلهية وحدها، أي أن طبيعة المسيح هي الطبيعة الإلهية(٧٢)، وأخلصت مصر والإسكندرية لهذا المذهب الذي سمى بمذهب الطبيعة الواحدة أو المذهب المونوفيزيتي، وهي كلمة مشتقة من كلمة " مونوس" اليونانية وتعني الواحد فأصبح أهل الإسكندرية ومصر من أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة التي هي الطبيعة الإلهية مخالفين في ذلك رأي أهل أنطاكية (٧٣).

وتحمست الإسكندرية لمذهبها ورأيها خاصة بعد أن حدث تقارب بين كيرلس وبابا روما ضد بطريرق القسطنطينية، الأمر الذي شجع كيرلس على المضي في خصومته مع نسطوريوس والتمسك بمذهبه، فعقد من أجل ذلك مجمع إفسوس بآسيا الصغرى سنة ٤٣١م (٧٤)، حضره نسطوريوس وكيرلس ومندوبين عن البابا أوصاهم البابا بالانحياز إلى كيرلس، فتقرر في هذا المجمع عزل نسطوريوس من منصبه وإجباره على دخول الدير، وخرجت الإسكندرية ظافرة من هذا المجمع(٧٥).

ثم تولى أسقفية الإسكندرية ديوسقروس خلفا لكيرلس سنة ٤٤٤م ، فجرى على نهج كيرلس في كثير من الأمور وأدلى بدلوه في المنازعات الدينية التي جرت في ذلك الوقت، فبلغ تأثير رجال كنيسة الإسكندرية ذروته في

(72) Camb. Med Hist. V.1.p. 517
(73) Chadwick . op , cit . pp 200-201
(74) Vasiliev:op.cit. v.1, pp. 98-99
(75) Chadwick:op.cit.pp197-198

الأحداث الهامة من ناحية، وفي الخلافات الدينية والمذهبية من ناحية أخرى(٧٦). وربما لهذا ثارت حفيظة بابوية روما وأثار ذلك أحقادها ضد الإسكندرية، فقد فزعت بابوية روما من علو شأن كنيسة الإسكندرية وتوجيهها الخلاقات الدينية في الدنيا بأسرها مع استمرار الجدل حول طبيعة المسيح(٧٧)، فلما عقد من أجل ذلك مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١م انضمت روما إلى القسطنطينية ضد الإسكندرية، فأخذ المجتمعون بالرأي المخالف لرأي الإسكندرية وتقرر قبول رسالة البابا ليو الأول(٤٤٠-٤٦١)واعتبارها صحيحة ومتفقة مع العقيدة الحقة(٧٨)، لأنها تقضي بوجود المسيح " في طبيعتين دون اندماج أو تغيير أو انقسام" وتقرر عزل ديوسقروس ونفيه إلى جانجرا بآسيا الصغرى حيث ظل بها حتى قضى نحبه سنة ٤٥٤م (٧٩)، وأوضحت قرارات مجمع خلقدونيا أساس التعاليم الدينية عند الكنيسة الأرثوذكسية أو ما عرف بمذهب الطبيعتين أو المذهب الملكاني إذ قالوا أن للمسيح طبيعة بشرية مستقلة ومنفصلة تماما وطبيعة إلهية مستقلة ومنفصلة تماما فكأن المسيح بشر وإله معا، وهو المذهب الذي ساد في الإمبراطورية باستثناء مصر وبعض بلاد الشام والتي اعتبرت مصر على أثره منشقة وخارجة على الإجماع لأنها ظلت تخلص لمذهبها، مذهب الطبيعة الواحدة(٨٠)، إذ كانت الطبيعة البشرية عند أهل مصر تأتي في المقام الثاني، لأن مصر اعتبرت المسيح إلها تحول إنسانا وهو قول صاغه علماء الدين من أهل مصر في عبارة "الطبيعة المتجسدة للإله

(76) Hardy : Christian Egypt., p,.119
(77) Ostrogorski: op. cit. P.53
(78) Lot: op. Cit. p. 217, p. 298
(79) Bury: op. cit.1, pp.355-8
(80) Hardy : op.cit. p. 119

الكلمة"[٨١] ، ومن أجل مذهبها وفي سبيله ناهضت مصر السلطات البيزنطية ووقفت في وجه القسطنطينية وتمسكت برأيها في مواجهة كل التحديات[٨٢].

وترتب على قرارات مجمع خلقدونيا نتائج وآثار بالغة الأهمية بالنسبة للتاريخ البيزنطي بصفة عامة وتاريخ مصر البيزنطية بصفة خاصة، فما أقدمت عليه الحكومة البيزنطية من اضطهاد أنصار مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزيتي) في القرن الخامس وما بعده أدى إلى انفصال الأقاليم الشرقية عنها مثل بلاد الشام ومصر، حيث ساد المذهب المونوفيزيتي[٨٣]، فقد ظل أنصار هذا المذهب متمسكين بمذهبهم رافضين كل المحاولات التي جرت للتوفيق بين مذهبهم والمذهب الخلقدوني أو الملكاني[٨٤].

وتمادت كنيسة الإسكندرية في عنادها، فأبطلت استخدام اللغة اليونانية في طقوسها الدينية، وأحلت محلها اللغة المصرية (القبطية)، واندلعت الفتن والاضطرابات في الإسكندرية وبيت المقدس وأنطاكية عندما شرع الإمبراطور البيزنطي في تنفيذ قرارات مجمع خلقدونيا واتخذت هذه الاضطرابات شكل الثورات القومية[٨٥]، ولم تستطع السلطات البيزنطية قمعها إلا بإراقة كثير من الدماء، ولعل ذلك كان له دخل فيما حدث من نزعة انفصالية في هذه الأقاليم، ثم انتقال هذه الإقاليم بعد ذلك إلى أيدي الفرس ثم إلي أيدي العرب [٨٦].

---

(٨١) العريني : المرجع السابق ص ٦٣ .

(82) Ostrogorski : op. Cit. p. 55
(83) Vasiliev : op. Cit. 1, p. 99
(84) Hardy : op. Cit. p. 199
(85) Chadwick :op.cit.p. 205
(86) Ostrogorski:op.cit.p. 83, p.99

وترتب على قرارات مجمع خلقدونيا أيضا وعزل ديوسقروس أن اشتركت الطبقة الأرستقراطية بالإسكندرية في اختيار خليفة له بتأييد من الوالي البيزنطي في مصر، الأمر الذي جعل هذا البطريرق الجديد يبدو ممثلا للنفوذ البيزنطي أي الأجنبي في مصر، ولهذا فقد اشتدت المقاومة في الإسكندرية وطال أمدها خاصة وأنه كان لا يزال فريق كبير من الرهبان والعامة على ولائهم للبطريرق المخلوع، ولهذا أظهرت الإسكندرية شعورا عدائيا موجها ضد الحكومة البيزنطية وضد البطريرق الجديد(٨٧).

كما أضحى من العسير على الإمبراطور البيزنطي منذ مجمع خلقدونيا أن يختار بطريرقا للإسكندرية لأنه إذا عين بطريرقا على المذهب الخلقدوني يتعرض هذا البطريرق لمقاومة شديدة من قبل المصريين، وإذا رشح لهذا الكرسي الديني أحد رجال الدين المحليين يضعف سلطانه وسيطرته في مصر، خاصة وقد أظهرت مصر نزعة قومية واضحة تمثلت في لغتها ونظمها وما ابتكرته من رهبنه، وظل المصريون يواصلون معارضتهم لمجمع خلقدونيا، ويظهرون تمسكهم بعقيدة كيرلس وديوسقروس متخذين من ذلك كله رمزا للمقاومة والنزعة القومية فترة طويلة(٨٨)، إذ لم تكن المونوفيزتية عندهم إلا رمزا لهذه المقاومة وهذه النزعة القومية، ولذلك امتد النزاع الديني نحو قرنين من الزمان منذ منتصف القرن الخامس الميلادي تقريبا إلى قرب منتصف القرن السابع الميلادي أي إلى الفتح العربي لمصر، فلم يكن هذا النزاع الديني إلا مظهرا لما كان يكنه المصريون من الحقد على السيادة البيزنطية والكراهية لكل ما هو يوناني بيزنطي(٨٩).

---

(٨٧) العريني : المرجع السابق ص ٧٥

(88) Bury:op.cit.1,p. 216

(89) Chadwick:op.cit.pp.205-206

وحاولت الحكومة البيزنطية كثيرا تهدئة الأمور في مصر في الفترة التالية بما اتخذته من سياسة الوفاق مع الشرق، خاصة بعد سقوط إيطاليا في يد المتبربرين سنة ٤٧٦م، وخضوعها لأدواكر ثم لثيودريك من بعده، الأمر الذي أجبر الإمبراطور زينون ومستشاريه من رجال الكنيسة علي التفكير في الوفاق وتهدئة الأمور في الشرق فأصدر الإمبراطور سنة ٤٨٢م ما عرف بمشروع الاتحاد Henotikon وهو الصيغة التي مثلت المذهب الرسمي للدولة في الفترة التالية، وعلى عصر الإمبراطورين اللذين خلفا زينون في الحكم(٩٠).

وقام هذا المشروع أو الاتحاد على أساس تأييد مذهب نيقية بأن اعتبر المسيح إلها وإنسانا في شخص واحد، ولم يشر إلى طبيعتي المسيح وأنكر كل ما قيل غير ذلك في مجمع خلقدونيا وغيره من المجامع، وهي محاولة واضحة للتوفيق بين أتباع المذهب الخلقدوني والمذهب المونوفيزيتي(٩١)، وربما لهذا لقيت هذه الوثيقة تأييد المعتدلين من المونوفيزتيين والخلقدونيين، لأن الغرض منها كما بدا هو إعادة السلام والوحدة إلى الكنيسة، وإنهاء ذلك الخلاف الذي فرق عناصر الأمة، على الرغم من أن روما رفضت هذه الوثيقة واعتبرتها مقوضة لمذهب خلقدونيا وهجوما على البابا ليو العظيم، فترتب على إصدارها عداء دينيا بين روما والقسطنطينية استمر نحو ثلث قرن أو يزيد(٩٢).

وعلى الرغم من وجود جماعات متطرفة في مصر واصلت رفضها لهذه الصيغة، إلا أن وثيقة الاتحاد هذه كانت نصرا للقسطنطينية، لأن فريقا من

---

(90) Ostrogorsky:op. Cit.p.59
(91) Vasiliev:op.cit.1,p.108
(92) Bury :op.cit1, pp.402-403

المصريين قبلها وإن كانوا قد فسروها على أساس مونوفيزيتي[٩٣]، وأعاد قبول هذه الوثيقة إلى مصر البيزنطية شيئا من الهدوء الديني الحذر وقلل فرص اندلاع فتن دينية واضطرابات كان متوقعا لها الحدوث، غير أن النصر النهائي في مصر كان للمونوفيزيتية خاصة عند اعتلاء الإمبراطور انستاسيوس العرش (٤٩١-٥١٨م) فقد عادت مصر تحتج على قرارات مجمع خلقدونيا وتهاجم البابا ليو[٩٤]، وشجعها على ذلك ما أظهره هذا الإمبراطور من عطف على المونوفيزتيين، فكلما احتدم النزاع بين هذا الإمبراطور وروما في الغرب أزداد ميلا إلى المونوفيزتيين حتى وصل الأمر حد أنه نصب بطريركا مونوفيزتيا في مدينة إنطاكية في أواخر أيامه(٥١٢م) ووالي عطفه على المونوفيزتيين في الإسكندرية حتى غدت مصر في النهاية قلعة للمونوفيزيتية[٩٥].

الرهبانية والديرية:

تعني الرهبانية أن يحيي الفرد حياة عزلة تامة بعيدا عن العمران للانقطاع للعبادة وممارسة حياة الزهد والتنسك مع اختيار التفرد طوعا. أما الديرية فيقصد بها التقاء جماعات من الرهبان في مكان بعيد عن العمران ينقطعون فيه للعبادة وحياة الزهد والتقشف مع تحقيق مطالبهم الضرورية في الحياة، والدير هو المكان المخصص لسكنى الرهبان أو الراهبات وتعبدهم[٩٦].

---

(93) Hardy:op.cit.p.119
(94) Chadwick· op. cit. pp. 205-206
(95) Lot op. Cit.p.298

(٩٦) المعجم الوجيز ص ٢٧٩
وانظر المقريزي: خطط ج٢، ص ٥٠٠ (ط بولاق)

والرهبنة بصورتها الأولى عمل من مبتكرات مصر المسيحية، ونظام مصري أصيل لم يتأثر كثيرا بالحركات النسكية السابقة(٩٧)، فنشأت الرهبنة في مصر نشأة ذاتية حين عاش الرهبان منفردين في مغارات منقورة في الجبال أو صوامع مقامة من الجريد أو القصب(٩٨)، وساعدت طبيعة مصر وجوها وكثرة الخرائب وبقايا الأطلال الأثرية واقتراب أطراف الصحراوات من واديها على نشأة ونمو هذا النوع من الحياة الدينية(٩٩).

وكانت الرهبنة وسيلة من وسائل الاحتجاج أو الهرب أو النأي بالنفس عن شرور العالم ومفاسده وحفاظا على العقيدة من احتمال الارتداد عن الدين أو طرح طاعة الله في الوقت الذي أعوزهم فيه القوة لمواجهة التنكيل أو التعذيب أو القتل(١٠٠)، ولهذا جرى اعتبار الناسك يلي الشهيد في المكانة ويأتي بعده في رتب السمو(١٠١).

وقد تلمس المسيحيون بذور الرهبنة وحياة الزهد والتقشف في أصول المسيحية الأولى، وفي تعاليم السيد المسيح- عليه السلام- الذي أثر عنه قوله "إذا أردت أن تكون كاملا فبع ما لديك وأعط ثمنه للفقراء واتبعني فسوف يكون لك كنز في السماء"(١٠٢) ، فضلا عما جاء في أقوال القديس بولس وتعاليمه من حث على ممارسة حياة الزهد والتقشف والعزوبة.

وترجع بدايات الرهبنة في مصر إلى القرنين الثاني والثالث الميلاديين، حيث عاش كل من الأنبا بولا أو بولس والقديس أنطون أو أنطونيوس، فكل

---

(٩٧) مراد كامل :حضارة مصر في العصر القبطي ص ٢٠٦

(٩٨) عمر طوسون: وادي النطرون ورهبانه ص ٢٦

(99) Camb. Med Hist. V,5,p.658

(100) Lot :op.cit.p.10,Ostrogorski:op.cit.p. 424

(١٠١) العريني: المرجع السابع ص ٢٧

(١٠٢) الإنجيل متى، ١٩-٢١

منهما أقدم من عرف مـن المتنسكين المسيحيين، لا في مصر وحدها بل في الدنيا بأسرها، أي أن مظاهر التنسك بدأت تنتشر تدريجيا على ضفاف وادي النيل(١٠٣) فقد ولد بولا سنة ١٥٠م ، ودرس أصول الدين المسيحي وتعلق به. ثم قرر أن يهجر العالم بما فيه مـن شرور وآثام ويرحل إلى قلب الصحراء للتعبد(١٠٤)، فأوغل في الصحراء الشرقية حتى ألقى عصاه في أحد كهوف الجبال المطلة على البحر الأحمر وهو في سن مبكرة، ولبث فيها إلى أن توفى وهو في سن تقترب من الثالثة عشر بعد المائة من عمره ، ولولا أن عـثر عليه القديس أنطون مصادفة في أعماق الصحراء لظل أمره مجهولا(١٠٥).

ولقد أمدنا الرحالة بلاديوس Palladius بمعلومات طيبة وهامة عـن الأنبا بولا وكهفه في أواخر القرن الخامس الميلادي، مما يؤكد أن أصول الرهبنة في مصر البيزنطية كانت عميقة الجذور بعيدة الغور(١٠٦)، كما كانت تجربة الأنبا بولا أقدم من تجربة القديس أنطون وإن لم تحظ تجربة بولا بما حظيت به تجربة الأنبا أنطون (انطونيوس) من شهرة ومن ذيوع، وإن اجتذبت حياتهما الزاهدة أناسا عديدين سلكوا طريقهما(١٠٧)، فكلاهما سطر فصلا هاما في تاريخ الرهبنة في مصر وفي كل أنحاء الدنيا في العصور الوسطى.

أما القديس أنطون (أنطونيوس) الذي عاش مائة وخمس من السنين من سنة ٢٥٠ إلى سنة ٣٥٥م، فيعتبر المؤسس الحقيقي للرهبنة وحياة العزلة

---

(١٠٣) رؤوف حبيب: تاريخ الرهبنة والديرية في مصر وآثارها الإنسانية على العالم ص٣٥ ، Meinardus: op cit p. 1

(١٠٤) رؤوف حبيب المرجع السابق ص ٣٦

(١٠٥) عزيز سوريال عطية ومنير شكري عبقرية الأنبا باخوم وأثرها على الرهبنة والحضارة الغربية ص ٨٧

(١٠٦) مراد كامل المرجع السابق ص ١٢٨

(١٠٧) كولتون الديرية أسبابها ونتاءجها ص ١٨٤ (ترجمة د جمال الدين الشيال)

والتفرد في مصر البيزنطية[١٠٨]، إذ اتجه شطر سفوح الجبال الشرقية المجاورة لحافة الوادي شمال البقعة التي تعبد فيها بولا بنحو ستين كيلو مترا حيث عكف على العزلة والزهد والتقشف وزاره القديس أثنا سيوس الرسولي – بطريرق الإسكندرية – وكتب عنه وعرف الناس بتجربته فأشعلت كتاباته عن أنطون وتجربته روح الرهبنة والتنسك في كل أنحاء الدنيا[١٠٩].

ولقد مارس القديس أنطون هذه العزلة الصارمة مع بدايات عهد الإمبراطور دقلديانوس وكان يتردد عليه خلال ذلك العهد بعض الزوار يحملون إليه زاده المتواضع، ثم لم يلبث أن اجتمع حوله عدد من أولئك الذين يرغبون في ممارسة حياة الزهد والتنسك، وحين قبل أنطون أن يكون معلمهم ومرشدهم برزت مواهبه وما امتاز به من الحكمة ورجاحة العقل ولما توفى أنطون سنة ٣٥٥ م صارت حياته نموذجا أمام كثير من الناس لمتابعة تلك الحياة الانعزالية القاسية[١١٠].

وتقوم فلسفة هؤلاء الرهبان المتفردين أو المنعزلين على أساس اختيار حياة يذل فيها الجسد لتسمو الروح، ولهذا كانوا يصومون أياما طويلة ويلبسون الخشن من الثياب من جلود الحيوانات وغيرها بحيث تلامس الأجزاء الخشنة من أجسادهم لتعذيب الجسد حتى تسمو الروح، وربما لزموا مغاراتهم أياما طويلة لا يخرجون معتمدين على أهل الخير والبر في الحصول

---

(108) Meinardus : op.cit . pp 1-3

(109) nardus : op.cit p. 1,1,

باخوم جبيب : المرجع السابق ص ٣٨

(110) Painter A Hist of the Middle ages, p. 16,

مراد كامل : المرجع السابق ص ٢٠٧، العريني السابق ص ٢٩

على حاجاتهم البسيطة من فتات الخبز أو الملح أو الماء، فاتصفت حياتهم بالسلبية إلى حد بعيد ، ولم يشاركوا بجانب إيجابي في الحياة (١١١)

ثم أتجه رهبان آخرون إلى جهات أخرى من أرض مصر، ولكن ما كان يجمع هذه النماذج كلها في البداية هي حياة التوحد والتفرد التي اختارها الرهبان كنموذج لحياة ظاهرة تتصف بالسلبية إلى حد بعيد حتمتها الظروف السياسية والاضطهادات الدينية التي نزلت بمصر في ذلك الوقت، فجاءت هذه التجارب مرحلة أولى في تاريخ الرهبنة في مصر المسيحية(١١٢).

لكن لم يكن منتظرا أن يظل نظام العزلة التامة هذا جامدا غير قابل للتطور، لأنه إذا كان قد مارسه عدد من المنعزلين الجبابرة والتوحدين الشجعان، فإنه من غير المتوقع أن يتصف كل من أقبل على هذه الحياة بالشجاعة والقوة التي تمكنه من مواصلة العزلة ومجابهة تلك الظروف القاسية(١١٣)، كما بدت الرهبنة الانعزالية للعقلاء من الناس نوعا من التطرف المتعارض مع طبيعة الإنسان الاجتماعية، لأن الإنسان اجتماعي بطبعه، يهوى إلى غيره من الناس ويلتمس الرفقة، ولهذا بدأ نظام الرهبنة يتطور تطورا بطيئا ليحل محله بمرور الوقت نوع آخر من الرهبنة الاجتماعية ونوع من المشاركة أو الاشتراك في الرهبنة تتيح للرهبان مجابهة ما كانوا يتعرضون له من صعاب مادية وبيئية في تلك الصحاري والقفار الموحشة (١١٤)

---

(111) Chadwick:op. Cit.p.121
lot:op. Cit.p. 10
Ostrogorski : op. Cit. Pp 42-4

(١١٢) عزيز سوريال عطية ومنير شكري: المرجع السابق ص ٨٩،
Meinardus: op. Cit. P 203

(١١٣) رؤوف حبيب المرجع السابق ص ٤٠

(١١٤) رؤوف حبيب: نفس المرجع ص ٤٠

ويشير المؤرخون إلى أن إرهاصات هذا التطور بدأت في الظهور شيئا فشيئا حتى في حياة الأنبا أنطون نفسه، وبدأت فعلا الخطوة الثانية في تطور الرهبنة المسيحية أو الخطوة المتوسطة بين النظم الأنطوانية الأولى ونظم الديرية التي جاء بها باخوم أو باخوميوس(١١٥)، ولهذا راح الرهبان يجتمعون في مناطق معينة حول شخصيات من المعلمين والآباء الروحيين ليتتلمذوا عليهم ويسترشدوا بتعاليمهم ويتشبهون بهم، وإن كان كل منهم لا يزال يحافظ على توحده في كهفه دون أن يعطله جاره أو يقطع عليه حبل تفكيره وتأمله، ولهذا جرى تنظيم مستعمرات الرهبان في مصر العليا خصص فيها لكل راهب خلية يتعبد فيها منفردا ولا يشترك رهبان المستعمرة معا إلا في أمور قليلة(١١٦).

وهكذا كانت الرهبنة الاجتماعية Collective Eremiticism تمثل الدور الثاني في تطور الأنظمة الرهبانية في المسيحية المصرية، أي المرحلة المتوسطة بين الرهبنة الانعزالية أو الانفرادية التي مارسها كل من بولا وأنطون، وبين الديرية الباخومية أي أنها كانت مرحلة متوسطة بين الرهبنة الأنطونية والنظم الديرية، لأن الرهبان عاشوا في هذه المرحلة في قلالي منفردة متباعدة ولكنهم كانوا يجتمعون مرة كل سبت ليشتركوا معا في الصلاة(١١٧).

والمعروف أن هؤلاء الرهبان لم يميلوا إلى العمل اليدوي بل عزفوا أيضا عن القراءة أو اقتناء الكتب، فلم يكن يشغل الناسك عمل يدوي أو قراءة لأنه لا ينبغي – في رأيه – أن يشغله شئ عن التأمل والعبادة، فربما قضى الناسك في مغارته أو كهفه سنوات دون الخروج منها معتمدا على أهل الخير والبر في

---

(١١٥) عزيز سوريال ومنير شكري: المرجع السابق ص ٩٣

(116) Painter: op. cit. p. 17

(١١٧) مراد كامل: المرجع السابق ص ٢٠٨ وأنظر محمد الشيخ: النظم والحضارة الأوربية في العصور الوسطى س ١٩٣

الحصول على حاجاته البسيطة من مأكل و مشرب، والغريب أن هؤلاء الزهاد كانوا يعيشون أعمارا طويلة ربما تجاوز عمر الواحد منهم قرنا من الزمان [١١٨].

غير أن الرهبنة الانعزالية أو الانفرادية في دورها الأول أو دورها الثاني ما لبثت أن بدت للعقلاء من الناس نوعا من التطرف المتعارض مع طبيعة الإنسان وميوله الاجتماعية التي لا تحققها الخطوة الثانية في الرهبنة أي اجتماع عدد من الرهبان في قلالي أو مغارات متقاربة[١١٩]، فكان لابد من ابتكار نظام آخر يتفق مع طبيعة البشر من ناحية ويحقق الانقطاع للعبادة والتنسك من ناحية أخرى، ومن هنا نشأ النظام الديريMonasticism أو Monastic life الذي يمثل الدور الثالث في حياة الرهبنة والخاتمة في تطور حياة الرهبنة في مصر المسيحية[١٢٠].

ويعتبر الناسك المصري القديم باخوم أو باخوميوس أول نموذج لهذا النظام الذي عرفته المسيحية ، ويشير المؤرخون إلى أن هذا الفصل الجديد في تطور الرهبنة جاء من أروع الفصول وأهمها في تاريخ الرهبنة السابق واللاحق سواء في مصر البيزنطية أو بلاد الشرق قاطبة أو في الغرب الأوربي في العصور الوسطى[١٢١]، على الرغم من أن باخوم هذا ولد لأبوين وثنيين وظل هو أيضا على الوثنية حتى سن العشرين حتى اعتنق المسيحية، إلا أنه أخلص في عقيدته و كان صاحب فضل في تطور النظام الرهباني القديم.

---

(١١٨) عزيز سوريال ومنير شكري. المرجع السابق ص ١٠٠

(١١٩) رءوف حبيب: المرجع السابق ص ٤٠،

ومراد كامل : المرجع السابق ص ٢٠٨

(١٢٠) كولتون: الديرية ص ١٨٧

(121) Hodges The Early church, p, 156

Benz The Eastern Orthodox Church ,p. 89

ولد باخوم سنة ٢٩٠م على الأرجح ببلدة بجنوب مصر بمحافظة قنا الحالية. فلما بلغ العشرين من عمره انخرط في سلك الجندية الرومانية. وإن لم تطل خدمته الحربية كثيرا، إلا أنها تركت أثرا هاما في شخصيته وحياته معا، فقد تعلم النظام والطاعة والعمل البدني. وألف حياة الجماعة أو الحياة الاجتماعية ، ثم ما لبث أن اعتنق المسيحية سنة ٣١٤م (١٢٢)، ثم مال إلى حياة الزهد والتنسك وعزم على الدخول في الرهبنة إذ أعجب بحياة العزلة ولكن بطريقة تخالف الانعزالية والانفرادية لشدة تعلقه بالحياة الاجتماعية وحبه لغيره من الناس ولهذا ابتكر باخوم نظامه الديري الذي يتواءم مع ميول الإنسان واجتماعيته من ناحية ويخدم المجتمع من ناحية ثانية طبقا لقاعدة راسخة وقانون واضح ، فاتخذت الرهبنة على يديه صفة الديرية أي الحياة الاجتماعية لأول مرة في مصر البيزنطية وفي العالم كله، وإن اتخذ الدير الباخومي في البداية الإطار الحربي أو العسكري (١٢٣)، لأن باخوم سبق وأن خدم في الجيش الروماني فترة، ولذلك نقل إلى ديره كثيرا مما تأثر به من نظم العسكرية الرومانية.

أسس باخوم ديره سنة ٣١٥م بالقرب من دندره بصعيد مصر، ضم عددا من الرهبان يمارسون حياة الانقطاع للعبادة مع التعاون في تنظيم مطالب الحياة، فقد فرض على رهبانه الالتزام بالطاعة والهدوء والنظام والعمل اليدوي مثل طهي الطعام وممارسة الصناعات المفيدة فضلا عن ممارسة

---

(١٢٢) رءوف حبيب: المرجع السابق ص ١٦٢، Meinardus :op cit .p. 157, ، مراد كامل : المرجع السابق ص ٢١١

(123) Meinardus: op . cit. P 157

الطقوس الدينية والصلوات[١٢٤]، وعلى هذا نشأ أول دير باخومي، ثم أنشت أديرة أخرى باخومية في جهات أخرى، حتى بلغت عند وفاة باخوم سنة ٣٤٦م نحو أحد عشر ديرا منها تسعة أديرة للرجال واثنين للنساء وكلها تمتد من إخميم شمالا حتى إسنا جنوبا[١٢٥].

ولم يكد ينتهي القرن الرابع الميلادي حتى كانت الرهبنة قد انتشرت في الوجه البحري، فضلا عن الجهات الممتدة على النيل وما يجاورها من الصحارى، كما حفلت شواطئ البحر المتوسط بالقرب من الإسكندرية بأعداد كبيرة من الرهبان المصريين، ونمت الرهبنة في صحراء وادي النطرون بصفة خاصة فأقام هناك نحو خمسة آلاف راهب يمارسون ألوانا مختلفة من الحياة كل حسب طاقته، ثم أنشئت أديرة باخومية كثيرة قرب الإسكندرية، فقد أنشئ دير في كانوب [١٢٦]، واعتبر القديس مينا من أكثر القديسين احتراما وتبجيلا عند المسيحيين في مصر البيزنطية ، فقد استشهد هذا القديس في اضطهادات الإمبراطور دقلديانوس وحمل جثمانه على جمل وعند الموضع الذي توقف فيه الجمل عن السير بالصحراء غرب الإسكندرية وعلى الطريق الممتد إلى وادي النطرون تم دفن هذا القديس ثم قامت على مقبرته كنيسة ونشأت حول ضريحه مدينة صغيرة مقدسة [١٢٧]،أخذ الناس يحجون إليها من مصر ومن سائر بلاد الشرق وجرى تصوير مينا في الأيقونات المسيحية واقفا بين جملين قاعدين وصار يعتبر راعيا للقوافل، وبالقرب من قبره تفجر ينبوع

---

(١٢٤) رءوف حبيب. المرجع السابق ص ١٦٣ ، العريني. مصر البيزنطية ص ٣٦

(١٢٥) مراد كامل. المرجع السابق ص ٢١١-٢١٢

(١٢٦) العريني: المرجع ص ٣٥

(127) Vasiliev:op. cit. 1,p. 127
Meinardus:op. cit. Pp. 170-171

اشتهر بالكرامات والمعجزات حتى قيل" إشرب من ماء القديس مينا تزايلك جميع الأمراض".

ومن أهم الشخصيات في الرهبنة المصرية شنودة الأتريبي، وهو من أصل مصري وكتب مواعظه باللغة القبطية، وشغلت حياته الفترة الممتدة من النصف الثاني للقرن الرابع إلى النصف الأول للقرن الخامس الميلادي، إذ عاش نحو ١١٨م، وذاعت شهرة هذا الرجل ونظامه واشتد نفوذه بين أهل مصر، وصار من أكثر أعوان بطارقة الإسكندرية ومن أخلص جنودهم، فإذا كان البطريرق كيرلس الرأس المفكر في كنيسة الإسكندرية، فقد كان شنودة الأتريبي الذراع الطيعة له ولكنيسة الإسكندرية[١٢٨].

ثم ذاعت شهرة الرهبنة المصرية في أنحاء العالم المسيحي، وأصبحت مصر البيزنطية قبلة الزوار الذين يحرصون على رؤية القديسين وسماع مواعظهم وتعاليمهم، فجاء الناس من سوريا ومن آسيا الصغرى ومن روما ومن غالة وإسبانيا، فرأوا وتعلموا ونقلوا ما رأوه إلى بلادهم وذويهم وبفضل هؤلاء الزائرين انتشرت مبادئ باخوم ورهبان مصر إلى كل أنحاء الدنيا وأعجب الغرب بها خاصة حين ترجم قانون باخوم إلى اللاتينية[١٢٩].

ولم تقتصر أهمية الرهبان المصريين على ذلك، بل ازداد نفوذهم في حياة المجتمع المصري فاعتبروا أنفسهم حماة العقيدة الحقة والمجاهدين في سبيلها، وشاركوا فيما جرى بمصر البيزنطية من المنازعات الدينية والسياسية حتى ضاق الأباطرة أحيانا بهم لتدخلهم في الأمور السياسية وفي النواحي القضائية وتطبيق القوانين[١٣٠]، واضطر الإمبراطور فالنز (٣٦٤-٣٧٨م) إلى أخذ

---

(١٢٨) العريني: مصر البيزنطية ص ٣٨

(١٢٩) العريني: نفس المرجع ص ٣٩

(130) Chadwick op. cit. pp. 179-180

رهبان مصر بالشدة لما ذاع من أنهم يتخذون الرهبنة وسيلة للهرب من الجندية والخدمة في الجيش البيزنطي فأمر جنده باقتحام أديرة وادي النطرون وإدخال رهبانها في الجندية قهرا وذلك سنة ٣٧٥م، كما اضطر خليفته الإمبراطور ثيودسيوس(٣٧٩-٣٩٥ م) رغم تدينه وتقواه إلى تحريم سكن المدن على الرهبان لخطورتهم البالغة نظرا لأن الرهبنة اتخذت حينئذ طابعا قوميا بالغ الخطورة، غير أن الرهبنة المصرية أخذت في التدهور منذ النصف الثاني للقرن الخامس الميلادي ثم لم تلبث أن انهارت في القرن السادس ، فلما دخل المسلمون مصر آذن ذلك بزيادة انهيارها[١٣١].

---

(١٣١) العريني : نفسه ص ٤٠

الفصل الثالث

التنظيمات الإدارية في مصر البيزنطية

الفصل الثالث

التنظيمات الإدارية في مصر البيزنطية

إذا أردنا أن نستعرض التنظيمات الإدارية في مصر البيزنطية، فلا بد أن نشير إلى هذه التنظيمات في فترة تبعية مصر للرومان أي الفترة السابقة مباشرة للعصر البيزنطي في مصر. فالمعروف أن الرومان قسموا مصر إلى ثلاث مناطق إدارية كبرى هي : طيبة ومصر الوسطى والدلتا، وجعلوا على كل منها حاكما وركزوا السلطة العليا في يد الحاكم أو الوالي الذي كان مقره في الإسكندرية، والذي جمع في يده السلطات كلها، إذ كان القائد الأعلى للجيش ورئيس الإدارة المدنية ومدير الشئون المالية والمسئول كذلك عن سيادة العدالة في البلاد، يساعده عدد من كبار الموظفين الذين عهد إليهم بالنظر في كل هذه الأمور[1].

وظل حاكم الإقليم في العصر الروماني صاحب السلطة العليا في الإقليم وله السيطرة التامة في عاصمة إقليمه ومقره الرسمي، على الرغم من أنه منذ أوائل القرن الثالث الميلادي، غدا بكل مدينة من مدن الإقليم مجلس للشورى أو مجلس بلدي، لم يؤد إلى جعل هذه المدن تظفر باللامركزية أو بالحكم الذاتي نظرا لأن حاكم الإقليم كان ولا يزال صاحب السلطة العليا في الإقليم كله وله السيطرة التامة على مجالس الشورى هذه أو المجالس البلدية[2].

وفي أواخر القرن الثالث الميلادي، وعلى عهد الإمبراطور دقلديانوس جرت إصلاحات إدارية هامة في الإمبراطورية، كان لا بد وأن يتردد صداها

---

(١) بل : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي ص ٨٥

(٢) العريني: مصر البيزنطية ص ٨٣

في مصر أيضا باعتبار مصر ولاية تابعة للإمبراطورية (٣)، فقد جعلت الولايات محددة المساحة وجرى فصل السلطة العسكرية عن السلطة المدنية، وإدماج الولايات في وحدات إدارية كبيرة تعرف كل منها باسم دوقية، وجرى تقسيم مصر بالذات إلى ثلاثة أقسام كبيرة هي : شرق الدلتا وغرب الدلتا وطيبة في الجنوب، ويحتمل أن هذه القاطعات أو الأقسام الإدارية كانت تقابل على وجه التقريب أقسام الدلتا ومصر الوسطى ومصر العليا التي كانت موجود في الشطر الأول من العصر الروماني(٤).

وجرى تعيين حاكم على كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة ، غير أن حاكم غرب الدلتا بصفة خاصة الذي يشمل نفوذه مدينة الإسكندرية تميز عن الحاكمين الآخرين بلقب " حاكم مصر"، وأضيفت سلطات أخرى إلى سلطته فاقت ما اختص به الحاكمان الآخران، لكن الثلاثة كانوا من الوظفين المدنين عهد إليهم بالشئون المدنية في أقسامهم بينما تولى السلطة العسكرية قائد أخر لقب " بدوق مصر " ولم تحظ عواصم هذه الأقسام بالاستقلال الذاتي في الحكم، إلا بعد أن تنحى دقلديانوس عن السلطة وترك العرش الإمبراطوري(٥).

معنى هذا أنه وضع على رأس السلطة المدنية في كل أنحاء مصر حاكم عام مقره الإسكندرية كان يهيمن على شئون الإدارة والمالية والقضاء، بينما أسندت قيادة الجند إلى قائد مستقل، وبينما اتسعت سلطات هذا الحاكم في

---

(3) Vasiliev: op. cit. 1,p. 160

(٤) مراد كامل: حضارة مصر في العصر القبطي ص١٧

(٥) بل : المرجع السابق ص ٨٥

مقاطعته أو قسمه الإداري، وتولى حكم المقاطعات الأخرى رؤساء آخرين يقيم كل منهم في مقاطعته ويخضع في نفس الوقت للحاكم العام(٦).

ومع بدايات القرن الرابع الميلادي ظهرت تنظيمات إدارية جديدة في مصر البيزنطية، غدت القرية بموجبها أهم هذه الوحدات الإدارية، واحتلت القرى مكانة هامة في تلك التنظيمات الإدارية الجديدة (٧)، إذ غدا أهل القرية مسئولين عن زراعة زمامها أي الأراضي التابعة لها، وكذلك مسئولين عما هو مقرر عليها من ضرائب، وغيرها من الالتزامات، وغدا للقرية وجهازها الحكومي الذي يسير أمورها وشئونها الداخلية يرأسه موظف معروف أصبح بمثابة عمدة القرية، يساعده كاتب ومجلس مؤلف من شيوخ القرية يتولى النظر في الأمور المحلية دون أن يكون للسلطات العليا أثر كبير في عمله، وتطور الأمر حد أن صار عمدة القرية هذا في القرن السادس الميلادي أكبر موظف في القرية وحل بمرور الوقت محل مجلس شيوخها (٨).

ثم جمع البيزنطيون كل عدد من القرى في وحدة إدارية أكبر عرفت "بالباجوس" Pagus تلي القرية في الأهمية، يتولى أمرها موظف أكبر ربما كان عضوا من أعضاء مجلس الشورى الإقليمي، أصبح له سلطة أكبر في إدارة هذه الوحدة، فهو المسئول عن زراعة الأرض وتقدير الضرائب عليها وجبايتها، وممارسة القضاء أحيانا، وهذا النظام الإداري استحدثه البيزنطيون في مصر ليشابه ما كان معروفا حينذاك في الغرب، واستمر هذا النظام في مصر البيزنطية ربما إلى أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس الميلاديين(٩).

---

(٦) مراد كامل: المرجع السابق ص ١٧-١٨

(٧) العريني: نفس المرجع ص ٨٥

(٨) العريني: نفس المرجع ص ٨٥

(٩) العريني: نفسه ص ٨٥

وكل عدد من الباجوسات شكل ما عرف بالباجركية التي ربما شملت الإقليم ذاته، وجرى اختيار الباجرك من بين طبقة الأغنياء، وحدث هذا التنظيم الإداري في القرن الخامس الميلادي ربما زمن الإمبراطور ليو الأول (٤٥٧-٤٧٤م)، على الرغم من أن بعض الدارسين يعتقدون أن سلطة الباجرك ربما لم تشمل كافة أنحاء الإقليم، بل الراجح أيضا أن الباجرك تولى منصبه على أنه تكليف لا يتقاضى عنه راتبا[١٠].

وإذا كان دقلديانوس قد قسم مصر إلى ثلاث مقاطعات أو أقسام إدارية كبيرة، فقد تكونت بعد ذلك مقاطعة رابعة تضمنت الأقاليم الشرقية في مصر، وفي أواخر القرن الرابع أضيفت ليبيا إلى مصر فأصبحت تشكل المقاطعة الخامسة[١١]. أي أنه مع بدايات القرن الرابع جرى إعادة تنظيم الإدارة المحلية في مصر البيزنطية، إذ قسمت مصر إلى وحدات فعلية في الإدارة المحلية، وترتب على ذلك إلغاء بعض المناصب الهامة وأصبح الموظفون الإداريون مسئولين عن جمع الضرائب والاختصاصات في الشئون المالية فضلا عن تولى القضاء [١٢]، في الوقت الذي ظلت فيه مجالس الشورى قائمة وألقيت عليها المسئولية كاملة عن الإدارة العامة والإدارة المالية، وغدت عواصم الأقسام الإدارية بلديات على النمط الروماني تتمتع بحكم ذاتي ، ويدخل في نطاق كل منها منطقة ريفية[١٣].

ولم يتوقف أباطرة بيزنطية عن الاهتمام بمصر في القرنين الرابع والخامس الميلاديين، فقد جعلت مصر دوقية اعتبار من سنة ٣٨٢م لتستعيد

---

(١٠) بل : مصر من عهد الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي ص ٢٣٧

(١١) مراد كامل : المرجع السابق ص ١٧-١٨

(12) Bury: op. cit.1, p.27

(١٣) مراد كامل: المرجع السابق ص ١٨

مصر وحدتها الإدارية، فصارت تخضع لسلطة الوالي الاوجستال (١٤) أو الوالي الكبير، الذي اتخذ الإسكندرية مقرا له باعتباره نائبا للإمبراطور، فـاجتمعت في يده السلطتان المدنية والعسكرية من جديـد، كما تسببت الأخطـار الـتي أخذت تهدد مصر خلال القرن الخامس أيضا في اجتماع السـلطتين في يـد حاكم طيبة في جنوب البلاد التي جرى تهديدها من قبل بدو الصحراء، وأكد هذا أن السلطة المركزية كانت حريصة على إحداث تغييرات من شأنها إقامة نظام إداري صالح في مصر البيزنطية لتقوية السلطة فيـها مـن ناحيـة وتقويـة دفاعاتها العسكرية من ناحية أخرى(١٥).

وكان من مهام الموظفين الإداريين في هـذه الفـترة أيضـا القيـام بمهمـة القضاء، وكذلك جمع الضرائب بعد تقديرها، إلا أن وضع السلطات القضائية في أيدي هؤلاء الموظفين الإداريين لم يحقق العدالـة في مصـر البيزنطيـة، ولم يضمن الحد المناسب لتحقيق العدالة لكـل سـكان مصـر، ولهـذا فقـد انحـدر القضاء وصارت مصـر فريسـة لقضـاء فاسـد، وعجـزت الحكومـة عـن توفـير الحماية والأمن والعدالة لسكان البلاد،(١٦)فأدى ذلك إلى تذمر الناس وسخطهم وكرههم للحكم البيزنطي، في الوقت الذي أصبحت فيه مهمة جمع الضرائب بعد تقديرها مهمة بالغة الخطورة والتعقيد في إدارة مصر البيزنطية في القرنـين الرابع والخامس الميلاديين(١٧).

فعلى الرغم مما أظهره بعـض الموظفـين مـن قسـوة في جمـع الضرائـب وصرامة القوانين في هذه الناحية، إلا أنهم لم ينجحوا في مهمتهم تمامـا، ولم

---

(14) Bury: op. cit. 1, p. 27(N.3)
(15) Diehl: l'Egypte Byzantin, p. 453
(١٦) العريني: المرجع السابق ص ٨٧
(17) Diehl:op.cit.p.467

يستطيعوا جمع الضرائب على الوجه المطلوب، من الفئات المطالبة بأدائها من ملاك الأراضي والفلاحين والصناع وأرباب الحرف، بل أن كثيرا من الموظفين الإداريين المكلفين بهذه المهمة أظهروا عدم الاكتراث بها، بل إن كثيرا من الموظفين الإداريين المكلفين بهذه المهمة أظهروا عدم الاكتراث بها بل تخلى بعضهم عن القيام بها، ولم يحفلوا بتهديد السلطة الحكومية بفرض العقوبات عليهم، بل إن بعضهم كان يهرب إلى الصحاري فرارا من هذه المهمة البغيضة، الأمر الذي يؤكد فساد الإدارة وضعفها في كثير من الأحيان(١٨).

وأدى فشل الموظفين الإداريين في هذه المهمة إلى تناقص ما كان يرسل إلى الخزانة العامة للإمبراطورية من أموال وإلى الإسهام في اضطراب الاقتصاد البيزنطي، لأن دافعي الضرائب لجأوا إلى مقاومة موظفي المالية واستخدموا الخداع والتمويه للهروب من دفع الضرائب، بل تخلى بعضهم أحيانا عن أرضه لعجزه عن تأدية ما هو مقرر عليها من ضرائب كانت في كثير من الأحيان جائرة، لا تتناسب مع الأحوال، بل فر بعضهم إلى أماكن أخرى هاجرا أرضه، وانخرط آخرون في سلك الجندية أو دخل الدير هربا من عسف الضرائب، فتناقص عدد السكان، وتعرضت الأراضي الزراعية للإهمال الشديد، ولهذا لجأت الحكومة إلى إضافة المقرر على الأراضي المهجورة إلى جيران هذه الأراضي الأمر الذي ضاعف من الظلم والطغيان وأدى إلى زيادة فساد الإدارة برمتها وزيادة المشكلة تعقيدا(١٩).

وترتب على فساد النظام الإداري خاصة فيما يتعلق بجباية الضرائب وعسف الموظفين في جمعها، بل وتقديرها وكثرة شكايات الناس، أن فكر

---

(18) Ibid.p.454

(١٩) بل: المرجع السابق ص ١٥٤–١٥٥

الإمبراطور البيزنطي في حماية الناس من هذا الفساد والظلم بتعيين من عـرف "بحامي المدينة" (٢٠) الذي أصبح مـن واجبه كموظف إداري حماية دافعي الضرائب مما يتعرضون له من ظلم الموظفين ومندوبـي الضرائب، إلا أن هـذا النظام لم يؤد إلى نتيجة حاسمة ولم يحقق النتائج المرجوة في مصر البيزنطية، ولهذا جرى تعديل هذا النظام بأن أصبح للمدينة الحق في انتخاب حاميـها، ولما لم يؤد ذلك أيضا إلى نتيجة طيبة ، أصبح هذا الانتخاب من حق الأساقفة ورجال الدين والأعيان وملاك الأراضي ونواب البلديات[٢١].

وباعتلاء الإمبراطور جستنيان العرش سنة ٥٢٧ م تغيرت الأوضـاع لأن هذا الإمبراطور حرص على إدخال تعديلات هامة على نظـام الإدارة في مصـر البيزنطية، ليعود النظام كمـا كـان في الفـترة الـتي سـبقت ولايـة الإمـبراطور دقلديانوس، فاعتبر مصر وحدة إدارية واحدة ومال إلى دمج الأقسام الإداريـة الصغيرة في أقسام كبيرة[٢٢]، واقتصر نفوذ الحـاكم العـام فيـها على القاطعـة الأولى في حين ساوى بينه وبـين حكـام القاطعـات الأخـرى وجعلـهم جميعـا خاضعين لدوق الشرق أو والي الشرق، الذي كانت مصر داخلة في اختصاصاته ومقره القسطنطينية. أما التعديل الآخر الذي أدخله جستيان فكان الجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية وإسنادهما معا إلى حكام القاطعـات (٢٣)، ليصبح كل منهم رئيس الإدارة والشرطة والقضاء والمالية في مقاطعتـه وإن تميـز حـاكم

(20) Bury :op. cit. 1, p. 443
(21) Diehl: op. cit. p. 454
(22) vasiliev :op. cit. 1, p. 160
(23) Bury :op. cit. 11, pp. 338-9
Vasiliev: op. cit. 1, p.160

القاطعة الأولى في الإسكندرية بأنه هو الذي كان يجمع كل ضرائب مصر نوعية ونقدية ثم يرسلها إلى العاصمة البيزنطية[٢٤].

ويشير المؤرخون إلى أن اهتمام جستيان بمصر بصفة خاصة كان ينبع من رغبته في الحصول على القمح الذي كانت مصر تمد به القسطنطينية بصفة رئيسية [٢٥]، كما لا حظ الدارسون أن سلطة حكام المقاطعات غدت محدودة، فكثيرا ما كانوا يلجأون إلى القسطنطينية لطلب الجند عند اندلاع الفتن وحدوث الاضطرابات أو الثورات الداخلية، وإذا كان هؤلاء الحكام في البداية من الأجانب فقد رأى الأباطرة بعد ذلك اختيارهم من بين اليونانيين المقيمين في مصر، وكان الأساقفة وكبار الملاك وأعيان مصر يرشحون أحيانا الحاكم الذي يقر الإمبراطور تعيينه[٢٦].

وليس من شك في أن حالة مصر الإدارية في أوائل القرن السادس الميلادي كانت تنذر بالخطر لما اشتهرت به الإدارة من الفساد والظلم وقداحة الضرائب وفساد القضاء واشتداد السخط بين الناس، الأمر الذي فجر أزمة اقتصادية واجتماعية في ذلك الوقت بلغ من شدتها أنه لم يكن بوسع الإمبراطور في القسطنطينية أن يتعرف على أحوال مصر ويعلم مدى تفاقم الوضع وتردى الأحوال فيها [٢٧].

ولقد ترتب على ذلك نتائج بالغة الخطورة، إذ أدى فساد النظام الإداري، وما ترتب عليه من ضعف سلطة الإمبراطور إلى ضعف الطبقة التي تعتمد عليها الحكومة البيزنطية في مصر بسبب ما تعرضت له الطبقة

---

(٢٤) مراد كامل: المرجع السابق ص ٢٠

(25) Vasiliev: op. cit. 1, p.160

(٢٦) مراد كامل: المرجع السابق ص ٢٠

(27) Bury: op. cit. 11, pp. 35-57

الأرستقراطية من الفقر والانهيار، وما ترتب على الأعباء المالية القاسية من فقر الطبقة الوسطى[٢٨]، فحل مكان ذلك العنصر الوطني المتمثل في المسيحيين الذين جرفتهم الحماسة الوطنية والكراهية الشديدة لكل ما هو يوناني بيزنطي، وأسهمت الخلافات الدينية في تعميق هذا الشعور حتى أضحت مصر كلها أو معظمها تكن الكراهية الشديدة والعداء للحكومة البيزنطية بالقسطنطينية[٢٩].

وترتب على فساد الإدارة أيضا أن تغير شكل الملكيات الخاصة والعامة خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين، فالمعروف أن الأراضي في مصر كانت إما من أملاك الإمبراطور أو من أملاك الكنيسة أو من الأملاك الخاصة التي عرفتها مصر زمن البيزنطيين بصفة خاصة، وقد حدث أن أخذت هذه الملكيات الخاصة تزداد بالتدريج على حساب الأملاك الإمبراطورية[٣٠]. بسبب ما صادف الحكومة من عقبات أدت إلى عجزها عن زراعتها أو حفظها، فأخذت الأراضي الإمبراطورية تقع بين كتلة الأراضي الخاصة بمضي السنين، فأسهمت هذه الظاهرة في نمو الملكيات الخاصة لتصبح ملكيات كبيرة، وأخذت تتزايد وتنمو في القرنين الرابع والخامس الميلاديين[٣١].

وترتب أيضا على نمو الملكيات الخاصة أن ظهرت طبقة أرستقراطية شبه إقطاعية بدأت في الظهور في المجتمع المصري في العصر البيزنطي، اشتهرت بالثروة والنفوذ علي حساب الطبقة الوسطي في المجتمع[٣٢]، التي

---

(28) Diehl: op. cit. p. 454

(29) Ibid. p. 454

(٣٠) العريني: المرجع السابق ص ٩١-٩٢

(31) Diehl : op. cit. p. 454
Diehl:op.cit.p.456

(٣٢) مراد كامل : المرجع السابق ص ٢٢،

أخذت في الانهيار والتداعي، وأدى إلى ازدياد مكانة كبار الملاك في مصر ما حدث من توليهم الوظائف العامة وانتخابهم في المجالس البلدية، فترتب على ذلك ضعف النظم البلدية وضعف السلطة المركزية لأنهم عمدوا إلى تخفيف المستحق عليهم من الضرائب وزيادتها على سائر دافعي الضرائب، في الوقت الذي سعى فيه جانب كبير من دافعي الضرائب هؤلاء من المصريين إلى التحرر من السلطان المباشر للإدارة المالية منذ أوائل القرن السادس الميلادي، فلحقت الخسارة بخزينة الدولة، وأدى ذلك إلى اختلال الأمن وإحداث الاضطرابات الشديدة كنتيجة حتمية لفساد الإدارة وضعف السلطة المركزية(٣٣).

والخلاصة بالنسبة للنظام الإداري في مصر البيزنطية، فقد ساد نظام إداري محكم على عهد الرومان، استمر حتى فترة حكم الإمبراطور دقلديانوس أي إلى أواخر القرن الثالث الميلادي، الذي حرص على أن تشهد مصر ما شهدته بقية أقاليم الإمبراطورية من إصلاحات إدارية هامة اشتهر بها هذا الإمبراطور، وكفلت قدرا من الهدوء في مصر، ومع بدايات القرن الرابع الميلادي ظهرت تنظيمات إدارية جديدة في مصر البيزنطية ارتكزت على وجود وحدات إدارية أهمها القرية والباجوس والباجركية، أي أنه مع بدايات ذلك القرن جرى إعادة تنظيم الإدارة المحلية في مصر البيزنطية بما يكفل الهدوء والأمن في مصر مع تكليف الموظفين الإداريين بمهمة جمع الضرائب وبعض الشئون المالية ، فضلا عن تولي القضاء، ثم جعلت مصر دوقية منذ سنة ٣٨٢م، فاستعادت مصر وحدتها الإدارية، وخضعت لوالي

---

(٣٣) العريني: المرجع السابق ص٩٣،

Diehl: op. cit. p.

كبير في الإسكندرية أو الوالي الاوجستال، الأمر الذي أكد حرص الحكومة المركزية على إقامه نظام إداري صالح في مصر البيزنطية وتقوية السلطة فيها من ناحية وتعزيز دفاعاتها العسكرية من ناحية أخرى، مع استمرار اضطلاع الموظفين الإداريين بمهمة جمع الضرائب وتولي القضاء، على الرغم من أن هذا أدى إلى وقوع مصر في فساد إداري ومالي شديد ترتبت عليه نتائج بالغة الخطورة، وحين تولى الإمبراطور جستنيان العرش أدخل تعديلات جوهرية على النظم الإدارية في مصر البيزنطية، أعاد بها مصر إلى وحدتها الإدارية الواحدة يتساوى فيها والي الإسكندرية مع بقية حكام الأقسام الإدارية الأخرى، مع خضوعهم جميعا لوالي الشرق في القسطنطينية، وجمع السلطة المدنية والعسكرية في أيدي حكام المقاطعات ووالي الإسكندرية، مع إسناد الإدارة والقضاء والمالية في كل مقاطعة لحاكم المقاطعة مع تميز حاكم الإسكندرية بميزة واحدة هي تجميع كل ضرائب مصر وقمحها لإرساله إلى القسطنطينية.

وعلى الرغم من ذلك فقد ترتب على هذه التغييرات نتائج بالغة الخطورة أجملها الدارسون في ضعف الطبقة التي كانت تعتمد عليها الحكومة البيزنطية في مصر، وأدى إلى تغير شكل الملكيات الخاصة والعامة أيضا، كما ترتب على ذلك ظهور طبقة أرستقراطية شبه إقطاعية بدأت تتولى الوظائف العامة وانتخب أفرادها في المجالس البلدية.

الفصل الرابع

التنظيمات الاقتصادية والمالية في مصر البيزنطية

الفصل الرابع

التنظيمات الاقتصادية والمالية في مصر البيزنطية

يمكن تمييز ثلاث مراحل لما شهدته مصر البيزنطية من تنظيمات اقتصادية ومالية :

المرحلة الأولى منذ بداية التاريخ البيزنطي في مصر حتى قبيل عهد جستنيان في القرن السادس الميلادي ثم المرحلة الثانية التي شهدت فترة حكم الإمبراطور جستنيان نفسه بإصلاحاته الشهيرة في مصر البيزنطية مواكبة لإصلاحاته في بقية أنحاء الإمبراطورية البيزنطية وأن تركزت إصلاحاته في الجوانب الإدارية والقضائية والدينية واهتمت أيضا بالشئون الاقتصادية والمالية في مصر، ثم المرحلة الثالثة والأخيرة في الفترة التي تلت عهد جستنيان وحتى نهاية العصر البيزنطي في مصر إلى قرب منتصف القرن السابع الميلادي ودخول العرب مصر، وعلى هذا فنحن مطالبين بعرض المرحلتين الأولى والثالثة في هذا الفصل مع تخصيص فصل خاص لإصلاحات جستنيان في الجوانب المشار إليها والتي تناولت أيضا النواحي الاقتصادية والمالية في مصر.

التنظيمات الاقتصادية والمالية حتى عهد جستنيان:

بالنسبة لملكية الأراضي، المعروف أن الأراضي في مصر كانت ملكا للدولة، أي أنها كانت ضياعا إمبراطورية أو أراضي حكومية[1]، يتسلم

---

(1) Johnson: - Egypt and the Roman Empire, pp.68-73
- Economic Studies, p-16

الفلاحون حصصا منها مقابل إيجار ثابت، وتبقى بأيديهم طالما قاموا بدفع إيجارها وجرى ذلك خلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين[٢].

وفي عصر الإمبراطور دقلديانوس تطورت الأمور، وأضاف هذا الإمبراطور إلى الأراضي الإمبراطورية الأراضي التي كانت تابعة للمعابد، وما صادره من أملاك أهل الإسكندرية، كما صار من أملاك الإمبراطور أيضا محاجر الجرانيت والرمر والشب و النطرون، فضلا عن احتكار الحكومة للملح في سائر أنحاء مصر، وحتى الأراضي التي انتقلت إلى الأفراد اعتبرت ملكا للدولة أيضا، واعتبرت داخلة في الأملاك الإمبراطورية أي أنه اعتبرت أرض مصر كلها ملكا للتاج الإمبراطوري[٣].

معنى ذلك أنه لم تقم في مصر ضياع خاصة في هذه الفترة أي حتى أواخر القرن الثالث الميلادي، إلا أنه مع بدايات القرن الرابع وبزوغ الحقبة البيزنطية في مصر، بدأت الملكيات الخاصة في الظهور بمرور الوقت [٤]، وذلك حين بدأت الحكومة تبيع الأراضي التابعة لها، أو بعض الأراضي المملوكة للإمبراطور أو الأراضي المهملة، التي تخلى عنها أصحابها، وكذلك أراضي الأطراف التي كانت تباع بأثمان بخسة، فلم يلبث المصريون أن أصبحوا في القرن الرابع الميلادي ملاكا للأراضي على حساب أراضي الدولة أو الأراضي الحكومية. وهكذا لم يعد الإمبراطور هو المالك الوحيد للأرض في مصر البيزنطية، بل لم يكن أهم الملاك[٥].

---

(٢) العريني: مصر البيزنطية ص ٩٨

(3) Bury: op. cit. 1, p. 5
Johnson : Egypt and the Roman Empire, p.80

(4) Johnson : Economic studies, p. 40

(5) Hardy: Christian Egypt, p. 43

وساعد على ظهور هذه الملكيات الخاصة أن الإمبراطور دقلديانوس كان معنيا بإصلاح أحوال الإمبراطورية، فتقرر في عـهده بيـع الأراضـي الزراعيـة بشرط أن يقبل المشتري تسديد ما تقرر عليـها مـن التزامـات وضرائـب، في الوقت الذي جرى فيه أيضـا بيـع الأراضـي التابعـة للمعـابد أو الكنـائس[٦]، فأصبحت الملكيات الخاصة في القـرن الرابـع أمـرا مألوفـا. ويبـدو أن حاجـة الإمبراطور دقلديانوس إلى المال للإنفاق على الجيوش والمضي فيما شرع فيه من إصلاح أحوال الإمبراطورية بما يتطلبه ذلك مـن أمـوال ، هـي الـتي أدت إلى بيع هذه الأراضي وإلى ظهور الملكيات الخاصة، ولم يقبل على شراء الأراضـي المصريون فقط، و إنمـا شـاركهم في ذلـك بعـض اليونـانيين الذيـن يبـدوا أن تمتعهم بامتيـازات خاصـة في الضرائـب أغراهـم بتملـك الأراضـي، ومشـاركة المصريين في هـذه الناحيـة، فـأقبلوا علـى شـراء الأراضـي لتصبـح لهـم أيضـا ملكيات خاصة[٧].

وفي القرنين الرابع والخامس الميلاديين بـدأت هـذه الملكيـات الخاصـة تكـبر وتـزداد وتتعـاظم مسـاحاتها لتصبـح إقطاعـات كبـيرة، أو مـا يسـميه المصريون أبعاديات واسعة، الأمر الذي أقلق بعض الأبـاطرة، فبذلـوا جـهودا كبيرة لوقف نمو هذه الضياع أو الاقطاعيات في مصر [٨]، ولكن على الرغم من ذلك ليس هناك ما يؤكد أن تلك الضياع الخاصة قد بلغت في الاتساع ما بلغته الضياع في الغرب حتى في القرن السادس الميلادي، إذ تشير البرديات إلى أن متوسط الملكية الخاصة بلغ نحو أربع وأربعين فدانا، ولم تتجاوز مساحة أكبر

(6) Johnson : Egypt and the Roman Empire, pp. 77-78
(7) Ibid. p. 74
(8) Bury: op. cit. 1, p. 444

الضياع ثمانمائة فدان، وفي حالات خاصة بلغ بعضـها نحـو ألـف وثلاثمائـة فدان[٩].

ولقد أدركت الإمبراطورية البيزنطية، لا سيما منذ عهد دقلديانوس أن القرية تعتبر وحدة بالغة الأهمية في زراعة الأرض المحيطة بها ، فكثـير مـن القرى جمعت بين الأراض الخاصة والأرض العامة المملوكـة للدولـة، قبـل أن ينتقل الجانب الأعظم من أراضي الدولة إلى الأفراد ويدخـل في نطـاق الملكيـة الخاصة لأهل القرية، ولهذا فقد أصابت بعض القرى من الرخـاء والـثروة مـا ميزها عن غيرها كثيرا، بفضل ما صار لها من ملكية خاصـة للأراضـي، وزاد في مكانة القرية ما صدر من تشريعات تمنع بيع أراضـي القريـة لأي أجنـبي عنها[١٠].

ومثلت أراضي الكنائس والأديرة أيضا جانبا هاما من الأراضي الزراعية في مصر البيزنطية، فقد كان بعض الأباطرة أسـخياء كثـيرا علـى الكنـائس في حين آل إلى الكنائس أيضا أراضي أخـرى مـن الهبـات والأوقـاف الخيريـة، سواء كانت هبات عامة أو هبات خاصة [١١]، إذ جرت عادة بعض المصريـين على أن ينصوا في وصاياهم على تخصيص نصيب للكنيسة من أملاكها، فضلا عن دخول بعض الأراضي المهملة أو القابلة للاسـتصلاح في حوزتـها، وكذلـك بعض الأراضـي الـتي عجـز ملاكـها عـن مقاومـة استبداد موظفـي الماليـة أو أصحاب السلطة وطغيانهم فهجروها فحازتها الكنيسة[١٢]. أما أراضي الأديرة فقد اتسعت في القرن الرابع بصفة خاصة، بعد أن حث الديريون على العمـل

(٩) العريني : المرجع السابق ص ١٠١

(10) Johnson Economic studies, p. 19
(11) Hardy . op. cit. p. 45
(12) Johnson: Ec. St. p. 73

في الحقول والبساتين وفي استصلاح الأراضي واستزراعها. فتعاظمت الأراضي التابعة للأديرة واتسعت لتضاف إلى الأراضي الكنسية، فتمثل في القرن السادس جانبا كبيرا من أراضي مصر الزراعية[١٣]، وما كان يرد للكنيسة والأديرة في القرن السادس من محاصيل بكميات كبيرة خاصة الشعير، إنما يدل على ما كان للكنائس والأديرة من أملاك متسعة.

أما عن الفلاح فعلى الرغم من أنه لم يكن ثمة قوانين في مصر البيزنطية تربط الفلاح بالأرض، فإن أفق الفلاح لم يتجاوز حدود قريته الضيقة، ولم يتعد تفكيره تلك الحدود الضيقة، وظل الأبناء يتوارثون حرفة الزراعة من الآباء في الوقت الذي أضحت فيه حيازة الأرض وراثية[١٤]، ولم يكن ارتباط الفلاح بقريته أمرا محتما ودائما، وإنما تسببت عوامل أحيانا في انتقال الفلاحين إلى أماكن أخرى، إذ تعرضت أحيانا الأرض الواقعة على حافة الصحراء للإهمال والخراب وهجرة السكان بسبب انخفاض النيل أو إهمال تطهير الترع أو توالي رداءة المحصول، وأحيانا أخرى اجتذب النشاط الصناعي والتجاري لبعض المدن أعدادا كبيرة من سكان القرى، خاصة حين دخلت مصر في محيط تجارة البحر المتوسط، ونمت بعض مدنها الصناعية والتجارية مثل الإسكندرية[١٥].

وعرفت مصر البيزنطية نوعين من الفلاحين: الفلاحون الأحرار، والفلاح الحر هو الذي نشأ بقريته وارتبط بأرضه وجرى تسجيله في تعداد الدولة سواء أكان مستقلا بنفسه أو حاصلا على حماية جاره الأقوى، وهذا الفلاح يقوم بزراعة أرضه ويورثها لأبنائه لزراعتها أيضا، وقد غصت وثائق

(13) Ibid. p. 69

(14) Johnson: Egypt and the Roman Empire,p.87

(١٥) العريني المرجع السابق ص ١٠٩

مصر البيزنطية منذ أواخر القرن الخامس الميلادي بأخبار هذه الفئة من الفلاحين الذين أسمتهم الفلاحين القراريين(١٦). أما الفريق الآخر من الفلاحين فيشير المؤرخون إلى أنه مسه نوع من القنية أو العبودية في ذلك العصر، إذ التزم هؤلاء بزراعة أرض الدولة سواء كانت حكومية أو مملوكة للإمبراطور بطريق السخرة أو عوملوا في قراهم على أنهم أرقاء، وجرى تطبيق بعض القوانين عليهم لربطهم بالأرض وبأماكن معينة لا يغادرونها، وهذا الفريق من الفلاحين لا يمتلكون أراضي أصلا أو أنهم فقدوا لسبب أو لآخر ما كان في حوزتهم من أراضي(١٧).

وينبغي أن نشير هنا إلى أن العلاقة التي ربطت بين الفلاحين الذين سعوا بمحض إرادتهم للحصول على حماية جيرانهم الأقوياء والذين سموا بالفلاحين القراريين، والذين اضطروا منذ القرن السادس إلى أن يلجأوا إلى كبار الملاك لحمايتهم، وبين هؤلاء السادة الأقوياء(١٨)، تتمثل هذه العلاقة في إعلان الفلاح ولاءه وخضوعه لسيده وتعهده بالقيام بأعباء الزراعة وأداء ما يتقرر عليه من ضرائب، وفي مقابل ذلك يقوم السيد بتسليمه أدوات الزراعة ويقرضه أحيانا أموالا يتعهد الفلاح بتسديدها، فإذا لم يؤد الفلاح هذه الالتزامات تعرض لتوقيع الجزاء المنصوص عليه في العقد(١٩)، وعلى الرغم من ذلك يرى المؤرخون أن هذه العلاقة بين الفلاح وسيده لم تكن تنقص كثيرا من

---

(16) Johnson: op. cit. p. 96
(17) Johnson : Ec. St. p. 29

(١٨) مراد كامل: المرجع السابق ص ٢٥

(19) Johnson: Egypt.p.100

شعور الفلاح بأنه عامل حر ولد حرا ونشأ حــرا ودرج علـى أن يكتب اسمـه واسم أبيه وأمه[٢٠].

كما يشير المؤرخون إلى أن هذا النوع من العلاقة بين الجانبين يخـالف ما كان معروفا في الغرب إذ لم يكن الفلاح في الغرب له حق الملكية أو يدعـى لنفسه حق الملكية، بل إن حالته هناك لم تكن تزيد كثيرا عن حالة الرقيق أو العبيد[٢١]، لكن الفلاح في مصر البيزنطية الذي سـعى للحصـول علـى حمايـة جاره القوي كان يملك الأرض ما لم تكن ملكا للتـاج؛ بينمـا جـرت علاقاتـه بسيده في إطار عقد خاص أتاح له الاقتراض من السيد ما كان يحتاج إليه من مال أو أدوات زراعية أو بذور أو غير ذلك، وتعهد في نفس الوقت بسـداد مـا عليه من التزامات مع اعتباره مواطنا له كيانه وشخصيته المميزة التي أتاحت له حق التعاقد أو رهن أرضه أو تقديم ضمان يغطي تسديد ما هو مطلوب منه، ولهذا لم يقم دليل من هذا العصر على أن هذا الفلاح كان قنا أو عبدا بـالمعنى المعروف[٢٢].

وعلى هذا فإن وجود القنية والأقنان بالمعنى الدقيق في مصر البيزنطيـة يحتاج إلى أدلة على الرغم من نمـو الملكيـات الخاصـة علـى حسـاب أراضـي الدولة، وازدياد اتساع هذه الملكيات الخاصة بمرور الزمن، مما أدى إلى وجود ملكيات كبيرة في ذلك العصر[٢٣]. ويستشـهد بعض المؤرخين على عدم وجـود القنية في مصر البيزنطية بانخفاض الضرائب العينية انخفاضـا محسوسـا ممـا

---

(٢٠) العريني : المرجع السابق ص ١١١

(21) Rowling : Every day life in Medieval times , pp. 21-27

(22) Hardy :op. cit. pp. 50-51
Johnson : Egypt.p.100
Hardy: op. cit. p. 25

(٢٣) العريني: نفس المرجع السابق ص ١٠٣،

يدل على أن الفلاح توافر لديه من الحبوب ما جعله يتصرف فيها بالبيع في السوق الحرة[٢٤]. كما يستدلون على ذلك بنمو المسيحية وانتشار الرهبنة والديرية التي ناهضت كل محاولات إنزال الناس إلى رتب العبودية أو إلحاق الأذى أو الظلم بهم، لأنه كلما تعرض الفلاح لنوع من العسف أو الجور وجد في الكنيسة حاميا ونصيرا[٢٥].

هذا فضلا عن تمتع المصريين منذ أواخر القرن الثالث ومطلع القرن الرابع بحق بيع الأراضي الزراعية بشرط أن يقبل المشتري تحمل مسئولية الوفاء بما يقرر عليها مستقبلا من التزامات،يضاف إلى ذلك تمتعهم أيضا بحق تأجير تلك الأرض وتحصيل إيجارات عينية مما تنتجه من محاصيل أو الحصول على إيجارات نقدية[٢٦]، في الوقت الذي تمتعت فيه الكنائس بتأجير الأراضي التابعة لها بعقود إيجارات طويلة بلغت أحيانا عشر سنوات، الأمر الذي أدي إلي أن يحتج المستأجر في كثير من الأحيان عند انتهاء مدة العقد ويتمسك بالاستمرار والبقاء في الأرض، مهما كان الإيجار ومهما جرى تحديد مدة هذا الإيجار، وشاع أيضا في مصر البيزنطية الإيجار الذي ينص على اقتسام المحصول بين المالك والمستأجر، وإن أدى ذلك إلى سوء أحوال المستأجرين الذين رضوا بمبدأ المشاركة في المحصول خاصة في القرن السادس الميلادي[٢٧]

أما عن الضرائب في مصر البيزنطية، فكان الفلاحون يؤدونها للحكومة مباشرة في بعض الأحيان بينما قام أصحاب الضياع بجباية الضرائب

(24)Johnson ·Ec St p. 32
(25)Ibid. p 32
(26) Johnson: Ec St p 75

(٢٧) العريني المرجع السابق ص ١٧٠

المقررة على فلاحيهم لأدائها للدولة في أحيان أخرى، وشملت هذه الضرائب الضرائب العينية أو النوعية التي تمثلت في الشعير والفول والبصل والكتان والزيتون وغيرها من المحاصيل، كما حصلت ضرائب نقدية على الأراضي لاسيما التي تزرع محاصيل أخرى غير الحبوب مثل الكروم وأشجار النخيل وأشجار الفاكهة وما تغله الحدائق[٢٨] من فواكه، كما فرضت ضرائب على الحيوانات مثل الإبل والحمير والخيول والأغنام والماعز إذا كانت فرادي أو بأعداد قليلة، أما إذ شكلت قطعانا بغرض التجارة ، فقد جرى فرض ضريبة المراعي عليها كقطعان الماشية والأغنام والماعز والإبل وغيرها[٢٩]،وفرضت ضريبة على الطيور مثل الحمام والدجاج والأوز والبط وجرى تقديرها وفقا لما يملكه الفرد وعدد ما يملكه منها. وهناك أيضا ضريبة الرأس التي كان ينفق منها على الخدمات العامة كالحمامات والجسور[٣٠]، كما تقرر على أرباب المهن ضريبة خاصة، فضلا عما يرد من الاحتكارات والمكوس التي فرضت على السلع الترفية الواردة من الشرق، وبجانب ذلك كله جرى أحيانا فرض ضرائب استثنائية عديدة لسد بعض النفقات،وكلما احتاجت الحكومة إلى ذلك[٣١]، هذا إلى جانب المصادرات التي كان يلجأ إليها ولاة مصر البيزنطية لصالحهم الخاصة، لا سيما مصادرة الحبوب.

أما عن الضريبة التي اشتهرت باسم " ضريبة الميرة " والتي صارت منذ أواخر القرن الثالث ومطلع القرن الرابع الميلاديين ضريبة دائمة يؤديها

---

(٢٨) مراد كامل: حضارة مصر في العصر القبطي ص ٢٢

(29) Johnson · Egypt .p. 108
(30) Ibid. p. 109
(31) Bury: op.cit.1, p. 47
Vasiliev· op. cit. 1, p.161

المصريون للحكومة البيزنطية، فقد تقررت على إثر ازدياد نفقات الدولة واندلاع الحروب واستمرارها وزيادة أعداد الجند في الجيش وكثرة الموظفين وكثرة نفقات البلاط وتكاليف المنشآت المعمارية، والتي أضافت إلى الأعباء المالية على الدولة[٣٢]، الأمر الذي ترتب عليه تقرير هذه الضريبة التي كانت ضريبة نوعية تؤخذ عينا من كل أقاليم الإمبراطورية بما فيها مصر وارتبطت بما تنتجه هذه الأقاليم من محاصيل، وفي مصر جرى تحصيلها قمحا لينفق منها على الجيش [٣٣]، وأعفى سكان المدن من أدائها.

وعلى الرغم من ذلك يشير المؤرخون إلى أن عصب الضرائب في مصر البيزنطية ارتكز على ضريبتين بصفة أساسية هما : ضريبة الأرض وضريبة الرأس، فقد أشار إلى ذلك أحد ولاة مصر على عهد الإمبراطور دقلديانوس في إحدى الوثائق بقوله" إني لأقرر صراحة ما يخص كل فدان من الضريبة وفقا لطبيعة أرضه، وكذا ما يخص كل رأس من الفلاحين من الضريبة" فكأن ضريبة الأرض وضريبة الرأس تقررتا معا وكانتا أهم الضرائب في ذلك الوقت على الإطلاق[٣٤].

وجرت العادة أن يصدر أمر إمبراطوري بتقدير الضريبة على مصر في كل عام، فيقوم الوالي بتوزيع مقدار الضريبة على أقاليم مصر تمهيدا لجبايتها، إذ أن مقدار الضريبة المطلوبة لم يكن ثابتا في كل عام أو بصفة مستمرة، وإنما كان قابلا للتغير، وبعد أن يجرى تقدير الضريبة علي كل إقليم يقوم حكام الأقاليم أو المقاطعات باتخاذ الخطوات اللازمة لجمع الضريبة التي

---

(32) Camb. Med. Hist. V. XII, p. 400
(33) Bury : op. cit. 1, p. 49
(٣٤) العريني: المرجع السابق ص ١٢٠،
Camb. Med. Hist. V. XII, p. 400

يتولى تقديرها علــى كـل وحـدة مندوبـون عينـوا لهـذه المهمـة تطبيقـا لأوامـر الإمبراطور(٣٥). فإذا لم يكتمل المبلغ المطلوب جرى فرض مبلغ إضافي على كل وحدة.

وجرت العادة أيضا أن تجبى ضريبة الرأس نقدا، بينما جـرى جبايـة ضريبة الأرض عينا، وتشير الوثائق والبرديات المحفوظة من ذلك العصر، إلى أن الضريبة العينية من قمح مصر بلغت أحيانا نحـو ثمانيـة ملايـين إردب، كان لا بد من جمعـها وتسـليمها في الإسـكندرية لمندوبـي الحكومـة تمـهيدا لشحنها إلى القسطنطينية في كل عام ، ولهذا أولى الأباطرة مصر والإسـكندرية بصفة خاصة اهتمامهم(٣٦).

وليس من شك في أن بيزنطية كانت تستهدف استنزاف ثروات مصر، وإظهار القسوة في جباية الضرائب لا سيما ضريبة القمـح، إذ مـن الثـابت أن الضرائب التي كانت تجبيها بيزنطة لم تتناقص طوال العصر البـيزنطي، بـل أنها لم تقل عما كـانت عليـه قبـل ذلـك العصـر، بـل كـانت تـزداد بـاطراد وتتصاعد بمرور السنين، فأدى ذلك إلى سوء أحوال البلاد وإرهاق الناس فـوق ما يطيقون(٣٧)،وأصبحت جباية الضرائب مهمة شاقة لكل سلطة في مصر، إذ كثيرا ما امتنع الناس عن أدائها أو تأخروا في ذلك فتعرضوا للعقوبات وتوقيع الغرامات الإضافية، بل وصودرت أملاكهم وزج بهم في السجون أحيانا وربما لهذا بدأت طبقة صغـار المـلاك في الاختفـاء تدريجيـا خـلال القـرن الخـامس

---

(35) Bury: op. cit. 1, p. 47
(36) Vasiliev: op. cit. 1, p. 160
(37) Ibid. p. 161

والقرن السادس الميلاديين حتى لم يعد لها وجود في أواخر العصر البيزنطي(٣٨).

أما عن منتجات مصر وصناعتها وتجارتها فبالإضافة إلى المحاصيل الزراعية المتنوعة التي ورد ذكرها في الصفحات السابقة، والتي شكلت الجانب الأعظم من القوة الاقتصادية في مصر البيزنطية، عرفت مصر الصناعة في ذلك العصر، خاصة صناعة الأدوات الخزفية والعاجية والزجاجية، كما تميزت مصر بصناعة المنسوجات المختلفة، الكتانية والصوفية والحريرية، واشتهرت كذلك بصناعة ورق البردي الذي كان يجري تصديره لكل أنحاء الدنيا، فضلا عما زخرت به مصر من مناجم الذهب وبعض الأحجار الكريمة والمرمر والبازلت والجرانيت(٣٩).

وانتظم أصحاب كل حرفة في نقابة ترعي مصالحهم، وتخضع لموظف مسئول كان من مهامه مراقبة الأسعار وتحصيل الرسوم وتقديم المعونة لأفراد النقابة، لا سيما العقوبات الاجتماعية عند العجز أو الخسارة أو التعطل، وعرفت مصر البيزنطية الأسواق أو المعارض الكبيرة التي كانت تقام سنويا وأيضا الأسواق الأسبوعية الصغيرة التي كانت تقام في القرى لسد حاجات المناطق الريفية والجهات المجاورة(٤٠).

ولقد شكلت التجارة جانبا هاما من نشاط مصر في العصر البيزنطي(٤١)، إذ كانت مصر تقع على الطريق الذي يربط الشرق بالغرب، والذي تتجمع فيه متاجر الشرق الأقصى وآسيا وإفريقيا وبلاد ما بين النهرين وفلسطين في

---

(38) Bury: op. cit. 1, p. 444

(٣٩) مراد كامل: المرجع السابق ص ٢٢-٢٣

(٤٠) مراد كامل : نفس المرجع ص ٢٣

(41) Vasiliev: op. cit. 1, p.160

طريقها إلى الغرب الأوربي، فقد استقبلت مصر البيزنطية السفن الواردة من الصين والهند وجنوب شرق أسيا وسيلان محملة بالأخشاب والحرايـر والخزف والفلفل والعطور والتوابل والقرنفل والمسك والقطن والنحاس، وما كان يرد من الأحجار الكريمة واللؤلؤ وغيرها من محاصيل الشرق، لتنزل في منطقة القصير ثم تحملها القوافل إلى مدينة قفط على النيل، حيث تشحن في مراكب إلى الإسكندرية حيث تفرض عليها الضرائب (٤٢).

كما استقبلت مصر الحاصلات الإفريقية تتضمن الزمرد والعاج والأبنوس والرقيق والبخور والتوابل والذهب من أواسط إفريقيا، وحملت هذه المتاجر منذ بداية القرن السادس في البحر الأحمر(٤٣)، إلى مدينة القلزم (مكان السويس الحالية)، ثم تتجه هذه المتاجر غربا في القناة التي كانت تصل القلزم بالنيل عند حصن بابليون، ثم إلى مواني البحر المتوسط عن طريق النيل(٤٤)، أما حاصلات بلاد ما بين النهرين وفلسطين فقد كانت تحملها القوافل البرية في طريق يصل إلى مدينة غزة ثم الفرما لتصل إلى مدينة بلبيس فمدينة أون ومنها إلى الإسكندرية (٤٥).

ويشير المؤرخون إلى أن تجارة مصر في العصر البيزنطي تعثرت كثيرا بسبب منافسة الفرس وتحكمهم في بعض الطرق بين الشرق والغرب، والتي ترتب عليها تحويل جانب كبير من التجارة الشرقية إلى الخليج ، وعدم وروده إلى مصر عبر البحرالأحمر، وحاول الإمبراطور جستنيان إعادة النشاط

---

(42) Bury: op. cit. 1, p.53
(43) Ostrogorsky: op. cit. P. 68

(٤٤) مراد كامل المرجع السابق ص٢٣

(٤٥) مراد كامل المرجع السابق ص٢٤

التجاري إلى البحر الأحمر إلى سابق عهده(٤٦)، فأجرى مفاوضات مع الأحباش ليحلو محل الفرس في الوساطة لجلب المتاجر من جزيرة سيلان إلى بيزنطة عبر مصر، ولكن الأحباش لم ينجحوا كثيرا في هذه المهمة، ولم يصب جستنيان في مسعاه توفيقا كبيرا(٤٧)، هذا فضلا عن وجود عوامل أخرى تسببت في تعثر التجارة في ذلك العصر، إذ كان لسخط الشعب المصري وثوراته على الحكم البيزنطي بسبب فداحة الضرائب وعسف جباتها، وعجز الحكومة عن إصلاح فساد الإدارة وعدم استتباب الأمن في الأقاليم والاضطرابات في العاصمة، والاضطهادات الدينية كل ذلك كان له أثر فعال في القضاء على ازدهار التجارة وانتعاش الصناعة في مصر البيزنطية(٤٨).

إذ لم تكن مصر في نظر الأباطرة البيزنطيين إلا حقلا كبيرا ينتج الحبوب، ويثري خزانة الدولة بالأموال، فاستغلوها كما لو كانت موردا لا ينضب وبلدا لا ينتهي ثراؤه دون النظر إلى شعبها أو الاهتمام برخاء أهلها أو النظر فيما عم هذه الولاية أحيانا من فقر وقحط وفساد(٤٩)، ولهذا تسبب البيزنطيون في خراب البلاد وإحداث الدمار بها، ولعل في ذلك يكمن السبب في ترحيب المصريين بالعرب المسلمين والفتح العربي لمصر يحدوهم الأمل في استعادة الأمن والطمأنينة والرخاء والتمتع بحقبة جديدة يظللها الرخاء والثراء ومجتمع ترفرف عليه السعادة والرفاهية(٥٠).

---

(46) Ostrogorski: op. cit. p. 68

(٤٧) مراد كامل نفس المرجع ص ٢٤

(٤٨) العريني المرجع السابق ص ٩٤

(٤٩) مراد كامل المرجع السابق ص ٢٦-٢٧

(50) Butler: the Arab conquest of Egypt, pp. 177-9

التنظيمات الاقتصادية والمالية بعد جستنيان وحتى نهاية العصر البيزنطي في مصر :

باعتلاء جستنيان العرش البيزنطي سنة ٥٢٧م بدأت حقبة جديدة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، فقد اهتم جسيتيان كثيرا بإصلاح أحوال الإمبراطورية وإكسابها الوجه الحضاري الذي تميزت به من قبل والاهتمام كثيرا بأحوالها المالية والاقتصادية (٥١)، ونالت مصر منه عناية فائقة - كما سوف يتضح في الفصل التالي- إذ اهتم بإصلاح أحوالها المالية والاقتصادية ليتسنى له جباية الضرائب المقررة، خاصة وأنه لم يفرض ضرائب جديدة، وإنما كان معنيا فقط بجباية ما كان مقررا من قبل من هذه الضرائب وإن اشتد كثيرا في تحصيلها(٥٢).

ولمعرفة جستنيان بطبيعة مصر وثرائها وخصوبة أراضيها وإمكاناتها الاقتصادية، اهتم كثيرا بالإدارة المالية فيها وحاول جاهدا إصلاح هذه الإدارة وحث الموظفين الماليين على بذل كل جهد لضمان استغلالها ، إذ كانت مصر تؤدي ما تؤديه سائر أقاليم الإمبراطورية من الضرائب فضلاً عما كانت تؤديه من ضريبة القمح للإمبراطورية بشكل جعل لها وضعا خاصا بين أقاليم هذه الإمبراطورية(٥٣).

ومنذ عهد جستنيان غدت الضرائب المفروضة على مصر نوعان : الضرائب المباشرة، والضرائب غير المباشرة، أما الضرائب المباشرة فهي ضريبيا الأرض وضريبة الرأس، وتعتبر ضريبة الأرض أهم الضرائب المباشرة، ويجري تحصيلها عينا أو نوعا إما من نفس محصول الأرض أو تقديرا لهذا

---

(51) Lemerle : Histoire de byzance, pp. 56-7
(52) Vasiliev: op. cit. 1. pp. 162-3
(53) Diehl: L' Egypt Byzantin , p. 465

المحصول، وتشكل هذه الضريبة الجانب الأعظم من الحصيلة الضريبية في مصر البيزنطية(٥٤)، أما ضريبة الرأس فكانت ضريبة شخصية يدفعها السكان كل بحسب مقر إقامته، إذ يجري تسجيل وإثبات أسماء دافعي هذه الضريبة حسب مقر إقامتهم في الشوارع والدروب، كما جرى إلزام أصحاب الحرف بدفع هذه الضريبة، ومنذ أوائل القرن الرابع تقررت هذه الضريبة على الذكور البالغين من العمر ما بين١٢، ٤٥ سنة (٥٥)، كأنها أشبه بضريبة الدفاع.

أما الضرائب غير المباشرة فمنها الضرائب الثابتة أو الدائمة ومنها كذلك الالتزامات الاستثنائية، فالمكوس الجمركية كانت من الضرائب غير المباشرة، وتفرض على السلع والمتاجر التي ترد إلى مصر أو تخرج منها خاصة وأن الحركة التجارية عبر مصر كانت بالغة النشاط (٥٦)، فلقد كان التجار -كما سبق أن أشرنا- يرتحلون من الإسكندرية ومن مواني مصر على البحر الأحمر إلى آسيا يسعون للحصول على متاجر وسلع الشرق كالعطور والمر من اليمن والتوابل واللؤلؤ من الهند والحرير من الصين، وإن تعرضت تجارة الحرير في القرن السادس للأخطار بسبب الحروب التي اندلعت بين بلاد فارس وبيزنطة، خاصة وأن هذه المتاجر بالذات كانت ترد إلى بيزنطة عبر إيران (٥٧)، فحاول جستنيان أن يتخذ طريقا جديدا لتجارة الحرير عبر مصر بوساطة الأحباش اعتباراً من سنة ٥٣٢م، إلا أنه لم يصادف توفيقا كبيرا، وإن عادت الأمور إلى نصابها بين بيزنطة والفرس، وهدأت الأحوال بينهما

---

(54) Camb. Med. Hist. V. XII, p. 400, العريني: المرجع السابق ص١٧٨

(55) Johnson : Economic Studies, p. 259

(56) Vasiliev: op. cit. 1, p. 163

العريني: نفس المرجع السابق ص ١٨٠-١٨١

(57) Vasiliev: op. cit. 1. p. 163

فعادت تجارة الحرير عبر إيران إلى سابق عـهدها(٥٨)، هـذا فضـلاً عـن ورود المتاجر من قلب إفريقية إلى مصر مثل الزمرد والعاج والذهب، وصارت السفن المصرية تحمل مقابل ذلك اللحوم والملح والحديد إلى أهل إفريقية(٥٩).

هذا في الوقت الذي كان فيه من حق مصر أن تصدر بعض منجاتها أو ما تستغني عنـه مـن القمح بعد تأديـة مـا كـان مقررا عليـها مـن الضريبـة للقسـطنطينية، وكذلـك أوراق الـبردي والأوانـي الفخاريـة المصنوعـة في مصـر والمنسوجات الحريرية والعقاقـير وغيرهـا مـن الصناعـات الـتي برعـت فيـها مصر(٦٠)، فترتب على ذلك أن أفادت بيزنطة كثيرا من هذا النشـاط التجـاري بالبلاد بما كانت تفرضـه مـن ضرائـب ومكـوس جمركيـة (٦١)، وكـانت هـذه المكوس الجمركية زمـن جسـتنيان باهظـة حتـى اشتكى السـكان مـن عبئـها فاضطر جستنيان إلى تخفيض هذه المكوس بمقتضى القـانون رقـم ١٣ الصـادر سنة ٥٣٨م (٦٢).

ومن الضرائب غير المباشرة أيضا الالتزامات الاستثنائية، فقد حدث في القرن السادس الميلادي أن تكفلت المدن والقري المصرية بدفع مرتبات موظفي الحكومة، فأضيفت هذه الضرائب الجديـدة إلى مـا كـان يتحملـه النـاس مـن ضرائب والتزامات، وأثقلت بطبيعة الحال كواهل المصريين بهذه الالتزامات الجديدة (٦٣)، إذ أصبح من المفروض أن يفي الناس برواتب موظفي الدوقية أو

---

(٥٨) أسد رستم: الروم ج١ ص ١٧٧

(٥٩) العريني : المرجع السابق ص ١٨٠

(٦٠) مراد كامل : المرجع السابق ص ٢٢

(61) Bury: op. cit. 1, p. 53
(62) Ibid. V. 2, p. 350

(٦٣) مراد كامل: نفس المرجع ص ٢٥

الأبروشية أو الباجركية، دون أن يعفوا مقابل ذلك من أية التزامات أخـرى، فاعتبرت هذه الضريبة ضريبة غير مباشرة (٦٤).

ومن الضرائب غير المباشرة أيضا ما تحمله الناس مـن أعبـاء السـخرة للحكومة كصيانة الجسـور وحفر الترع وتطـهيرها وزراعـة الأراضي العامـة وتمهيد الطرق وشق المصارف وغيرها من الأعباء(٦٥)، فإذا أضفنـا إلى ذلـك مـا كان يتحمله الناس من الرسوم لسد نفقات المحليات وتزويـد الجيـش بـالمؤن والميرة وإمداده بما يحتاج إليه تأكدنا أن الضرائب غير المباشرة شكلت جانبـا كبيرا من الأعباء التي تحملها المصريون في الفترة التي تلت عهد جستنيان إلى نهاية العصر البيزنطي في مصر (٦٦).

أما عن تقدير الضرائب في هذه الفترة فتشير الدلائل إلى أنه لم تتعرض المبـادىء الأساسية لتقدير الضرائب على الأراضي إلا لبعـض التعديـلات الطفيفة، فلا زالت النظم التي اتبعها البـيزنطيون منـذ القرن الرابـع سـارية تقريبا باستثناء تعديلات قليلة (٦٧). إذ ظلت أراضي مصر مقسمة إلى الوحدات المساحية التي عرفتها مصر البيزنطية منذ البداية، ربما منذ عـهد الإمـبراطور دقلديانوس، فضلا عن أن ما كان مقررا على كل وحدة من هذه الوحدات من الضريبة ،إنما جرى بمقتضى العرف والعادة، وما كان سـاريا لفـترة طويلـة، لكن نوع الضريبة نفسه هو الذي ارتبط بحالـة الإقليـم وقدرتـه الإنتاجيـة (٦٨) وظلت بيزنطة ترسل من قبلها مندوبين إلى مصر لشرح الطريقة التي تتبـع في

---

(64) Johnson : op. cit.p.325
(65) Ibid.p.330

(٦٦) مراد كامل :نفسه ص ٢٦

(67) Bury : op. cit. 1,p. 46

(٦٨) العريني: المرجع السابق ص ١٨٢

تقدير الضريبة وتحصيلها في سائر الأقاليم، وجرت التفرقة عند تقدير الضرائب، بين الأرض المهملة وبين الأرض المنتجة وبين الأرض التي لا تصلها مياه الفيضان والأرض التي تروي بسهولة.

واستمرت بيزنطة أيضا في هذه الفترة في اتباع الطريقة المعتادة التي تجعل المسئولية جماعية يتحملها دافعوا الضرائب في كل جهه، فتقوم بتوزيع الضرائب على جميع الأراضي سواء كان لها مالك أو لم يكن لها مالك(٦٩) أو أهملت بتحميل جيرانها ما هو مقرر عليها من ضرائب، فتضمن بذلك جباية الضرائب على الأرض التي هرب ملاكها تجنبا لدفع هذه الضرائب، أو الأراضي التي أهملها أصحابها لسبب أو لآخر، فأصبح لزاما على أهل المنطقة التضامن لدفع ضرائب الأراضي التي هجرها أصحابها أو هربوا منها والأراضي التي أهملها أصحابها لسبب أو لآخر(٧٠). ويبدو أنه منذ عهد جستنيان أصبح أهل كل إقليم مطالبين بزراعة الأراضي المهملة، أي أن يزرع الشخص ما يجاوره من أراضي مهملة أن وجدت، لأنه في النهاية مطالب بدفع ما هو مقرر عليها من ضرائب، وظل هذا النظام معمولا به حتى نهاية الفترة البيزنطية في مصر(٧١).

وحرصت بيزنطة على تقدير الضريبة المراد تحصيلها من أهل كل قرية، فمتي تحدد مقدار هذه الضريبة جرى توزيع هذا المقدار على كل سكان القرية، مع الأخذ في الاعتبار مساحة الأرض ودرجة خصوبتها والحالة التي هي عليها سلبا أو إيجابا(٧٢)، ويبدو أن أعيان كل قرية أو شيوخها كانوا

---

(69) Ostrogorsky: op. cit . p. 38

(٧٠) مراد كامل : المرجع السابق ص ٢٥

(71) Vasiliev : op. cit.1.p.161

(٧٢) العريني: نفسه ص ١٨٣

يشتركون في تقدير هذه الضرائب في الوَقت الذي أنيط فيه بأعضاء المجلس البلدي التحري جيدا عن دافعي الضرائب وعدم التسليم بما يقدمه أعيان القرية وشيوخها من بيانات في ذلك أو بما يقدمه الملاك من إقرارات بقبول ما قدر عليهم من ضرائب (٧٣)، فإذا كان ذلك قد حدث فعلا فإنه إنما يؤكد حرص بيزنطة على أن يأتي تقدير الضرائب مناسبا للغالبية العظمى من أهل كل قرية ، وإن لم تلتزم بذلك كثيرا(٧٤).

أما عن جباية الضرائب فتشير الروايات والوثائق من ذلك العصر إلى أن الضريبة ظلت تؤدى في هذه الفترة على ثلاثة أقساط خلال السنة ، وكان هذا التقليد هو المتبع منذ أوائل القرن الخامس الميلادي أي منذ عهد الإمبراطور أنستاسيوس، ولم تتغير هذه القاعدة في الفترة التي نحن بصددها، ولا بد وأن بيزنطة أدركت أن تحصيل الضريبة على ثلاثة أقساط خلال العام، إنما يخفف العبء إلى حد كبير على دافعي الضرائب ويعطيهم فرصة الأداء ويسهل عليهم المهمة كثيرا، وجرت العادة على أن قسما من الضريبة كان يرسل إلى الخزانة العامة بالعاصمة (٧٥)، بينما يجري إرسال القسم الآخر إلى خزانة الوالي الكبير بالإسكندرية.

وعلى هذا أصبح تحصيل الضرائب أو القسم الذي برسم الخزانة العامة من الضرائب من مهام الدوق وإدارته المالية، يعاونهم الجند ويساعدهم أحيانا الموظفون المدنيون في استخلاص هذا القسم من الضرائب، وكانت مهمة شاقة وشديدة الوطأة على هؤلاء (٧٦)، على حين كان تحصيل الضرائب المقررة علـى

---

(73) Bury: op. cit. 1, pp. 46-7

(٧٤) مراد كامل : نفس المرجع السابق ص ٢٥

(75) Bury: op .cit.1,pp. 46-47

(76) Vasiliev · op. cit. 1.p.161

الأبروشية أو الوحدة الإدارية من مهام رئيس الأبروشية دون أن تكون له سلطة جباية الضرائب في المدن، أي أنه كان يجبي الضرائب في قسمه الإداري الريفي دون المدن، فقد كانت هذه المدن ومجالسها البلدية خاضعة للدوق مباشرة في هذه الناحية، في الوقت الذي تولى فيه الباجركات أو حكام المدن الريفية الإشراف على جباية الضرائب في مدنهم أو الباجركات الخاصة بهم ويعطون الإيصالات بذلك لدافعي الضرائب فضلا عن قيام نوابهم في القرى التابعة للباجركية بتحصيل الضرائب من موظفي هذه القرى(٧٧).

ومعنى ذلك أن جباية الضرائب جرت في الدوقية والأبروشية والباجركية. فالدوقية هي القسم الإداري الكبير أو الإقليم ، والأبروشية هي القسم الإداري الأصغر، ثم الباجركية وهي المنطقة الريفية التي تتوسطها مدينة ريفية. أما المدن المصرية الكبيرة غير الريفية فقد تولى جمع الضرائب فيها نواب البلدية الخاضعون مباشرة لسلطة الدوق– كما سبق أن أشرنا – لأن سلطتهم لم تتجاوز كثيرا الأراضي المحيطة بهذه المدن (٧٨). وهناك أيضا ما كان يعرف بالقرى المتمتعة بحق الجباية الذاتية تمييزا لها عن القرى العادية، فكان أعيان تلك القرى يعتبرون مسئولين عن جباية الضرائب تحت إشراف مندوبي الحكومة ، وهناك أيضا الضياع المتمتعة بحق الجباية الذاتية، والتي كان يتولى تحصيل الضرائب فيها جباة معينون لجباية ما هو مقرر عليها من الضرائب من الفلاحين المقيمين بأرض ملاكها ويعطون الفلاحين إيصالات بذلك نظرا لأنه لم يكن من حق مندوبي الإدارة المالية المركزية الدخول إلى هذه الضياع(٧٩).

---

(77) Johnson : Economic studies , p. 219

(٧٨) العريني: المرجع السابق ص ١٨٨

(79) Bury : op. cit. 1, p. 48
Lemerle : op. cit. p. 61

أما ضرائب الجمارك فقد تولى تحصيلها موظفون عينوا لإدارة نقط الجمارك التي لم تختلف مواضعها عما كانت عليه في العهد الروماني ، فجمارك الشمال كانت بجوار الإسكندرية، وجمارك الشرق كانت بمدينة القلزم، وجمارك الجنوب كانت في أطراف طيبة، وكانت نقط الجمارك هذه كبيرة الأهمية لبيزنطة، لأنها تولت تحصيل الضرائب على الصادر والوارد إلى مصر من متاجر وسلع والتي من خلالها كانت بيزنطة تحصل على أموال كثيرة، باعتبار مصر بلدا تجاريا وصناعيا عظيما وطريقا للتجارة بين الشرق والغرب في ذلك الوقت(٨٠).

ومنذ عهد جستنيان اهتمت بيزنطة كثيرا بجباية الضرائب في مصر خاصة تقدير المبالغ المقررة على الناس والوقت المناسب لتأديتها، وإعطاء الإيصالات الدالة على أدائها لدافعي الضرائب لتكون مستندا لكل منهم أمام السلطات المالية، ويبدو أن جستنيان نفسه هو الذي أظهر هذا الاهتمام البالغ بجباية الضرائب في مصر (٨١)، لحرصه على إثراء خزانة الدولة من جهة ولحماية سكان مصر من جهة أخرى، وليجنب الإمبراطورية ما يمكن أن يحدث من أزمات مالية تهدد أمنها وسلامتها من جهة ثالثة، فضلا عن حرصه على كفالة أمن مصر واستمرار الهدوء فيها خاصة بعد أن شهدت مصر اضطرابات مالية ونقدية في بداية عهده(٨٢)، وربما لهذا أصدر جستنان القانون رقم ١٣ المشار إليه آنفا والذي سوف نتحدث عنه بالتفصيل في

---

(٨٠) مراد كامل: المرجع السابق ص ٢٣-٢٤،

العريني: المرجع السابق ص ١٨٠

(81) Lemerle: op. cit. p. 61

(82) Vasiliev : op. cit. 1,p. 161

Bury : op. cit. Vol. 1, p.49

الفصل التالي لمعالجة الأضرار التي نجمت عن تعرض مصر لأزمة مالية واقتصادية بسبب انخفاض سعر العملة واضطراب الأمور المالية فيها(٨٣)،وهذا يفسر أيضا تقبل الحكومة في تلك الفترة من دافعي الضرائب ما هو مقرر عليهم من ضرائب عينا بدلا من أدائه نقدا وذلك منذ سنة ٥٥٩م(٨٤).

وعلى الرغم من ذلك كله، وما أظهره جستنيان من حرص على إصلاح نظم الضرائب في مصر البيزنطية، فقد تسربت عيوب ونقائص إلى نظمه المالية والاقتصادية في مصر، فقد ظهر ما عرف بحق الاحتماء أو الحماية الذي تمتعت به الكنائس بصفة خاصة والذي منحته لمن كان يلجأ إليها هربا من الضرائب وعسف رجال الحكومة في جبايتها، واستغل كثير من الدنيين هذه الثغرة للتهرب من دفع الضرائب، كما استغله بعض المختلسين من موظفي الدولة للاستيلاء على ما كانوا يقومون بتحصيله من ضرائب دون توريده لخزانة الدولة(٨٥)، فضلا عما قام به موظفو الأبروشيات من منح بعض دافعي الضرائب هذا الحق أيضا ليحتفظوا لأنفسهم بأكبر قدر من الأموال التي يجمعونها وعدم توريدها لخزانة الحكومة(٨٦).

ولهذا تنبه جستنيان إلى هذه العيوب، وأصدر أوامره للموظفين ليكفوا عن منح حق الالتجاء أو الحماية هذا لدافعي الضرائب، وإن لم يؤد هذا الإجراء إلى ما كان يؤمله جستنيان من ذلك (٨٧)، ولهذا فقد نص جستنيان في مرسومه رقم ١٣ على أنه ليس من حق بطريرق الإسكندرية الحصول من

---

(83) Johnson : op. cit. pp. 173-4
Bury : op. cit. 2. pp.357-8

(٨٤) العريني: نفس المرجع السابق ص ١٩٢

(85) Diehl : op. cit. p. 466
(86) Ibid.p.466
(87) Lemerle : op. cit. p. 61

المدنيين ودافعي الضرائب على أية أموال ، كان ينبغي أن يؤدوها للدولة وإن كان من حق البطريرق– في حالات معينة فقط– إيواء المولين الذين حصلوا على موافقة على تأجيل سدادهم للضرائب من موظفي الدولة، إذ يعتبر التأجيل في هذه الحالة وحدها أمرا مشروعا، على أن يلتزموا بدفع ما عليهم من ضرائب عند انقضاء أجل المهمة التي منحها لهم البطريرق بموافقة الوالي وموظفيه(٨٨).

وفي هذا الإطار أيضا اهتم جستنيان بموضوع الإيصالات التي ينبغي أن يمنحها الموظفون الماليون لدافعي الضرائب، فأصدر تعليماته بذلك ليمنع هؤلاء الموظفين من اختلاس جانب مما كانوا يجمعونه من الضرائب، وتعمدوا الإهمال في تحرير الإيصالات أو حرروها دون تحديد ليتيسر لهم إخفاء ما صار في حوزتهم من أموال(٨٩)، فأمر جستنيان بأن يسلم دافع الضريبة إيصالا وتحرر نسخة أخرى فيها تحديد عدد الوحدات التي أديت عنها الضريبة واسم المالك وقيمة الضريبة التي حصلت منه برسم خزانة الوالي، أو ما كان برسم خزانة الإمبراطور، وأكد جستنيان على ألا يطلب جباة الضرائب من المولين إلا ما هو مقرر عليهم من الضرائب دون زيادة(٩٠).

ننتقل الآن إلى موضوع إيداع الضرائب، فقد سبق أن أشرنا إلى أن الضرائب المحصلة من مصر لم تكن كلها تذهب إلى بيزنطة أو إلى خزائنها العامة، إذ أن جانبا منها فقط هو الذي يجري إرساله إلى الخزانة العامة والجانب الآخر يجرى إنفاقه في مصر ، وفي هذه الفترة كان الجانب الثالث يرسل إلى خزانة والي الشرق، وهذا يفسر أن والي الشرق الذي كان مقره

---

(88) Deihl: op. cit. p. 466
(89) Bury : op. cit. p. 466
(90) Ostrogorski: op. cit. Vol. p. 60

القسطنطينية كـان يرسـل في كـل عـام مندوبـين مـن لدنـه إلى مصـر ليطلعـوا المسئولين فيها علـى مـا ينبغـي إرسـاله إلى الخزانـة العامـة وإلى خزانـة والي الشرق، وما ينبغي إبقاؤه في مصر(٩١).

ويؤكد المؤرخون أن جستنيان أصـر علـى ضـرورة عمـل موازنـة دقيقـة للإيرادات والمصروفات في مصر حتى تتضـح المبـالغ الـتي ينبغـي أن تـرد إلى خزانة والي الشرق، وما كان يخصص في مصر لدفع رواتب الموظفـين ونفقـات الجند المرابطين بمصر وغير ذلك من النفقات الحكوميـة (٩٢)، وبالتـالي يتضـح المبلغ الذي يجري إرسـاله إلى الخزانة العامة بالقسطنطينية في النهاية، ولهذا تقرر منذ عهد جستنيان أن تخصـص في كـل وحـدة إداريـة إدارة متخصصـة لمراقبة ما تحصل من الوحدة من ضرائب وما ينبغي أن ينفق من هذه الضرائب وما ينبغي أن يرسل إلى خزانة الدولة(٩٣).

ولهذا كان إيداع الضرائب يجري في دقـة في الوحـدات الإداريـة طبقـا للنظام التالي: في القرى المتمتعة بحـق الجبايـة الذاتيـة كـانت هنـاك خزانـة وإدارة للحسابات يثبت بـها إجمـالا الإيـرادات والمصروفـات وقوائم بأسمـاء المولين من دافعي الضرائب بالقرية، وما يجري تحصيله من أموال يجمع في الخزانة، ثم يبعث به إلى حاضرة الأبروشـية، وفي الأبروشـية أيضـا موظفـون وخزانة يحفظ بها ما تحصل من سائر أنحـاء الأبروشـية مـن قـرى وضيـاع، ويشرف متولي الخزانـة في الأبروشية علـى تسـلم الضرائـب والإشراف علـى حفظها(٩٤)، على حين كانت المدن الريفية أو مـا عـرف بالباجركـات، وهـي

---

(٩١) العريني: المرجع السابق ص ١٩٤

(92) Johnson: op .cit. p. 275
(93) Bury : op. cit. V.2, p. 358
(94) Johnson: op. cit. p.178

التي سبق تعريفها بأنها المدن التي تتوسط أماكن ريفية، فكـان في كـل منـها خزانة أيضا يودع فيها ما يتحصل من ضرائب وبها إدارة للحسابات وموظفين ماليين وكتبه للقيام بهذه الأعمال المالية. أما المدن غير الريفية فكـان نوابـها يؤدون ما يتحصل لديهم من ضرائب إلى خزانة الدوق مباشرة (٩٥).

واتضحت بذلك الخطوط العريضة لعملية إيداع الضرائب، كما اتضحت أيضا البنود الثلاثة الهامة التي توزع بموجبها الضرائب المتحصلـة في مصـر، فالقسم الذي يخص الخزانة العامة بالعاصمة القسـطنطينية يرسـل مـن أجلـه مندوبين من العاصمة للإشراف على نقله مـن مصـر إلى القسـطنطينية بعـد أن يجري تجميعه في الإسكندرية من سائر الوحدات الإداريـة (٩٦)، بينمـا القسـم الذي برسم خزانة والي الشرق يأتي من أجله مندوبين أيضا لتسلم هذا الجانب من أموال الضرائب برسم خزانة والي الشرق (٩٧)، على حين يشرف عـدد مـن الموظفين في ديوان الدوق الكبير بمصر علـى القسـم الثـالث مـن متحصـلات الضرائب وهو الذي ينفق منه على رواتب الموظفين ونفقـات الجنـد المرابطـين بمصر وغير ذلك من النفقات الحكومية الحربية والمدنية والنفقات العامة (٩٨).

ويمكن تحديد النفقات الداخلية التي كان يصرف عليها هذا القسم من الضرائب بأنها نفقات الدوقية ونفقات الأبروشية ونفقات الباجركية، ونفقات المدن غير الريفية. أما نفقات الدوقية فقـد اختصـت برواتـب الـدوق ورواتـب موظفي ديوانه المـاليين والإداريـين ومعظمـها نفقـات مدنيـة، إلا إذا الـتزمت

---

(٩٥) العريني: المرجع السابق ص ١٩٥-١٩٦

(96) Vasiliev: op. cit. V.1, p.161

(٩٧) العريني: نفس المرجع السابق ص ١٩٦

(98) Johnson: op. cit. p. 275

الدوقية بدفع رواتب بعض الجند المرابطين بها إن وجدوا(٩٩). أما نفقات الأبروشية فقد تكفل رؤساء الأبروشيات بدفع أيضا رواتب موظفيها سواء كانوا ماليين أو إداريين ، خاصة وأن هذه الوحدة الإدارية ضمت العديد من القرى والضياع المختلفة وعمل فيها عدد من الموظفين تكفلت الأبروشية بدفع رواتبهم(١٠٠). أما نفقات الباجركية أو المناطق الريفية التي تتوسطها مدن فكان على الباجرك مسئولية دفع رواتب الموظفين وتوزيع النفقات التي تدخل في نطاق وحدته الإدارية بعد أن يتسلم الضرائب من القرى والمدينة الداخلة في زمام باجركيته. أما نفقات المدن غير الريفية فتشمل مرتبات موظفي البلديات والإنفاق على الخدمات العامة كالبريد والحمامات العامة والمدارس وغير ذلك من الخدمات الدنية(١٠١). أما مدينة الإسكندرية بوصفها عاصمة لمصر فمنذ عهد جستنيان جرى الاهتمام بها وبنفقاتها وتخصيص ميزانية خاصة بها، ونص قانون جستنيان رقم ١٣ على تخصيص ما يسد نفقاتها العامة كالحمامات والملاعب وخزانات المياه العامة ووقود الحمامات وأيضا ما يخص نقل القمح إلى العاصمة وغير ذلك من النفقات العامة في هذه المدينة الكبيرة(١٠٢).

أما عن العقوبات التي يجري توقيعها على موظفي المالية في حالة إهمالهم، فمنذ عهد جستنيان لجأت السلطة إلى توقيع العقوبات على موظفي الإدارات المالية إذا ثبت إهمالهم أو ركنوا إلى التقصير في أداء مهامهم أو ارتكبوا أية مخلفات، فيبدو أن جستنيان نفسه أدرك أن هؤلاء الموظفين

(99) Bury: op. cit. V. 2, p.358
(100) Johnson : op. cit. p.271
(101) Ibid.p.303
(102) Vasiliev : op. cit. V.1, p160
Johnson : op. cit.p.104

بجانب قيامهم بما هو موكول إليهم من أعمال فإنهم سوف لا يغفلون أيضا مصالحهم الخاصة(١٠٣)، ولهذا سن جستنيان القوانين التي تبيح له معاقبة المهملين منهم والمخالفين وتوقيع الجزاءات عليهم، ولا شك أن ذلك أدى إلى نتائج طيبة إلى حد كبير، فصار الموظفون أو الجانب الأعظم منهم يعملون لصالح الدولة، ويلتزمون بأداء مهامهم وأعمالهم بهمة وبالدقة المطلوبة، فأدت إصلاحات جستنيان المالية في مصر البيزنطية فضلا عن استتباب الأمن والطمأنينة إلى اختفاء ما كان يحدث من سرقات أو على الأقل الإقلال منها كثيرا، فبدأت مرحلة هامة في حياة مصر المالية والاقتصادية(١٠٤).

وتشير وثائق ذلك العصر إلى أن هذه العقوبات تراوحت بين الطرد من الوظيفة ودفع الغرامات ومصادرة الممتلكات، لكل من ثبت إدانته من الموظفين الماليين بالإهمال أو التقصير أو حجز جانب من الأموال لنفسه أو التغاضي عن تحصيل ما هو مقرر من الضرائب أو ارتكاب أية مخالفة مالية بالتزوير أو التدليس أو السرقة(١٠٥)، فقد طالبتهم الدولة برعاية المصالح العامة والالتزام بالأمانة في أداء أعمالهم ومنحتهم الحماية أيضا لأداء هذه المهام، وسهلت مهمتهم بأن وضعت في سلطتهم استخدام العسكريين وقادة الجند، وكذلك المدنيين لمساعدتهم وتعضيدهم، فإذا تعرض أحد منهم للمقاومة من دافعي الضرائب جاز لهم الاستعانة بالجند العسكريين وموظفي الديوان لمساعدتهم واستخدام الشدة في معاملة العارضين، فإذا قصر هؤلاء في المساعدة تعرضوا أيضا بدورهم للعقوبة (١٠٦).

(103) Bury: op. cit. V.2, p.358
(104) Diehl: op. cit. p. 467
(105) Ibid.p.467
(106) Vasiliev:op. cit. V. 1,p.159

ونصت قوانين جستنيان على توقيع العقوبات أيضا على رجال الكنيسة، إذا منح أحدهم متهربا من الضرائب حق الالتجاء أو الحماية في غير الحالات التي أشرنا إليها من قبل والتي تقرها القوانين الإمبراطورية وبدون موافقة البطريرق، فقد تقرر عزلهم من وظائفهم وحرمانهم من الانتساب إلى الكنيسة منعا للكنيسة من أن تظل تمارس منح الحماية والالتجاء للمولين وحرمان الدولة من جانب كبير من دخلها من الضرائب(١٠٧)، بل نصت قوانين جستنيان أيضا على التزام الكنيسة إذا ثبت مخالفتها بدفع التعويض المالي المناسب بجانب توقيع العقوبات المشار إليها علي رجالها المخالفين.

ولم تتثن قوانين جستنيان أحدا من توقيع هذه العقوبات حتى من الموظفين الكبار في مصر، فنصت علي توقيع الجزاءات أيضا علي الدوق والباجرك، وعلي القادة العسكريين في مصر في حالة ثبوت إهمالهم أو مخالفتهم للنظم المالية والاقتصادية أو ارتكاب أية مخالفة في هذا الشان (١٠٨)، وصلت حد العزل من الوظيفة والطرد وتوقيع الغرامة في كثير من الأحيان بل والمصادرات إذا ثبتت السرقة أو حجز جانب من أموال الدولة لأنفسهم، وتشير النصوص إلي أن جستنيان نفسه تولي محاكمة بعض الباجركات أو رؤساء المدن الريفية الذين أهملوا في أداء وظائفهم، والتي تسبب عنها أنه لم يكن يصل إلي خزانه الدولة مما يجمعونه سوي الثلث في حين يصل الباقي إلي جيوبهم (١٠٩)

---

(١٠٧) العريني: المرجع السابق ص ٢٠٠

(108) Diehl: op. cit. p.467

(١٠٩) فشر: تاريخ أوروبا في العصور الوسطي ق١ ص٥٣

بينز: الإمبراطورية البيزنطية ص٥٠

أما عن العقوبات التي توقع على الممتنعين عن دفع الضرائب من المولين أو الذين يقامون السلطات منهم أو الذين يثيرون الفتن أو يتمادون في إثارتها وإحداث القلاقل حتى لا يؤدون ما هو مقرر عليهم من ضرائب، فقد تقرر مصادرة أملاكهم وأموالهم ونفيهم في بعض الأحيان من مصر هم ومن يساعدونهم من الأصدقاء أو الأقارب أن من يثبت معاونتهم في التهرب من دفع الضرائب أو عرقلة أعمال الجباة(١١٠) أما أولئك الذين هجروا أراضيهم تهربا من تأدية الضرائب المقررة عليها، فقد أمر جستنيان الوالي في مصر بأن يتتبعهم ويجد في البحث عنهم حتى ولو امتد هذا البحث في إقليم لا يدخل أصلا ضمن نطاق عمله(١١١).

ويشير المؤرخون إلى أنه على الرغم من ذلك كله، وعلى الرغم من حرص جستنيان على توفير الحماية للسكان من عسف الموظفين الماليين، وما يمكن أن يرتكبوه من مظالم في مصر، وتوفير الأمن وكفالة الطمأنينة في البلاد، وحرصه أيضا على استخلاص الضرائب كاملة ومنع الموظفين من اختلاسها أو اختلاس جانب منها. بمختلف الطرق، فإن ما اتخذه هذا الإمبراطور من أساليب وما وضعه من خطط لم يثمر كثيرا ولم يتحقق له ما أراد(١١٢)، وظلت جوانب من هذه الأموال تذهب إلى جيوب الموظفين والمختلسين منهم، ولم يصل إلى خزانة الدولة العامة إلا جزاءا من تلك الأموال، ولم يستطيع جستنيان سد كل الثغرات أمام اللصوص والمختلسين، ولهذا لم تتحسن كثيرا

(110) Diehl: op. cit. p.120
(111) Vasiliev: op. cit. V.1p.159
(112) Bury : op. cit. V.2,p.358

أحوال البلاد المالية والاقتصادية، خاصة في الفترة التي تلت عهد هذا الإمبراطور(١١٣).

أما بالنسبة للضريبة الأهم المفروضة على مصر، فقد كانت من الضرائب الهامة في العصر البيزنطي فقد حرص الحكام الذين استولوا على مصر في كل الأزمنة على استغلال موارد البلاد إلى أقصى حد وإلزام الفلاحين المصريين بدفع ضرائبهم وسداد الضريبة المعروفة بالغلال(١١٤)، ومنذ أن أصبحت القسطنطينية عاصمة للإمبراطورية توقف ما كان يرسل إلى روما من القمح برسم الميرة أو ما كان يعرف باسم " الميرة المدنية" تمييزا لها عن " الميرة العسكرية" التي كانت تقدم لإطعام الجنود، وغدت الشحنة تبحر في كل سنة من الإسكندرية ...ـمدينة إلى العاصمة القسطنطينية لإطعام أهلها، وبعد ذلك كان جزء من القمح يبقى في الإسكندرية لإطعام أهلها أيضا(١١٥).

ويذكر المؤرخون أن الإمبراطور جستنيان اهتم كثيرا بهذه الضريبة، وما كان يرد إلى العاصمة منها باسم الميرة لأن تأخير تسليم القمح أو أي نقص في الكمية المطلوبة إنما يؤدي إلى إثارة الفوضى في القسطنطينية ووقوع الحوادث الخطيرة(١١٦) وكذلك يحدث في مدينة الإسكندرية، ولهذا اهتم جستنيان كثيرا بجباية هذه الضريبة، وأمر بأن ينقل القمح تباعا بواسطة القنوات المنتشرة في أنحاء مصر إلى النيل حيث يجري حمله إلى مدينة الإسكندرية، ومنها تشحن الكمية المخصصة للقسطنطينية(١١٧)، وتضمن القانون رقم ١٣ كل التفاصيل المتعلقة بالقمح وجمعه ونقله وكذلك العقوبات التي توقع على كل

---

(113) Ostrogorski:op cit p.67
(114) Diehl:op cit p 469
(115) Bury: op cit. V 1,p 46-47
(116) Vasiliev op cit. V 1,p,160
(117) Diehl: op cit. p. 469

مـن يتسـبب في تأخـير حملـة أو شـحنة إلى الإسـكندرية وإلى العاصمـة الإمبراطورية(١١٨).

وكان قد جرى تحديد كمية القمح التي ينبغي شحنها إلى القسطنطينية منذ عهد قنسطنطين أي أن ما يخص العاصمة من ضريبة القمح كان قد تحدد منذ فترة طويلة، ولهذا لم يشر القانون رقم ١٣ الذي أصدره جستنيان إلى ثمة تعديلات جوهرية في هذه الناحية، وظلت الكمية المراد شـحنها إلى العاصمـة كما هي تقريبا دون تغيير كبير. وإن ارتفعت إلى حد ما نفقات نقـل القمـح أو ما عرف بالنولون لنقل هذه الكمية التي بلغ مقدارها نحو ٨ مليـون إردب أو (٢٤مليـون مـد)، وبعـد أن أصبـح إقليـم ليبيـا تابعـا لمصـر، رأت الحكومـة البيزنطية أن إنتاج هذا الإقليم يقل كثيرا عما تنتجـه أقـاليم مصـر الخصبـة، ولهذا مالت في كثير من الأحيان إلى إعفاء هـذا الإقليـم مـن تقديـم مـا كـانت تقدمه أقاليم مصر من القمح(١١٩).

واتبع في تقدير ضريبة القمح ما كان يتبع في تقديـر الضرائـب النقديـة الأخرى في أنحاء مصر في تلك الفـترة، فجـرت العـادة أن يقـوم والي الشـرق بتقدير الكمية التي ينبغـي إرسـالها إلى العاصمـة مـن القمـح، فتتـولى إدارات الدوق اتخاذ ما يلزم لتوزيع هذه الكمية على الأقسام الإدارية في كل أبروشية وما تتبعها من المدن والقـرى والضيـاع(١٢٠)، وروعـي في توزيـع ضريبـة القمـح مساحة الأرض ودرجة خصوبتها وحالتها الزراعية سلبا أو إيجابا، فـالأرض الصالحة تماما للزراعة غير الأرض التي تعاني أي نوع مـن القصـور فتكفلـت

---

(118) Ibid. p. 469

(١١٩) العريني: المرجع السابق ص ٢٠٣

(١٢٠) العريني: نفسه ص ٢٠٤

الأراضي شديدة الخصوبة أو التي عرفت بالجزائر وهي الأراضي التي تغمرها مياه الفيضان والتي يصيبها أكبر قدر من غرين النيل ما يجعلها أخصب أراضي مصر بتوريد أعلى نسبة من ضريبة القمح(١٢١)، إذ كان يؤدي الفدان منها مقدار أردب ونصف من القمح كضريبة سنوية، ويؤدي الفدان في الأراضي الأخرى الصالحة للزراعة مقدار أردب وربع من القمح سنويا، بينما يؤدي الفدان من الأراضي الأقل خصوبة نصف إردب قمح فقط في كل عام، وكانت الحكومة تلزم أصحاب المستنقعات وأصحاب البساتين أداء نصف أردب من القمح لكل فدان على الرغم من أن هذه المستنقعات لم تكن تصلح لزراعة القمح بينما كانت البساتين معنية بإنتاج محاصيل أخرى غير القمح(١٢٢).

ويشير ا المؤرخون إلى أن الحكومة البيزنطية لم تكن في كل الفترات متعسفة في جباية هذه الضريبة ، بل إنها أظهرت أحيانا بعض المرونة في نظمها الضرائبية في مصر، فقد اهتمت في كثير من الأحيان بتفقد مندوبيها أراضي مصر لتقدير درجة خصوبتها وتحديد نصيبها من هذه الضريبة وما يمكن أن تؤديه منها، فأرسلت مساحين للأراضي للقيام بهذه المهمة(١٢٣)،وحدث أحيانا أن انخفض النيل أو خاب المحصول لسبب أو لآخر، لم يجر دائما التمسك بتحصيل الكميات المحددة على الفلاحين بل جرى في تلك الأحيان التجاور عن بعض الضرائب خاصة بالنسبة للمزارعين الذين لم تتوافر لهم كميات المياه اللازمة لري أراضيهم ووفرة محاصيلهم(١٢٤).

---

(121) Johnson: Economic studies. p. 288
(122) Ibid p.279
(123) Vasiliev: op. cit. V. 1, p. 160
(124) Bury:op.cit.V.1 pp. 46-47

وجرت جباية القمح وفق نظم وقواعد محددة، فكان ينبغي جباية الكمية المقررة في نفس السنة التي تحددت فيها، وليس عن سنة سابقة أو لاحقة وفي هذه الفترة منذ عهد جستنيان والتي صار للدوق فيها الجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية، أصبحت سلطة الدوق مطلقة في كل ما يتعلق بجباية القمح في القرى والضياع والأيروشيات والباجركات الواقعة في نطاق دوقيته، وهذا النظام الذي اتبع بعد صدور القانون رقم ١٣ غاير به جستنيان النظم التي كانت تتبعها بيزنطة في جباية القمح في الفترة السابقة(١٢٥).

وغدا من الشروط الهامة لجباية القمح في هذه الفترة التزام عمال الخراج بالتأكد من جودة القمح وصنفه وخلوه من العيوب قبل تسلمه من الفلاحين، وكذلك التأكد من خلوه من كل وسائل الغش، نظرا لأنه يمكن للفلاح أن يخلط أنواعا رديئة بغيرها طيبة أو أن يضيف إلى القمح مواد أخرى تعطيه فرصة كسب جزء مما هو مقرر عليه من ضريبة(١٢٦)، وكان ينبغي أيضا جباية القمح في سرعة بالغة من سائر أنحاء القطر المصري لتصل الكمية في الوقت المحدد خشية التلف من ناحية وللوصول قبل قدوم قوافل السفن التي تحمله إلى الإسكندرية من ناحية أخرى(١٢٧).

ويشير المؤرخون إلى أنه في بعض الأحوال الاستثنائية جرى تحصيل هذه الضريبة نقدا بدلا من القمح في هذه الفترة بالذات، التي تلت عهد جستنيان، حتى تحولت ضريبة القمح أحيانا إلى ضريبة نقدية ربما منذ أوائل القرن السابع الميلادي، ويقال أن الإمبراطور موريس (٥٨٢-٦٠٢م) باع كل ما تقرر على مصر من ضريبة القمح مستعيضا عنها بالنقد أو بالضريبة

---

(125) Diehl: op. cit. p. 469

(١٢٦) العريني: المرجع السابق ص ٢٠٧

(127) Diehl:op.cit,p.469

النقدية[١٢٨]، وهذا يوحي بأن بيزنطة قبلت أحيانا تحصيل هذه الضريبة نقدا ربما حين عجزت عن إرغام الفلاحين على الوفاء بما كان مقررا عليهم من هذه الضريبة أو حين عانى هذا المحصول في بعض الأحيان بعض المصاعب ولم تنجح مصر في إنتاج ما كانت تتوقعه بيزنطة من القمح، أو حين عجزت مصر عن الوفاء بما كانت ترسله للعاصمة وللإسكندرية منه فضلا عما احتاجه الفلاحون من كميات منه.

وكان يجرى تخزين القمح في الشون العامة التي يرد إليها القمح، ويظل بها حتى يشحن إلى الإسكندرية وهذه الشون العامة كانت نوعان: الشون الكبيرة والشون الصغيرة، وكانت الشون الكبيرة تستخدم لخزن القمح الذي يرسل إلي العاصمة القسطنطينية بينما اختصت الشون الصغيرة بالقمح الخاص بإعاشة مدينة الإسكندرية، ولهذا كانت الإدارات المتعلقة بحسابات القمح تقع عادة بجوار هذه الشون العامة لإجراء ما يلزم، وكل ما يتعلق بهذه الكميات من القمح[١٢٩]، ولم يكن القمح الذي يجري تجميعه في الشون العامة الصغيرة يشحن جميع إلى الإسكندرية لأن جانبا منه كان يبقى في الإقليم أو المنطقة لدفع المرتبات العينية للموظفين المحليين أو للوفاء بما يمنحه الإمبراطور من الإعانات سنويا للأديرة والكنائس، ولهذا كانت الشون العامة الصغيرة تنتشر بالقرى والمدن الريفية المصرية لهذا الغرض[١٣٠].

أما عن نقل القمح إلى الإسكندرية. فلقد تولى اللاحون هذه المسئولية وهؤلاء اللاحون ينتمون عادة إلى نقابات ملاحي النيل ويلتزمون بتأدية هذه

---

(128) Johnson :op. cit. p. 286

(١٢٩) العريني: المرجع السابق ص ٢٠٧

(130) Diehl: op .cit .p. 469

(131) The Chronicle of John Bishop of Nikiu, C111,p.165

الخدمة للحكومة ويصبحون مسئولين مسئولية كاملة عن نقل القمح الذي يتحصل من سائر الجهات لتسلمه إلى المختصين (١٣١)، أما في حالة وجود موظفين يصحبون شحنات القمح من جهات معينة، تصبح مسئولية هؤلاء الملاحين مسئولية جزئية، وجرت العادة أن تتجمع كل السفن القادمة من أنحاء الدوقية في عاصمة الدوقية في الموعد المحدد عن طريق النيل أو الترع المتفرعة منه، وفي عاصمة الدوقية يتولى الدوق وموظفوه الإشراف على نقل القمح على السفن إلى الإسكندرية على دفعتين (١٣٢). ونص القانون رقم ١٣ على أن قمح طيبة المتحصل برسم الميرة والموجه إلى القسطنطينية، ينبغي أن يتجمع ويصل إلى الإسكندرية قبل العاشر من شهر سبتمبر من كل سنة، على حين ينبغي أن تصل الشحنة المتحصلة برسم الإسكندرية والمخصصة لأعاشه أهل الإسكندرية قبل اليوم العاشر من شهر أكتوبر من كل عام (١٣٣).

وتتوقف الفترة التي كان يستغرقها وصول القمح إلى الإسكندرية على نجاح ديوان الدوق في شحنه على سفن صغيرة تستطيع أن تبلغ الإسكندرية في يسر وسهولة، لأنه إذا شحن على سفن كبيرة، فإن هذه لا تستطيع أن تجتاز القناة التي تربط النيل بالإسكندرية، فكان عليها أن تتوقف عند مدخل هذه القناة على النيل حيث يجري تفريغها ثم إعادة شحن القمح على سفن أخرى أصغر حجما لتحمله إلى الإسكندرية (١٣٤). أما الجهات التي لم يكن يوجد فيها قنوات صالحة للملاحة، فإن القمح ينقل في هذه الحالة برا إلى أقرب ميناء حيث يجري تخزينه في شون تمهيدا لنقله على سفن صغيرة إلى

(Eng. Trans.)
(132) Diehl: op. cit. p. 469

(١٣٣) العريني: المرجع نفسه ص ٢٠٩

(134) Johnson: op. cit. pp. 156-8

الإسكندرية، وأشارت الوثائق إلى أن هناك عقوبات توقع على كل من يثبت إهماله في نقل القمح أو التقصير في أداء هذه المهمة (١٣٥).

أما عن شحن القمح إلى القسطنطينية فكانت من المهام الثقيلة على الوالي الكبير بالإسكندرية إذ كان عليه ن يعجل بشحنه إلى العاصمة حتى لا يتأخر من ناحية أو يضيع إذا حدثت اضطرابات أو ثورة بالمدينة من ناحية أخرى، فإذا تأخر شحن القمح إلى العاصمة اشتدت الضائقة بسكانها وأظهروا العصيان، وإذا حدثت قلاقل في الإسكندرية يصبح محصول القمح نهبا للسكان الثائرين ، ولهذا كانت مسئولية نقل القمح إلى القسطنطينية والإسراع في شحنه من المهام الشاقة الثقيلة على الوالي (١٣٦).

وتذكر النصوص أن الوالي الكبير بالإسكندرية لم يكن يهدأ له بال إلا بعد إعداد الأسطول اللازم لشحن القمح إلى العاصمة والتأكد من تحرك هذا الأسطول في طريقة إلى هناك، ولهذا كان ينبغي عليه اعتبارا من منتصف سبتمبر تقريبا من كل عام إعداد هذا الأسطول لأداء هذه المهمة وبعدها ويبدأ في توزيع قمح الإسكندرية ويعطي لهذه المهمة الأقل صعوبة كل اهتمامه (١٣٧).

---

(135) Ibid. pp. 156-8
(136) Diehl: op. cit. p. 470

(137) Johnson: op. cit. p. 156
(138) Ibid. p. 160

(١٣٩) العريني: المرجع السابق ص٢١١

(140) The Chronicle of John Bishop of Nikiu, CIII p. 165

ويشير المؤرخون إلى أن مكانة والي الإسكندرية توقفت على نجاحه في مهمته في شحن القمح إلى القسطنطينية، ولم يتفوق أحد من ولاة الإسكندرية على أقرانه إلا بحكم جهوده لانتظام شحن المحصول إلى العاصمة، ولهذا اهتم القانون بتوقيع العقوبة على الوالي إذا تأخر في ذلك بدفع دينار (صولد) عن كل إردب يتأخر في القيام بشحنه إلى هناك، ولتسهيل مهمته وتجنبه التأخير كانت الأوامر بأن تتعاون أساطيل الإسكندرية وسوريا وإفريقيا في نقل القمح إلى العاصمة (١٣٨).

ويجرى شحن القمح إلى العاصمة على أسطول الميرة الذي يسيره تجار الإسكندرية الذين ألفوا من أنفسهم نقابة تعهدت بإعداد هذا الأسطول وتسييره حتى القرن السادس، مقابل أن تدفع لهم الحكومة أجرا معتدلا أو تقدم لهم بعض الامتيازات الخاصة إذا التزموا بحمل القمح في كل سنة وأدوا هذه المهمة بنجاح (١٣٩)، ولهذا كانت المسئولية مشتركة بينهم وبين الدوق الكبير في عملية النقل هذه فلم يكن التجار سوى طائفة صغيرة من أرباب السفن تحملوا المسئولية أو الجانب الأعظم منها في الوقت الذي لم يجر فيه ذكر للأساطيل العامة، وحتى القانون رقم ١٣ لم يشر إلى الأساطيل العامة في هذه العملية، فأصبحت المسئولية كاملة أمام قادة هذه الأساطيل في عملية نقل القمح (١٤٠)، وحددت القوانين هذه المسئولية، ونصت على تحصيل غرامات

---

(141) The Chronicle of John Bishop of Nikiu, CIII, p. 165
(142) Procopius: Buildinds of Justinian V. 1, pp. 7-16
(143) Johnson: op. cit. p. 156,

منهم إذا غرقت سفينة من السفن الناقلة للقمح أو تعرضت للضياع، وظل هذا القانون الصارم ساريا حتى ألغاه الإمبراطور موريس في أواخر القرن السادس ومطلع القرن السابع الميلاديين (١٤١)

ومن الأمور التي ساعدت علي شحن القمح إلي القسطنطينية ونجاح هذه العملية أن الفترة التي كان يجري فيها نقل القمح إلي العاصمة كانت فترة ملائمة للإبحار في شهري أغسطس وسبتمبر من كل عام وفترة مناسبة للملاحة في البحر المتوسط بصفة خاصة (١٤٢)، وكان من المستطاع القيام برحلتين أو ثلاث رحلات بحرية في هذه الفترة وقبل حلول الشتاء، علي الرغم من أن أخطر مرحلة من الرحلة هي التي تقع فيما بين الدردنيل والبسفور بسبب عدم اتساع البوغاز في هذه المنطقة فيصبح من المتعذر علي السفن دخول المضايق في تلك المنطقة ما لم تهب الرياح الجنوبية لتدفع السفن نحو العاصمة في الوقت الذي كانت الرياح الشمالية والتيارات البحرية. تعاكس تقدم هذه السفن نحو القسطنطينية (١٤٣).

ولابد وأن الإمبراطور جستنيان أدرك عمق هذه المشكلة لأنه أمر بتشييد شون كبيرة عند بداية هذه المنطقة تبلغ من الضخامة بحيث تتسع لكل حمولة الأسطول الذي يجري تفريغه هناك إذا ظلت هذه العقبات تحول دون تقدم السفن نحو العاصمة، وفي حالة تفريغ الأسطول في تلك المنطقة يصبح في

العريني: نفسه ص٢١٢

وسع قادته العودة به إلي الإسكندرية، علي أن يتولي أسطول آخر نقـل القمـح إلي القسطنطينية حينما تسمح الظروف وتتحسن الأحوال الجوية(١٤٤).

أما عن أجور نقل القمح فمنذ عهد جستنيان اهتمـت بيزنطـة بجبايـة الضريبـة المعروفـة باسـم النولـون والمخصصـة لسد نفقـات نقـل القمـح إلي القسطنطينية، حتى لا تتعرض عملية نقل القمح لأي عائق أو تأخـير، ونـص القانون رقم ١٣ علي جباية هذه الضريبة التي قدرت بعشرة في المائـة (١٠٪) من ثمن القمح، أي أن سعر الشحن جري تقديـره بعشـرة في المائـة مـن ثمـن الشحنة ذاتها (١٤٥)، وقرر جستنيان أن تجبي هذه الضريبة مع ضريبـة القمـح ذاتها أو ضريبة الميرة، أي يجري جباية الضريبتين في وقت واحد، ويجـري توزيعها علي الوحدات الإدارية لتحصل من الأبروشيات والباجركـات والمـدن والقري والضياع الكبيرة، وأمر بأن يهتم الدوق وموظفو الديوان وجباة النولـون بـهذه الضريبـة (١٤٦)، علـي أن يمنـح موظفـو الماليـة دافعـي هـــذه الضريبــة الايصالات الدالة علي تسديد ضريبة القمح متضمنة أيضا تسديد هذه الضريبة المعروفة باسم النولون، ويجري إثبـات الضريبتـين معـا في إدارة الحسـابات، ضريبة القمح وضريبة النولون وتنقل هذه الضريبـة الأخـيرة أيضـا مـع القمـح وتسلم إلي يد المشرف علي شحن القمح إلي العاصمة البيزنطية الذي يقوم بدوره بتوزيعها علي أصحاب المراكب والسفن التي تتولي نقـل القمـح إلي العاصمـة،

---

(144) Johnson: op. cit. p. 156
(145) Ibid. p. 160

(١٤٦) العريني: نفسه ص٢١٣

وكل هذا الاهتمام بهذه الضريبة كي لا تتعرض عملية نقل القمح لأي تأخير أو عائق (١٤٧).

وتشددت القوانين البيزنطية في محاسبة المقصرين في تحصيل هذه الضريبة لأهميتها، فإذا حدث إهمال من جانب الدوق أو إدارته في تحصيلها أو لم يتم جمع المبلغ المطلوب في الوقت المحدد لتسليمه إلي المشرف علي نقل القمح وشحنه، تقرر أن يؤدي الدوق وإدارته ضعف المبلغ المطلوب كتعويض عن هذا الإهمال (١٤٨)، كما اهتم القانون أيضا بتحصيل رسوم أخري إضافية كانت تحصل نوعا أو نقدا تراوح مقدارها ما بين ١، ٦٪ من ثمن الشحنة لتدفع للعاملين في عملية القمح هذه في كيله أو العناية به، ونظافته من الشوائب وسلامته وخلوه من الآفات (١٤٩).

وعلي الرغم من قيام الحكومة البيزنطية بمقاومة الموظفين المهملين أو الذين لا يتصفون بالأمانة والنزاهة أو أولئك الذين درجوا علي استغلال وظائفهم ومناصبهم للإثراء علي حساب الحكومة ودافعي الضرائب، إلا أنها مع ذلك أثقلت كاهل المصريين وقست إلي حد كبير علي دافعي الضرائب

(147) Diehl: op. cit. p. 470

(١٤٨) العريني: المرجع السابق ص٢١٤

(149) Johnson: op. cit. pp. 241-245

لاستنزاف ثروات مصر وتحصيل ضرائب مصر وفي مقدمتها القمح [١٥٠]، ومهما أظهره بعض الأبـاطرة مـن نوايا طيبـة تجـاه مصـر وأهلـها ومـا أجـروه مـن إصلاحات تهدف إلي تحسين أحـوال البـلاد والسكان، إلا أن ذلـك كلـه لم يفلح، ولم تكن له كبير فائدة أمـام الثغـرات الـتي كـانت تنشـأ عنـد تطبيـق القوانـين، ولهـذا ليـس بمسـتغرب أن تعرضـت مصـر البيزنطيـة للانـهيار والاضمحلال في كثير من الأحيان خاصة في الميـدان الاقتصـادي والمـالي حتـى مجيء العرب المسلمين قرب منتصف القرن السابع الميلادي[١٥١].

(١٥٠) مراد كامل: المرجع السابق ص٢٦

(151) Diehl: op. cit. p. 470

الفصل الخامس

التنظيمات الحربية والأمن الداخلي في مصر البيزنطية

الفصل الخامس

التنظيمات الحربية والأمن الداخلي في مصر البيزنطية

التنظيمات الحربية والأمن الداخلي في مصر البيزنطية حتى أوائل القرن السادس الميلادي:

شهدت الفترة الأخيرة من القرن الثالث الميلادي، أي منذ عهد الإمبراطور دقلديانوس، تغييرات جوهرية في نظم الجيش الإمبراطوري، وجرى إحداث تعديلات هامة في هيكل القوات البيزنطية المحاربة منذ ذلك الوقت وفي الفترة التالية [1]، وظهر صدى هذا التغيير في الفرق المرابطة في مصر البيزنطية فمس الجيش الإقليمي فيها جانب من هذا التغيير منذ بداية العصر البيزنطي، ولهذا ينبغي دراسة التغييرات والإصلاحات التي حدثت في الجيش الإمبراطوري أولا، ثم دراسة صدى هذه التغييرات في مصر البيزنطية بعد ذلك.

ويشير المؤرخون إلي أنه منذ ذلك الوقت، حدثت تغييرات في الخصائص الأساسية للنظام الحربي في الإمبراطورية البيزنطية بتأليف جيش نظامي يمكن أن ينتقل من مكان إلي آخر في يسر وسهولة [2]، بجعل هذا الجيش النظامي خفيف الحركة، يمكن تحريكه من مكان إلي أخر في يسر وسهولة وكذلك جري فصل قوة الفرسان عن قوة المشاة واعتبار كل قوة مستقلة

(1) Ostrogorski: op. cit. p.32

(٢) العريني: المرجع السابق ص١٣٠،

Ostrogorski: op. cit. p.40

بذاتها مع تقليل حجم الفرق العسكرية عما كانت عليه في الفترة السابقة [٣]، أي أن الجيش الإمبراطوري نظم بحيث يسهل تحريكه من مكان إلي أخر في سرعة، مواكبة لأحداث العصر من ناحية، وللتصدي بسرعة للأخطار التي بدأت تهدد الإمبراطورية في أي مكان من ناحية أخري، في الوقت الذي رابطت فيه فرق أخري علي أطراف الإمبراطورية لحمايتها من الأخطار، وبذلك تألفت القوة العسكرية البيزنطية من الجيش النظامي وجيش الأطراف أو الحدود بالإضافة إلي قوة الحرس الإمبراطوري الموجودة أصلا قبل هذه التعديلات [٤].

أما الجيش النظامي فيتكون من الفرق التي يقودها الإمبراطور والتي تصحبه في تحركاته وفي الحروب الهامة، ويتكون من المشاة والفرسان معا، وتميزت بعض فرقه من حيث التدريب والأسلحة، وتفوقت علي غيرها من الفرق واعتبرت من خيرة الفرق العسكرية [٥]، ورابطت بعض هذه الفرق بالقرب من القسطنطينية أو في إيطاليا لحماية العاصمة ولسرعة تلبية طلب الإمبراطور من جهة، بينما وكلت للفرق المرابطة في إيطاليا حماية الغرب انطلاقا من مركزها في إيطاليا من جهة أخري، وكانت هذه القوات النظامية تحتل مكانة أعلا من مكانة الجند المرابطين علي الحدود أو الأطراف الخارجية للإمبراطورية [٦].

(3) Bury: op. cit. V. 1, pp. 34 -5
(4) Katz: op. cit. pp.45-6
Came. Med. Hist. V. 1, p.44
(5) Bury: op. cit. 1, p. 35

(٦) العريني: المرجع السابق ص١٣٠

أما جيش الأطراف أو جيش الحدود، فإن أفراده يقومون عادة بزراعة الأرض الواقعة علي امتداد الحدود ويحوزونها علـي أنـها نوعـا مـن الإقطـاع الحربي، الذي يساعدهم علي تجهيز أنفسهم للدفاع عن حدود الإمبراطورية، ويرث أبناؤهم هذه الإقطاعات عند دخولهـم في الخدمـة الحربيـة، ليواصلوا القيام بالدفاع عن حدود الإمبراطورية، معتمدين علي ما تدره هذه الإقطاعات من دخول (٧).

وإلي جانب هاتين الفئتين، كانت هناك فرق الحرس الإمبراطوري التي حازت شهرة كبيرة في العصر البيزنطي، وتميزت كثيرا في تسليحها وتدريبها وقادتها الذين يهتم الأباطرة باختيارهم من بين المقربين لهم، وشكل الجرمان والبرابرة جانبا هاما مـن قـوة الحـرس الإمـبراطوري بحكـم شـدة مراسـهم في الحرب وإخلاصهم لقادتهم (٨). ثم ضمت هذه الفرق أيضا بعض الرومـان مـن مختلف الطبقات العليا والدنيا، وكان الإمبراطور يختار أحيانا من هذه الفئـة بعض قادة الجيش النظامي، وتمتع أفراد هذه الفرق بمكانة زادت علي مكانة الجنود العاديين من حيث التدريب والأسلحة والأجور الخاصة (٩).

أما عن تقدير عدد الجيش الإمبراطوري في تلك الفترة، فقـد تضـاربت الروايات في ذلك، فقيل في رواية أن عدد أفراد هذا الجيش زمن الإمبراطورين دقلديانوس وقنسطنطين بلغ نحو ثلاثمائة وستين ألف جندي، شكل الفرسان نحو مائـة وعشـرة آلاف فـارس، وبلـغ المشـاة نحـو مـائتين وخمسـين ألـف جندي، وفي رواية أخري قيل أنـهم بلغـوا نحـو مـائتي ألـف جنـدي شـكل

---

(7) Bury: op. cit. V. 1, p. 35
(8) Burckhardt: The Age of Constantine the great, p.53
Camb. Med. Hist. V. 1, pp. 45-6
(9) Bury: op. cit. V. 1, p. 37

الفرسان نحو ستة وأربعين ألف جندي وشكل المشاة الباقي، ولا يخلو الأمر في الروايتين مبالغة ظاهرة [١٠]، ولا سبيل إلي معرفة العدد الحقيقي لهذا الجيش خاصة وقد رابطت فرق منه قرب العاصمة كما رابطت فرق أخري في إيطاليا، فضلا عما أرسل إلي الولايات المختلفة بما فيها مصر من فرق عسكرية، فضلا عن أن عدد أفراد الفرق الإمبراطورية أخذ يتضاءل بمرور الزمن[١١].

وتبدو هذه الحقيقة في ظل معرفتنا بما أصاب الإمبراطورية من تطور في نظمها وقوانينها، فلقد كانت الفرق الرومانية تتألف أصلا من المواطنين الرومان، حتى جري في القرن الثالث الميلادي منح حق المواطنة لكل سكان الإمبراطورية بما في ذلك الولايات التابعة لها، والتي خضعت مؤخرا لحكم الإمبراطورية [١٢]، وزالت في نفس الوقت التفرقة بين المواطنين الأصليين والرعايا المنضمين ورسخت أوضاع الفرق المرابطة علي الأطراف والتي تألف معظمها من العنصر المتبربر، وجري السماح للأجانب بالانخراط في الخدمة العسكرية والتخلي في نفس الوقت عن مبدأ فرض هذه الخدمة علي المواطنين الرومان إلا في حالة الدفاع عن مقر الإقامة المهدد ضد الأخطار، أي انه لا يجوز إرغام أحد المواطنين الرومان علي الخدمة العسكرية إلا إذا تعرضت مدينته أو محل إقامته للخطر [١٣]، لهذا كله لم يعد من السهل حصر عدد أفراد الجيش أو تقدير عدد الجنود تقديرا دقيقا .

(10) Camb. Med. Hist. V.1, p.45

(١١) العريني: نفس المرجع ص١٣١

(12) Bury: op. cit V 1, p. 39

(13) Ibid. p. 39

وعلي هذا تغير نظام التجنيد والمجندين، وتشكل المجندون من فئات مختلفة من المواطنين والرعايا في هذه الفترة فمن المجندين: عدد من المواطنين الرومان أو الأجانب الذين يتقدمون من تلقاء أنفسهم للخدمة العسكرية أي المتطوعين والذين تصل مدة تطوعهم أحيانا إلي نحو خمسة وعشرين عاما (١٤)، ويمثل هذا الفريق الفئة الأولى من المجندين، ثم هناك أيضا فئة من الناس يجمعهم كبار ملاك الأراضي من بين فلاحيهم للخدمة العسكرية كنوع من الالتزامات المفروضة علي الضياع، ويشكل هؤلاء الفئة الثانية من المجندين، ثم هناك أيضا أبناء الجنود الذين تحتم عليهم أن يرثوا آبائهم في هذه المهنة ليشكلوا الفئة الثالثة من المجندين (١٥)، وإن بطلت هذه الخدمة الوراثية قبل زمن جستنيان وألغيت، ثم هناك فئة من المتبربرين الذين كانت منازلهم أو محلاتهم تقع داخل حدود الإمبراطورية، والذين جري تنظيمهم في جماعات عسكرية تخضع لسلطة القادة الرومان ليمثلوا الفئة الرابعة من المجندين (١٦).

وعلي الرغم من هذا التباين في تكوين الجيش وبين المجندين للخدمة العسكرية الذين ضموا المواطنين الرومان والرعايا الأجانب والفلاحين الذين يجمعهم كبار الملاك الزراعيين وأبناء الجنود الوارثين لمهنة آبائهم والمتبربرين الداخلين في نطاق الإمبراطورية، فلم يكن ثمة ما يمنع الجندي أيا كان أصله أو كانت منزلته من الترقي حتى رتب القيادة في الجيش الإمبراطوري طالما

(14) Jones: The Decline of the Ancient world, p.212 (London 1948)

(١٥) العريني: المرجع السابق ص١٣٤

(16) Arnold: The end of the Byzantine Empire p.28 (D.M. Nicol. 1979)
Bury : op. cit. V. 1, p. 40

أظهر الشجاعة في الحرب والإخلاص والولاء للإمبراطور [١٧]، ولعل ذلك يفسر وصول بعض الرجال إلي منصب القيادة العليا في الجيش الإمبراطوري رغم أنه كانت تجري في عروقهم دماء الجرمان أو دماء المتبربرين.

ويشير المؤرخون إلي انه في الربع الأخير من القرن الرابع الميلادي حدثت ثورة هامة في نظم الجيش الإمبراطوري، وأدخلت تعديلات أساسية علي نظم ذلك الجيش خاصة بعد معركة أدرنه التي اكتسح فيها الجرمان مشاة الجيش الإمبراطوري سنة ٣٧٨م، تحت قيادة الإمبراطور فالنز Valens (٣٦٤-٣٧٨م)، إذ اضطر ثيودسيوس العظيم إلي إعادة تنظيم الجيش وتدريبه والاعتماد علي فرق الفرسان والعناية بهم، وبفضل ذلك أحرزت الإمبراطورية انتصاراتها الباهرة بعد ذلك، واستمر الأباطرة في تطوير الجيش والاعتماد علي طبقة الفرسان [١٨]، كما اهتموا بالرماة في الفرق العسكرية نتيجة للخبرات التي اكتسبها الجيش الإمبراطوري من الحروب التي خاضها في الشرق، فأدخل هذا السلاح وجرت العناية به في الجيش الإمبراطوري، بعد أن جري تغيير نظام الفرق الإمبراطورية تغييرا كاملا [١٩].

وفي إطار هذه الثورة في نظم الجيش والتعديلات الأساسية في فرقه العسكرية اهتمت الإمبراطورية أيضا بدفاعاتها، واعتمدت في حماية حدودها علي مساعدات الإمارات الصغيرة والقبائل الضاربة علي حدودها، والاستفادة من هذه الإمكانات في كفالة الأمن والأمان علي حدود الإمبراطورية، وهو ما

---

(17) Hussey: The Byzantine World. P.13
Burckhardt: op. cit. p. 53
(18) Jones: op. cit. p. 40
Vasiliev: op. cit. V. 1, p. 87
(19) Bury: op. cit. V. 1, p. 42

عرف بنظام المحالفة [٢٠]، أو نظام التعاهد أو المعاهدة، فقد حرصت الإمبراطورية علي ربط هؤلاء المحالفين بمعاهدات تحالف والتزام بالدفاع عن أنفسهم من ناحية وعن حدود الإمبراطورية من ناحية أخري، مقابل الإعفاء من الضرائب المقررة عليهم أو الإتاوات من جهة، ومنحهم حماية الإمبراطورية أو شمولهم بحمايتها ضد الأخطار من جهة أخري، ثم تطور الأمر حد أن يتلقي هؤلاء مبالغ معينة من المال كل عام من الإمبراطورية علي أنها رواتب أو أجور الجند الذين ينضمون إلي الجيش الإمبراطوري في المعارك الحربية التي يخوضها [٢١].

ومن أمثلة هؤلاء المحالفين: الأبخاز في هضبة القوقاز والعرب علي نهر الفرات والأحباش علي أطراف مصر الجنوبية. وهكذا وجدت في القرن الخامس الميلادي فرق عسكرية سميت بفرق المعاهدين أو المحالفين، كانت ضمن فرق الجيش الإمبراطوري، وتولت الحكومة دفع رواتب أفرادها، وقادهم قادة من البيزنطيين، وأضحوا في القرن السادس الميلادي من أكثر الجند قوة وأشدهم مراسا وأكثرهم أهمية في الجيش الإمبراطوري [٢٢].

ولقد احتلت مصر البيزنطية مكانة خاصة بين أقاليم الإمبراطورية لكونها مستوعا للغلال ولنزوع أهلها إلي مقاومة السلطة الحاكمة وشدة الحاجة إلي حفظ الأمن الداخلي بها، لذا خصصت لها حامية عسكرية قوية، بلغت في القرون الأولى للميلاد ثلاث فرق عسكرية، فضلا عن القوات المساعدة

---

(٢٠) العريني: نفس المرجع السابق ص١٣٥

(21) Bury: op. cit. V 1, p. 42
(22) Ibid. p. 43

الملحقة بها (٢٣)، فإذا أضفنا إلي ذلك ما كان يحدث بها بين الحين والحين من الخلافات الدينية والنزاعات المذهبية التي ترتبت عليها ثورات وقلاقل، أدركنا أن بيزنطة كانت بحاجة إلي كفالة الأمن وتهدئة الأمور بها ولو اضطرت إلي استخدام القوة العسكرية، ومن هنا كان الاهتمام الكبير بحاميتها العسكرية (٢٤).

ولم يختلف الجيش الإقليمي في مصر البيزنطية في تكوينه عن الجيش الرئيسي للإمبراطورية، فهناك فئة أفرادها من خيرة الجند يجري تجنيدهم بطريق التطوع أي المتقدمين للخدمة العسكرية من تلقاء أنفسهم (٢٥)، وبطريق الإلزام من الفلاحين الذين يجمعهم كبار الملاك الزراعيين للخدمة العسكرية وبالوراثة من بين أبناء الجنود الذين ورثوا مهنة آبائهم حتى عهد جستنيان(٢٦)، وهذه هي الفئة الأولى في جيش مصر وهي تماثل تماما الفئات الثلاث في الجيش الإمبراطوري الرئيسي، أما الفئة الثانية في جيش مصر فهم الجنود المرابطون علي الحدود أو جيش الأطراف ومهمتهم حراسة الحدود والقلاع علي أطراف البلاد، ويعيش أفرادها علي الأراضي الزراعية الواقعة علي الحدود (٢٧)، أما الفئة الثالثة في جيش مصر فهم المحالفون الذين انحاز إليهم أحيانا بعض المغامرين والوافدين من خارج الحدود، وتولي قيادتهم قادة معينون من قبل الإمبراطور، ثم هناك أيضا فئة من المأجورين وهم جنود كانوا

---

(23) Bell: Egypt under the Early principate, in Camb.Anc. Hist. Vol.10,ch.x, pp. 243-44

(24) Procopius: De bello vandalico, p.342

(25) Jones: op. cit. p. 212

(26) Maspero: Organisation Militaire de L'Egypte Byzantin,p.44 (paris 1912)

(٢٧) العريني: المرجع السابق ص١٣٧

يتبعون بعض الأشخاص كحرس خصوصيين، ويتولي هؤلاء الأشخاص دفع رواتبهم وإعاشتهم ومنهم أيضا من كان ينتمي إلي كبار موظفي الإمبراطورية أو جندا خصوصيين لبعض الأفراد [٢٨]، فكان يحدث أحيانا أن يقوم سادة هؤلاء الجنود بعرض خدماتهم علي الدولة نظير مبالغ معينة وأجور خاصة، فيسهم هؤلاء في الدفاع عن الإمبراطورية علي الرغم من أنهم لم يكن لهم أصلا صلة بالجيش الإمبراطوري.

وعلي هذا تشكل جيش مصر البيزنطية الإقليمي من الفئات الأربعة المذكورة، فئة بالتطوع والإلزام والوراثة [٢٩]، وفئة من المرابطين علي الحدود أو ما عرف بجيش الأطراف، وفئة من المحالفين الذين كان ينحاز إليهم أحيانا بعض المغامرين والوافدين، وفئة من المأجورين الذين كان بعضهم يتبع أشخاصا معينين كحرس خصوصيين ثم جري عرضهم علي جيش الدولة نظير أجور خاصة ومبالغ معينة، فأسهموا في الدفاع عن مصر وشكلوا الفئة الرابعة من فئات جيش مصر الإقليمي في العصر البيزنطي [٣٠].

ويذكر المؤرخون اعتمادا علي برديات ووثائق هذا العصر أن الفئة الأولي من جيش مصر الإقليمي التي تشكلت من المتطوعين والملزمين وبالوراثة، هذه الفئة جري انتزاعها من الجيش النظامي الإمبراطوري وأنزلت بمصر، وأضيف إليها من التزام الملاك في مصر بتقديمهم للخدمة بما يتفق ومساحة أراضيهم، ومن تطوع لأداء الخدمة من المصرين ومن ورث مهنة والده العسكرية الأمر

---

(28) Maspero: op. cit. pp. 47-55

(29) Diehl: Etude sur L'administration Byzantin dans le exarchat de Ravenne, p.48(Paris 1907)

(30) Maspero: op. cit. pp.47-55

الـذي جعـل القـوة المرابطـة بمصـر أو الجـانب الأعظـم منـها يتـألف مـن المصريين[٣١]. فليس صحيحا إذن ما يقال بأن أمن مصر خلال تبعيتها لغيرهـا كفله غير المصريين، إذ من الثابت أن الجانب الأعظم مـن الجنـود المرابطـين بمصر في العصر البيزنطي كانوا من أبناء مصر.

وإن كان بعض المؤرخين يذهب إلي القـول بـأن هـذه العنـاصر المصريـة التي حلت محل مواطني الإمبراطورية في الجيش في مصر، كـانت علـي قـدر ضئيل من الثقافة والتعليم [٣٢]، الأمر الذي أدي إلي انخفاض مستوي الجيـش ومقدرته الحربية في القتال، فضـلا عـن سـريان روح جديـدة لا تحـافظ علـي التقاليد العسكرية وتبدي عدم الاكتراث وعدم النظام، فضـلا عـن نقـص روح الإخلاص للإمبراطورية بسبب كراهيتهم للسلطة الأجنبية في مصـر [٣٣]، لكـن علي الرغم من كل ذلك فالذي يعنينا أن الجانب الأكبر من الجنود المرابطـين في مصر البيزنطية كانوا من أبناء مصر، وإن لم يتحمسوا كثيرا لتحقيق أغراض السلطة البيزنطية، علي الرغم من أنهم اشتهروا منذ القـدم بأنـهم مـن خـيرة جنود الدنيا مقدرة وشجاعة وأكثرهم جلدا وصبرا في القتال حققوا سيادة مصر علي جانب كبير من العالم المتحضر [٣٤].

---

(31) Bell: Egypt from Augustus to Diocletian, p. 484
(Cairo 1938) .
Maspero: op. cit. pp.47-55

(٣٢) العريني: المرجع السابق ص١٣٨--١٣٩،
Diehl: op. cit. p.476, Maspero: op. cit. pp.56-7

(33) Aussaresses: L'Armec Byzantin a la fin Du vie D'apres Le Strategos de l'Emperur Maurice, p.105 (Paris 1909) .

(34) Amelineau, La geographie d'l'Egypt Copte, p.13

واشترطت الحكومة في مصر البيزنطية أن يتفرغ الجنود للقتال وممارسة استخدام السلاح والتدريب العسكري تحت إشراف القادة، وحرم عليهم القيام بعمل من الأعمال كالتجارة أو تولي أعمال حكومية أو أهلية أو غير ذلك، وإنما اشترط أن ينصرف الجنود للتدريب علي استخدام السلاح وممارسة الحياة العسكرية طوال زمن السلام قبل زمن الحرب (٣٥).

وكان من واجبات الجند في مصر البيزنطية حراسة الطرق وملاحظة القبائل المتمردة ومنع هروب الرعايا إلي بلاد البربر، ولهذا رابط الجند علي امتداد الحدود التي أقيمت عليها قلاع متقاربة (٣٦).

وفي هذه الفترة كان الجندي يتقاضي راتبا مناسبا إذا قسم علي أيام الشهر غدا يساوي أجر العامل المتوسط في اليوم علي وجه التقريب، ويستقطع منه جزء مقابل ما كان يقدم له من طعام (٣٧)، ويبدو أن هذا النظام هو نظام الجيش المركزي الذي تحدث عنه المؤرخ بروكوبيوس علي عهد الإمبراطور جستنيان، ويبدو أن جنود مصر تمتعوا مثل غيرهم في الولايات الأخرى بوجبات طيبة كانت تقدمها لهم الحكومة (٣٨)، فضلا عما كان يحصل عليه الجندي من منح استثنائية بين الحين والحين وفي المناسبات التي تغدق فيها الدولة علي جنودها، فضلا عن نصيبه من الغنائم التي يحصل عليها الجيش عند انتصاراته وعند بلوغ الجندي سن التقاعد كان يتقاضي معاشا من الخزانة

---

(٣٥) العريني: المرجع السابق ص١٣٩

(36) Maspero: op. cit. p.42, p.60

(37) Brehier : la Mond Byzantin les institution de L'Empire Byzantin, p.400 (Paris 1949).

(38) Procopius: The Secret History, trans. By Dewing, p.143 (London 1969)

العسكرية [٣٩]، هذا كله عدا ما كان يقدم له من رواتب عينية ومؤن لحصانه أو ما عرف بالميرة.

وكانت الخدمة العسكرية تمتد بالجندي إلي أن يبلغ أربعين سنة من عمره، وهذه هي العادة التي جرت في سائر أنحاء الإمبراطورية، فإذا جاوز الجندي هذا الحد من العمر تقرر إعفاؤه من الخدمة وصارت له امتيازات وحقوق خاصة مثل الإعفاء من الضرائب والالتزامات البلدية، علي حين كانت الخدمة في جيش الأطراف في مصر خدمة وراثية، إذ يخدم الجنود في الجهات التي كانوا يقيمون فيها أو ينزلون بها بطريقة الوراثة، علي أن يخصصوا جانبا من وقتهم لممارسة التدريبات الحربية [٤٠]

أما عن المحالفين أو المعاهدين الذين يمثلون الشعوب أو الأقوام المجاورين فيمثلهم النوباد علي الطرف الجنوبي لمصر، وظل الأباطرة يدفعون لهم الإعانات حتى يخلدوا للهدوء والسكينة من ناحية، ولكي يدافعوا عن حدود مصر ضد غيرهم من المتبربرين من ناحية أخري، ومن المحالفين أيضا لبيزنطة في غرب مصر بعض قبائل البدو التي أفادت الدولة من مساعداتها الحربية أحيانا وحماية الحدود الغربية لمصر من هجمات الأعداء أحيانا أخري [٤١].

أما عن فئة الجند المأجورين، فهم الحرس الخصوصيين الذين اتخذهم بعض ملاك الأراضي لأنفسهم، فضلا عن قيام بعض المغامرين بتأليف جماعات مسلحة تحولوا عند حاجة الحكومة إلي قوي نظامية يحاربون للدفاع

(39) Bury: op. cit. Vol.1, p. 47

(40) Bell: Egypt under the Early principate. C.A.H.10,X, pp.243

والعريني: نفس المرجع السابق ص١٤٠

(41) Diehl: op. cit. p.478

عنها مشكلين مع الحرس الخصوصيين فئة المأجورين الذين قدموا خدماتهم للحكومة نظير الأعطيات والرواتب والمبالغ التي كانت تدفعها لهم السلطة، وأشارت بعض برديات مصر في العصر البيزنطي إلي هذه الطوائف من الجند المأجورين الذين انحازوا بصفة دائمة إلي الجيش النظامي في مصر، وتقاضوا من أجل ذلك ما تقرر لهم من رواتب (٤٢).

ومن الثابت أن الحكومة الإمبراطورية أقامت في مصر قوة حربية كبيرة وفيرة العدد لحفظ الأمن الداخلي من ناحية ولرد المغيرين واللصوص من ناحية أخري، فضلا عما كان لهذه القوة من أهمية في جباية الضرائب وإخماد الثورات المندلعة بسبب النزاعات الدينية والخلافات المذهبية من ناحية ثالثة، يضاف إلي ذلك اهتمام الحكومة بإظهار مالها من سيادة مطلقة في مصر لأهمية هذا الإقليم كمركز من المراكز الهامة لد الإمبراطورية بالغلال من جهة رابعة (٤٣).

ويؤكد المؤرخون اعتمادا علي وثائق وبرديات ذلك العصر أن الأمن الداخلي والسلام توفر لمصر البيزنطية منذ منتصف القرن الخامس الميلادي إلي أوائل القرن السابع الميلادي، أي إلي قرب مجيء العرب المسلمين إلي مصر، بسبب عناية الإمبراطورية بقوات حفظ الأمن الداخلي من ناحية (٤٤)، وكذلك عنايتها بالقوة المرابطة في مصر والحامية المخصصة لحماية هذا الإقليم الهام،

(42) Maspero: op. cit. pp.67-8
(43) Diehl: op. cit. p.473
Procopius: De bello Vandalico, p.342

(٤٤) نقولا ناهض: الموسوعة ص٨٢٩

وعلي الرغم من ذلك ظلت الحكومة تبدي اهتمامها وعنايتها بمصر وأمن مصر وتحتفظ فيها بقوة عسكرية رادعة (٤٥).

وفي هذا الإطار اهتمت الإمبراطورية باحتلال المنطقة الواقعة في أقصي جنوب مصر حتى قرب مدينة حلفا، وهي المنطقة التي خضعت من الناحية الإدارية للإقليم الواقع في أقصي الجنوب وتحميها سلسلة من القلاع الحربية المنيعة، ووضعت فيها فرقة عسكرية من الفرسان (٤٦)، كما اعتبرت الصحراء الشرقية والصحراء الغربية من الحدود الطبيعية لمصر خاصة وأن إغارات القبائل النازلة فيها لم تكن من الخطورة بدرجة تدعو إلي تعكير صفو السلام من هذه الجهات (٤٧)، أما الدلتا فتعتبر مثلثا يشمل رءوسه: الإسكندرية وبابليون والفرما (٤٨).

فالإسكندرية كانت قاعدة برية وبحرية هامة ازدادت أهميتها بمضي الزمن وأولتها الإمبراطورية اهتماما كبيرا بتحصينها وإقامة القلاع القريبة، وحشدت فيها قوات كبيرة وأساطيل بحرية لحمايتها، فضلا عما يمكن أن تتلقاه من مساعدة الأسطول البيزنطي العامل في شرق البحر المتوسط (٤٩). أما حصن بابليون فكان يتحكم في الطرق بين الدلتا والصعيد وحشدت فيه بيزنطة قوات عسكرية هائلة قوامها فرقة فرسان تضم ثلاث كتائب عند هذا الحصن(٥٠)،واعتبرته مركز الدفاع عن مصر كلها، وأكسبه أهمية عسكرية وقوعه علي النيل مباشرة فأصبحت القوات العسكرية البيزنطية في هذا

(45) Bell: op. cit. pp. 243-4
(46) Jones: op. cit. p.212
(47) Amelineau: op. cit. p.13
(48) Bell: op. cit. pp.243-6
(49) Ostrogorski: op. cit. p.103
(50) grass: The Standard work on the later Roman army, p.29 (Berlin 1920)

الحصن تأمين علي نفسها، إذ يصعب حصاره برا وبحرا، بينما كان يمكن أن يتلقي الإمدادات والمقاتلين من النيل عن طريق الأبواب الواقعة علي النيل مباشرة (٥١). أما الفرما فقد كانت لها أهمية ومكانة خاصة لاحتلالها موقعا بريا خطيرا شرقي بور سعيد الحالية، ورابطت بها حامية عسكرية هامة لحماية حدود مصر الشرقية الساحلية واعتبرت الفرما أو بلوزيوم من المراكز البيزنطية الهامة في شرق مصر، وأظهرت أطلال هذه القلعة مدي اهتمام الإمبراطورية بتحصينها والعناية بها كطرف من أطراف مصر العسكرية، ونقطة ارتكاز لحماية الدلتا كلها (٥٢).

كما جري تشييد قلاع علي امتداد الطريق الساحلي المؤدي إلي سوريا لمنع غارات العرب والبدو في هذه الجهات، وتشييد مثلها علي الحافة الشرقية للدلتا بين الفرما وبابليون ومنف وعلي الطريق الممتد من الفرما إلي مدينة القلزم علي خليج السويس (٥٣)، مكان مدينة السويس الحالية، فضلا عن إقامة حصون متباعدة في برقة علي حدود مصر الغربية، كما رابطت حاميات في مواضع أخري من وادي النيل (٥٤)، مثل الأشمونين وقفط لأهميتهما التجارية وحماية ما كان يصل إليهما من سلع ومتاجر فضلا عن منتجات مصر (٥٥). وهكذا كان اهتمام الإمبراطورية البيزنطية بأمن مصر وحمايتها من الأعداء، ومما كان يحدث فيها من فتن وقلاقل لأسباب كثيرة ومتنوعة.

---

(٥١) بتلر: فتح العرب لمصر ص٢١٥-٢١٦

(52) Bell: op. cit. pp.243-6
(53) Maspero: op. cit. p.42
(54) Ostrogorski: op. cit. p.31
(55) Bell: op. cit. p.243

التنظيمات الحربية والأمن الداخلي منذ أوائل القرن السادس حتى نهاية العصر البيزنطي في مصر:

بزغت حقبة جديدة وهامة في تاريخ الإمبراطورية وتاريخ مصر البيزنطية بولاية الإمبراطور جستنيان، الذي بدأ حركة إصلاح كبيرة في الإمبراطورية شملت الجيش الإمبراطوري أيضا، خاصة بعد أن أصبح الأدواق يجمعون في أيديهم السلطتين المدنية والعسكرية (٥٦).

وفي هذه الفترة حددت مواضع ثلاثة حدود القطر المصري منذ زمن جستنيان وخلفائه وهي: العريش وبرقة (بوريون Borion) وجزيرة فيلة، إذ كانت مدينة العريش أكثر المدن تطرفا نحو الشرق ويمتد خط الحدود بينها وبين مدينة رفح الواقعة في فلسطين طوال العصر البيزنطي، أما برقة فكانت تقع في أقصي الغرب علي حدود إقليم ليبيا، وظلت تعتبر حدا غربيا لمصر إلي أن صار الساحل كله من توابع مصر بعد إضافة ليبيا إلي مصر (٥٧)، أما جزيرة فيلة فقد كان ينتهي إليها الحد الجنوبي بعد أن انسحبت القوات البيزنطية زمن دقلديانوس من النوبة، وفي زمن الإمبراطور موريس اهتم دوق طيبة بعمارة استحكامات قلعة فيلة لمنع غارات النوبيين (٥٨).

وبدت أهمية النقط الثلاث التي كانت تنتهي إليها أطراف القطر المصري في ذلك الوقت، وعظمت مكانتها في تلك الفترة، فقد أشار ماسبيرو إلي أن هذه النقط كانت مدنا حصينة لتستطيع أن تصمد في مواجهة المغيرين الذين ارتادوا الصحاري والفيافي والجبال قرب حدود مصر (٥٩)، إذ كان

---

(56) Camb. Med. Hist. Vol. 2, pp. 11-12

(٥٧) العريني: المرجع السابق ص٢٣٣

(58) Maspero: Organisation Militaire de l'Egypte Byzantin, p.9

(59) Ibid. p. 9, العريني: نفس المرجع السابق ص٢٣٣

النوبيون والبليميون يشنون الغارات علي حدود مصر الجنوبية، علي الرغم من أنه جري تنظيم جيش الأطراف في طيبة منذ زمن الإمبراطور ثيودسيوس الثاني (٤٠٨–٤٥٠م)، وجري تقوية سلطة حاكم طيبة بأن صار يجمع في يده السلطتين المدنية والعسكرية (٦٠)

ولهذا سرعان ما حلت الهزيمة بالنوبيين وتداعي أمر البليميين خاصة بعد أن تلقي هؤلاء الأخيرين هزيمة ساحقة علي يد النوبيين سنة ٥٣٥م، أي في عهد الإمبراطور جستنيان، ثم قام دوق طيبة البيزنطي بإغلاق معبد إيزيس في فيلة نهائيا فغادر باقي البليميين مواطنهم متجهين إلي الصحراء الممتدة ما بين النيل والبحر الأحمر، وبانتهاء القرن السادس الميلادي لم يعد للبليميين ذكر في التاريخ (٦١).

أما النوبيون فلم يعودوا مصدر خوف للإمبراطورية منذ أن حصلوا من الإمبراطورية البيزنطية علي إتاوات كفت أيديهم وجعلتهم يخلدون إلي السكينة، ثم كان اعتناقهم المسيحية سنة ٥٤٠م بفضل تشجيع ورعاية الإمبراطورة ثيودورا أثر كبير في تحولهم عن العداء لبيزنطة، بل أنهم سرعان ما دخلوا في دائرة النفوذ البيزنطي، وصار للإمبراطور البيزنطي نفوذ كبير عندهم وممثل خاص لدي ملكهم (٦٢).

كما أن البيزنطيين لم يتخلوا مطلقا عن سيادتهم علي الصحراء العربية لأن هذه الصحراء بالذات كانت أهم صحاري مصر، لما توافر بها من عيون الماء والأعشاب والزراعة في بعض جهاتها وما زخرت به من المناجم والمعادن والأحجار الكريمة مثل الزمرد والمرمر، والتي جري استغلالها في كل العصور،

---

(60) Diehl: op. cit. p.473

(٦١) العريني: نفس المرجع السابق ص٢٣٣

(62) Bury op. cit. Vol. 1. p. 237

يضاف إلي ذلك أنها ضمت طرقا هامة للقوافل، أبـدت الإمبراطوريـة اهتمامـا كبيرا بصيانتها والحفاظ عليها، لتسهيل مسار القوافـل مـن طيبـة وقفط إلي مواني البحر الأحمـر مثـل برنيـس (قـرب سـفاجة الحاليـة) وميـوس هورمـز (القصير) التي كانت تمارس التجارة مع الهنود، علـي الرغـم مـن أن سـلطة الحكومة البيزنطية لم تكن قوية علي تلك الجهات (٦٣).

أمـا مدينـة القلـزم (السـويس الحاليـة) علـي الطـرف الشـمالي لخليـج السويس، فقد كانت الموضع الذي حشدت فيه بيزنطة قوات مناسـبة، وظـل النفوذ البيزنطي قويا به في تلك الفترة خاصة وقد ضمت المنطقة المجاورة لها أديرة هامة مثل دير القديس أنطون بالقرب من سـواحل البحـر الأحمـر (٦٤)، وإلي الجنوب منه دير الأنبا بولا- الذي جرت الإشارة إليه من قبـل- حيـث استقبلت هذه المنطقة الجنود للدفاع عن هذا الركن من أركان مصر البيزنطية. وهذه المواضع هي التي اهتمت بها بيزنطة في مصر وركزت قواتـها العسـكرية فيها، ودون ذلك لم تبد كبير اهتمام (٦٥).

أما الحدود الغربية فقد ازداد اهتمام بيزنطة بها وخصصت لها بعض القوات نظرا لأن البربر كانوا من أخطر المغيرين علي هذه الحدود، إذ أمعنـوا مرارا في إغاراتهم واختراقهم لأراضـي مصـر مـن هـذه الجهـة، حتـى وصلـوا أحيانا إلي النيل (٦٦)، زمن الإمبراطور موريس، فـاضطر دوق مصـر أرسـتوماك لقيادة حملة ضدهم، وأنزل بهم هزيمة ساحقة، وألجأهم إلي العودة من حيث أتوا، كما تعرض رهبان وادي النطرون لغارات القبـائل الضاربـة والبـدو عـبر

---

(٦٣) العريني: نفسه ص٢٣٣

(64) Chadwick: op. cit. p.178
(65) Maspero: op. cit. p.11
(66) Diehl: op. cit. p.473

الواحات الداخلة في الغرب، وهاجم بعضهم مدينة برقة وواحة سيوة وأديرة وادي النطرون، وأثاروا القلق والاضطراب في هذه الجهات في القرنين الخامس والسادس الميلاديين (٦٧).

ولم يكن اهتمام بيزنطة بهذه الحدود الغربية بسبب غارات البربر والقبائل البدوية من الغرب فحسب، وإنما أيضا لرغبتها في الحفاظ علي الواحات الخصيبة في تلك الجهات، ولهذا اهتم البيزنطيون بحشد قوات في مواضع مثل هيبس وفي أنجيلا التي شيد بها جستنيان كنيسة كبيرة أفادت في تحول كثير من الرعايا إلي المسيحية (٦٨)، وحرصت بيزنطة علي سد المنافذ أمام المغيرين حتى لا يصلوا إلي تلك المواضع الخصبة عبر حدود مصر الغربية.

ويذكر المؤرخون أن اهتمام بيزنطة بالصحاري المحيطة بمصر وحدود مصر شرقا وغربا وجنوبا، قد أرغمهم علي توزيع جنودهم علي النقط الهامة التي تتعرض للإغارات، وذلك علي حساب تمركز الجند في داخل البلاد في الوقت الذي احتاج فيه الأمن الداخلي لمساعدة الجند خاصة وقد اندلعت الثورات في الإسكندرية بالذات (٦٩)، وحدثت اضطرابات وقلاقل وفتن في جهات مختلفة من مصر في مناسبات كثيرة وعند احتدام النزاعات الدينية والمذهبية، فضلا عن حاجة السلطات في مصر لمعاونة الجند في جباية الضرائب– كما سبقت الإشارة– وهي المهمة التي أثقلت كاهل المسئولين عن هذه الجباية في مصر البيزنطية (٧٠).

---

(67) Maspero: op. cit. p. 13

(٦٨) العريني: المرجع السابق ص٢٣٤

Bury: op. cit.2, p. 371

Maspero: op. cit. p. 12

(69) Procopius: De bello Vandalico, p.342

(70) Maspero: op. cit. p.16

لهذه الأسباب كلها حرصت بيزنطة علي توفير عدد كبير من الجند بالقطر المصري للنهوض بالأعباء الكثيرة لحماية أمن البلاد من المغيرين من ناحية والمساعدة علي حفظ الأمن الداخلي من ناحية أخري، وكذلك المعاونة في جباية الضرائب من جهة ثالثة (٧١)، علي الرغم من أن الروايات تذهب إلي القول بأن عددا كبيرا من الجنود الذين حشدوا في مصر في هذه الفترة لم يمارسوا في كثير من الأحيان الحرب والقتال، ولم تكن لهم خبرات كبيرة بالشئون العسكرية، ولهذا انصب اهتمامهم علي حفظ الأمن الداخلي والمعاونة في جباية الضرائب، فضلا عن التواجد في نقط الحدود البعيدة (٧٢).

وربما لهذا السبب تركز اهتمام بيزنطة بصفة أساسية علي حماية المنافذ المؤدية إلي أبواب يمكن اختراقها عند حدود مصر، فحشدت بيزنطة الجنود في هذه المنافذ نظرا لأن الصحراء لا تحيط بمصر إحاطة كاملة أو تلفها من كل الجهات، وإنما هناك منافذ وأبواب يمكن أن ينفذ منها المغيرون (٧٣)، مثل ليبيا في الغرب ووادي النيل الأعلى عند فيلة وهو الطريق الطبيعي الذي كان يجتازه النوبيون في إغاراتهم علي مصر، وكذلك خليج السويس عند القلزم حيث تمتد من خلفه أراضي واسعة تتصل بشبه جزيرة سيناء وإقليم فلسطين حيث يكثر العرب من التردد علي هذه الجهات ويصبح بإمكانهم اختراق هذا المنفذ إلي مصر (٧٤)، ولهذا كله اشتدت الحاجة إلي حماية هذه المنافذ والأبواب الرئيسية وبذلت الحكومة جهودا مضنية للدفاع عن مصر عند هذه المواضع، خاصة في القرن السادس الميلادي بحشد قوات مناسبة عند كل

---

(71) Ibid. p. 16
(72) Aussaresses: op. cit. p. 105
(73) Vasiliev: op. cit. Vol. 1, p.142
(74) Maspero: op. cit. p. 23

منفذ من هذه المنافذ وتقارب القلاع التي رابط فيها الجند علي هـذه الأطـراف لتحقيق هذا الهدف (٧٥).

وحفظت لنا المصادر نص مرسوم بيزنطي يشرح بالتفصيل ما كان يجب أن تؤديه القوات المرابطة علي حـدود مصـر الغربيـة عنـد ليبيـا، وفي القـلاع الواقعة علي تلك الحدود الغربية كجيش للأطراف فنص علي أن يقوم الجنـد بإخضاع القبائل المتمردة وحراسـة الطـرق ومراقبتـها ومنـع أحـد مـن اجتيـاز حدود البلاد حتى في أوقات السلم إلا بإذن من الدوق (٧٦).

وتشير الدلائل إلي أن جستنيان قد أبقي علي هذه النظم الحربيـة، ولم يغير كثيرا في تلك النظم، إذ ظل المرابطون من الجند الفلاحين يدافعـون عـن هذه الحدود وينفذون أوامر الدولة بعد أن حصلوا من الحكومة علي إقطاعات من الأراضي مقابل هذه الخدمة، فضلا عن أن جستنيان أعاد تنظيـم الجيـش في مصر البيزنطية، وأنشأ الفرقة المعروفة بفرقة جستنيان الليبية، وعمر أسوار طرابلس عاصمة ليبيا كما عمر مدن وحصون عديدة هناك لتوفير الأمن والسلام لتلك الحـدود، واستمر خلفـاؤه في العنايـة بتـأمين هـذه الحـدود في القرنـين السادس والسابع الميلاديين (٧٧).

هذا فيما يتعلق بالحدود الغربيـة، أمـا الحـدود الجنوبيـة فقـد اسـتمر البيزنطيون في الاهتمام بصيانة استحكامات جزيرة فيلة في القرنيين السـادس والسابع الميلاديين نظرا لتعرض هذه الحدود لخطـر النوبيـين بعـد أن انتقـل الحد الجنوبي إلي تلك الجزيرة، إذ حشد البـيزنطيون بـها حاميـة عسـكرية

---

(75) Diehl: op. cit. p. 474

(٧٦) العريني: المرجع السابق ص٢٣٦-٢٣٧

Maspero: op. cit. p.42, p. 60

(77) Diehl: op. cit. p. 473, Maspero: op. cit. p.24

ووالوا صيانة استحكامات الجزيرة (٧٨)، فضلا عن استكمال سلسلة التحصينات حتى جزيرة إلفنتين وحشد قوات مرابطة فيها، ولهذا تألف خط الحدود الجنوبية من القلاع والحصون الممتدة إلي ما وراء جزيرة فيلة(٧٩)، وصار دير سان سيمون المواجه لأسوان الحالية مقرا لحامية عسكرية أيضا.

أما الحدود الشرقية في القرنين السادس والسابع الميلاديين فاعتبرت من أهم الحدود من جهة آسيا، علي الرغم من أنها لم تتعرض للهجوم قبل القرن السابع الميلادي، ومع ذلك قدرت بيزنطة أنه لو وقع هجوم من هذه الجهة فسوف يكون من أشد الهجمات خطورة، لما قام وراء هذه الحدود من ممالك عربية في بلاد الشام فضلا عما أظهرته دولة الفرس الساسانية من عداء ضد بيزنطة ورغبة في الهجوم علي أملاكها في الشرق (٨٠)، والدليل علي ذلك توغل بعض القوات الفارسية في الدلتا حتى بلغت ضواحي الإسكندرية في إحدى الهجمات، فصار لزاما علي بيزنطة حماية مزارع الوجه البحري الوفيرة وإغلاق الطرق المؤدية إلي الإسكندرية (٨١).

وفي إطار هذه السياسة جري تحصين المدن الواقعة علي الحدود في الشرق مثل القلزم ومدينة العريش والفرما والاهتمام بشبه جزيرة سيناء، لما لها من أهمية في صد هذه الأخطار (٨٢)، ثم جري إقامة خط قلاع قوية علي الحدود في غرب برزخ السويس، وعلي حافة الدلتا الآهلة بالسكان من الفرما

---

(78) Ostrogorski: op. cit. pp. 87-88
(79) Vasiliev: op. cit. Vol. 1 pp. 228-9

(٨٠) العريني: المرجع السابق ص٢٣٧،

Diehl: op. cit. p. 475

(٨١) العريني: نفس المرجع ص٢٣٧

(٨٢) نعوم شقير: تاريخ سيناء ص٢٨٥

(بلوزيوم) إلي حصن بابليون لحماية الطريق الذي تتخذه عادة القوافل من الشام إلي مصر (٨٣)، وتركزت التحصينات عند الطرف الجنوبي للدلتا لمنع المغيرين من الهبوط إلي الإسكندرية عن طريق الدلتا، كما جري تحصين مدينة العريش التي أقيمت حولها الأسوار الشاهقة والتحصينات القوية التي ظلت بقاياها قائمة حتى القرن الثاني عشر الميلادي، وكذلك مدينة الفرما أو بلوزيوم التي نالت اهتمام بيزنطة، وحظيت بتحصينات قوية في تلك الفترة، ولهذا صمدت لحصار العرب أكثر من شهر قبل انطلاقهم إلي قلب الدلتا (٨٤).

وإكمالا لهذه السياسة العسكرية في القرنين السادس والسابع الميلاديين جري أيضا تحصين المدن الداخلية، لاسيما مدينة الإسكندرية التي تحولت إلي حصن منيع وقلعة عسكرية قوية أحاطت بها قنوات المياه من كل جانب، فجعلت منها جزيرة حصينة، فضلا عما أقيم أمامها من الحصون ذات الخنادق وما شيد حولها من الأسوار الضخمة الشاهقة (٨٥)، وما حشد فيها من أدوات الحرب وأسلحة الدفاع، يضاف إلي ذلك اتصال الإسكندرية بحرا بالعالم البيزنطي عن طريق أسطول بحري قوي يستطيع أن ينهض في أي ساعة لمساعدتها إذا تعرضت للخطر (٨٦).

ومن المدن التي نالت عناية البيزنطيين في هذه الفترة مدينةسايس وهليوبوليس ومدينة نقيوس التي أحيطت بأسوار ضخمة وحصون قوية وعدة أبواب أشار إليها المؤرخ ذائع الصيت حنا النقيوسي، مما يؤكد تمتع هذه

---

(83) Br`ehier: op. cit. p. 342
(84) Maspero: op. cit. p. 40

(٨٥) بتلر: فتح العرب لمصر ص٢٥٨ (مترجم)

(86) Maspero: op. cit. p.37

المدينة بحصانة خاصة واهتمام كبير من إلبـيزنطيين في هـذه الفـترة، وكذلـك نالت مدينة البهنسا ومدينة أنتينـوي (أنصنـا) مركـز ملـوي بأسـيوط حاليـا، اهتماما كبيرا كإحدى المدن الداخلية الهامة، حيث حشـدت بيزنطـة قـوات مرابطة في كل هذه المدن ووالت الدفاع عنـها باعتبارهـا مـن المواقـع المعرضـة للأخطار وهجمات الأعداء (٨٧)

وأكدت البرديات المنتمية إلي هذه الفترة اهتمام بيزنطة بوضع حاميات مرابطة في بعض مدن مصر مثـل أبوللـو نوبوليـس (مدينـة قـوص) وأرسـينوي (الفيوم) (٨٨)، وغيرها من المدن الهامة، وبذلت الإمبراطورية جهودا مضنية في بناء الحصون وترميم ما هو قائم منها وإصلاح المواني وتوفير الأسلحة وأدوات الحـرب والصـرف علـي رواتـب ومخصصـات الجنـود المرتزقـة والاهتمـام بالأسطول(٨٩).

وإذا انتقلنا إلي الحديث عن مكونات الجيش في مصر البيزنطية في هذه الفترة الجديدة، نجد أن جيش مصر البيزنطية لم يتغير تشكيله في هذه الفترة كثيرا عن الفترة السابقة إذ ضم الجيش النظامي الذي يعتبر جنوده من خـيرة الجنود وأكثرهم أهمية ويجري تجنيدهم بطريق الإلزام أو التطوع أو الوراثـة، كمـا مـر بنـا وهـي الفئـات الـتي تـألف منـها الجيـش الرئيسـي في الدولـة البيزنطية(٩٠)، كما ضم أيضا جيش الحدود الذي يتكون جنوده من الفلاحـين الذين حصلوا علي إقطاعات زراعية علي الحدود يتعيشون منها ويقيمون فيها

---

(87) Ibid. p. 40

(88) Johnson: Economic Studies, p. 214

(٨٩)حسين مؤنس: دراسة في خصائص مصر ومقومات تاريخها الحضاري ص١٥٩ (القاهرة ١٩٨٩) .

(90) Diehl: op. cit. p.48

لا يغادرونها (٩١)، ويتدربون علي استخدام السلاح تحت قيادة قـادة معينـين ويقومون بحراسة الحدود من الهجمات الخارجية وصد المغيرين (٩٢)، وضـم أيضا فرق المعاهدين أو المحالفين الذين شكلوا فرقا خاصة ويرجعون عادة إلي أصل متبربر وانحاز إليهم بعـض المغـامرين مـن خـارج الإمبراطوريـة أخـذت الدولة تنفق عليهم وتقدم لهـم الأجـور والرواتـب نظـير قيامـهم بالدفـاع عـن المناطق التي أقاموا فيها ومنع الهجمات الخارجيـة مـن هـذه المواضـع وتـولي قيادتهم قادة عينـوا مـن قبـل الإمـبراطور (٩٣)، يضـاف إلي ذلـك فئـة الجنـد المأجورين الذين شكلوا جيشا خاصا غدا جزء مـن جيـش مصر البيزنطيـة في هـذه الفـترة أيضـا (٩٤)، وكـانوا فريقـين فريـق كـان ينتمـي إلي كبـار موظفـي الحكومة البيزنطة كالأدواق وقادة الجيش، وفريق كان ينتمـي إلي الأشـخاص كحرس خصوصيين داخلين في خدمة هـؤلاء الأشـخاص وعلـي الرغـم مـن أن هاتين الفئتين لم يكن لهما صلة أصلا بالجيش، إلا أنه كان يحدث أحيانا أن يقوم سادة هذه الفئات بعرض خدماتهم علي الدولة وتقديمهم لخدمـة الدولـة عسكريا نظير مبالغ معينة تدفعها الحكومة (٩٥)، وبذلك أضيف هذا الفريق إلي جيش مصر وأسهم في الدفاع عن مصر كجزء من الإمبراطورية البيزنطية.

ومثلما حدث في الفترة السابقة تؤكد الشـواهد التاريخيـة أن الجنـد أو الجانب الأعظـم منـهم كـانوا مصريـين، بعـد أن تغيرت سياسـة بيزنطـة في اتخاذهم من أقاليم أخري غير مصر، فقد أصبح من واجب كل مالك من ملاك

---

(91) Ostrogorski: op. cit. p.90
(92) Camb. Med. Hist. Vol. X11, p. 210
Bell: op. cit. p. 246
(93) Diehl: op. cit. p. 476
(94) Maspero: op. cit. p.51
(95) Ibid. p. 46

الأراضي تقديم عدد من الأفراد للجيش يتفق مع مساحة ما يملكه من أرض وبحسب كبر ثروته (٩٦). وتجري القرعة العسكرية أو الاقتراع العسكري في مواطن هؤلاء المجندين تحت إشراف موظف حكومي خاص، حيث يحصل كل من تقرر تجنيده علي شهادة رسمية تثبت تجنيده ودخوله الخدمة العسكرية، وتتضمن أمرا من الدوق بتسجيل اسم صاحب الشهادة في سجلات الجيش، ومن ثم يتقدم الشخص الحاصل علي هذه الشهادة إلي الفرقة التي ألحق بها والتي أصبح ينتمي إليها بهذه الشهادة أو هذا الأمر، فيصبح منذ ذلك الوقت معدودا من جند مصر (٩٧)، ولقد أشارت بردية إلفنتين التي ترجع إلي القرن السادس الميلادي إلي هذه العملية وإلي طريقة تجنيد أبناء مصر وإلحاقهم بالجيش فأكدت هذه البردية أن القوة المرابطة بكل إقليم من أقاليم مصر إنما تنتمي إلي سكان ذلك الإقليم أو علي الأقل الجانب الأكبر منها (٩٨)

وهكذا غدا معظم جند مصر البيزنطية من المصريين سواء أكانوا ملحقين بالجيش النظامي أو داخلين في جيش الأطراف، فكلا الفئتين كان يجند عساكرها من أهل مصر ومن سكان البلاد إما بالتجنيد الإجباري وإما بالتطوع وإما بالإلزام المفروض علي أبناء المقاتلين بأن يخلف الابن أباه في الخدمة الحربية، وهو ما عرف بالوراثة، وعلي هذا تألف معظم جيش مصر البيزنطية من المصريين (٩٩)، ولم يكن به من الجند المتبربرين إلا قلة نادرة، كما لم يكن بمصر من الجند المعاهدين أو المأجورين أو المرتزقة إلا بعض الكتائب التي

---

(٩٦) العريني: المرجع السابق ص٢٣٩

(97) Diehl: op. cit. p. 476
(98) Maspero: op. cit. p.51
(99) Diehl: op. cit. p. 476

تألفت زمن جستنيان من العناصر الأجنبية، والتي أخذت تتناقص كثيرا في هذه الفترة وعلي مدي السنوات من القرنين السادس والسابع الميلاديين (١٠٠).

فإذا انتقلنا إلي الحديث عن عدد الجيش في مصر في هذه الفترة اصطدمنا بروايات متعددة ومبالغات كثيرة، ولا سبيل إلي حسم هذه القضية والبت فيها برأي، وأغلب الروايات تشير إلي أن عدد الجيش في هذه الفترة تراوح بين خمسة وعشرين ألف جندي وثلاثين ألف جندي اعتمادا علي دلائل كثيرة تتعلق بالمواضع التي تحتم الدفاع عنها وحساب الأخطار التي كانت مصر معرضة لها في ذلك الوقت (١٠١)، وكذلك اتساقا مع عدد السكان في مصر البيزنطية، إذ أشار المؤرخون إلي أن هذه المواضع تراوحت ما بين خمس وسبعين موضعا وسبع وثمانين موضعا أو مدينة رابطت في كل موضع منها كتيبة تراوح عدد أفرادها ما بين ثلاثمائة جندي وخمسمائة جندي، فإذا حسبنا متوسط هذه المواقع ومتوسط عدد أفراد من شغلها من الجنود، جاء عدد أفراد جيش مصر حينئذ نحو ثلاثين ألف جندي في المتوسط (١٠٢)، ويشير المؤرخ المحدث ذائع الصيت شارل ديل Diehl إلي هذه النقطة بان جيش مصر البيزنطي قد بلغ نحو ثماني عشرة ألف جندي جري توزيعهم علي المراكز العسكرية في الداخل وفي المدن الهامة وكذلك علي حدود البلاد (١٠٣).

ومهما يكن من أمر فقد انتظم هذا الكم في وحدات عسكرية، تولي قيادة كل وحدة منها قائد اشتهر باسم التريبون Tribun، وهي الوحدة المقاتلة في جميع أقسام الجيش من الفرسان والرجالة، وكان التريبون يلي الدوق في

---

(١٠٠) العريني: المرجع السابق ص٢٤٠

(101) Maspero: op. cit. p.78

(١٠٢) مراد كامل: المرجع السابق ص٢١، Maspero: op. Cit. p.115

(103) Diehl: op. cit. p. 243

الأهميـة العسـكرية (١٠٤)، وهـو يقابـل البَــاجرك في النظــام الإداري، إلا أن التريبون اختص بقيادة الوحدة العسكرية، وأقام من أجل ذلك عادة في عاصمة المنطقة أي في الباجركية التي تقع فيها أيضا أكبر ثكنة عسكرية للوحدة(١٠٥)، وربما جري إقامتها خارج أسوار المدينة أو في برج من أبـراج أسـوار المدينـة، وكان في كثير من الأحيان يجمع بين السلطتين أو الوظيفتين، علي حين كان الدوق يعتبر القائد الأعلى لكل الكتائب التي يتألف منها جيش إقليمه، وكان يتولي أيضا السلطتين العسكرية والإدارية بإقليمه (١٠٦).

وكان المفروض أن يخضع جيش مصر البيزنطية في هــذه الفـترة لأوامـر القائد الأعلى للجيش البيزنطي في الشرق، إلا أن ســلطة هـذا القـائد أخـذت تتضاءل علي جيوش الأقاليم بما فيها مصـر رويـدا رويـدا حتـى لم تعـد ثمـة علاقة بين جيش مصر وقادة الجيوش في الشرق، حتى أنه لم يحدث أن أتي القائد العام للجيوش بالشرق إلي مصر مطلقا، كما لم تخرج القوات المصرية من مصر إطلاقا (١٠٧).

والسؤال الذي يفرض نفسه إذن: هل كــان للقـوات المرابطـة بمصـر في هذه الفترة قائد عام يأتي مركزه وسطا بين القائد العام في الشرق وبين الأدواق في مصر؟ الواقع أنه لم يكن هناك ثمة قائد مـن هـذا القبيـل يمكـن أن يكـون أعلي مكانة من الدوق وأقل مكانة من القائد العام في الشرق (١٠٨)، بمــا يعـني أن كل دوق من أدواق مصر، كانت له القيادة العامة علي الجيش في إقليمه،

---

(104) Arnold; op. cit. pp. 30-31
(105) Maspero: op. cit. p. 72
(106) Bury: op. cit. Vol. 1, pp. 338-9
Vasliev: op. cit. Vol. 1, p. 160
(107) Maspero: op. cit. p. 69

(١٠٨) العريني: المرجع السابق ص٢٤١

حتى أن الدوق الكبير أو الأوجستال بالإسكندرية لم تكن له أيضا سلطة عامة علي سائر الأدواق، بل اقتصرت سلطته العسكرية علي الإشراف علي جند الإسكندرية (١٠٩)، بقسميها الذين تتألف منهما دوقيته، علي الرغم من انه كان يعتبر أهم الأدواق في مصر نظرا لأهمية دوقيته وأهمية الإقليم الذي يحكمه دون أن تكون له الرئاسة علي غيره من الأدواق من الناحية الرسمية.

وعلي هذا كانت الجيوش في مصر البيزنطية تخضع لقيادة خمسة أدواق متساوين في المكانة دون أن تكون لأحدهم سلطة علي الباقين، أي أن الدوق كان هو القائد الأعلى للكتائب المرابطة في إقليمه (١١٠)، ويلي الدوق في المكانة العسكرية التريبون- كما سبق أن أشرنا- الذي يماثل الباجرك في النظام الإداري، والذي كان يختار بواسطة الدوق لقيادة الوحدة وهو الذي يعزله أيضا (١١١)، وكان يختاره من بين السكان الوطنيين ومن أعيان المدينة التي يباشر فيها عمله، وكان كبار الملاك يرحبون بتولي هذه الوظيفة لأنها تزيد في سلطاتهم، لأن التريبون كان مستقلا لا يخضع إلا للدوق مباشرة (١١٢).

أما عن رواتب الجند في جيش مصر في هذه الفترة، فقد كان الجندي يتقاضي نوعين من الرواتب راتب نقدي وراتب عيني، أو ما كان يعرف بالجراية أو المؤونة (١١٣)، وتتولي الحكومة مده بالسلاح والكسوة، وجرت الإشارة إلي أنه جري تخصيص جانب من خراج مصر لمؤونة الجيش، إذ

---

(109) Maspero: op. cit. p.79

(110) Clary: Etude sur l'arm`ee et l'Administration, p.187

(١١١) بل: مصر من الإسكندر الأكبر حتي الفتح العربي ص٩١ (مترجم)

(112) Diehl: op. cit. p. 477

(113) Van Berchem: L'Arm`ee de Diocletien et la reforme constantiniemme, p.129 (Paris 1952)

تكفلت كل منطقة حربية بتموين الجند المرابطين بها [١١٤]، فكان يجبي جانب من القمح برسم الميرة العسكرية– كما مر بنا– وغدا يصرف للجندي جراية شملت القمح والشعير والنبيذ والخل والزيت والتبن للدواب والخيل واللحم والدجاج والسمك المملح، فضلا عما يلزمه من الحبال والسروج والفحم النباتي، بالإضافة إلي ما كان يسلم له أحيانا من ماشية وبغال [١١٥]، كل هذا مضافا إليه ما كان يتقاضاه من الأموال التي كان يصرفها له صاحب الخزانة أو الصراف التابع للحكومة المركزية [١١٦]،ويبدو أن هذه الالتزامات المالية أرهقت خزائن الإمبراطورية، حتى أصبحت مواردها في أوائل القرن السابع الميلادي لا تكفي تغطية هذه الالتزامات، ولهذا لم تتردد في تخفيض الإنفاق علي الجيش البيزنطي في مصر وضغط كثير من مخصصاته [١١٧].

ولم يكن جيش مصر البيزنطية إلا جيشا إقليميا مهمته الدفاع عن الجهات التي رابط بها والمحافظة علي الأمن في تلك الجهات، فإذا استقر الجند بقسم من أقسام القطر المصري أو إقليم من أقاليمها فلا يبرحونه إلي جهة أخري، وأحيانا كانت بعض الفصائل أو السرايا الحربية تتخذ مواطن دائمة أو مؤقتة في بعض الجهات لحماية مركز أو موقع له أهمية خاصة، أو

---

(114) Jones: The Deline of the Ancient world, p.219
Johnson: Economic Studies, p.225
العريني: المرجع السابق ص٢٤٢

(115) Bury: op. cit. Vol. 2, pp. 351-2
(116) Oman: A Hist. Of the Art of War in the Middle Ages, Vol.2, p.4 (London 1924)
(١١٧) ورث: الإمبراطورية الرومانية ص٥١ (مترجم القاهرة ١٩٦١)

ترابط في بعض الكفور التابعة لقرية من القري المعرضة لخطر من الأخطار أو ترابط في دير قريب من القرية لغرض أو لآخر، علي حين تطلب الأمر وجود فرق مرابطة علي الحدود وفي القلاع بالأطراف، اتخذت شكل قطاعات خضع كل قطاع منها لسلطة قائد، وظل هذا النظام معروفا في مصر طوال القرنين السادس والسابع الميلاديين (١١٨).

ويذكر المؤرخون أن قوات مصر البيزنطية رابطت في مواضع حربية معينة، لم تكن تقل عن أربع وثمانين موضعا أو مدينة فضلا عن الإسكندرية التي رابطت فيها ثلاث كتائب (١١٩)، فإذا أضفنا لها مدن ليبيا صار مجموع هذه المواضع سبع وثمانين موضعا- كما سبق أن أشرنا- وكان كل موضع من هذه المواضع ترابط فيه كتيبة واحدة، غير أنه حدث في كثير من الأحيان أن اجتمع جنود موضعين معا تحت قيادة تريبون واحد، وربما كان ذلك بسبب قلة العدد فترتب علي ذلك أن أصبح بمصر نحو خمس وسبعين كتيبة عاملة، جري توزيعها توزيعا مناسبا يتلاءم مع الحاجة إلي هذه الكتائب (١٢٠).

وقد يبدو هذا النظام من الناحية النظرية نظاما محكما متكاملا يخلوا من العيوب، بدت في ظله حدود مصر بالغة المناعة وتحصيناتها بالغة القوة والمتانة، حشد فيها الجنود بأعداد وفيرة، وجري توزيعهم توزيعا طيبا بحسب الحاجة إليهم (١٢١). غير أن الحقيقة غير ذلك بكثير، إذ يؤكد

---

(118) Maspero: op. cit. p. 103

(119) Bell: op. cit. p. 130
Zenon papyri: no 48450, trans. Edgar, p.161 (Le Caire 1925) "Des antiquites egyptinnes du musee du Caire, trans. Edgar,3 Vol. (Caire 1925-8)

(120) Maspero: op. Cit. p.115

(١٢١) العريفي: المرجع السابق ص٢٤٣

المؤرخون أن هذا النظام لم يكـن هـو النظـام الأمثـل، ولم يكـن يضمـن الحـد المعقول من كفالة الأمن والطمأنينـة لمصـر في ذلـك العصـر، بـل ظـهرت عـدم كفايته وكثرة عيوبه (١٢٢)، فلم يكن جيش مصر البيزنطية في هذه الفـترة أكـثر من جيش إقليمي جري تجنيد أفراده من سكان البلاد، وتولي قيادته أفراد من نفس سكان الإقليم في أغلب الأحيان لم يغادروا موطنهم إطلاقا، ولم يكن لهم درايـة كبـيرة بفنـون الحـرب والقتـال (١٢٣)، ولم يحـظ هـذا الجيـش بـالروح العسكرية الحقيقية كثيرا، ولم تكن له من صفات العسكرية إلا القليل، حتى إنه بمرور الوقت أغفل جنوده التدريـب العسـكري وأهملـوا النظـم الحربيـة، واتخذ كثـيرا منـهم لأنفسـهم مـهنا مدنيـة وأعمـالا أخـري إلي جـانب مهنـة الحرب(١٢٤)، فصاروا يستثمرون الأموال في شراء الأراضي والعقـارات، وبعـدوا كثيرا عن ممارسة الحرب والحياة العسكرية الصارمة، ونظرا لأن أغلبهم كان من المصريين، فقد شاركوا مواطنيهم ما يشعرون به مـن آلام ومـا يعـانون مـن مشاكل، واشتركوا معهم في كراهية اليونانيين، وكل ما يمت للعنصر البيزنطي حتى أصبح إخلاصهم للدولة البيزنطية موضع شك كبـير، وجعـل حماسـتهم للقتال لصالحها أو في جانبها أمرا غير مضمون (١٢٥).

ومن عيوب هذا الجيش أيضا أن أفراده لم يزيدوا كثيرا عن كونهم قوة للشرطة اختصت بحفظ الأمن ومساعدة ولاة الخراج وموظفي المالية في جبايـة الضرائب (١٢٦)، إذ كانت مهمة الأدواق الذين تولوا قيادة هذا الجيش جبايـة

---

(122) Diehl: op. cit. p.477
(123) Aussaresses: op. cit. p.105

(١٢٤) مراد كامل: المرجع السابق ص٢١

(125) Aussaresses: op. cit. p.105
(126) Rouillard : l'Administration civile de l'Egypte Byzantin p.38 (Paris 1928)

الضرائب وجمع القمح وإرساله إلي العاصمة بالدرجة الأولي، فلم يتفرغوا للقتال أو يحفلوا بما يتطلبه الجيش من تدريب، وكذلك كان قادة الوحدات أو التريبونات الذين كانوا ينهضون أيضا لمساعدة الموظفين الماليين، أو لفض المنازعات التي كانت تثور أحيانا بين أهالي القري بعضهم والبعض الآخر(١٢٧).

ومن عيوب هذا الجيش أيضا أنه لم يكن يخضع لقيادة موحدة- كما مر بنا- فكل دوق يتولي قيادة الجند الرابطين بدوقيته، وعليه أن يقاتل وحده إذا لزم الأمر نظرا، لأنه لم تكن له من الصلاحيات ما يجعله يطلب المساعدة من أقرانه الآخرين (١٢٨)، يضاف إلي ذلك أن معظم الأدواق لم يكونوا من رجال الحرب إذ تحولوا في ظل الأمان والسلام وعدم تعرض مصر كثيرا للأخطار إلي رؤساء دواوين، فضلا عن أن المنازعات الشخصية قد استشرت بينهم، وانعدمت روح الولاء العام للدولة وتقدير الصالح العام للبلاد (١٢٩).

ومن العيوب الكبيرة أيضا لهذا النظام الحربي في مصر البيزنطية في تلك الفترة أن الجند المرابطين بمصر لم يغادروها مطلقا- كما سبق أن أشرنا- أو يشاركوا في حروب حقيقية في خارج البلاد أو لصالح الإمبراطورية في أي مكان لاكتساب الخبرة الحربية والتمرس علي القتال، وذلك عكس ما جري في القرن الرابع الميلادي، حين كانت بعض الفرق العسكرية تنتقل من مواضعها إلي جهات أخري في إفريقيا أو في أسيا أو حتى سورية (١٣٠)، وكل ما قامت به الجيوش البيزنطية في مصر من حرب وفي القرن السادس الميلادي

---

(127) "New classical frogments and other greek and latin papyri," trans. By Grenfell and other, Oxford 1897. Oxy. N.1155. p.153(London 1953)
(128) Maspero: op. cit. p.121
(129) Diehl: op. cit. p.477, p.535
(130) Bury: op. cit.1, pp. 34-5

لم يتجاوز قتال النوبيين وبعض قبائل البدو الضارية علي الحدود وفي الصحاري المحيطة، الذين كانوا يهبطون أحيانا إلي فيلة ليثيروا الشغب في بعض جهات مصر العليا، أو في الجانب الغربي للبلاد عبر الحدود بين مصر وليبيا (١٣١)، وما عدا ذلك لم يتمرس الجنود علي قتال حقيقي مع جيوش منظمة أو مدربة.

والدليل علي فساد هذه النظم الحربية في تلك الفترة ما كان يحدث من ثورات محلية وداخلية عجز الجيش في كثير من الأحيان عن قمعها، رغم ضآلتها وقلة إمكانات القائمين بها، بل إن هذا الجيش عجز أحيانا عن القضاء علي بعض قطاع الطرق الذين روعوا الآمنين وأثاروا الشغب في بعض المناطق (١٣٢)، الأمر الذي دفع الحكومة المركزية في بعض الأحيان إلي المبادرة بإرسال قوات إمبراطورية لتعيد الأمور إلي نصابها (١٣٣)، فقد كان جيش مصر كثير العدد فعلا، لكنه كان سيئ القيادة قليل التنظيم والتدريب مع تطاحن القادة وتفرق كلمة رجاله، فضلا عما اتصف به الجميع من عدم الإخلاص والولاء للحكومة المركزية (١٣٤)، فإذا أضفنا إلي ذلك كله الخلافات الدينية والمذهبية وكذلك الانقسامات السياسية، أدركنا عيوب هذا الجيش وقلة كفايته في تلك الفترة من تاريخ مصر البيزنطية (١٣٥)، أضف إلي ذلك قيام الحكومة المركزية بتخفيض مخصصات الجند بداية من أوائل القرن السابع الميلادي حينما أثقلت الالتزامات الخاصة بهذا الجيش خزائن الحكومة،

---

(131) Maspero: op. cit. p.129
(132) Ibid. p.130

(١٣٣) مراد كامل: المرجع السابق ص٢٠

(134) Aussaresses: op. cit. p.105
(135) Ostrogorski: op. cit. p.28

الأمر الذي أضعف كثيرا هذا الجيش وساعد علي تحقيق العرب انتصاراتهم في مصر سنة ٦٤١م [١٣٦].

(136) Vasiliev: op. cit. Vol. 1, p. 158

الفصل السادس

تنظيمات جستنيان فى مصر البيزنطية

الفصل السادس

تنظيمات جستنيان في مصر البيزنطية

المطالع لتاريخ مصر البيزنطية منذ القرن الخامس الميلادي، يستطيع أن يلحظ في يسر وسهولة أن ثمة فساد للنظم الإدارية والمالية والاقتصادية قد بدأ يستشري في البلاد، حتى أن إصلاحات الإمبراطور دقلديانوس في مجال الإدارة والمال بصفة خاصة قد أصابها كثير من التغيير، وفقدت كثيرا من فاعليتها ولم يعد قائما ما أراده هذا الإمبراطور من فصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية [1]، لأنه تحت ضغط الأحوال السيئة لجأ المسئولون في مصر البيزنطية إلي جمع السلطتين في يد الوالي [2]، في الوقت الذي ساءت فيه الإدارة، واضطربت الشئون المالية والاقتصادية وفسد القضاء والشئون القضائية وتفجرت النزاعات الدينية والفتن المذهبية في أوائل القرن السادس الميلادي، الأمر الذي تطلب إصلاحات جديدة لكل هذه الشئون المضطربة [3].

ففي الميدان الإداري عانت مصر كثيرا من فساد الإدارة وانحراف الموظفين الإداريين، ولم يجد نفعا ما لجأ إليه بعض الأباطرة من فرض العقوبات علي الموظفين الإداريين الذين أمعنوا في ظلم السكان، كما فشلت تدابير الحكومة المركزية في إصلاح أحوال نواب البلديات وتقويم اعوجاجهم [4]، كما أسهم في ضعف سلطة الحكومة في مصر وزعزعة سياسة الإمبراطورية ما حدث من انهيار وتلاشي طبقة أعضاء البلدية بمرور الوقت،

---

(1) Bury: op. cit. Vol. 1, p. 27, Vol. 2, p. 338

(٢) العريني: المرجع السابق ص١٤٤

(3) Rouillard: op. cit. p. 4
Diehl: op. cit. p. 454

(4) Rouillard: op. cit. p. 6

وهم الذين تتألف منهم الطبقة الأرستقراطية في المدن، وهي الطبقة التي كانت تعتمد عليها الحكومة في تنفيذ سياستها في مصر (٥).

وفي النواحي المالية والاقتصادية عانت مصر أيضا فسادا، فاضطربت إدارتها المالية، ودفع السكان ثمن هذا الفساد، ولم ينجح مصلحو القرن الرابع الميلادي في إصلاح نظام الضرائب وطرق جبايتها فتحمل دافعوا الضرائب فوق طاقتهم، في الوقت الذي لجأ فيه دافعوا الضرائب أنفسهم إلي وسائل متعددة للتخلص من دفع الضرائب وتأدية ما كان مقررا عليهم من التزامات، كما لجأوا إلي الغش والخداع ليفلتوا من عمال الخراج (٦)، فإذا كانوا من الملاك بادروا بالتخلي عن أراضيهم حتى لا يدفعوا ما تقرر عليها من ضرائب جائرة، وإذا كانوا من المستأجرين لجأوا إلي المماطلة في الدفع، أو إلي هجر أراضيهم أيضا، حتى خربت الحقول وأقفرت المزارع وهجرها أصحابها إلي الأديرة أو إلي الانخراط في الخدمة العسكرية أو الهيام في الصحاري والقفار، علي حين استفاد جباة الضرائب، فلم يرسلوا إلي القسطنطينية من الضرائب التي يحصلونها إلا النذر اليسير(٧).

وأسهم في فساد النواحي المالية والاقتصادية أيضا انهيار الطبقة الأرستقراطية التي كانت تعتمد عليها الحكومة في تنفيذ سياستها في مصر وكذلك الطبقة الوسطي، التي كانت تعد الدعامة الأساسية للحكومة البيزنطية وحضارتها في مصر، بعد أن حل محلها عنصر وطني يتمثل في المصريين الذين

---

(5) Diehl: op. cit. p.455,

العريني: نفس المرجع ص١٤٦

(6) Ostrogorski: op. cit. p. 38, pp. 244-5

(٧) فشر: تاريخ أوروبا في العصور ق١،ص٥٣، بينز: الإمبراطورية البيزنطية ص٥٠

اشتهروا بحماستهم الوطنية وكراهيتهم الشديدة لكل ما هو يوناني بيزنطي(٨)، بفضل ما وهبته لهم عقيدتهم المسيحية من الثقة والقوة، حتى لم يعد الإمبراطور يعتمد في توطيد سلطته في مصر إلا علي طبقة اليونانيين بالإسكندرية، وعلي موظفي الإدارة الأجانب والجند النظاميين(٩).

كما أسهم في ضعف سلطة الإمبراطور في مصر أيضا، وفساد الأحوال المالية والاقتصادية ما حدث من نمو الملكيات الكبيرة، وظهور طبقة أرستقراطية شبه إقطاعية اشتهرت بالثروة والجاه والقدرة علي مناهضة الجهاز الإداري والموظفين (١٠)، وما ترتب علي ذلك من نشأة ما عرف بنظام الحماية– الذي أشرنا إليه فيما سبق– والذي يقضي بأن يبسط كبار الملاك حمايتهم علي من يلجأ إليهم من المتذمرين من عسف جباه الضرائب وشدتهم ومن فداحة الأعباء الملقاة علي عاتقهم، سواء أكان هؤلاء الساخطين من الفلاحين أو من صغار الملاك(١١)، وزاد أيضا في مكانة كبار الملاك أنهم تولوا أحيانا الوظائف العامة، وجري انتخابهم في المجالس البلدية، فأضحي لهم نفوذ كبير في الشئون المالية والإدارية، مما أضعف من سلطة الحكومة المركزية في مصر، واقتصر الأمر حينئذ علي وجود طبقتين: طبقة أرستقراطية إقطاعية وطبقة فقيرة من المسترقين، وتلاشت الطبقة الوسطي واختل البناء الاجتماعي في مصر في تلك الفترة(١٢).

---

(8) Diehl: op. cit. p. 255
(9) Ibid. p. 255
(10) Vasiliev: op. cit. Vol. 1, p. 159
(11) Diehl: op. cit. p. 466
(12) Rouillard: op. cit. p.12
Diehl: op. cit. p.456

أما في الشئون القضائية فقد عانت مصر أيضا فساد القضاء في تلك الفترة، فعلي الرغم من جعل السلطات القضائية في أيدي موظفين إداريين،فإن العدالة لم تتحقق لكل سكان القطر المصري، إذ اشتهر القضاة بالانحراف والفساد وقبول الرشوة، ولم تمتد سلطة القوانين إلي الأقوياء والأغنياء مما أوقع البلاد في قضاء فاسد بغيض(١٣). والقضاء هو عنوان رقي الأمم ونجاح القضاء وسريان العدالة دليل العظمة والقوة لأي أمة، لأنه ليس أقسى علي النفس من الشعور بالظلم وقصور يد العدالة،وعدم إحساس المواطن بقوة القانون ونزاهة القضاء وعدالة القضاة وضمان الحقوق، ولهذا فقد أضيف فساد القضاء في تلك الفترة إلي ما عانته مصر البيزنطية من اضطراب في كل شئونها الإدارية والمالية والاقتصادية وكذلك في الشئون الدينية.

أما فيما يختص بالشئون الدينية في تلك الفترة، فقد اشتدت أيضا المنازعات الدينية والخلافات المذهبية، وجنح مفجرو هذه الخلافات الدينية إلي إثارة الفوضى وأحداث الفتن والقلاقل، فأضافت هذه إلي الاضطرابات الأخرى، وأسهمت في إظهار النزعة الانفصالية منذ القرن الخامس الميلادي(١٤)، وترتب علي تلك الخصومات الدينية والفتن المذهبية اندلاع المظاهرات الشعبية وحدوث المصادمات الخطيرة بين الناس، الأمر الذي سبب متاعب جديدة لولاة مصر، خاصة حين اندلعت الفتنة حول المونوفيزيتية،وظهر التعصب الديني حول هذه النحلة (١٥)، حتى لم يجد نفعا ما اتخذته الحكومة من التدابير وما بذلته من جهد لقمع هذه الثورات الدينية

---

(13) Rouillard: op. cit. p.4
(14) Chadwick: op. cit. p. 205
(15) Ostrogorski: op. cit. p. 62, p. 71

التي فجرها المصريون وأهل الإسكندرية بالذات لما اشتهر به أهل هذه المدينة من العناد والصلابة في كل ما يتعلق بالشئون الدينية والمذهبية (١٦).

والمعروف أن أهل مصر تعصبوا كثيرا للمونوفيزيتية، مذهب الطبيعة الواحدة، وغدا لهم قوة كبيرة في مواجهة الإمبراطورية، التي أخذت بمذهب الطبيعتين، أو المذهب الأرثوذكسي أو ما عرف بالمذهب الملكاني، وهو المذهب الرسمي للدولة (١٧)، فأبدي المصريون إصرارا شديدا علي الدفاع عن مذهبهم ومقاومة عنيفة أمام رغبة بيزنطة في فرض الأرثوذكسية عليهم، وساعد المصريون علي مواصلة عنادهم وأثار حميتهم ما اشتهروا به من الصلابة في الشئون الدينية والإخلاص الشديد لما يؤمنون به (١٨)، كما أظهر الرهبان المتفردون أو رهبان الصحراء حماسة شديدة وتعصبا كبيرا للمنوفيزيتية وتأييدا لرجال كنيسة الإسكندرية.

وحين تجرأت بيزنطة عقب مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١م وأعفت بطريرق الإسكندرية ذائع الصيت "ديوسقروس" المونوفيزيتي، وعينت بطريرقا جديدا علي المذهب الرسمي للدولة أو المذهب الخلقدوني، تفجرت الثورة في مصر (١٩)، وأندلع الشجار وانتهت الثورة بمقتل البطريرق الجديد الذي نصبه الإمبراطور البيزنطي، وجري انتخاب بطريرق مونوفيزيتي سنة ٥١٨م يدعي "تيموتيوس Timotheus" فازدهرت المونوفيزيتية علي يديه، لأن الخلقدونيين لم يكونوا في مصر إلا أقلية ضئيلة، ولما توفي تيموتيوس هذا سنة ٥٣٦م اندلعت الاضطرابات في مصر من جديد وعاشت البلاد فترة من القلاقل

(16) Hardy: Christian Egypt, p. 119
(17) Vasiliev: op. cit. Vol. 1, p.105
(18) Chadwick: op. cit. p. 206
(19) Ostrogorski: op. cit. p. 71

والفتن[٢٠]، خاصة وقد حدثت انقسامات وخلافات في جوف المونوفيزيتية ذاتها، وظهرت نحل عديدة تفرعت منها،فغدت الحاجة ماسة لتدخل الدولة، لاسيما وأن الجالس علي عرش بيزنطة في ذلك الوقت كان الإمبراطور جستنيان، بما عرف عنه من رغبة في إصلاح شئون الإمبراطورية بكل أقاليمها في الوقت الذي أظهرت فيه زوجته الإمبراطورة ثيودورا حماسة كبيرة للمونوفيزيتية وشملت أتباع هذا المذهب بحمايتها وتأييدها [٢١].

بدأ جستنيان إصلاحاته الدينية في مصر حين أدرك ضرورة التدخل لوقف تدهور الأحوال فيها ووضع حد للخلافات المذهبية التي فجرت تلك القلاقل والفتن، فبادر عقب وفاة تيموتيوس بتعيين بطريرق خلقدوني المذهب، أو المذهب الرسمي للدولة محاولا حسم الأمور في مصر، ووضع حد لتلك الفوضى في الشئون الدينية [٢٢]، غير أن الإمبراطورة ثيودورا تدخلت بنفوذها لانتخاب بطريرق مونوفيزيتي، فجري اختيار ثيودسيوس الذي عرف بأنه كان معتدلا في محاولة لإقرار الأمور في الإسكندرية وتهدئة الناس فيها[٢٣].

وعلي الرغم مما عرف عن ثيودسيوس من الاعتدال وعدم التعصب، فإنه تعرض لكثير من سخط أهل الإسكندرية ورهبان مصر وكراهيتهم، فضلا عما أظهره كبار الملاك والجند وأرباب الحرف من كراهية لهذا الرجل، ليس لخلاف مذهبي وإنما باعتباره من صنائع الحكومة البيزنطية، ويتمتع بعطف الإمبراطورة ثيودورا، فتقرر طرده من كرسيه الديني بعد يومين فقط من

(20) Diehl: op. cit. p.456, Bury: op. cit. Vol.2, pp.384-5
(21) Rouillard: op. cit. p.17, Vasiliev: op. cit.1, pp.151-2
(22) Chadwick: op. cit. p.209
(23) Diehl: op. cit. p.457

انتخابه (٢٤)، وجري انتخاب بطريرق جديد هو "جائينوس" الذي لم يعمر هو الآخر في منصبه سوي عدة أشهر، لأن الإمبراطورة ثيودورا عادت فأرسلت مندوبها القائد ذائع الصيت نارسيس إلي الإسكندرية ليعيد البطريرق المونوفيزيتي المعتدل ثيودسيوس إلي كرسي البطريرقية (٢٥).

وعلي عادتهم لم يقبل أهل الإسكندرية تدخل الإمبراطورة في شئونهم الدينية، لهذا اندلعت الثورة في المدينة من جديد، وجرت معارك عنيفة بين جنود الحكومة والأهالي، وأريقت فيها كثير من الدماء، الأمر الذي دفع القائد نارسيس إلي إظهار الشدة والقسوة في قمع الثورة، فأشعل الحرائق في بعض أحياء الإسكندرية وقتل كثيرا من أهلها وقبض علي عدد آخر منهم ليقضي علي الثورة ويعيد الأمن والهدوء إلي البلاد (٢٦)، ونجح نارسيس في ذلك فعلا، فأنزل الهزيمة بأهل الإسكندرية وقضي علي مقاومتهم وألجأهم- كما يقول المؤرخون- إلي اتباع أسلوب الثورة الصامتة ضد السلطة وأسلوب المقاطعة، فلم يعد يرتاد الكنائس سوي الموظفون الإمبراطوريون، وران علي البلاد كثير من الجمود في الشئون الدينية (٢٧)، الأمر الذي دفع البطريرق ثيودسيوس إلي الهرب من الإسكندرية سرا، وفي نفس الوقت عدل جستنيان عن سياسة اللين والتسامح مع المونوفيزيتيين، وأصر علي تحقيق الوحدة الدينية في سائر أنحاء الإمبراطورية.

---

(24) Bury: op. cit. Vol. 2 p.380

عاش ثيودسيوس بعد ذلك في القسطنطينية متمتعا بعطف ثيودورا، وتوفي بعد وفاة جستنيان مباشرة أي في نفس العام سنة ٥٦٥م انظر:

Bury : op. cit. V.2,N.1, p. 319

(25) Rouillard: op. cit. p.18

(26) Diehl: op. cit. p.458

(٢٧) المريني: المرجع السابق ص١٥١

فجري اختيار "بولس" بطريرقا علي الإسكندرية سنة ٥٣٧م (٢٨)، وكان مقدما لأحد الأديرة في مصر كما كان علي دراية تامة بما كان يجري في مصر من منازعات دينية، فضلا عن أنه زود بسلطات استثنائية وصلاحيات واسعة ليتخذ من الإجراءات ما يمنع حدوث أية اضطرابات أو ثورات في مصر، فأصبح من حقه تعيين رجال الدين، ومن حقه أيضا عزلهم من مناصبهم (٢٩)، غير أن هذا الرجل جري اختياره في هذا الكرسي الديني الكبير أثناء وجوده في القسطنطينية في مهمة، ولهذا عاد إلي الإسكندرية بعد تعيينه في هذه الوظيفة الهامة.

ومن الطبيعي أن يستقبل أهل الإسكندرية هذا البطريرق استقبالا سيئا باعتباره هو الآخر من صنائع الحكومة ومن رجال العاصمة، وباعتباره أيضا دخيلا علي الإسكندرية مرتدا عن المذهب المونوفيزيتي (٣٠)، غير أن هذا الرجل كانت له من القوة والسلطة ما يكفل له الاحتفاظ بمركزه، لذا لم يتردد في استخدام القوة ضد السكان، ففرض عليهم حكم الإرهاب، بل تمادي في ذلك، فأمر بإغلاق الكنائس المونوفيزيتية، وقرب إليه الخلقدونيين (٣١)، ولم يستطع الشعب السكندري في هذه الظروف القيام بالثورة أو إعلان النضال في هذه المرة، وإنما اكتفي بإظهار الحزن العميق والثورة الصامتة، الأمر الذي جعل الإمبراطور جستنيان يفخر بأنه أرغم السكندريين علي الإخلاد

---

(28) Bury: op. cit. Vol. 2, p.380
(29) Rouillard: op. cit. p.20
(30) Diehl: op. it. p.459

(٣١) العريني: نفسه ص١٥٢

للسكينة، وفرض عليهم احترام الأرثوذكسية، مذهب الدولة الرسمي من خلال هذه الأحداث [٣٢].

أدي نجاح جستنيان في إصلاح الشئون الدينية في مصر إلي تفكيره جديا في إصلاح الإدارة وعلاج القصور الذي ظهر في النظم الإدارية، ويذكر المؤرخون أن هذه الرغبة كانت وراء إصدار جستنيان للقانون رقم ١٣، الذي أمل من إصدارة إعادة تنظيم الإدارة في مصر، وتلافي القصور في النظم الإدارية فيها، وجري إصدار هذا القانون سنة ٥٣٨/٥٣٩م لمواكبة الإصلاح في سائر أنحاء الإمبراطورية بجعل السلطتين المدنية والعسكرية في يد شخص واحد، وإلغاء وظيفة الحاكم العام في سائر الأقاليم [٣٣].

ومن الأسباب التي أدت إلي إصدار هذا القانون أيضا ما حدث من اشتداد كراهية الناس للإدارة في مصر، وانتشار الرشوة واستشراء الفساد وعجز السلطات عن وقف تدهور الأحوال وفشلها في منع تفاقم الأزمة الاقتصادية وارتفاع الأسعار وزيادة ضعف الحكومة وانتشار السخط بين الناس وكراهيتهم للسلطة المركزية، وما ترتب علي ذلك من صعوبة تحصيل الضرائب وجمع القمح وانتظام حملة علي السفن إلي العاصمة [٣٤]، ولهذا كان لابد من إجراء هذا الإصلاح لإقرار الأوضاع وإعادة الهيبة للحكومة في مصر.

وبعبارة أخري كان الهدف من إصدار جستنيان للقانون رقم ١٣ لسنة ٥٣٨/٥٣٩م هو التخلص من الفساد الإداري، وإقرار الأمن وإعادة الوحدة إلي البلاد، إكساب الإدارة في مصر ما كانت تفتقده من التوافق بسبب الفوضى

(32) Diehl: op. cit. p.459
(33) Bury: op. cit. Vol. 2, p.339
(34) Diehl: op. cit. p. 459

التي تراكمت منذ القرن الثالث الميلادي(٣٥)، حتى غدا هذا المرسوم أكبر محاولة لبسط سلطان الإمبراطور علي الولاة من ناحية، والرعية من ناحية أخري، وهي محاولة لم يقم بها أحد من الأباطرة منذ القرن الثالث الميلادي.

أي أن التنظيمات الإدارية كانت جوهر الإصلاحات التي قام بها جستنيان في مصر البيزنطية، هدف من ورائها تحسين الأوضاع الداخلية في مصر، فقد حرص علي زيادة سلطة الموظفين بتحديد طبيعة ومدي هذه السلطة، فجعل النائب الإمبراطوري في مصر مجرد حاكم علي وحدته الإدارية، وفي نفس الوقت جعل الحكام الإداريين علي بقية الوحدات الأصغر في مصر خاضعين لوالي الشرق (٣٦)، يرجعون في تصريف الأمور إلي والي الشرق مباشرة، لا إلي نائب الإمبراطور، ولذا جري توجيه المرسوم رقم ١٣ إلي والي الشرق لا إلي نائب الإمبراطور في مصر، فأضحي القطر المصري بذلك مجموعة وحدات إدارية لكل منها إدارة خاصة (٣٧)،وإن تميز الوالي في الإسكندرية بمكانة ملحوظة بين حكام الإدارات بحكم أن الإسكندرية التي اتخذها مقرا له لازالت تعتبر أكبر مدينة في مصر، وبها يجمع القمح من جميع أنحاء القطر، ويتولي الوالي الكبير بها أو الدوق الكبير الإشراف علي نقله بحرا إلي القسطنطينية (٣٨)، ومن ثم قسم جستنيان مصر إلي خمس دوقيات أو أقسام إدارية، وهذه بدورها انقسمت إلي أقسام ثانوية وحدد واجبات الموظفين

---

(35) Rouillard: op. cit. p. 25

(٣٦) مراد كامل: المرجع السابق ص١٨-١٩

(37) Bury: op. cit. Vol. 2, p. 338-9
(38) Vasiliev: op. cit. Vol. 1, p. 160

المسئولين لدي الحكومة عن الإدارات الخاصة بهم [٣٩]، وهذه الأقسام الإدارية هي:

– دوقية مصر وتشمل الجزء الواقع غرب الدلتا بما فيه مدينة الإسكندرية، وكان يشمل أبروشيتين أو قسمين علي رأسهما مدينة الإسكندرية، فأبقي جستنيان علي هذا التقسيم وعين عليه دوقا عهد إليه بالسلطتين المدنية والعسكرية، فصار يؤدي الأعمال المدنية وتخضع له قيادة جميع القوات المرابطة بالأبروشيتين، فضلا عن الإسكندرية، واتخذ هذا الدوق لقب نائب قائد جند الشرق [٤٠]، وصار من مهامه المبادرة بقمع الثورات، وحفظ الأمن بمدينة الإسكندرية، وصارت سلطته بالغة القوة، إذ جمع بين السلطتين المدنية والعسكرية.

– شرق الدلتا وشملت الجزء الشرقي للدلتا، وضم أيضا أبروشيتين وتولي أمره والي جمع أيضا في يده السلطتين المدنية والعسكرية [٤١].

– أركاديا وتمتد علي الشاطئ الأيسر للنيل ابتداء من رأس الدلتا حتى مدينة الشيخ فضل الحالية، ولم تنقسم أركاديا إلي أبروشيتين ولكنها اشتهرت بوفرة مزروعاتها وخصب تربتها، وجمع حاكم أركاديا أيضا بين السلطتين المدنية والعسكرية، وكانت عاصمة هذا القسم مدينة أرسينوي (الفيوم الحالية)[٤٢].

---

(39) Diehl: op. cit. p.462
(40) Rouillard: op. cit. p.30
(41) Maspero: op. cit. p.29
(42) Bury: op. cit. Vol. 2, p.343

– طيبة واشتملت علي الجزء الجنوبي من القطر المصري حتى جزيرة فيلة، واعتبرت إقليم أطراف بحكم مجاورتها للأقاليم الصحراوية التي تعرضت للغارات من قطاع الطرق واللصوص، وانقسمت طيبة إلي أبروشيتين، وخضعت لسلطة والي يجمع في يده أيضا السلطتين المدنية والعسكرية (٤٣).

– ليبيا وكان هذا القسم قد جري إضافته إلي مصر منذ عهد الإمبراطور أنستاسيوس (٤٩١–٥١٨م) أي في أواخر القرن الخامس ومطلع القرن السادس، كإجراء إداري رؤى وقتها فائدته الأمنية للقطر المصري، واعتبر هو الآخر من أقاليم الأطراف لتعرضه لغارات البدو والبربر (٤٤)، وإذا كان دوق هذا الإقليم قد احتفظ زمن جستنيان بسلطته المدنية فقط فإن ذلك إنما يرجع إلي أنه لم تكن له سوي هذه السلطة زمن الإمبراطور أنستاسيوس، ولهذا فقد استمر هذا الوضع أيضا زمن جستنيان (٤٥).

والملاحظ علي هذا التقسيم الإداري أن الأقسام الإدارية الخمسة التي انقسمت إليها مصر، تولي كل منها حاكم يجمع في يده بين السلطتين المدنية والعسكرية ماعدا القسم الأخير (ليبيا) الذي ظل حاكمه يحتفظ بسلطته المدنية فقط دون العسكرية زمن جستنيان، كما انقسمت هذه الأقسام الخمسة بدورها إلي أبروشيات، ضمت كل دوقية أبروشيتين ماعدا القسم الثالث (أركاديا)، والقسم الخامس (ليبيا)، إذ ضم كل منهما أبروشية واحدة (٤٦)، وتولي أمر كل أبروشية في الأقسام الثلاثة حاكم تغلب عليه الصفة المدنية. وانقسمت

---

(43) Rouillard: op. cit. p.33
(44) Maspero: op. cit. p.76

(٤٥) العريني: المرجع السابق ص١٥٩

(46) Diehl: op. cit. p.463

الأبروشيات إلي وحدات إدارية أصغر هي الباجركات التي ضمت المدن والقري والضياع الكبيرة، ولاشك أن هذه الإصلاحات الإداريــة الـتي جـرت في مصـر ارتبطت بالخطة العامة للإصلاحات التي نفذها الإمبراطور جسـتنيان في كـل الأقاليم الشرقية للإمبراطورية (٤٧).

وعلي الرغم من كل ذلك، فقد لاحـظ المؤرخـون أنـه ترتـب علـي هـذا الإصلاح الإداري نتائج بالغة الأهمية، إذ انــهارت وحـدة البـلاد السياسـية، وأصبح كل دوق معنيا بقسمة الإداري دون غيره (٤٨)، فضلا عن تمتعه بالجمع بين السلطتين المدنية والعسـكرية ممـا أشعره بنـوع مـن الاسـتقلال في الـرأي واتخاذ القرار، وساعده علي ذلك أن جستنيان ألغي وظيفة نائب الإمـبراطور في مصر، فأعطي فرصة للأدواق للاستقلال في أقسامهم الإدارية، مـع منحـهم الجمع بين السلطتين المذكورين (٤٩)، ولابد وأن جستنيان رأي في ذلـك فـائدة لتقويـة سـلطة الأدواق كوسـيلة فعالـة لحفـظ الأمـن في مصـر واستعادة هيبـة الحكومة الإمبراطوريـة، وإضعـاف مقاومـة مصـر، ووضـع حـد لعنـاد أهلـها وكراهيتهم الحكومة المركزية (٥٠).

ونستطيع أن نكون فكرة عن جوهـر إصلاحـات جسـتنيان الإداريـة في مصر البيزنطية إذا استعرضنا ما وكل إلي الموظفين الإداريين الكبار من سلطة، وما أنيط بهم بمقتضى القانون رقم ١٣ من صلاحيات خاصــة الأدواق ورؤسـاء الأبروشيات والباجركـات وإدارات المـدن أو البلديـات وكذلـك في القـري، إذ بدأت بهذه الإصلاحات الإدارية فترة بالغة الأهمية في تاريخ مصر البيزنطيـة

---

(47) Vasiliev: op. cit. Vol.1, p.160

(٤٨) العريني: نفسه ص١٥٩

(49) Bury: op. cit. Vol.2, p.339
(50) Diehl: op. cit. p.463

جري المؤرخون علي تمييزها عن الفترة التي سبقت عهد جستنيان، باعتبار أن إصلاحات هذا الإمبراطور الإدارية بصفة خاصة وما استحدثه من نظم غيرت كثيرا ما عهدته مصر قبل عهد هذا الإمبراطور.

فقد أصبح الأدواق أو من تولوا هذه الوظائف الإدارية في مصر البيزنطية منذ عهد جستنيان من أهم الشخصيات في ترتيب الوظائف في الإمبراطورية، ولهذا كان الإمبراطور هو الذي يختارهم بنفسه، أي أن أمر تقليدهم صار بيده وكذلك أمر عزلهم (٥١)، وكان هؤلاء الأدواق يختارون أحيانا من بين موظفي البلاط الإمبراطوري، وهذا يفسر احتفاظ بعضهم بألقابهم في البلاط بعد عملهم في مصر، وأحيانا أخري كان يجري اختيارهم من بين كبار القادة وقدمائهم في مصر، وأحيانا ثالثة جري اختيارهم أو بعضهم من بين السكان الوطنيين في مصر (٥٢).

لكن لاشك في أن سلطة الدوق غدت منذ ذلك الوقت بالغة الاتساع، فكان يمثل الإمبراطور في إقليمه ويمثل السلطة الإمبراطورية، لأنه أصبح يعتبر نائبا للإمبراطور في قسمه الإداري لقيامه بولاية الأعمال المدنية والعسكرية في نفس الوقت، فضلا عن أنه غدا الرئيس الأعلى للإدارة والقضاء والشرطة وقيادة الجند في دوقيته والمنوط به حفظ الأمن في المدن وبذل المساعدة لعمال الخراج وجباة الضرائب والمكوس (٥٣)، وإذ أصبح قائدا للجيش فقد تولي الإشراف علي الفرق العسكرية، وغدا من مهامه تفقد أحوال البلاد وشئون الحاميات، وتفقد الاستحكامات وقيادة الحملات عند تعرض دوقيته للخطر،

---

(51) Maspero: op. cit. p.80
(52) Rouillard: op. cit. p.38
(53) Diehl: op. cit. p.464

أو يكل هذا إلي أحد نوابه، كما أصبح من حقه أن يعقد معاهدات الصلح مع العدو وكل ما يضمن أمن دوقيته من الأخطار (٥٤).

وعلي الرغم من أن القانون رقم ١٣ الذي أصدره جستنيان قد ركز السلطتين المدنية والعسكرية في يد الدوق، فإن قليلا من الأدواق هم الذين كانوا من رجال الحرب، أما الأكثرية فكانوا مجرد حكام مدنيين، وتبدو خطورة هذا الموضوع في ضوء ما مر ببعض دوقيات مصر في ذلك الوقت من أخطار عسكرية (٥٥). ومن أمثلة الأدواق العسكريين كان نارسيس القائد الذي ذاع صيته كثيرا بعد ذلك، والذي كان ينتمي إلي أصول أرمينية، والذي ولي في مستهل حياته دوقية طيبة لحماية جنوب مصر وحفظ الأمن والاستقرار في أطراف مصر الجنوبية (٥٦)، ويبدوا أن الإمبراطور لم يلجأ إلي تعيين مثل هذا القائد في ذلك الجزء من مصر إلا عندما شعر بأن الخطر كان يهدد هذه الدوقية، وينذر بشر مستطير، وإنما القاعدة كانت اختيار هؤلاء الأدواق من بين كبار الملاك، ومن بين أعيان البلاد أو ممن لهم مكانة مرموقة بصرف النظر عن الكفاءة العسكرية أو الخبرة الحربية (٥٧).

ولم تحدد لنا مصادر ذلك العصر الفترة التي كان الدوق يقضيها في ولايته، والراجح أن تلك الوظيفة لم تكن مقيدة بمدة معينة أو دورة محددة، بل يظل الدوق يؤدي مهام وظيفته إلي أن يصرفه الإمبراطور عنها بمقتضى مرسوم إمبراطوري أو ينقله إلي وظيفة أخري (٥٨)، ويبدو أن ذلك بالإضافة إلي

---

(٥٤) العريني: نفسه ص١٦١، Maspero: op. cit. pp.81-2

(55) Rouillard: op. cit. p.39

(56) Masperd: op. cit. p.82

(57) Diehl: op. cit. p. 464

(٥٨) العريني: المرجع السابق ص١٦٢

اتساع سلطة الدوق، قد أغري البعض أحيانا علي العمل في استقلال عن الحكومة الإمبراطورية، وجعلهم يتصرفون كالملوك في إقليمهم أو أشبه بالملوك، الأمر الذي أقلق جستنيان كثيرا، وجعله يهتم كثيرا بزيادة رواتبهم حتى لا يتطرق الفساد إليهم أو يقصروا في أداء واجباتهم [٥٩]، خاصة إرسال ما كان مقررا عليهم من الضرائب إلي العاصمة، أو يحتجزوا جانبا من الأموال لأنفسهم علي حساب الخزانة العامة أو دافعي الضرائب، ولهذا كانت رواتب أدواق مصر تزيد علي رواتب سائر الولاة في تراقيا وإيسوريا وغيرها من أقاليم الإمبراطورية، بينما تميز الوالي الكبير بالإسكندرية براتب كان يزيد علي رواتب نظرائه من ولاه مصر في بقية الدوقيات [٦٠].

وكان ديوان الدوق يضم أحيانا ما لا يقل عن ستمائة موظف من المدنيين والعسكريين، وكان الدوق هو الذي يتولي تنظيم ديوانه ويعهد بالوظائف المختلفة لموظفيه وأمر جستنيان بأن يرفع الأدواق نتائج تنظيماتهم للدواوين وتقارير انتظام هذه الدواوين إلي والي الشرق للحصول علي تصديق الإمبراطور وموافقته علي ذلك [٦١]، وطبقا لنصوص البرديات المنتمية إلي ذلك العصر وروايات المصادر التاريخية المعاصرة، تألف ديوان الدوق من الإدارات الآتية:

- الإدارة المالية: وتتولي كل ما يتعلق بالشئون المالية خاصة جباية الخراج وجمع أموال الضرائب وإعدادها للنقل إلي العاصمة.

---

(٥٩) مراد كامل: حضارة مصر في العصر القبطي ص١٣

(60) Rouillard: op. cit. p.40

(61) Ibid. pp. 42-43

– إدارة التجنيد: وكانت هذه الإدارة موجودة علي عهد الإمبراطور أنستاسيوس إذ ورد ذكرها في أحد مراسيم هذا الإمبراطور، ولابد وإنها ظلت موجودة علي عهد جستنيان علي الرغم من أنه لم يرد ذكرها في نصوص المصادر أو البرديات المنتمية إلي عهد جستنيان [٦٢]،

وكان يتولي أمرها مدير كان يمنح المجندين شهادات دالة علي لياقتهم الطبية وصحتهم البدنية وأن التحاقهم بالجيش ليس بدافع الهرب من الالتزامات المالية [٦٣].

– إدارة القضاء والشئون القضائية: وكان يتولي أمرها مدير أيضا غدت في ذلك العصر السلطة العليا في القضاء الجنائي بصفة خاصة.

– إدارة المحفوظات: ويحفظ بها السجلات الهامة ويجري بها تحرير الوثائق.

– إدارة المظالم: وترفع لها الملتمسات والشكاوي.

– إدارة المنشآت العامة: وتختص بأمر العمائر وتشييد الأسوار والاستحكامات العسكرية وبفضلها جري تشييد استحكامات جزيرة فيلة وحصون طيبة وغيرها من المدن والمواضع التي كانت معرضة للأخطار في القرن السادس الميلادي [٦٤].

– إدارة الخزانة: وتتجمع فيها الأموال وما يجري جبايته من الضرائب أو الخراج النقدي والعيني كذلك.

---

(٦٢) العريني: المرجع السابق ص١٦٥

(63) Maspero: op. cit. p. 86

(64) Rouillard: op. cit. p.44

كما أشارت برديات مصر إلي كثير من الموظفين الذين يعـاونون الأدواق في أداء مهامهم في الولايات المختلفة منهم: الموثقون والرسل أو المبعوثون، ومنـهم رجـال الـبريد، وضـم الديـوان أيضـا مـترجمين اختصـوا بترجمـة النصوص الرسمية والوثائق الهامة إلي اللغة القبطية، وكذلك رجال الحرس المكلفين بحراسة الإدارات المتخلفة (٦٥)، وهنـاك كتـاب ديـوان الرسـائل وأحيانا كان يوجد الأطباء والمدرسون.

أمـا عـن رؤسـاء الأبروشـيات في ظـل النظـم الجديـدة وإصلاحـات جستنيان، فينبغي أن نسرع إلي القول، بأن تنظيمات جستنيان الإدارية لاشك أضعفت ما كان لحاكم الابروشية من مكانه وأهمية في مصر البيزنطيـة، نظـرا لاتساع سلطة الدوق، خاصة السلطة المدنية، وكذلك تحول رئيـس الأبروشـية في ظله إلي مجرد تابع للدوق، يرجع إليه في كل أموره، بعد أن كان قبل ذلك نائبا عنه في إدارة قسمه الإداري (٦٦)، وكان قبل ذلـك يتـولي عملـه مـن قبـل الوالي الكبير في الإسكندرية، فأصبح بعد صدور المرسوم رقم ١٣ يلي عمله مـن قبل الدوق، فصار مجرد مرءوس له ينفذ أوامر الدوق ويعمل بمشورته، وكذلك لم تعد لرؤساء الأبروشيات إلا أدوار ثانوية خاصة بعد أن ألغـي المرسـوم رقـم ١٣ وظيفة نائب رئيس الأبروشية،فتحول رئيس الأبروشية إلي ممارسة القضاء أو جباية الضرائب تحت إشراف الـدوق مباشـرة (٦٧)، وكـان يجـري اختيـار رؤساء الأبروشيات أحيانا من بين موظفي الدوقية، وأحيانا أخري كـان أهـل الدوقية هم الذين يختارون رئيس الأبروشية بموافقة الدوق.

---

(٦٥) العريني: نفس المرجع ص١٦٦

(66) Diehl: op. cit. p.464
(67) Rouillard: op. cit. p.49

وتكون ديوان رئيس الأبروشية من إدارات مختلفـة، وبطريقـة مصغـرة بالنسبة لما كان في ديوان الدوق، فشمل الإدارة المالية والإدارة القضائية وإدارة المحفوظات وكتابة الإنشاء والرسائل وإدارة الإشراف علي الموظفين كالكـاتب وحامل البريد والمشرفين ومرافقي رئيس الأبروشية من المدنيـين والعسكريين، فضلا عن فصيلة من رجال الشرطة (٦٨).

ويأتي بعد ذلك دور الباجركات، والباجركية- كمـا سبق أن أشرنا- هي المنطقة الريفية التي تتوسطها مدينة ريفية، أي أنها وحـدة إداريـة تلـي الأبروشية في الأهمية وفي الحجم، ويلي أمرها مـا عـرف بالبـاجرك في السلم الإداري في مصر البيزنطيـة (٦٩)، علـي الرغـم أنـه مـن العسـير فعـلا تحديـد الصلاحيات الإدارية للباجرك والسلطات المخولة له في هذه الوحدة الإدارية، ويعتقد فريق من المؤرخين أن حدود الباجركية تطـابق تقريبـا حـدود عاصمـة تلك الوحدة الإدارية الريفية ومـا حولهـا، وأن سـلطة الباجركيـة لا تتجـاوز كثيرا عاصمة هذه الوحدة وما يتبعها من قري وضياع، لكنها مع ذلك صارت من الوحدات الإدارية الأساسـية في التنظيمـات الإداريـة في هـذه الفـترة (٧٠). بينما يعتقد فريق آخر من المؤرخين أن سلطة الباجرك تشـمل كـل مـا يحيـط بالمدينة الريفية هذه من قري وضياع وما يتبعها من الأراضي باسـتثناء القـري والضياع المتمتعة بحق الجباية الذاتيـة، دون أن تكـون لـه سـلطة في المدينـة

---

(٦٨) العريني: المرجع السابق ص١٦٩

(69) Maspero: op. cit. pp. 1-3
Rouillard: op. cit. p. 57

(٧٠) بل: مصر من عهد الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي ص٢٣٧

ذاتها عاصمة هذه الوحدة (٧١)، لأن رجال البلديـة هـم الذيـن يتولـون شـئون المدينة عاصمة الوحدة أو عاصمة هذا القسم الإداري.

ومهما يكن من أمر فالراجح أن الباجركيـة هـي مدينـة ريفيـة أضيـف إليها كل ما يحيط بها من الأراضي بحيث تشـكل وحـدة تخضـع للإشـراف العام للباجرك، لاسيما الإشراف المالي، لأنه كان مسئولا عن جباية الضرائب من سائر الجهات المحيطة، فضلا عن أنه كان يشارك في الشئون القضائية، خاصة تنفيذ القرارات أو الأحكام التي تصدرها محكمة الدوق (٧٢).

ويبدو أن الباجركات كانوا معروفين قبل تنظيمـات جسـتنيان، وقبـل صدور المرسوم رقم ١٣، ربما منذ أوائـل القـرن الخـامس الميـلادي، إذ تشـير بعض برديات مصر البيزنطية المنتمية إلي هذه الفترة إلي ذلك، غير أن وضعهم في السلم الإداري بهذا الشكل ارتبط بما حدث في القرن الخامس الميلادي مـن تغيرات خطيرة في الإدارة المالية (٧٣)، خاصة ما حدث من ازديـاد عـدد كبـار الملاك ونمو نفوذهم وحصولهم علي حق الجباية الذاتيـة، فضـلا عـن تغـاضي الحكومة المركزية عما عرف بنظام الحماية الذي أشرنا إليه فيما سبق، كـل ذلك دعا بيزنطة إلي تعديل نظمها الإدارية فازداد ظهور الباجركات وتحددت معالم سلطاتهم (٧٤).

وربما لهذا أستمد الباجرك سلطته مـن الإمـبراطور مباشـرة، ولم يكـن للدوق سلطة في عزله وإنما ذلك يقرره الإمبراطور نفسه، إذا قصر البـاجرك في أداء واجبه أو أهمل بشكل يضر بمصالح الدولة، وفي هذه الحالة يتحتم علـي

---

(71) Johnson: Economic Studies, p. 219

(72) Diehl: op. cit. p.464

(٧٣) بل: المرجع السابق ص٢٣٧

(74) Rouillard: op. cit. p.57

الإمبراطور المبادرة بتعيين من يخلف الباجرك المعزول في منصبه، علي الرغم من أن الباجرك يعتبر من الناحية الرسمية مرءوسا للدوق، ولكنه في الواقع كان من صنائع الإمبراطور، الذي يستمد منه الباجرك سلطته رأسا، ولهذا حرص الإمبراطور علي اختيار الباجركات من بين طبقة كبار الملاك المحليين أو من بين كبار الموظفين (٧٥).

ويخضع لأوامر الباجرك جماعة من الموظفين منهم جباة الضرائب والمراقبون والكتاب والمساعدون، وكان تحت تصرفه سفينة وبحارة ليطوف بها وحدته الإدارية لتفقد أحوالها ولأداء المهام الموكلة إليه خاصة مباشرة جباية الضرائب والإشراف علي جمع القمح وتنفيذ الأحكام القضائية، وكل ما يتصل بسكان الباجركية، إذ غدا الباجرك ممثلا للسلطة المركزية في المدينة وفي الأراضي المحيطة بها (٧٦).

أما عن نواب البلدية أو إدارة المدن فقد أهتم بهم جستنيان كثيرا وشملتهم تنظيماته بمقتضى القانون رقم ١٣، نظرا لتعرض المدن للتداعي والاضمحلال منذ فترة طويلة، فأبقي جستنيان علي موظف الشئون المالية الذي كان يجري تعيينه منذ أواخر القرن الخامس ومطلع القرن السادس، والذي يرأس نواب البلدية (٧٧)، فقد كان هذا الموظف هو ممثل السلطة المركزية في المدن التي أهتم جستنيان بجباية الضرائب وحفظ الأمن فيها، ولهذا وجه عنايته لجعل أعضاء البلديات عمالا مخلصين للحكومة، لاسيما في

(75) Diehl: op. cit. p.464
(76) Rouillard: op. cit. p.55
(77) Diehl: op. cit. p.464

مدينة الإسكندرية التي أشتهر أهلها بسرعة الإثارة وميلهم لإحـداث الشغب والاضطراب لأتفه الأسباب (٧٨).

وطبقا لهذا كانت بعض الأبروشيات تضم مدنا حضرية، وكذلك مدينة ريفية، ففي المـدن الحضرية وجـد نـواب البلدية وفي المدينة الريفية وجـد الباجرك، واعتبر نواب البلدية في المـدن الحضرية عمالا ماليين أو موظفي خراج (٧٩)، يقوم بمساعدتهم كاتب حسابات والخازن المكلف بحفظ الضرائب بعد جبايتها والكاتب، فضلا عن متولي الدعاوى أو الشكايات، وكذلك عـدد كبير من الموظفين الموكل إليـهم الإشـراف علـي صيانة الجسـور والحمامات العامة والمباني الحكومية وكبير الأطباء (٨٠).

وتشير وثائق ذلك العصر والبرديات إلي أن نـواب البلديـات أخـذوا في التداعي والاختفاء شيئا فشيئا نظرا لتفاقم الأحوال في المدن سوءا ووقوع المظالم والابتزازات، الأمر الذي أجبر جستنيان علي تغيير سياسته وجعـل أعمـالهم من الالتزامات المفروضة علي الأعيان، فأخذ نفوذ نواب البلديات في الضعـف والاضمحلال (٨١)، وازداد في نفس الوقـت نفوذ كبـار الملاك ونفـوذ الكنيسـة خاصـة في القرن السـادس الميـلادي، إذ غـدا للكنيسـة دور كبـير في إدارة البلديات بعد أن أضحي للأسقف الحق في الاشتراك مع الأعيـان في اختيـار الموظفين من ناحية، والإشراف علي الموارد المالية للمدينة من ناحية أخـري، فضلا عن صيانة المرافق كالحمامات والاهراء البلدية والجسور ومراقبة الموازين

---

(78) Ibid. p.482
(79) Rouillard: op. cit. p.64
(80) Ibid. p.65

(٨١) العريني: المرجع السابق ص١٧٣

والمكاييل، وغـير ذلـك مـن الخدمـات بمعاونـة بعـض الوطنيـين مـن ناحيـة ثالثة[٨٢].

أما عن إدارات القري، فقد كانت هذه الإدارات تسير أمور القري الداخلية، التي أولاها جستنيان اهتماما كبيرا، نظرا لان القرية في مصر البيزنطية كانت أهم وحدة إدارية لما تحمله من مسئولية زراعة الأرض في زمامها، وتأدية ما هو مقرر عليها من ضرائب والتزامات [٨٣]، فعلي رأس القرية ينهض أعيانها أو شيوخها ليشاركوا في الإدارة المالية ويسهموا في حفظ الأمن بمساعدة الشرطة، ويقدمون العون للجند العاملين ويقومون بكل ما فيه صالح لأهل القرية، وكان الميزون Meizon من موظفي القرية العاملين، وكل إليه إدارة القضاء أحيانا والإدارة المالية أحيانا أخري، وتقاضي من أجل ذلك راتبا مقابل ما كان يؤديه من أعمال في القرية [٨٤].

وإلي جانب الميزون في القري وجد المكلفون بالإدارة المالية والكتاب وعمال البريد، وأحيانا العاملون بالشرطة المحلية، وتشكل من هؤلاء مجلس القرية الذي ازدادت أهميته بمرور الوقت، خاصة في الشئون المالية وجباية الضرائب والالتزامات وتحتم علي هؤلاء أحيانا الانتقال إلي المدينة للاجتماع بممثلي السلطة المركزية للتشاور في كل ما يتعلق بأمور القرية ومصالح سكانها[٨٥].

وعلي الرغم من ذلك أشارت وثائق ذلك العصر إلي أن كثيرا من المدن والقري تعرض أهلها لأنواع من السخرة أو الإلزام بتأدية أعمال للحكومة،

---

(82) Bury: op. cit. Vol. 1, p, 443
Diehl: op. cit. p.465
(83) Johnson: Egypt and the Roman Empire, p.133
(84) Rouillard: op. cit. p.70
(85) Ibid. p. 68

دون أن يتقاضوا عنها أجرا، مثل العمل كمجدفين في سفينة الدوق أو الباجرك التي يطوف بها لتفقد وحدته الإدارية، وكذلك المساعدة في جباية الضرائب، ونقل القمح إلي السفن التي تحمله إلي العاصمة، وتحتم علي البحارة منهم وبعض العمال أن يقوموا بنقل القمح إلي القسطنطينية كنوع من الأعباء الملقاة علي عواتقهم، وإن جري أحيانا تعويض هؤلاء البحارة والعمال عن بعض أعمالهم في هذا الميدان [٨٦]

(86) Rouillard: op. cit. p.74,

العريني: نفس المرجع السابق ص١٧٧

الفصل السابع

التنظيمات القضائية فى مصر البيزنطية

الفصل السابع

التنظيمات القضائية في مصر البيزنطية

أشرنا فيما سبق إلي أن القضاء في مصر البيزنطية أصابه الفساد في الفترة السابقة علي ولاية الإمبراطور جستنيان، إذ أن العدالة لم تتحقق لكل سكان مصر، بسبب ما اشتهر به القضاة من الانحراف والفساد وقبول الرشوة، ولم تمتد يد القوانين إلي الأقوياء والأغنياء، مما أوقع البلاد في قضاء فاسد بغيض[1]، الأمر الذي جعل الحكومة البيزنطية تهتم منذ عهد جستنيان بمحاولة إصلاح القضاء، وتحميل كبار الموظفين في كل دوقية مسئولية القضاء، لإعادة القضاء إلي ما كان له من هيبة في عهود سابقة، فقد أصبح الأدواق أنفسهم يضطلعون بمسئولية القضاء في كل دوقية، بحكم ولايتهم الوظائف المدنية، وأضطلع الموظفون الأقل في الرتبة بهذه المسئولية في وحداتهم الإدارية أيضا، وتعددت محاكم كل دوقية بأقسامها الإدارية ووحداتها، التي تولي القضاء فيها من يشغل أكبر سلطة إدارية كرئيس الأبروشية والباجرك وحامي المدينة وغير ذلك من كبار الموظفين [2].

فغدت محكمة الدوق منذ عهد جستنيان أهم المحاكم المحلية خاصة وقد أصبح من حق الدوق الفصل في القضايا الجنائية إلي جانب القضايا المدنية الأخرى كالفصل في الخصومات بين الموظفين، والدعاوى المتعلقة بالنواحي المالية والاحتجاجات المقدمة من دافعي الضرائب، الذين يتعرضون لإيذاء الموظفين الماليين والجباة [3] والدعاوى المقدمة في حق موظفي البلدية الذين

---

(1) Rouillard: op. cit. p.4
(2) Diehl: op. cit. p.471
(3) Rouillard: op. cit. p.150

يلزمون الناس بأعمال السخرة، وبعض الالتزامات الجائرة، وغير ذلك من القضايا المدنية، كحقوق الإرث والملكية أيا كان نوعها، وكذلك الدعاوى المتعلقة بالسرقات، وكانت محكمة الدوق تعقد جلساتها في عاصمة الدوقية، باعتبارها المحكمة الكبيرة (٤)، التي غدا للدوق فيها حق مباشرة القضاء الجنائي العالي، بالإضافة إلي القضاء المدني.

وكان هناك في ديوان الدوق إدارة خاصة، علي رأسها موظف كبير هو الذي يتلقي الشكاوي من الناس، ويقوم بفحصها، فإن رأي الحاجة إلي رفعها للدوق لتعرض علي محكمة الدوق، أو يراها لا تستحق، ومن ثم ترفض الدعوى، أي أنه يتوقف علي رأي هذا الموظف الكبير قبول الدعوى أو رفضها، وهذا ما يختص بالدعاوى المدنية (٥)، أما القضايا الجنائية فقد كانت هناك إدارة خاصة للجنايات، اختصت بالنظر في القضايا الجنائية (٦).

وكان هناك مستشار قضائي لكل دوقية، يرجع إليه الدوق في بعض الحالات التي تحتاج إلي المشورة إذ يعتبر هذا المستشار القضائي ضمن موظفي الدوقية الكبار يعمل رهن إشارة الدوق ويقدم المشورة له في بعض الحالات، كما وجد بمحكمة الدوق محامون للدفاع عمن يعجز عن الدفاع عن نفسه، حتى كان بوسع بعض المتقاضين اللجوء إلي الدوق لينتدب لهم نائبا عنه ليقوم بالدفاع عنهم في بعض الحالات (٧)، فقد أصبح حق الدفاع عن النفس مكفول لكل المتقاضين في محكمة الدوق.

---

(4) Diehl: op. cit. p.471
(5) Ibid. p.471

(٦) العريني: المرجع السابق ص٢١٧

(7) Rouillard: op. cit. p.151

أما رئيس الأبروشية، فقد فقد في ظل هذه النظم الامتيازات الخاصة بالقضاء، وصار مجرد مرءوس للدوق، بعد أن صار في يد الدوق من السلطات المدنية ما كان من اختصاصات رئيس الأبروشية (٨). حقيقة كانت هناك محكمة رئيس الأبروشية التي نظرت فيها أحيانا قضايا معينة إلا أن رئيس الأبروشية لم يكن في هذه القضايا سوي مجرد قاض، لأن الدوق كان يعتبر كبير القضاة في إقليمه (٩).

وبجانب محكمة الدوق ومحكمة رئيس الأبروشية، كانت هناك محكمة الباجرك، التي لم يكن لها النظر إلا في القضايا الجنائية الصغيرة وبعض القضايا المدنية، ولهذا كان الدوق أحيانا يرسل إلي الباجركية مندوبين عنه للفصل في القضايا، ولم يكن ذلك يتعارض مع مهام الباجرك، بل إن الباجرك ومندوب الدوق كانا يتوليان معا تنفيذ الأحكام الصادرة من محكمة الدوق بين المتخاصمين المقيمين أصلا في دائرة الباجركية، وكانت محكمة الباجرك تنظر في المصالحات وعقود الضمان والدعاوى المتعلقة بالحقوق (١٠).

وإلي جانب هذه المحاكم الثلاث كانت هناك محكمة حامي المدينة في بعض المدن التي اختصت بالقضاء المدني والقضاء الجنائي أيضا، وفي المعاملات المالية الصغيرة، بحكم أن بعض المدن كان لها نشاط تجاري وصناعي كبير، وجرت فيها مخاصمات اختصت بالنواحي الجنائية والمعاملات المالية (١١). بل إن هذه المحاكم الصغيرة وجدت أحيانا في بعض الباجركات إلي جانب محاكم الباجركات للنظر في هذه المعاملات المتميزة،

---

(8) Diehl: op. cit. p.471
(9) Rouillard: op. cit. p.153

(١٠) العريني: المرجع السابق ص٢١٩

(11) Rouillard: op. cit. p.154

ولهذا عالجت تنظيمات جستنيان القضائية اختصاصات حامي المدينة في القضاء، فحدت كثيرا من سلطاته ومنعته من إصدار أحكام بالديات في القضايا الجنائية، وأجازت له فقط توقيع العقوبة بشرط ألا تصل بأي حال من الأحوال إلي حد القسوة، وحصرت اختصاصاته في النظر في العقود وقضايا التصالح والقضايا المتعلقة بالإدارة المالية، وأشارت بعض النصوص المنتمية إلي هذه الفترة إلي قيام حامي المدينة بمراقبة الآداب العامة والفصل في قضايا الطلاق والخلافات بين الزوجين والنزاع الذي يحدث بين الناس علي امتلاك الأراضي (١٢).

أما في القري فقد كان رجال الشرطة يباشرون السلطة القضائية في بعض الأمور فيفحصون الشكاوي ويحققون فيما يحتاج إلي تحقيق منها، ويلزمون أحيانا المتهمين بإصلاح ما أفسدوه أو ما أحدثوه من الأذى أو الضرر، فإذا امتنعوا عن ذلك بعثوا بهم إلي المدينة ليتولي حامي المدينة أو الباجرك محاكمتهم (١٣). وفي المنازعات البسيطة كان يجري الاتفاق بين المتخاصمين علي الاحتكام إلي بعض الأشخاص يختارونهم بأنفسهم، كانوا عادة من شيوخ القرية، وفي هذه الحالة تصبح مهمة السلطات الرسمية في القرية مجرد سلطة إشرافية ورقابية (١٤).

أما عن القضاء الكنسي والمحاكم الكنسية، فقد عرفته الإمبراطورية منذ عهد قنسطنطين الكبير، إذ جاز للمتخاصمين في الأمور المدنية أن يلجأوا باختيارهم إلي تحكيم الأسقف حتى أثقلت أعباء هذه القضايا ودعاوى المحاكم كاهل الأسقف، خاصة وأن الأحكام التي كان يصدرها الأسقف جري

(12) Ibid. pp.155-6
(13) Diehl: op. cit. p.473

(١٤) العريني: المرجع السابق ص٢٢١

الاعتراف بها قانونا (١٥)،فأقبل كثير من المتخاصمين علي تحكيم الأساقفة، وركنوا كثيرا إلي عدالتهم، فأسهمت الكنائس في تحمل جانب كبير من العبء القضائي في مصر البيزنطية في تلك الفترة.

ومن ناحية أخري كان هناك نوع أخر من القضاء الكنسي الذي يحاكم أمامه رجال الدين دون غيرهم، لأنه لا ينبغي مطلقا لأحد من رجال الدين أن يمثل أمام محكمة مدنية، إلا إذا كانت الدعوى فيها جنائية، ولهذا كان رجال الدين يخضعون لقضاء كنسي اختص بهم دون غيرهم، إلا أن ما يصدره الأسقف من أحكام كان يتولي تنفيذها نيابة عنه القاضي بموافقة الطرفين المتخاصمين (١٦). وبمرور السنين ازدادت حصانه رجال الدين من الناحية القضائية، حتى صار للأسقف زمن الإمبراطور هرقل الحق في تنفيذ الأحكام بأنفسهم، واتسعت في نفس الوقت سلطة القضاء الكنسي، وصار من المحظور علي المتهم في القضايا المتعلقة بأحد من رجال الدين اللجوء إلي القضاء المدني إذا اعتبرته الكنيسة ومحكمها الأسقفية مذنبا (١٧).

أما عن المحاكم العسكرية والقضاء العسكري، فكان معروفا أيضا في القرن السادس الميلادي وإن اختلط بالقضاء المدني في محكمة الدوق في كثير من الأحيان، إلا أنه مع ذلك كانت هناك محاكم عسكرية خالصة، تألفت من ضباط ورجال عسكريين كانوا ينظرون فيما يرقع لهم من القضايا التي يكون الجند فيها أحد طرفي التخاصم أو النزاع (١٨).

---

(15) Rouillard: op. cit. p.156
(16) Ibid. p.159

(١٧) العريني: نفس المرجع ص٢٢٢

(18) Rouillard: op. cit. p.158

وإلي جانب المحاكم القائمة بمصر البيزنطية، صار لسكان مصر الحق في رفع قضايهم وشكاياتهم إلي محكمة الإمبراطور بالقسطنطينية مباشرة، وجاز لهم التقدم بدعاويهم رأسا إلي محكمة الإمبراطور في صورة ملتمس أو طلب يراد النظر فيه، فيصدر الحكم في هذه الحالة في صورة أمر إمبراطوري وإن كان قضائيا، وحفظت لنا مصادر ذلك العصر أوامر إمبراطورية قضائية صدرت من بيزنطة في قضايا خاصة بالمصريين [١٩]، واستغل جستنيان هذه الفرصة ليجعل سلطته قوية محسوسة في مصر، بإصدار الأوامر القضائية كلما وصلته التماسات من أهل مصر وشكاوي تتعلق بمصر وأمور المصريين.

أما فيما يختص بالاستئناف، فلم تكن هناك محكمة استئناف تقع وسطا بين محكمة الدوق ومحكمة والي الشرق [٢٠]،ولهذا كان الناس يضطرون للسفر مسافات طويلة للذهاب إلي العاصمة القسطنطينية، ويتكبدون تكاليف باهظة في ذلك، ربما فاقت أحيانا المبالغ المتنازع عليها، فضلا عن أن كثيرا منهم كان يترك زراعاته أو مصالحه في مصر معرضا تلك الزراعات والمصالح للإهمال الشديد، فيفاجأ بان موظفي القضاء في العاصمة مشغولون بالنظر في قضايا كانت في كثير من الأحيان أقل أهمية من قضاياهم، بل هي في أكثر الأحيان قضايا تافهة [٢١]، في الوقت الذي كانت فيه القسطنطينية زاخرة بأخلاط الناس من سكان الأقاليم المختلفة الذين شغلت قضاياهم رجال القضاء في العاصمة.

لهذا صمم جستنيان علي تعديل نظام القضاء في مصر، والاهتمام بموضوع الاستئناف، لحاجة الناس إلي محكمة استئناف لما اشتهرت به

---

(19) Diehl: op. cit. p.471
(20) Rouillard: op. cit. p.160
(21) Ibid. p.161

الإدارة في مصر البيزنطية من التباطؤ والتراخي وعدم الإسراع في حسم القضايا، لهذا قرر جستنيان أن ينشئ محاكم متوسطة بين محكمة والي الشرق في بيزنطة وبين محاكم الأدواق وولاة الأقاليم في مصر [٢٢]، وجري هذا الإصلاح بمصر البيزنطية اعتبارا من سنه ٥٣٦م بجعل دوق الإسكندرية باعتباره الوالي الكبير بمصر البيزنطية مكلفا بالفصل في كل القضايا التي لا تزيد قيمة الدعوى فيها علي خمسمائة دينار أو (صولد) ذهبي، وبصفة نهائية ولا يجوز استئناف مثل هذه القضايا أو القضايا من هذا القبيل أو اللجوء بها إلي سلطة أخري [٢٣].

لكن جاز لهذا الدوق في الإسكندرية، أن تستأنف لديه القضايا التي أصدر الحكم فيها رئيس الأبروشية، بشرط ألا تقل قيمة المبالغ المتنازع عليها في تلك القضايا عن خمسمائة دينار (صولد)، وجاز لهذا الدوق الكبير في الإسكندرية النظر في الأحكام التي ترفع إليه والتي يصدرها أدواق مصر الآخرين [٢٤]، وهذه القضايا التي أصدر الأحكام فيها أدواق مصر الآخرين، جاز الاستئناف فيها لدي محكمة والي الشرق والمستشار القضائي في العاصمة البيزنطية، وجاز أيضا أن يرفع المتخاصمون أحكام القضاء إلي محكمة الأسقف كمحكمة استئناف مثلما كان لهم الحق أيضا في رفع هذه الأحكام إلي محكمة الإمبراطور [٢٥].

وعلي الرغم من تأكد جستنيان من أن هذا الاستئناف قد يؤدي إلي بطء القضاء بعض الشيء، إلا أنه رأي في هذا الاستئناف وسيلة لإقناع الرعايا بما

---

(22) Diehl: op. cit. p.472

(٢٣) العريني: المرجع السابق ص٢٢٤

(24) Rouillard: op. cit. p.161

(25) Diehl: op. cit. p.472

تبذله حكومته من الهمة والنشاط والإصرار علـي القيام بالإصلاحـات الهامـة والتنظيمات التي تحتاج إليها البلاد [٢٦]، علي الرغم من أن هذا البطء لم يكن هو النقيصة الوحيدة التي شاعت في القضـاء في القرن السـادس الميـلادي، إذ مالبث القضاة أن انزلقوا إلي الفساد والرشوة والاستخفاف بواجباتهم، وغلـب عليهم الجشع والشراهة للمال، حتى اصبح القضاء سـلعة يجـري بيعـها لمـن يدفع اكثر [٢٧]، الأمر الـذي دفـع جسـتنيان مـرة ثانيـة إلي إصدار القوانـين وملاحق القوانين لمحاولة علاج هذا الخلل، ومحاولة إصلاح ما فسد من أمـر القضاء، واشتد جستنيان كثيرا في ذلك فنصت مرسوماته علي ما ينبغي علـي القضاة أن يتبعوه عند مباشرة القضاء في أنحـاء البـلاد، واهتـم بصفـة خاصـة بتطبيق هذه الإجراءات في مصر البيزنطية [٢٨].

وارتبط بالقضاء وتنفيذ الأحكام في مصر البيزنطية نظام الشرطة، ويعتبر الدوق رئيس الشرطة في دوقيته [٢٩]، لأنـه يشـرف علـي حفـظ الأمـن وتنفيـذ الأحكام بمساعدة الجند وكفالـة انتظـام جبايـة الضرائـب، وتقديـم المسـاعدة لعمال الخراج، لأداء المهام الموكلـة إليـهم، خاصـة ضمـان الهـدوء والسـكينة خلال عمل هـؤلاء الموظفين المـاليين [٣٠]. كمـا كـان رئيـس الأبروشـية قـائدا للشرطة في قسمه الإداري، فيصدر أوامر القبض والاعتقال علي الخارجين علي القانون، ويلقي بمن يعبث بالأمن أو يعيث فسـادا أو يرتكـب جرمـا في هـذه

---

(26) Ibid. p.472
(27) Rouillard: op. cit. p.162
(28) Ibid. p.162
(29) Diehl: op. cit. p.167
(30) Jouguet: La vie municipale dans L'Egypte Romane, p.193

الوحدة الإدارية في سجن هذه الوحدة، حتى يضمن الهدوء والسكينة في الأبروشية [٣١].

ولقد أبدي أدواق مصر عناية خاصة بمناطق معينة في مصر بسبب ما كان يحدث بها من الاضطراب والفتن وما يعتريها من القلق، مثل مريوط والمناطق القريبة من الإسكندرية التي كانت تتعرض كثيرا للفتن والاضطراب، والتي كانت داخله في نطاق اختصاصات حاكم ليبيا الذي درج علي إرسال نائب عنه إلي مثل هذه الجهات لإقرار الأمور فيها والقبض علي من يلجأ إليها من مثيري الشغب ومحدثي الفتن بالقرب من الإسكندرية [٣٢]. وكان تحت إمرة نائب حاكم ليبيا إلي جانب من كان بديوانه من الموظفين الدنيين خمسين جنديا انتزعهم من الحامية العسكرية المرابطة بالمنطقة ذاتها، وذلك لتنفيذ ما كان يصدر عن المحكمة من أحكام ومن أجل القبض علي المشبوهين ومثيري الفتن.

أما في المدن والقري، فقد تولت فئة خاصة من الموظفين تأدية أعمال الشرطة بجانب قيام الجيش المرابط بأعمال الشرطة، إذا كان من مهام الجند السهر علي حفظ الأمن في البلاد وإقرار الأمور فيها. وفي القرن السادس الميلادي اضطلع حامي المدينة بمهام الشرطة وساعده في ذلك بعض المساعدين[٣٣]، كانوا يقومون بمهمتهم- في اغلب الظن- من قبيل السخرة والتكليف ولكنهم تكفلوا بحفظ الأمن في المدينة والتحفظ علي المتهمين وإرغامهم علي المثول أمام القضاء، ويخضع لأوامرهم رجال البريد يساعدهم

---

(٣١) العريني: المرجع السابق ص٢٢٧

(32) Procopius: De bello Vandalico, p.342

(33) Holwein: La police de villages Egyptiens a l'epoque Romaine, p.19 (cairo 1905)

فئة من الحراس، وفي كل مدينة جري إنشاء سجن ليودع فيه الخارجون علي القانون ومن صدرت بشأنهم أحكام [٣٤].

أما في القري فقد كان هناك جماعة من رجال الشرطة، علي الرغم من قيام أعيان القرية بالقبض علي المتهمين، وإرسالهم للمثول أمام المحاكم، إذا تلقوا من المحاكم أوامر بذلك، وكان أعيان القرية هؤلاء يستعينون أحيانا في القبض علي المذنبين بالموظفين القائمين بأعمال الشرطة خاصة الحراس، كما تعاون الجند في القري ورجال الشرطة في المحافظة علي الأمن وإقرار الأمور في بعض الجهات بصفة خاصة [٣٥]. وإذا لم يكن بوسع أعيان القرية وقوات الشرطة المحلية أن يقبضوا علي المجرمين أو إذا ثبت إهمالهم عن عمد في تأدية ذلك الواجب استدعت السلطات المسئولة في القري قائد العساكر من مدينة مجاورة أو الاستعانة بالعساكر الإمبراطورية، فلا يلبث أن يأتي قائد الجند علي رأس جماعة من جنده للقبض علي المجرمين وإعادة السكان إلي رشدهم [٣٦].

وإلي جانب الشرطة المحلية، وجد بالقري في القرن السادس الميلادي موظفون صغار اعتبروا من رجال الشرطة، كانوا يؤدون أعمالا متنوعة كحراسة الحقول وحراسة قطعان الماشية والأغنام والرعاة ومراقبة هذه القطعان وضمان سلامتها، والتصدي لكل من يحاول السطو علي شيء منها [٣٧]، وحماية المنشآت والمرافق العامة التي تخدم الحقول والمزارع، وملاحظة انتظام الري

---

(34) Johnson: op. cit. p.213
Jouquet: op. cit. p.258
(35) Holwein: op. cit. p.19
Diehl: op. cit. p.473
(36) Rouillard: op. cit. p.166
(37) Maspero: op. cit. p.27

وحفظ الأمن. وجري تقسيم زمام القرية إلي عدة أقسام، اختص بكل قسم منها حارس أو عدة حراس، وفقا لما يتم الاتفاق عليه بين الرعاة وموظفي القرية، وكان حراس الحقول هؤلاء وحراس القطعان يخضعون لشرطة القرية مباشرة(٣٨).

وجرت إقامة أبراج منيعة في الجهات الواقعة علي أطراف الصحراء، لاسيما ما كان تابعا منها لطيبة، حيث تتعرض القوافل لهجمات المغيرين، إذ جري وضع حراس في تلك الأبتراج، يمكن أن يلجا إليهم من يتعرض للخطر للاحتماء بهم، فيصير حراس الأبراج في هذه الحالة مندوبين للشرطة، إذ أنهم يعينون في تلك المواضع لأداء مهام الحراسة وما تفرضه واجبات الشرطة (٣٩).

كما كان لكبار الملاك شرطة خاصة بهم وحراس خصوصيين يسهرون علي حمايتهم ويتكفل كبار الملاك بالإنفاق عليهم، بعد أن صار لهذه الطبقة الموسرة نفوذ قوي في مصر واستقلال داخلي كبير، أغراهم بان يتخذوا لأنفسهم حرسا خصوصيين، وأن ينشئوا جيوشا خاصة بهم في تلك الضياع الواسعة تعاونهم علي حماية هذه الأملاك وتلك المصالح الكبيرة (٤٠)، وحفظت لنا النصوص المعاصرة عقود اتفاق مبرمة بين أحد الملاك الكبار ورئيس حراسة، وضح منها حرص هؤلاء الملاك علي تأمين أملاكهم وضياعهم بالتعاقد مع حراس خصوصيين نظير الانفاق عليهم ودفع رواتب لهم يجري الاتفاق عليها بين الطرفين (٤١).

---

(38) Ibid. p.27
(39) Rouillard: op. cit. p.171
(40) Arnold: The end of the Buzantine Empire, p.33
(41) Arnold: op. cit. p.33
Jouguet: op. cit. p.193 (Paris 1911)

معني هـذا أن أعمـال الشـرطة في بعض القـري، لم يقم بـها حـراس الحقـول فحسـب، بـل تولاهـا أيضـا فئـة خاصـة مـن الحـرس أو الشـرطة الخصوصيين بتكليف من أصحاب الضياع الكبيرة مما يؤكد أن حمايـة الأمـن وأعمال الحراسة، لم تكن من مهام السلطة فحسب، وإنما شاركهم فيها طبقة الأغنياء من كبار الملاك لحراسة الضياع الكبيرة والأراضي الواسـعة في بعـض القري (٤٢).

ويتضح من هذا العرض أن الحكومة البيزنطية المركزية، بذلت جـهودا كبيرة في القرن السادس الميلادي لإصلاح أحوال مصر القضائية والأمنية، بعـد أن أصابها الانهيار والتداعي في الفـترة السـابقة، ولم تعـن بيزنطـة بذلـك إلا لإزالة ما لحق بمصالحها من أضرار في مصر فقـد أجـري جسـتنيان تغيـيرات كثيرة في النظم القضائية والأمنية، بفضل ما أشـتهر بـه مـن المـهارة الفائقـة، والحرص علي تنظيم شئون الأقاليم (٤٣)، مستخدما نهجا بالغ المرونة لإصلاح النظم الإدارية المرتبطة بهذه النواحي، فكان أحيانا يكتفي بلفت نظر الموظفين إلي الاهتمام بواجباتهم، وتارة أخري يلجا إلي اتخاذ تدابير بالغة الصرامة مع هؤلاء الموظفين لتحقيق الهدف المنشود، وإصلاح ما فسد من شـئون الولايـات حرصا علي صالح الإمبراطورية البيزنطية (٤٤).

فكل ما ورد في المرسوم رقم ١٣، الذي أصدره جسـتنيان عـن القضـاء ونظم المحاكم والشرطة، وكل ما أظهره جستنيان مـن اهتمـام بشـئون الإدارة الماليـة في مصـر والأمـن الداخلـي (٤٥)، وقمـع الفـتن والثـورات خاصـة الفـتن

(42) Arnold: op. cit. p.33
(43) Ibid. p.36
(44) Vasiliev: op. cit. Vol.1, p.160
(45) Arnold: op. cit. p.36

المذهبية (٤٦)، كان يهدف إلي استغلال موارد البلاد وضمان انتظام جباية الضرائب، إذ تشير الدلائل إلي أن الإدارة المدنية في مصر البيزنطية، كانت تكاد تطابق الإدارة المالية، فلم يكن الحكام سوي موظفين ماليين قبل كل شيء، وما كانوا يمارسونه من سلطة إدارية أو قضائية أو أمنية، إنما كانوا يمارسونها بالإضافة إلي الأمور المالية، وبعبارة أخري لم تكن واجباتهم كقضاة أو رؤساء شرطة أو قادة عسكريين ليست في حقيقة الأمر سوي واجبات إضافية إزاء ما يباشرونه من وظائف المال والجباية (٤٧)، وما يقومون به من حصر النفقات والمصروفات العامة، فكل النظم والمهام التي مارسها الموظفون في مصر كانت تتبع النظام المالي وتسير في خدمة هذا النظام (٤٨).

ولعلنا لا نخالف الحقيقة إذ قلنا أن المصريين لم يكونوا في نظر البيزنطيين أكثر من دافعي ضرائب، لابد من حملهم علي دفعها، مهما بلغت حالتهم سوءا، ومهما أتوا من الفقر والفاقة، وإذا كان المصريون قد عانوا علي عهد الرومان قدرا كبيرا من الظلم والاستبداد، فإن معاناتهم علي عهد البيزنطيين لم تقل عن ذلك كثيرا (٤٩)، وجري الإمبراطور جستنيان علي هذه القاعدة مستخدما في ذلك تعديلات في الوظائف الإدارية، وفي النظم المالية يهدف من ورائها الاستغلال المنظم للبلاد، جريا علي ما أتبعه الأباطرة من قبله، وما سنه الرومان من قبل من نظم باعتبار المصريين ليسوا سوي دافعي

(46) Hardy: op. cit. p.35
(47) Holwein: op. cit. p.21
(48) Johnson: Egypt and the Roman Empire, p.159

(٤٩) مراد كامل: المرجع السابق ص٢٦

ضرائب، ينبغي إرغامهم علي الانتظام في دفعها، مهما كانت الأحوال ومهما تغيرت الظروف [٥٠].

إلا أن جستنيان نسي أمرا هاما، أو هو تناسي إياه، نسي أن الزمن قد تغير كثيرا وتغيرت الظروف، ولم يعد بوسع بيزنطة في القرن السادس الميلادي فرض إرادتها في مصر كما فرضتها روما قبل ذلك، ولم تكن تملك من الوسائل لتحقيق هذا الهدف ما كانت تملكه روما من قبل، نظرا لنمو قوة المقاومة المصرية والمعارضة الوطنية والروح القومية، وما حدث من هبوب ريح الاستقلال، والرغبة في تحقيق الذات عند أهل البلاد [٥١]، بل وعند موظفي الحكومة أنفسهم مع ازدياد قوة الكنيسة وتعاظم أثرها في حياة المجتمع المصري في ذلك الوقت، وفي ضوء هذه المستجدات بدت إصلاحات جستنيان في مصر كآخر مرحلة من مراحل النضال خاضتها الإمبراطورية البيزنطية في مصر، وآخر محاولة لفرض إرادتها علي المصريين [٥٢]، فقد اشتد النضال بين ما أدخله جستنيان من نظم وبين ما هو قائم وسائد في مصر من تقاليد جديدة، وبين ما حاولت بيزنطة فرضه من تعديلات، وما أمل المصريون سريانه في مصر، ومن ثم يمكن توقع ما قد يحدث بين الإدارة الإمبراطورية المفروضة في مصر وبين المعارضة العنيفة والنضال الشديد الذي يمكن أن يفجره السكان والموظفون المصريون [٥٣].

---

(50) Diehl: op. cit. p.471
(51) Maspero: op. cit. p.29, p.32
Rouillard: op. cit. p.179
(52) Diehl: op. cit. p.480
(53) Maspero: op. cit. p.130

الفصل الثامن

الحياة الاجتماعية في مصر البيزنطية

الفصل الثامن

الحياة الاجتماعية في مصر البيزنطية

على الرغم من أن مصر مرت بحقب لم تكن خلالها كما كان أهلها يؤملون من التمتع بالاستقلال والسعادة وحرية اتخاذ القرار، بل تبعت خلالها قوى خارجية ، قنعت في ظلها بتبعية بغيضة مكروهة، على الرغم من ذلك، فقد تواصلت حضارتها وإسهاماتها واتصل تراثها دفعة وراء دفعة، وعاشت حياتها الاجتماعية بطريقتها، متأثرة بماضيها العظيم، وجذور حضارتها الضاربة في القدم، مهما كانت القوى المسيطرة، ومهما بلغت التبعية لهذه القوى.

وإذا كانت مصر في العصر البيزنطي قد فقدت استقلالها، وتحولت إلى ولاية تابعة للإمبراطورية البيزنطية، إلا أنها لم تتأثر كثيرا بهذه التبعية في حياتها الاجتماعية، بصفة خاصة التي تواصلت جيلا بعد جيل، حاملة جانبا كبيرا من تراث هذه الأمة ومن عاداتها وتقاليدها التي لم تستطع القوى المسيطرة محوها أو تغيير معالمها، فلا زالت جوانب هامة في حياة المصريين الاجتماعية تنساب إلى مصر من الماضي البعيد وتتواصل مسيرتها عبر الأجيال، غير متأثرة كثيرا بالحقبة البيزنطية، بقدر ما هي متأثرة بحياة المصريين عبر عصورهم القديمة، بل الضاربة في القدم، وغير متأثرة كذلك بحياة أولئك الغزاة أو بتراث تلك القوى المهيمنة، مهما بلغت هيمنتها على أقدار هذه الأمة.

وإذا كان هناك تأثير على حياة مصر الاجتماعية في العصر البيزنطي، فلم يكن مصدره تراث تلك القوة المهيمنة أو حضارتها، وإنما جاء هذا التأثير

من تحول مصر في ذلك العصر إلى عقيدة جديدة ودين سماوي عرف طريقه إلى شعب مصر، وأخلصت له تلك الأمة، فتأثرت حياة الناس بما جاء به ذلك الدين السماوي من مثل وقيم[1]، ومن تجارب اكتسبها المصريون بعد تحولهم إلى هذه العقيدة ، وأعنى به المسيحية التي لا شك أثرت كثيرا في حياة الناس في مصر البيزنطية، وأدخلت مؤثرات كثيرة على تلك الحياة الاجتماعية، ظهرت دلائلها في مجالات متعددة من الحياة الاجتماعية لهذا الشعب[2].

فإذا بدأنا بالحديث عن مركز المرأة في الحياة المصرية في العصر البيزنطي ومكانتها الاجتماعية، تأكدنا أن هذه المكانة انسابت إلى مصر عبر الحقب القديمة، وإن تهذبت وتأثرت بظروف مصر وعقيدتها في ذلك العصر، إذ احتلت المرأة مكانة هامة ومميزة في حياة المجتمع المصري منذ أقدم العصور[3]، لأنها كانت مصدر الوحي والإلهام، ومبعث جهاد النفس والروح ورمز البر والصدق، فقد جعل المصريون القدماء الإلهة ماعت أو معات رمزا للعدالة والحق والبر وقدسوا هذه القيم في تلك المعبودة الأنثى، تأكيدا لما احتلته المرأة من مكانة هامة في حياة المصريين القدماء، بل حفظ لنا تاريخ مصر القديم أسماء إلهات وكاهنات وملكات لعبن أدوار هامة ومؤثرة في حياة مصر القديمة، وكان لهن مكانة هامة بين عظماء الرجال في تلك العصور[4].

وفي العصر البيزنطي وبعد أن اعتنق المصريون المسيحية، ظلت المرأة أيضا مصدر الوحي ومبعث الإلهام والداعية إلى جهاد النفس والروح، فضلا عن أنها حرصت على أن تسمو بنفسها وخلقها وتروض نفسها على أن تكون

---

(1) Chawick: op. cit. p. 64

(2) Ibid. p. 64

(٣) مراد كامل: حضارة مصر في العصر القبطي ص ١٦٥

(٤) مراد كامل : المرجع السابق ص ١٦٥

نموذجا طيبا وقدوة حسنة أمام جموع الوثنيين ليكون ذلك مدعاة لجذبهم إلى العقيدة الجديدة، التي تحث على الطهارة والنقاء والسمو الخلقي[٥]، في الوقت الذي كان فيه المجتمع الوثني يتباهى بما هو فيه من الفساد والانحلال ويسخر من كلمة الطهر والعفاف ولا زال ماثلا في الأذهان ما كان يسود ذلك المجتمع من مهرجانات فاسدة وحفلات داعرة، خاصة في المجتمع الروماني[٦]، وبين جموع الوثنيين في كل مكان، الأمر الذي بدا في ظله النقاء والطهارة والعفاف، الذي دعت إليه المسيحية وحث عليه آباء الكنيسة الأول، أمرا بالغ الأهمية ونموذجا طيبا ومثالا يحتذي.

فقد سمت المرأة في ذلك العصر بالصلة الزوجية والعلاقات الزوجية، وأعطتها نصيبها من الاحترام والتبجيل، وارتقت بها إلى مراتب سامية،مما كان له أثر في تحول الناس تدريجيا إلى العقيدة الجديدة ـ فإذا كانت المرأة في مصر البيزنطية قد أدركت قدسية الزواج وارتقت بالصلة الزوجية إلى المراتب العالية[٧]، فإنها أدركت أيضا قدسية الأمومة ، فاهتمت بأولادها وسهرت على تربيتهم وتنشئتهم التنشئة الطيبة، بما يتفق وقيم ومثل العقيدة التي اعتنقتها والتي أخلصت لها، ولم تنصب أمومتها على أولادها فحسب، بل أيضا شملت الأولاد المحتاجين إلى العناية والرعاية، ممن تيتموا وفقدوا حنان الأم[٨].

ولعل خير دليل على ذلك أن أحد أعلام الفكر المصري الناضج، وأحد من أنجبتهم الكنيسة المصرية، وهو أوريجين، كان والده قدا استشهد في

---

(٥) كرمب وجاكوب: تراث العصور ج١ ص ٥٠، ص ٥٧

(6) Katz: op. cit. p. 94

(٧) مراد كامل المرجع السابق ص ١٦٦

(٨) مراد كامل: نفسه ص ١٦٧

الاضطهادات التي قام بها الإمبراطور سبتيموس سفروس في أواخر القرن الثاني ومطلع القرن الثالث الميلاديين[٩]، وكان أوريجين لا يزال صبيا، وكان أكبر أخوته السبعة، وكان الإمبراطور قد صادر أموالهم بعد قتل والدهم، وعندئذ اعتنت بهم سيدة من سيدات الإسكندرية، وسهرت على تربيتهم، فهيأت الفرصة لأوريجين ليصبح من أبرز المعلمين الذين أنجبتهم الكنيسة المصرية، ومن أهم أعلام الفكر المصري في ذلك العصر[١٠].

كما شاركت المرأة في الحياة العلمية والثقافة في مصر البيزنطية، وأجادت النساء الكتابة والقراءة وتعلمت وحصلن على قدر من العلوم والثقافة، والدليل على ذلك أنه حين شرع أورجين– باعتباره رئيسا لمدرسة الإسكندرية التبشيرية– في نسخ الكتاب المقدس،بعد أن انتهى من تسجيله في لهجات مختلفة [١١]، اختار سبع شابات يجدن الخط والكتابة، ولديهن قدرا من الثقافة الدينية والفكر المتقدم ، ليقمن بكتابة الكتاب المقدس في صيغته النهائية، بعد أن جرى تنقيحه وتعديله على يديه، فوجد ضالته وتقدمت النساء السبع لأداء هذه المهمة، مما يدل على مشاركة المرأة في النشاط العلمي والفكري والديني أيضا في مصر البيزنطي [١٢].

كما أظهرت نساء مصر شجاعة عظيمة وثباتا خلال الاضطهادات الدينية التي نزلت بمصر من قبل الأباطرة الرومان، بل كانت نساء مصر في كثير من الأحيان من أسباب ثبات الرجال وعدم ارتدادهم عن المسيحية خلال

---

(9) Chadwick: op. cit. p.100
Vasiliev: op cit. Vol. 1,pp.58-9
(10) Chadwick: op. cit. p. 100
(11) Ibid. p. 106

(١٢) مراد كامل: المرجع السابق ص ١٦٨

تلك الاضطهادات الرهيبة، بما بثته في قلوب الرجال من روح الإيمان والحمية والغيرة على الدين، فأقدم هؤلاء الرجال على الموت في غير تـهيب، وتقدموا نحو الاستشهاد في غير وجل[١٣]، وأدى ذلك إلى تحول كثير من الوثنيـين إلى العقيدة الجديدة ودخولهم في الدين المسيحي، فقد شـدت المرأة مـن عزيمـة الرجال ، وبثت فيهم الشـجاعة وقـوة الاحتمـال، ووقفـت بجانبـهم ترقبـهم وتشجعهم، وهم يتعرضون لأقسـى أنـواع التعذيـب والتنكيـل[١٤]، بـل تلقـت أحيانا ما تلقاه الرجال من التعذيب والتنكيل في سكينة وثبات.

وشاركت نسـاء مصـر في الحيـاة الدينيـة والرهبنـة، والانقطـاع للزهـد والعبادة في دورهن أو في أديرة النساء، التي انبثت في كل جـهات مصـر مـن أقصى جنوب الـوادي حتـى الإسـكندرية حيـث انقطعـت للعبـادة والتـأمل، ومارست أيضا العمل اليدوي والعقلي والخدمة الاجتماعية للبيئـة المجـاورة، فاختارت المرأة أن تكون راهبة أحيانـا أو شماسـة أحيانـا أخـرى أو كليـهما معـا[١٥]، فتفقـدت المرضـى ورعـت المسـجونين واعتنـت بـالمعوزين والغربـاء، وزارت العائلات لرعاية الناس وتخفيف آلامهم، وألحـت في عمـل الخـير، وأنيط بكل واحدة منهن رعاية حـي مـن الأحيـاء، وخدمـة سـكانه وإدخـال الطمأنينـة إلى نفوسـهم وتشـجيعهم علـى الحضـور إلى الكنيسـة بانتظـام، تصاحبهم أحيانا لينالوا حظهم من الرعاية الروحية، أو تقدم تقارير عنـهم في

(13) Camb. Med. Hist. Vol. 1, p.95
Thompson: The Middle Ages. Vol. 1, p.32
(14) Katz :op cit. p. 65

(١٥) مراد كامل : المرجع السابق ص ١٦٩–١٧٠

أحيان أخرى للكاهن، فضلا عما وكل إليهما غير ذلك من الأعمال الخيرية، والواجبات الدينية ، وإقامة الشعائر والطقوس [١٦].

وإلى جانب ذلك عملت المرأة في خدمة الطب والتطبيب، إذ تميزت بعض النساء بمعرفتهن بالأعشاب وفوا ئدها الصحية ، وبتركيب العقاقير، فعملن في هذه الخدمة، وقمن بتركيب العقاقير للمرضى مجانا في أغلب الأحيان، على الرغم من أن كثيرا منهن لم يتلق العلم من الأساتذة أو يذهبن إلى مدارس متخصصة، وإنما جاءتهن المعرفة بالتسليم من امرأة عن امرأة [١٧]، وساعد على ذلك أن البيئة التي عشن فيها، كانت في أغلب الأحيان بيئة بسيطة يعيش معظم أهلها على الفطرة ، ويندر فيها من يعرف القراءة أو الكتابة، أي أن أهلها من السذج تندر فيها دراسة مثل هذه العلوم، ليصبح الطب فيها بالممارسة والتسليم من شخص إلى شخص.

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن الأسرة والعادات في مصر البيزنطية، نجد أن الأسرة كانت وحدة البناء الإجتماعي، وأظهر رجال الدين اهتماما كبيرا بحياتها كأساس لبناء مجتمع سليم ، فغدت رابطة الزواج ركنا هاما من أركان المجتمع[١٨]، كما غدت حفلات الزواج فرصة مواتية لتعبر فيها الأسر المصرية عن مشاعر الفرح والابتهاج بصورة لا تختلف كثيرا عما نعهده الآن ، بإشراك الجيران والفقراء في مظاهر الفرح وبتوزيع الكساء والمأكل والحلوى عليهم، في حين كانت الأسر الثرية بالذات تحتفل بهذه المناسبة لعدة أيام، فتنحر الذبائح، وتقيم الولائم وموائد الطعام وتوزع الكساء على الفقراء، وتتبارى في إكرام الأهل والجيران، وفي الليلة السابقة على العرس يجتمع

(16) Bury: op. cit. Vol.1 , p. 386

(١٧) مراد كامل : المرجع السابق ص ١٧١

(18) Chadwick : op. cit. p.59

الأهل والأقارب في بيت العروس لتوديعها، وفي ليلة العرس ذاتها يجتمعون في بيت العريس للاحتفال به، وكذلك في صبحية العرس ، حيث يتلقى العروسان هدايا العائلة والأصدقاء(١٩).

وحينما يولد للعائلة طفل، يجري الاحتفال به في اليوم السابع لميلاده، فتدعو الأسرة الكاهن ليبارك الوليد ويجري اختيار اسم لهذا الوليد، وتقام طقوس في تلك المناسبة فترفع صلاة شكر لله من أجل سلامة الوالدة والوليد، ويشترك الكاهن مع الأسرة في اختيار اسم للوليد وغالبا ما يكون هذا الاسم من أسماء القديسين والشهداء المشهورين بمثلهم العليا، وعند بلوغ الوليد أربعين يوما من عمره يحمل إلى الكنيسة ليعمد وينال سر العماد(٢٠)، ويختارون له راعيا روحيا ينوب عن الكنيسة في رعايته روحيا إلى أن يصل إلى سن الدراسة فيجرى إلحاقه بمدرسة الكنيسة.

ومن العادات التي سادت في مصر البيزنطية، أنه حين تبنى الأسرة منزلا جديدا أو تنتقل إلى منزل جديد، يدعى الكاهن ليبارك المسكن الجديد بصلاة شكر خاصة ورش الماء المقدس في جنبات المنزل استجلابا للخير ودرءا للشر(٢١) ، خشية أن يكون المكان غير مريح أو تسكنه الشياطين، ففي مصر فقط دون سائر البلاد يعتقد الناس أنه إذا قتل إنسان في مكان ما، فإن روح هذا القتيل أو شبحه تظل ترتاد المكان أو تسكنه، وظل هذا الاعتقاد ساريا بين المصريين، وربما كان سببا فيما أقدمت عليه الأسر المصرية من إقامة

---

(١٩) مراد كامل : نفس المرجع ص ١٧٣

(20) Chadwick : op. cit. p. 59

(٢١) مراد كامل : نفسه ص ١٧٦

الشعائر والطقوس والصلوات ورش الماء المقدس عند الانتقال إلى منزل جديد، أو عند بناء منزل جديد[٢٢].

وإذا نذرت الأسرة نذرا عند شفاء مريض أو الخروج من ضائقة أو شر أو نجاح شخص في عمل أو تجارة أو دراسة، دعت الأهل والأقارب والجيران والفقراء إلى سهرة حافلة يجلسون فيها في حلقة يتوسطها مرتلو المدائح والألحان الدينية وقارئو السير الشعبية والأشعار، حيث يتبارون في ارتجال مقطوعات شعرية تدور معانيها حول المناسبة التي يجتمعون للاحتفال بها، وسط بهجة وسرور وبعد تقديم الولائم وموائد الطعام[٢٣]، كما هي العادة دائما.

أما في الأحزان والمآتم وحالات الوفاة في مصر البيزنطية، فجرت العادة على أن تشيع الجثة إلى الكنيسة، حيث تقام صلاة جنائزية استمطارا للرحمة وطلبا للعزاء لأهل المتوفى، ثم تقام صلاة خاصة في بيت المتوفي في اليوم الثالث للوفاة لتخفيف وطأة الحزن علي أهله وفي اليوم السابع والخامس عشر والأربعين تقام صلوات و قداسات في الكنيسة[٢٤]، كانت في واقعها فرصا مناسبة للتنفيس عما في النفس من آلام والتعبير عن مشاعر الحزن والأسى.

غير أنه جرت أحيانا عدات مرتبطة بهذه الأحزان لا سيما في صعيد مصر، وعند النساء بالذات، اختلطت بمظاهر وثنية، ربما انسابت إلى هذا المجتمع المسيحي من الماضي البعيد، ومن تراث مصر القديمة، فيها كثير من المغالاة والتجاوز في إظهار الأحزان مثل: لطم الخدود وشق الثياب وحل

(٢٢) مراد كامل : نفسه المرجع السابع ص ١٧٦

(٢٣) مراد كامل : نفسه ص ١٧٧

(24) Chadwich : op. cit. p. 268

الشعر وصبغه بالنيلة، والضرب بشدة على الصدور، وفقد زمام النفس والتمايل باهتزازات توقيعية مع أنغام التعديد، التي هي غالبا تعديد مآثر الفقيد وقدر الخسارة التي لحقت بفقده، إلا أن بعضها ينحرف إلى عبارات التذمر وينزلق إلى معاني الجحود[٢٥].

لكن من الأمور الطيبة في هذه المناسبات ، وما يدل على ما كان من روح التآلف والتضامن بين المصريين إسراع العائلات المجاورة لمنزل المتوفى للمشاركة في تقديم العزاء تخفيفا لوطأة الحزن على أهله وشغلهم عن التفكير في هذا الحزن من ناحية، وكذلك مشاركتهم في استضافة المعزين القادمين من قرى أخرى أو بلاد بعيدة بتقديم الطعام وأماكن المبيت من ناحية أخرى[٢٦]، وكذلك إظهار شعور الامتنان والشكر لهؤلاء المعزيين المتجشمين عناء الانتقال للتعزية من ناحية ثالثة.

وكان الخروج إلى المقابر من العادات القديمة التي ورثتها مصر البيزنطية عن الماضي، إذ يعتبر ذلك من دلائل الوفاء ومن مظاهر التكريم لذكرى المتوفى، خاصة الخروج في أيام الأعياد وفي المناسبات الخاصة، حيث توزع الصدقات وتقدم المأكولات للفقراء، وترفع الصلوات طلبا للرحمة للفقيد[٢٧]، لكن الناس غالوا أحيانا في ذلك، فباتوا في المقابر عدة ليال وتمادوا في إظهار الحزن والأسى في تلك المناسبات.

وجرت كذلك عادة بعض الأسرات في ذلك العصر، أن تتناوب إقامة الولائم في إيوان ملحق بالكنيسة، حيث يجتمع الناس حول مائدة يتناولون

---

(٢٥) مراد كامل : نفسه المرجع ص ١٧٨

(٢٦) مراد كامل: نفسه ص ١٧٩

(27) Chadwich: op. cit. p. 268

معا الطعام، بينما يقوم أفراد هذه العائلات بخدمتهم أثناء هذه الولائم، ويبدو أن الكنيسة شجعت هذا التقليد لتقوية الروابط الاجتماعية بين الناس من ناحية ، وإزالة الفوارق الاجتماعية بين الطبقات من ناحية أخرى وهذا الدور يضاف إلى الأدوار التي لعبتها الكنيسة في كل مكان (٢٨).

هذا فضلا عما ألحق بالكنيسة من غرف لإيواء الغرباء واستضافة المسافرين، ورعاية الفقراء، وكلها واجبات رأت الكنيسة فيها خدمة المجتمع والناس، وكان يتكفل بهذه أحيانا بعض الموسرين، أو تتكفل بها الكنيسة أحيانا أخرى من حصيلة النذور والهبات التي كانت تتلقاها من الخيري(٢٩)، كما ألحقت بالكنيسة أيضا مدرسة لتعليم الأطفال القراءة والكتابة، والحساب ودراسة الكتاب المقدس وسير القديسين وتعليم الألحان الدينية الكنسية، وأحيانا أخرى تخريج رجال الدين(٣٠)، كما كان بجوار الكنيسة في بعض الأحيان مستشفى لعلاج المرضى لا سيما المرضى من فقراء الناس ومن تعوزهم الحاجة، ووجود مثل ذلك يعد مظهرا من مظاهر التضامن الاجتماعي ودليلا على دور الكنيسة في الحياة الاجتماعية(٣١)، في مصر البيزنطية.

بقي أن نشير إلى جانب من الحياة الاجتماعية التي عاشتها بعض الأسر المصرية الموسرة خاصة في الريف المصري من كبار الملاك الزراعيين، الذين ازداد نفوذهم على حساب صغار الحائزين للأرض والذين أدخلوا تحت حمايتهم من جاورهم من الفلاحين، فاشتدت شوكة هؤلاء الإقطاعيين وازداد

(28) Ibid. p. 98

(٢٩) مراد كامل : المرجع السابق ص ١٨٢

(30) Chadwick: op. cit. pp. 156-7
(31) Ibid. p. 98

عددهم في القرن الخامس بصفة خاصة (٣٢)، ثـم لم يلبـث أن تـألف منـهم في القرن السادس الميلادي طبقة من النبلاء الإقطاعيين، مثال ذلك أسرة أبيون في البهنسا ، الذين كانوا مـن كبـار الأعيـان وظفـروا بالوظـائف العليـا في مصـر وبالرتب الرفيعة (٣٣)، وحازوا أملاكا شاسعة لا في البهنسـا فحسـب، بـل في سائر أنحاء الفيوم، بل امتلكوا قرى بأكملها بما يحيط بها من أراضي، وعاش أفراد هذه الأسرة في قصورهم في المدينة علـى نحـو مـا يعيـش الأمـراء، وتـولى زراعة أراضيهم الفلاحون والأقنان، وكـان لأسـرة أبيـون هـذه أسـطول صغـير يسير في نهر النيل واتخذوا لأنفسهم جندا خصوصيين وشـرطة تولـوا حراسـة أراضيـهم وماشـيتهم وآلاتـهم الزراعيـة، بـل أن هـذه الأسـرة سـكت عملـة باسمها(٣٤).

وإلى جانب أسرة أبيون، كان هنـاك أسـر أمونيـوس وفويبـامون وغـير هؤلاء كثيرون غدا لهم من القوة ما كان يكفي لمقاومة الحكومـة، وتقلـد أفـراد هذه الأسر الوظائف الهامة فازداد نفوذهـم وقـوى سـلطانهم في المـدن والقـرى التي سكنوها، وإن أظهر بعض هؤلاء السادة العداء للسيادة البيزنطية وكانت تحركهم أحيانا نوازع وطنية، وهذا التطور الاجتماعي جعل مـن كبـار المـلاك السادة الحقيقيين للبلاد، الذين اصبحوا يمثلون خطرا على السيادة البيزنطية في مصر (٣٥).

---

(32) Rouillard: op. cit. p. 8 , p.12
(33) Bell : Egypt from Alexander the great to the Arab conquest, pp. 121-122, Diehl: op. cit. p. 456
(34) Bell, op. cit. p.122
Rouillard: op. cit. p. 167
(35) Diehl: op. cit. p. 471

غير أن ما يعنينا الآن أن هذه الأسر الموسرة عاشت حياة اجتماعية صاخبة تراوحت بين التعنت إزاء فلاحيهم وأقنانهم الداخلين في خدمتهم أحيانا، وبين الظهور بمظهر الأمراء في قصورهم، بما يستتبعه ذلك من رعاية الداخلين في محيط أراضيهم أحيانا أخري، لكنهم على كل حال مثلوا قطاعا من سكان مصر في العصر البيزنطي، وكانت لهم حياتهم الاجتماعية الخاصة بهم، ابعدتهم في الغالب عن جموع الناس في مصر وعزلتهم عن قطاعات كبيرة من عامة الناس من أهل مصر(٣٦).

أما عن الحياة الاجتماعية في مدينة الإسكندرية في العصر البيزنطي، فقد كان سكان المدينة حينئذ أخلاطا من الناس أهمهم اليونانيين الذين شكلوا الأرستقراطية المحلية، وكذلك الأجانب الذين اجتذبتهم الأهمية التجارية والصناعية للمدينة من السوريين والبيزنطيين والأحباش والعرب والهنود وكذلك اليهود الذين شكلوا جالية كبيرة في المدينة، ثم العنصر المصري الذي اعتبر أساس سكان المدينة، والذين تحدثوا اللهجة القبطية منذ أواخر القرن الخامس الميلادي، كل ذلك جعل للإسكندرية طابعا اجتماعيا خاصا قوامه الاختلاط(٣٧).

وإذ تعددت الطبقات الاجتماعية في الإسكندرية وتنوعت، فقد تميزت فئة من سكان المدينة بالثراء والغنى، إذ ضمت طائفة من الأغنياء من رؤساء البيوت التجارية والمصارف والأسرات العريقة من النبلاء المحليين، وهذه الفئة جرى اختيار كبار الموظفين من بينها، وارتبطت هذه الفئة بالحكومة

---

(36) Rouillard: op. cit. p. 167
(37) Diehl. L'Egypte Chretienne, p.482

البيزنطية وهوت إليها، واستندت الحكومة البيزنطية إلى هذه الطبقة بالذات كدعامة لها(٣٨).

كما كان هناك رجال الدين الذين اشتهروا بالثراء والغنى خاصة بطريرق المدينة لما كانت تحوزه الكنيسة من أملاك واسعة من الأراضي والعقارات من هبات الأباطرة وبعض الأغنياء والخيرين، فضلا عما كان لها من أسطول تجاري وسفن تحمل المتاجر والسلع وترتاد موانى البحر المتوسط والبحر الأدرياتي، حتى جنت الكنيسة أموالا طائلة من هذه التجارة. فتهيأ لبطريرق الإسكندرية فرصة تخصيص رواتب لفئات من الفقراء بانتظام ولمن يقصده من طبقة العامة والكادحين، وتذكر وثائق ذلك العصر أن البطريرق كان يطعم نحو سبعة آلاف وخمسمائة من فقراء المدينة(٣٩).

واشتهر أهل الإسكندرية حينئذ بسرعة الإثارة وحدة المزاج وعدم الاكتراث بالسلطة أو الحكومة ونزعوا إلى الثورة والتمرد وإحداث الشغب، فضلا عما ذاع عنهم من حب المرح والسرور والميل للعبث واللهو وارتياد المسارح والسيرك وغير ذلك من وسائل التسلية، وحين قرر الإمبراطور جستين الأول طرد كل المشتغلين بالرقص من بلاد الشرق، استثنى من ذلك الإسكندرية، فقد حرصت الحكومة البيزنطية على أن توفر لأهل الإسكندرية هذه المتعة إذ كانت الإسكندرية محل اهتمام الحكومة البيزنطية (٤٠)، كما عرف عن أهل الإسكندرية أيضا سرعة الخاطر وحب الثرثرة، فلما انتشرت العقيدة المسيحية اشتد ميلهم إلى المجادلات الدينية، واحتدم النزاع بين

---

(38) Ibid. p. 483

(٣٩) العريني: المرجع السابق ص ٢٥٥-٢٥٦

(40) Johnson · Economic Studies, p.298

الفئات المختلفة دينيا وعرقيا ، فطفح تاريخ الإسكندرية في القرنين الخامس والسادس الميلاديين بالمعارك والنضال المرير، حتى فتح العرب مصر والإسكندرية [٤١].

ونظرا لأن الإسكندرية ظلت حتى القرن السادس الميلادي مدينة الترف والثراء واشتهرت بالرخاء المادي والانتعاش الاقتصادي من عائد التجارة، فقد أضفى هذا على سكانها نوعا من البهجة والسعادة [٤٢]، تمثل في اهتمامهم بالاحتفالات والأعياد، حين يشيع العبث والمجون، ويحي فريق من الناس حياة صاخبة وربما كان ذلك سببا فيما وجهة كلمنت السكندري في أواخر القرن الثالث ومطلع القرن الرابع من نقد شديد إلي نساء الإسكندرية لاشتداد ميلهن إلي استخدام المساحيق وما ينزعن إليه من ارتداء المنسوجات الحريرية والثياب الموشاة بالذهب والثياب القصيرة التي تكشف الركبة تقليدا لفتيات إسبرطة وما اتخذنه من الأحذية التي طبع علي نعالها عبارات الحب، واشتد كلمنت السكندري في لوم النساء لاهتمامهن بصبغ شعورهن واتخاذ الشعر المستعار أحيانا مع جعله في تراكيب هندسية بالغة التعقيد [٤٣].

فضلاً عن أن نساء الإسكندرية لجأن، إلى تزيين الوجوه وطلاء الخدود والجفون واستعمال الكحل للعيون والرموش، ووضع اللون الأزرق حول العينين والأحمر على الوجه، وتعطرن بالعطور واستخدمن الزيوت والأدهان، واتخذن الأثواب الدقيقة التطريز و الحلي المتنوعة التي تدل على الثراء، خاصة الأقراط الدائرية الواسعة في الآذان، أو الأقراط ذات الشكل العنقودي والأساور

---

(٤١) العريني: المرجع السابق ص ٢٥٢، Deihl: op. cit. p.482

Bury : op. cit. Vol. 1, p. 216

(42) Johnson: op. cit. pp.99-107, pp.153-4

(43) Diehl: op. cit. p.488

السميكة في المعاصم، والتي تنتهي برأس حية من الناحيتين، وبعض هذه الحلي كان مرصعا بالأحجار الكريمة ، فضلا عن وضع الخلخال في الأرجل مصنوعا أحيانا من الفضة أو الذهب، واستخدام المكاحل والأمشاط من العاج(٤٤).

وأكد ذلك ما عثر عله من المنسوجات المختلفة ذات الألوان الزاهية والرسوم المتنوعة والحلي الجميلة كالعقود الذهبية المنتظمة في صفوف، والخواتم والأساور والجلاجل (الحلقان) وغيرها من الحلي ، وعرفت هذه السلوكيات زمن كلمنت السكندري، وظلت سائدة في القرنين الخامس والسادس الميلاديين(٤٥).

ولم تكن زينة النساء وتبرجهن وميلهن إلى الحياة الناعمة هو السبب الوحيد لنقد كلمنت السكندري، وإنما تناول نقده أيضا الإسراف في الطعام والشراب، الذي اعتبره من دلائل الانحلال الخلقي بالمدينة، كما اعتبر الحياة الوادعة والميل للكسل والخمول وحب الملاهي والشغف بالسيرك والولع بالزهور، نوعا من هذا الانحلال الخلقي أيضا، ومع هذا اشتهر السكندري - كما سبق أن أشرنا - بسرعة الخاطر والذكاء الفطري وحب الحياة الصاخبة، واستمرت هذه الصفات طوال العصر البيزنطي واضحة جلية في إطار من التقاليد الموروثة(٤٦).

ومن المحقق أن النماذج المشار إليها، لم تكن تمثل إلا جانبا من جوانب حياة المجتمع السكندري في ذلك العصر، بينما ظلت جوانب أخرى

---

(٤٤) مراد كامل: المرجع السابق ص ١٤٦

(45) Diehl: op. cit. p.488

(٤٦) العريني: المرجع السابق ص ٢٦٨

طاهرة نقية عظيمة، وتمسكت فئات أخرى في ذلك المجتمع بالتقاليد المعتدلة المستمدة من العقيدة المسيحية. فقد أشارت كثير من الوثائق ومصادر ذلك العصر، إلى ما كان يلتزم به الأزواج من واجبات تجاه أسرهم، وأشارت إلى متانة تكوين الأسرة في ذلك المجتمع وإلى ندرة حدوث الطلاق أو الانفصال بين الزوجين، إلا في حالات خاصة وقليلة ولأسباب قوية، وعينت تلك الوثائق الأسباب وما كان يحدث أحيانا من انفصال بين الزوجين، مما أكد ندرة هذه الحالات وأكد متانة تكوين الأسرة في ذلك المجتمع(٤٧).

وليس معنى ذكر الحياة الناعمة في مدينة الإسكندرية، وحياة الترف والثراء، أنه لم يكن هناك فقراء، فالواقع أن النصوص تشير إلى عدد الفقراء في مدينة الإسكندرية لم يكن قليلا، بل أن حالتهم بلغت درجة كبيرة من السوء، مما جعل الحكومة تهتم بتقديم الطعام لهم وتتكفل بوقود الحمامات العامة وبعض النفقات الأخرى لهذه الطبقة من الفقراء في الوقت الذي تكفلت فيه الكنيسة أيضا برعاية كثير من هؤلاء الفقراء منعا لما يمكن أن يقع بين طبقات المجتمع في الإسكندرية من منازعات وأحقاد بسبب الفوارق الاجتماعية في العنصر الثروة والجاه (٤٨).

(47) Diehl : op. cit. p. 490
(48) Ibid. pp. 482-3

الفصل التاسع

الإسكندرية في العصر البيزنطي

الفصل التاسع

الإسكندرية في العصر البيزنطي

حققت الإسكندرية منذ بنائها قديما شهرة عظيمة بين مدن العالم القديم لأسباب كثيرة، لكونها مركزا تجاريا هاما[1]، ولرخائها وازدهارها وصلاتها بالمدن المطلة على البحر المتوسط وبلاد الشرق من ناحية، ولكونها كذلك مدينة البذخ والثراء والجاه، بفضل ما كان لها من نشاط تجاري وصناعي وعظمة اقتصادية من ناحية ثانية، ولكونها أيضا حاضرة العلم والمعرفة والفن ومركز الإشعاع الفكري والديني والثقافي من ناحية ثالثة[2].

فقد حظيت بمكانة هامة بين المدن المطلة على ذلك البحر وبلاد الشرق، كما حازت شهرة كبيرة لما حققته من ثراء وجاه وعظمة اقتصادية بفضل رواج تجارتها وتقدم صناعتها وما كانت تمثله من قوة اقتصادية كبيرة في تلك العصور[3]، كما احتلت مكانة فريدة بين مدن الدنيا قديما بفضل ازدهار علومها وفنونها، وكونها حاضرة العلم والمعرفة، وهي الجوانب التي تدين لمكتبتها ومتحفها، والتي ارتقت بفضلها كثيرا، ونالت تلك المكانة الرفيعة بين مدن الدنيا في ذلك الوقت، فضلا عن ازدهار مدرستها التي زخرت بنشاط علمي وثقافي كبير[4]، فلما انتصرت المسيحية حظيت هذه المدرسة بشهرة عظيمة في دراسات فريدة، كانت محل الاهتمام في كل مكان، فظلت الإسكندرية في القرن السادس الميلادي موطن الشعراء والأدباء

---

(1) Lot : op. ci . p. 62 , p.71
(2) Vasiliev:op.cit. vol 1,p. 54, pp. 116-117
(3) Bury: op. cit vol. 1,p.213
(4) vasiliev:op.cit. Vol. 1,pp.117-118

والفلاسفة والعلماء المبرزين في مختلف الفروع العلمية، وصار للإسكندرية مكانة مرموقة في تاريخ الآداب والعلوم والفنون الحضارة[٥].

ولقد استمرت الإسكندرية في العصر البيزنطي كما كانت في العصرين الروماني والبطلمي حاضرة البلاد، وأهم مدن القطر المصري[٦]، لأنها ظلت تحتفظ بعظمتها وفخامتها وما تميزت به من حركة عمرانية فريدة، وما كان لها من مواني عظيمة: ميناءين علي البحر المتوسط من ناحية، وميناء داخلي علي بحيرة مريوط من ناحية أخري، فلهذه الميزات ظلت الإسكندرية عاصمة لمصر وأهم المدن في مصر البيزنطية وأعظم المواني المطلة علي البحر المتوسط[٧].

واشتهرت الإسكندرية بشوارعها الفسيحة المستقيمة والمتقاطعة مع بعضها البعض ودورها الجميلة المؤلفة من طبقات عديدة، والتي تعلوها أبراج شاهقة، بالإضافة إلي ما كان بها من آثار جميلة وأسوار منيعة، وما زخرت به ضواحيها من المنازل الجميلة والحدائق الغناء[٨]. وكان قصر الوالي البيزنطي يقع بشرق المدينة، يشرف علي الميناء الشرقي، وكان فيما مضي هو قصر ملوك البطالمة، ثم اتخذه من بعدهم الولاة الرومان مستقرا، وبالقرب من ذلك القصر يقع متحف الإسكندرية ومكتبتها، وكانا من مراكز النشاط الفكري والعلمي بالمدينة ومن مفاخر مدينة الإسكندرية، وكان يفد إلي المكتبة بالذات العلماء والفلاسفة وطلاب العلم من كل جهات العالم[٩].

---

(5) Lot: op, cit. p.373

(6) Bell: op. cit. p.35,p.126

(٧) العريني: المرجع السابق ص٢٤٨-٢٤٩

(٨) العريني: المرجع السابق ص٢٤٩، Diehl: l'Egypte Chretienne,p.479

(٩) مراد كامل: المرجع السابق ص٧٥

ويمتد شارع رئيسي يقطـع المدينـة مـن شـرقها إلي غربـها وهـو شـارع تجاري عرف باسم شارع بلاتيا Plateia ، وسط الحدائـق والأزهـار، وتشـرف علي هذا الشارع المدرسة التي اشتهرت باسم الجمنـاز، كمـا أصطـف علـي جوانب هذا الشارع الحوانيت الكبيرة التي شكلت سوق المدينة ومركـز البيـع والشراء فيها، كما ارتفع قوس النصر في الميدان الكبير الذي يتوسـط المدينـة، أما في ظاهر الإسكندرية وخارج الباب الشـرقي، فكـان يقـع الملعـب وميـدان السباق (١٠)، ودور اللهو والمسارح، وانبثت الحمامات العامة وصـهاريج الميـاه المقامة علـي أعمـدة تحـت الأرض والـتي صـارت نموذجـا لمـا شـيد منـها في القسطنطينية.

وازدادت أهمية الإسكندرية ابتداء مـن القرن الرابـع الميـلادي، حـين أصبحت من مواطن الدفاع عن المسيحية، وحين غدت مركزا هاما للمناظرات الدينية ومكانا للتعبير عن الحماسة الروحية، ففيها نبتت الأريوسية، ومنـها انتشرت المونوفيزيتية إلي سائر أنحاء الشرق (١١)، كرد فعل للنسـطورية وبـها ازدادت أهميـة الديريـة، وحيـاة المتنسـكين والمتفرديـن أمثـال بـولا وأنطـون والمترهبين أمثال باخوم وشنودة الأتريـبي وسـرابيون، وفي الإسـكندرية تطلـع أسقفها في القرن الخامس الميلادي إلي أن يصبح بابا للكنيسة الشرقية، معتمدا علي ما أسهمت به الإسكندرية في إثراء العقيدة المسيحية، وما حازه رجالهـا الأوائل من شهرة في الخافقين، وبفضل ما كان حوله مـن رهبـان يبذلـون لـه الطاعة والخضوع، وما يخصه به سكان مصر كلها من تأييد واحترام (١٢).

---

(10) Bell: op. cit. p.53
(11) Bury: Hist. Of the later Roman Empire, pp.348-9
(12) Chadwick: op. cit. p.194

ثم ما لبثت الروح القومية أن انبعثت في مدينة الإسكندرية، بفضل انتصار المسيحية لاسيما وأن الجانب الأكبر من حضارتها ظل مصريا خالصا، والدليل علي ذلك ما حدث من تدمير معبد سرابيس أو السرابيوم سنة ٣٩١م[١٣] زمن الإمبراطور ثيودسيوس العظيم، وعد ذلك علامة على ما تكنه المسيحية من كراهية وعداوة للوثنية والهللينية، وقد أشرف بطريرق الإسكندرية حينئذ " ثيوفيل" بنفسه على تخريب معبد سرابيس[١٤]، حتى لم يبق من هذا المعبد وتماثيله سوى تمثال واحد، ليكون هذا دليلا على انكسار الوثنية، ومن المرجح أنه أقيم مكان السرابيوم كنيسة جرى تدشينها باسم القديس يوحنا المعمدان في مايو سنة ٣٩٥م، واتخذت اسم أركاديوس[١٥].

ولقد كثرت العمائر الدينية في الإسكندرية من الكنائس والأديرة والمشاهد، فضلا عن المنشآت الخيرية التي تولى البطريرق إدارتها العليا، والتي بلغ عدد العاملين بها في أوائل القرن الخامس الميلادي، نحو ستمائة

---

(١٣) لم يكن سرابيس إلها وطنيا مصريا، فقد أحضر تمثاله أول ملوك البطالمة من شاطئ بنطس حيث عبده أهل سينوب مدة طويلة، ولما رفض المصريون قبول هذا الإله الأجنبي عمد الكهنه- بإغراء البطالمة- إلي وضع تاريخ وطني لهذا الإله، فنسبوه إلي أوزيريس وإيزيس،فأصبحت الإسكندرية التي اختصها هذا الإله بحمايته تفخر قديما باسم مدينة سرابيس ، وأقيم له معبد فيها ينافس الكابيتول عظمة وقوة وروعة، ودعم داخله تدعيما قويا بالأقواس وقسم إلى أبهاء وغرف تحت الأرض وأحيطت مبانيه المقدسة برواق مربع الزوايا، وتجلت في قاعاته وتماثيله الرائعة عظمة الفنون وتقدمها. ،انظر : جيبون : اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ج٢ ص ١٤٧-١٤٨، Bell: op. cit. p.39

(14) Bury: op cit, 1, p. 149, Chadwick :op . cit p.168

(١٥) العريني: نفسه ص ٢٥٠

موظف، وكانت الإسكندرية قد انقسمت منذ زمن قديم إلى خمسة أحياء إلا أن هذه الأحياء ازداد عددها بمضي الزمن وتناسبا مع اتساع رقعتها وكثرة السكان بها، ولذلك كان بها في البداية خمس أبروشيات وخمس كنائس زاد عددها بمرور الأيام(١٦).

وعلى الرغم من ازدياد العنصر المصري في مدينة الإسكندرية بمضي السنين، إلا أنه ظلت لها مسحة يونانية تجعلها تبدو وكأنها مدينة أجنبية غريبة عن مصر التي اتخذتها عاصمة لها، ويشير المؤرخون إلى هذه الصفة التي لصقت بالإسكندرية في العصر البيزنطي، حتى أن سكان البلاد من المصريين كانوا يعتبرون التوجه إلى الإسكندرية كأنه رحيل عن مصر وخروج من البلاد والانتقال إلى بلد آخر(١٧).

هذا عن أهمية المدينة ومعالمها وصفتها، أما عن سكان الإسكندرية في ذلك العصر، فقد سبق أن أشرنا إلى أنهم كانوا أخلاطا من الناس ، بلغ عددهم في القرن السادس الميلادي نحو ستمائة ألف نسمة اعتمادا على ما ذكره أحد كتاب القرن الخامس الميلادي من أن المدينة كانت تماثل روما في عدد سكانها وفي ثرائها أيضا(١٨)، واعتبر اليونانيون أهم سكانها إذ تألفت منهم الأرستقراطية المحلية التي تعتمد عليها الحكومة كدعامة لها ، والتي ينتخب من بين أفرادها أعضاء مجلس سناتو الإسكندرية، ثم هناك اليهود الذين مثلوا عنصرا هاما من عناصر سكان المدينة ، وكان لهم فيها حي خاص ولهم ديانتهم وكتابهم وتقاليدهم الموروثة (١٩) والذين ظلوا حتى سنة ٤١٥م

---

(16) Bell: op. cit p. 51
(17) Diehl:op. cit. p. 480
(18) Bury: op. cit. vol.1, p.88, p. 216

(١٩) مراد كامل. المرجع السابق ص ٧٥

يؤلفون جالية كبيرة بالمدينة، حتى قام البطريرق كيرلس في نفس هذه السنة بطردهم من المدينة، وأغلق معابدهم، وأمر باستباحة دورهم ونهبها[20]، وعلى الرغم من عودتهم إلى الإسكندرية بعد ذلك، إلا أنه لم يعد لهم ما كان من مكانة من قبل، غير أن العنصر المصري اعتبر أيضا أساس سكان المدينة، وتألف منه معظم سكان المدينة، وترتب على ذلك شيوع استخدام اللهجة القبطية بالمدينة منذ أواخر القرن الخامس الميلادي[21]،هذا فضلا عمن قدم إلى الإسكندرية من الأجانب الذين اجتذبتهم أهمية المدينة التجارية، وما كان لجامعتها من شهرة ذائعة، فصارت الإسكندرية ملتقى السوريين واليونانيين الوافدين من آسيا الصغرى وبيزنطة والتجار القادمين من أثيوبيا وبلاد العرب، بل جاء إليها أناس من الهند وجنوب شرق آسيا، كل ذلك جعل للإسكندرية طابعا خاصا قوامه الاختلاط، كالذي اشتهرت به المدن الواقعة في شرق البحر المتوسط[22].

وكما سبق أن أشرنا اشتهر أهل الإسكندرية منذ قديم الزمن بسرعة الإثارة وعدم الاكتراث بالسلطة أو الحكومة، ونزع سكانها إلى حب الثورة والتمرد والميل إلى الشغب وإحداث الاضطرابات،فلم يجد الرومان مدينة في إمبراطوريتهم تماثل مدينة الإسكندرية في هذه الصفات التي تجعل حكم هذه المدينة من الصعوبة بمكان، فقد كانت شوارعها تعج دائما بالثوار والمشاغبين وتشهد الاشتباكات بين المواطنين وجنود الحكومة واندلاع الثورات ضد الولاة[23]، يضاف إلى ذلك ما ذاع عنهم من حب المرح والسرور، فضلا عما

---

(20) Bury: op. cit. vol. 1,p. 216
(21) Vasiliev: op. cit. vol. 1,p.90
(22) Diehl:op, cit p.482
(23) Bury : op. cit . Vol.1,p.216
Mommsen: History of Rome, vol. 2, p. 264(Eng.trans.)

اتصفوا به من سرعة الخاطر وحب الثرثرة والميل إلى العبث واللهو وارتياد المسارح والسيرك، ولما انتصرت المسيحية اشتد ميلهم إلى المجادلات الدينية واحتدم النزاع في المدنية بين الأحزاب المتنافسة والمتنازعة والفئات المتعادية من الوثنيين واليهود والمونوفيزيتيين على اختلاف ميولهم وأهوائهم، فطفح تاريخ الإسكندرية في القرنين الخامس والسادس الميلاديين بالمعارك والمذابح وبما شنه المونوفيزيتيون ضد الحكومة البيزنطية من حرب مريرة ونضال عظيم استمر إلى نهاية العصر البيزنطيين في مصر [٢٤].

ولهذا اهتمت الحكومة البيزنطية باستتباب الأمن في المدينة وإقرار السلام فيها لأتساع رقعة الإسكندرية وامتداد مساحتها من ناحية، ولكثرة سكانها وازدياد عددهم من ناحية أخرى، ولتحقيق هذه الغاية لجأت الحكومة إلى ما سلكته في القسطنطينية من وسائل، فقد درجت على تقديم الطعام للعامة من سكان المدينة وتوفير لهم وسائل اللهو والتسلية، فقرر الإمبراطور دقلديانوس سنة ٣٠٢م أن يوزع على فقراء الإسكندرية جانبا من القمح الذي جرت جبايته من المصريين[٢٥]، واشتهر هذا القدر من القمح والذي كان برسم مؤونة سكان الإسكندرية باسم " الجراية" وابقى الأباطرة للمدينة هذا الامتياز الذي منحه لها دقلديانوس، وحرص الإمبراطور جستنيان على عدم تأخير توزيع هذا القمح خشية أن يؤدي هذا التأخير إلى إثارة أهل الإسكندرية المشهورين بحدة المزاج وسرعة الإثارة [٢٦].

كما تكفلت الحكومة أيضا بوقود الحمامات العامة، وببعض النفقات الأخرى وتولت الكنيسة من جانبها بذل المعونة للمحتاجين، ومثلت هذه

---

(24) Bury:op. cit.1,p.482
(25) Diehl: op. cit.p. 482

(٢٦) العريني: المرجع السابق ص ٢٥٣

الإعانات أهمية كبيرة لقطاع كبير من سكان المدينة والدليل على ذلك أن الحكومة كانت تلجأ أحيانا وخلال اندلاع الثورات في الإسكندرية إلى وقف صرف الجراية، وإغلاق الحمامات العامة لقمع الثورة، وإنهاء مقاومة سكان الإسكندرية للحكومة(٢٧).

واشتهر سكان الإسكندرية أيضا بميلهم الشديد إلى ارتياد الملاهي ودور اللهو المختلفة والإقبال على مشاهدة ما يجري في المسارح من تمثيل ورقص وموسيقى وغناء،ولهذا حرصت الحكومة أيضا على أن توفر لهم هذه المتعة، لأن ميل أهل الإسكندرية لمشاهدة ألعاب السيرك لم يكن يقل عن ميل أهل القسطنطينية ، وحين قرر الإمبراطور جستين الأول (٥١٨ – ٥٢٧ م) طرد كل المشتغلين بالرقص من بلاد الشرق استثنى من ذلك الإسكندرية (٢٨).

ولكفالة الأمن في الإسكندرية حرصت الحكومة أيضا ألا يجري بيع الأسلحة للأفراد وذلك في القرن السادس الميلادي، لفكرتها عن أهل الإسكندرية، وميلهم لإحداث الشغب والاضطراب، وقررت الحكومة فرض غرامات باهظة وعقوبات رادعة على كل من يخالف ذلك ، في الوقت الذي اهتمت فيه الحكومة أيضا بمراقبة منافذ المدينة، لا سيما مريوط التي كانت ملجأ وملاذا لدعاة التمرد، يهرع إليها مثيرو الفتن والشغب هربا من عمال الوالي، فعينت الحكومة مراقبا خاصا لملاحظة وحراسة هذه المواضع ورد المجرمين ومراقبة المشبوهين وطردهم أو القبض عليهم(٢٩).

أما عن الطبقات الاجتماعية في الإسكندرية في العصر البيزنطي، فقد تميزت فئة من السكان بالمدينة بأنها طائفة من الأغنياء، قوامها رؤساء

---

(27) Diehl: op . cit p. 483
(28) Johnson : Economic Studies, p, p. 298

(٢٩) العريني: نفس المرجع ص ٢٥٥

البيوت التجارية والمصارف والأسرات العريقة من النبلاء المحليين، وهذه الطائفة هي التي كانت الحكومة البيزنطية تعتمد عليها، وتختار من بينها أعضاء مجلس سناتو المدينة ، وتتخذ منهم عادة كبار موظفيها، وارتبطت هذه الفئة بالحكومة البيزنطية وموت إليها[٣٠]

وإلى جانب هذه الأرستقراطية العلمانية كانت هناك طبقة رجال الدين والكنيسة، التي كانت تمثل قوة هامة لأن بطريرق الإسكندرية كانت له ثروته وأملاكه الشاسعة من الأراضي والعقارات والهبات التي خصه بها الأباطرة والخيرين وسائر الناس، فامتدت ضياع الكنيسة وأملاكها خارج مدينة الإسكندرية ، وفي مناطق أخرى من مصر مثل الفيوم[٣١]، فضلا عما كان للكنيسة من أسطول تجاري تعمل سفنه في تجارة البحر المتوسط والبحر الأدرياتي، لهذا حازت الكنيسة من الأموال ما هيأ لبطريرق الإسكندرية أن يوزع بانتظام رواتب على من يقصده من الناس، فضلا عن قيامه بإطعام أكثر من سبعة آلاف وخمسمائة من فقراء المدينة، وبذله المعونة لمن يستحقها خارج المدينة، وكان أحيانا يقدم القروض للحكومة البيزنطية[٣٢].

وربما لهذا كله كانت الحكومة البيزنطية، تهتم بمن يجري اختياره بطريرقا في المدينة، لأنه في الحقيقة يصبح سيدا للكنيسة، وأقوى شخصية دينية فيها ، لما كان يظهره أهل الإسكندرية من الاحترام والتقديس لكل من يحتل كرسي القديس مرقس، الذي كان محل احترام مصر بأكملها[٣٣]، فإذا اطمأن الإمبراطور للبطريرق المختار وجرى الاتفاق بينهما، استقامت الأحوال

---

(30) Diehl op. cit . p. 483
(31) Bell:op. cit p. 96

(٣٢) العريني نفسه ص ٢٥٥

(33) Bury op. cit vol 1,p.216

في الإسكندرية واستقرت الأمور بمصر كلها ، أما إذا أظهر البطريـرق المختار طموحا أو كان من خصوم الحكومـة البيزنطيـة، انكشـف ضعـف الحذكومـة البيزنطية في مصر، واضطربت الأحوال فيها. ومن النماذج التي أظهرت كثيرا من الطموح ممن اعتلوا كرسي البطريرق في الإسكندرية: ثيوفيل (ثيوفيلوس) وكيرلس وديوسقروس، فقد جعل كيرلس– على سبيل المثال– هدفه الرئيسـي من تولية منصبه الديني، تحقيق سيادته على الحاكم المدني لمصـر، وتحقيـق سيادة المسيحية على كل ما عداها[٣٤].أما النماذج المعادية لبيزنطة ومن الذيـن أظهروا الخصومة لها البطارقة والمونوفيزيتيون أمثال تيموتيوس و ثيودسـيوس غيرهما ممن تولوا هذا الكرسي الديني[٣٥].

أما عن النشاط الاقتصادي بالإسكندرية، فقد تركـز بصفـة أساسـية في الصناعة والتجارة، وأشار إلى ذلك كل من زراها في ذلك الوقت، حتى قيل أن هذه المدينة لا يعيش فيها متعطل أبدا، وظلت الإسكندرية حتى نهاية العصر البيزنطي في مصر مركزا هاما من المراكز الصناعية والتجارية، بل أكـبر سـوق تجارية بمصر ، وما حدث من نمو وتطور في صناعتها وفي تجارتها جعل منها مدينة بالغة الثراء وافرة الرخاء[٣٦] كما سبق أن أشرنا.

ففي ميدان الصناعة، احتفظت الإسكندرية بما اشتهرت به قديما مـن صناعة الأحجار الكريمة وتهذيبها وصقلها، كما ازدهرت فيها صناعة الأطباق من الفضة وذاع صيتها في صناعة الأوانـي الزجاجيـة والأوانـي الفخاريـة[٣٧]،

---

(34) Ibid. p.216
vasiliev: op. cit. vol 1,pp.98-99
(35)Chadwick:op.cit . p.185

(٣٦) العريني: المرجع السابق ص ٢٥٧،

Diehl:op.cit.p.483
(37) Johnson: op. cit. p.110

،كانت بعض القوارير الفخارية تحمل نقوشا دينية بارزة وعرفت هذه القوارير بقوارير القديس مينـا، الـتي حـرص زوار الإسـكندرية علـى شـرائها خـلال زياراتها لمشهد هذا القديس بالقرب من الإسكندرية، ليملأوها بالماء من الينبوع الذي تفجر هناك عند هذا المشهد، ثـم يحملونـها إلى بلادهـم،بينمـا تعـددت ألوان هذه القوارير الفخارية، فكان منها الأحمر والقرمزي والذهـبي والأصفـر العنـبري والليمونـي، وتفنـن السـكندريون في زخرفـة الأوعيـة بـالألوان المختلفة[٣٨]، وحظيت الأطباق التي صنعتها الإسـكندرية مـن الفضـة بـالذات بشهرة عظيمة جعلت القسطنطينية تحرص على استيرادها من مصر.

وتقدمت كذلك صناعة المنسوجات، لاسيما المنسوجات الصوفية الـتي تحسنت كثيرا في أواخر العصر البيزنطي، فجرى تصديرها إلى أسواق الشـرق كله وروما وبيزنطة [٣٩] ، مثلما حاكت المنسوجات الكتانية ما كان يصنـع في مدينة طرسوس الشـامية مـن هـذه المنسـوجات، فقـد تـأثر المصريـون في هـذه الصناعة بالذات بالمؤثرات السورية والإيرانية في الطرز والألوان، إن لم يتفوقوا عليها فيما صنعوه، كما صنعوا أيضا المنسوجات الحريرية والملافح الحريرية، والدليل على ذلك ما عثر عليه من شاشـات مـن الحريـر وملافـح حريريـة في أماكن مختلفـة مـن مصـر. وكذلـك صنـع السـكندريون الحقـائب مـن خيـوط الصوف، ولا شك أن صناعة النسـيج كـانت مـن الحـرف المألوفـة خاصـة في الأديرة عند الرهبان والراهبات[٤٠].

---

(٢٨) العريني : نفس المرجع ص ٢٥٩

(٢٩) مراد كامل : المرجع السابق ص ١٤

(40) Johnson :op. cit .p.119

وإلى جانب صناعة المنسوجات المختلفة أتقن المصريون صناعة الأصباغ ذات الألوان الثابتة، والتي وصلت إلينا نماذج منها بألوانها المختلفة، والتي يرجع الفضل في بقائها بألوانها إلى جفاف التربة المصرية ، خاصة تلك التي كفن بها المصريون موتاهم في المقابر الرملية في الصحراء البعيدة عن نهر النيل ومياه الفيضان(٤١).

كما احتفظت الإسكندرية بما لها من شهرة في صناعة العقاقير، فمنذ القرن الرابع الميلادي ازدهرت هذه الصناعة، التي برع فيها السكندريون كثيرا مستخدمين ما يرد إليها من مواد خام من الهند وجنوب شرق أسيا، بل أيضا من بعض جهات مصر ذاتها كالواحات وطيبة لتحويلها إلى عقاقير طبية وأدوية وسلع تجارية أخرى كالعطور، فبرعوا في تعبئة وتسويق هذه المنتجات، حتى صارت لهذه الصناعة شهرة ذائعة في كل الأنحاء، وازدادت أسعارها ارتفاعا، فحصل أهل الإسكندرية على أرباح وفيرة منها(٤٢).

كما ازدهرت أيضا صناعة الحلي الثمينة في ذلك العصر، فقد عثر على نماذج كثيرة من هذه الحلي ترجع إلى تلك الفترة، منها عقود من الذهب تتوسطها أنواط تحمل صور بعض الأباطرة البيزنطيين (٤٣)، ومنها الأقراط الدائرية الواسعة، والأقراط التي تتخذ شكل عناقيد العنب والأساور السميكة التي تنتهي برأس حية من طرفيها(٤٤)، ومنها خواتم وأساور وجلاجل، تؤكد الذوق الرفيع والمهارة في الصنعة التي اشتهر بها سكان الإسكندرية بصفة

---

(٤١) مراد كامل : نفسه ص ١٤٦

(42) Diehl : op. cit .p. 486

(٤٣) العريني: المرجع السابق ص ٢٦١

(٤٤) مراد كامل: المرجع السابق ص ١٤٦–١٤٨

خاصة، كما نالت صناعة العاج والمصنوعات العاجية شهرة كبيرة أيضا في ذلك العصر[٤٥]، منها مكاحل وأمشاط من العاج، كانت تحمل أحيانا رسوما دينية مسيحية[٤٦] ، والدليل على شهرة هذه الصناعة ما كان يبعث به بطريرق الإسكندرية كيرلس لرجال القصر الإمبراطوري بالقسطنطينية من مصنوعات عاجية كهدايا شملت الأثواب والبسط والوسائد وغيرها من المصنوعات العاجية ومن منتجات الإسكندرية القيمة[٤٧].

كما برع السكندريون في صناعة أوراق البردي التي حظيت بشهرة واسعة في كل الأنحاء، وحملت السفن أوراق البردي إلى الغرب والشرق أيضا إلى: القسطنطينية، وإلى غرب أوربا حتى مرسيليا، وجرت عادة أقباط مصر والإسكندرية الذين تخصصوا في هذه الصناعة أن يكتبوا على رءوس أوراق البردي، عبارة التثليث كعلامة ورمز صناعي وتجاري[٤٨]، ويصدرونها إلى كل الأنحاء وإلى القسطنطينية بصفة خاصة. كما نشطت أيضا الصناعات المعدنية، خاصة تلك التي استخدمتها المرأة لزينتها والأواني المنزلية متعددة الأشكال[٤٩].

ولكثرة المشتغلين بالصناعة، وحاجتهم إلى من يرعى مصالحهم تجاه الدولة من ناحية وتجاه جمهور الناس من ناحية أخرى، انتظم عمال الصناعة في نقابات ضمت العمال المشتغلين بصناعة النسيج وعمال بعض الحرف

---

(45) Johnson: op cit .p.154

(٤٦) مراد كامل : نفسه ص ١٤٨

(47) Diehl: op. Cit. p. 486

(48) Johnson: op cit .pp.130-131

(٤٩) مراد كامل المرجع السابق ص ٢٦١

الأخرى والمهن المرتبطة بالنسيج كالطرزين والصباغين وصناع الشباك والخياطين وصناع الأدوات الجلدية والأحذية وغيرهم(٥٠). وخدمت هذه النقابات الأغراض الاقتصادية كثيرا على الرغم من كره الحكومة لهذه النقابات التي اعتبرتها خطرا عليها، إلا أن هذه النقابات غدت مسئولية عن سد حاجات الحكومة وعن تأدية الضرائب وتحصيل الغرامات من المخالفين أو المتأخرين في إتمام أعمالهم، وبمرور الوقت صارت هذه النقابات بالغة التنظيم في القرن الرابع الميلادي، وأصبح لكل نقابة نقيب أو رئيس يشغل مكانه لدورة معينة، وأصبح له مهام وواجبات محددة تجاه الحكومة وتجاه الأفراد في النقابة واستمرت هذه النقابات قائمة حتى القرن السادس تؤدي دورها بل اتسعت دائرتها لتمثل كل فئات الأيدي العاملة(٥١).

أما في الميدان التجاري فلعل شهرة الإسكندرية التجارية قد فاقت كل شهرة باعتبار الإسكندرية بلدا تجاريا ومركزا هاما من مراكز التجارة العالمية، فقد أهلها موقعها الممتاز في شرق البحر المتوسط أن تكون منفذا للتجارة الواردة من جنوب شرق آسيا ومن أفريقيا في طريقها إلى الغرب الأوربي وبقية الأنحاء المطلة على البحر المتوسط في الشرق (٥٢)، فضلا عن كونها منفذا طبيعيا لحاصلات وادي النيل الغني الخصيب، إذ تلقت عن طريق القناة التي تصل بينها وبين نهر النيل كل ما كانت تنتجه مصر لا سيما القمح الذي كان يصدر إلى البلاد الواقعة شرقي البحر المتوسط وبلاد العرب، وإلى بلاد الغرب

(50) Johnson :op.cit .pp.124-5

(٥١) العريني: المرجع السابق ص ٢٦١

مراد كامل : نفس المرجع ص ٢٣

(52) Lot: op.cit. p. 62,p.71

أيضا[٥٣]، ولهذا فقد استقبل ميناؤها الداخلي الواقع على بحيرة مريوط السفن القادمة من أعالي البلاد حاملة منتجات مصر في طريقها إلى الشرق والغرب، إما على المراكب في فروع النيل، وإما في قوافل تحملها الإبل والحمير[٥٤]، فضلا عما كان لها من ميناءين كبيرين على ساحل البحر المتوسط، كانا يزخران بالسفن المتوجهة إلى كل الأنحاء شرقا وغربا، وكان يحف بالميناء الشرقي بصفة خاصة أحواض انتظمت في سلسلة طويلة، أعطت لهذا الميناء إمكانات تجارية كبيرة لاستقبال وخروج السفن إلى البحر المتوسط[٥٥].

وكان لكنيسة الإسكندرية أسطول تجاري بلغ أحيانا عدد سفنه نحو ثلاثين سفينة كبيرة، فمارست الكنيسة التجارة في القرن الرابع، ومخر أسطولها عباب البحر حتى بلغ الجزيرة البريطانية وصقلية والبحر الأدرياتي، وشملت شحناته الحرير والأواني الفضية والحبوب وأوراق البردي والمنسوجات وغيرها من المنتجات، فضلا عما كانت تمتلكه الكنيسة من سفن تنقل المتاجر داخليا في نهر النيل إلى جهات مختلفة من أنحاء مصر [٥٦].

وعلى رأس البحر الأحمر كانت تقع ثلاث مراكز تجارية هامة هي: إيلة على الطرف الشمالي الشرقي لخليج العقبة، والقلزم (بالقرب من موقع السويس الحالية) على الطرف الشمالي الغربي لخليج السويس، وجزيرة يوتاب (تيران) عند القمة الشمالية للبحر الأحمر وقرب تفرع الخليجين،

---

(53) Bury:op.cit.vol.1,p.213

(٥٤) مراد كامل · المرجع السابق ص ٥٤

(55) Diehl: op. cit. p. 486

(56) Johnson :op.cit.p.137

واعتبرت القلزم أو كما كانت تسمي في ذلك العصر" كليزما"[٥٧]، أهم هذه المراكز الثلاث، لأنها كانت أكبر ميناء على البحر الأحمر، ومنها كان التجار يسافرون إلى البلاد الواقعة جنوبا على شاطئ البحر الأحمر عبر الطريق الممتد على الساحل الشرقي لذلك البحر حتى ميناء عدن (الحالية) بجنوب بلاد العرب وبلاد حمير حيث يلتمسون المتاجر التي كان يجلبها الصوماليون كالبخور فضلا عن المر والعطور من اليمن[٥٨].

أما الطريق الذي كان يسير بحذاء الساحل الغربي للبحر الأحمر، فينتهي عند ميناء عدال (عدول) أهم مواني الحبشة في ذلك الوقت، حيث كان التجار يلتمسون كل المتاجر الواردة من قلب إفريقية، كالبخور والتوابل من الصومال والزمرد والعاج من الحبشة والذهب من الجنوب وكذلك الرقيق[٥٩].

ونظرا لأن ميناء عدال (عدول) الحبشي كان مركزا هاما يمكن الاتصال منه بمناطق جنوب شرق آسيا وإيران عبر الخليج الفارسي، فقد أوغل التجار السكندريون من هذا الميناء إلى الجزيرة سيلان الحالية، التي تقع في أقصى جنوب الهند ، والتي اعتبرت أكبر مستودع لمتاجر الشرق والسلع القادمة من بلاد الشرق ولا سيما الهند والصين[٦٠].

ويمثل ارتياد تجار الإسكندرية لجزيرة سيلان أهمية خاصة في ضوء ظروف العصر، نظرا لسيطرة الفرس على الطرق البرية المؤدية إلى البحر المتوسط ،وإلى رأس الخليج الفارسي، فضلا عن سيطرتهم على الطرق البحرية

---

(57) Bury:op.cit . vol.2,p.318

(٥٨) العريني: المرجع السابق ص ٢٦٣

(٥٩) مراد كامل: نفس المرجع السابق ص ٢٣

(60) Bury:op. cit vol .2,p.325

التي تجتازها المتاجر إلى تلك الجـهات، فبسـبب منافسـة الفرس الشـديدة، تحول جانب كبير من التجارة الشرقية إلى الخليج الفارسي[٦١]، بل كثيرا مـا توقفت التجارة وتعرضت الطرق التجارية للخطر، بسبب ما نشب من حروب بين الفرس والروم [٦٢]، ولهذا لم يجرؤ تجار بيزنطـة علـى السـفر إلى أقصـى الشرق باستثناء أعداد قليلة منهم، واكتفى الباقون بالسـفر إلى مينـائي عـدال وعدن ليحصلوا على متاجر الهند والصين، وتركـوا الوسـاطة في ذلـك للعـرب والأحباش الذين غدوا أنشط الوسطاء في تلك التجارة[٦٣].

وعلى الرغم من أن أعـداد التجـار السـكندريين الذيـن ارتـادوا جزيـرة سـيلان كـان أقـل كثـيرا مـن أعـداد غـيرهم مـن الفرس والعـرب والأحبـاش والصينيين، إلا أن رحلاتهم سدت جانبا لا بأس به من الاحتياجات لمتـاجر الشرق وسلع الشرق[٦٤]، فقد أشار المؤرخون إلى أهميـة ذلـك المسـتودع الكبـير للسلع التي تجمعت في الجزيرة مثل الحريـر والقرنفـل وخشـب والصنـدل، الذي حمله الصينيون إلى هذه الجزيرة، فضـلا عمـا بعثتـه إليـها الهنـد مـن الفلفل والمسك والسمسم والعطور والقطـن والنحـاس، بالإضافـة إلى مـا توفـر بالجزيرة من الأحجار الكريمة واللؤلؤ وغير ذلك من السلع[٦٥].

ومع ذلك لم يكن ما حمله السكندريون مـن السـلع مـن هـذه الجزيـرة يكفي احتياجات بيزنطـة في الوقـت الـذي سيطرت فيـه الجاليـة الفارسية الموجودة في سيلان على تجارة هذه الجزيرة وكـان لوسـاطتها في نقـل متـاجر

(٦١) مراد كامل : المرجع السابق ص ٢٤

(62) Vasiliev: op. cit . vol.1,p.163
(63) Johnson: op.cit. p. 137
(64) Diehl: op.cit.p.487

(٦٥) العريني : المرجع السابق ص ٢٥٦

هذه الجزيرة أثر في قلة ما كان يرد إلى بيزنطة من هذه السلع[٦٦]، لهذا حاول الإمبراطور جستنيان أن يغري الأحباش ليحلوا محل الفرس في تلك الوساطة، ويحولوا إلى مصر كل ما كان يرد من متاجر سيلان، فأجرى من أجل ذلك مفاوضات مع ملك الأحباش مغريا إياهم بما يمكن أن يحققوه من أرباح من تلك الوساطة، إلا أن نفوذ الفرس القوي في موانى الهند وسيلان لم يمكن الأحباش من تحقيق أهدافهم، فاحتفظ الفرس بتجارة الحرير الذي كان أهم السلع عند البيزنطيين ، على حين أصبحت السلع الأخرى الأقل أهمية موضع منافسة بين الفرس الأحباش[٦٧].

ما يعنينا من ذلك كله أن ما نجح الأحباش في حمله من سيلان كان لا بد وأن يجتاز الإسكندرية في طريقه إلى القسطنطينية، ففرضت الإسكندرية على هذه السلع رسوما كبيرة، الأمر الذي أضاف إلى ثراء المدينة ورواج أحوالها، فزاد عدد المصارف فيها حتى ضارعت هذه المصارف في عددها عدد البيوت التجارية[٦٨].

والدليل على رواج التجارة في الإسكندرية في ذلك العصر، أن أصبح للملاحين نقابة في المدينة غدت من أشهر النقابات وأهمها، ضمت أعدادا كبيرة من هؤلاء الملاحين ،وحرصت على تحقيق أهدافهم ورعاية مصالحهم[٦٩]. لأنه بفضل هؤلاء الملاحين واهتمامهم بعملهم، انتظمت طرق الملاحة بين مصر وسائر أنحاء الدنيا شرقا وغربا بين مصر والقسطنطينية، وبين مصر وإيطاليا حيث توغل التجار المصريون في البحر الأدرياتي،

(66) Bury:op.cit. vol.2.p.318
(67) Vasiliev: op. cit. vol .1,p.168
(68) Bell:op.cit.p.123

(٦٩) مراد كامل: المرجع السابق ص ٢٣

وانتظمت العلاقات التجارية بين مصر وغالة، فحملت السفن التجارة إلى مرسيليا، كما انتظمت الصلات مع أسبانيا، وقدم التجار الأسبان ومندوبوهم إلى الإسكندرية، وكذلك التجار من غالة، وامتدت خطوط الملاحة إلى الجزيرة البريطانية وأقصى شمال غرب أوربا [٧٠].

غير أن عظمة الإسكندرية ورخائها تأثر كثيرا بما كان يحدث أحيانا من فتن وثورات ازداد عددها منذ أواخر القرن الرابع الميلادي، خاصة الفتن الدينية والمذهبية، التي كان يترتب عليها اضطرابات سياسية[٧١]، والتي تسببت في كثير من الأحيان في انخفاض سعر العملة وارتفاع أسعار المعيشة وشعور الناس بالأزمة الاقتصادية، فحلت أحيانا المقايضة محل البيع والشراء، وساد المدينة خلال تلك الثورات كساد شديد وتداعى اقتصادها بشكل كبير، وقضت هذه الفتن والاضطرابات على ازدهار الصناعة وانتعاش التجارة[٧٢].

فإذا انتقلنا إلى تناول الحياة العقلية في مدينة الإسكندرية في العصر البيزنطي نجد أن الإسكندرية كانت حاضرة العلم والفن والأدب في ذلك العصر، لأنها ظلت قرون عديدة مركزا علميا فريدا ومقرا لمدرسة عظيمة للثقافة والفكر، ونواة لنشاط عقلي عظيم[٧٣]، وذلك بفضل مكتباتها ومتحفها بما كان لهما من شهرة ذائعة في العصر القديم، فضلا عن أنها ورثت ما كان

---

(70) Diehl:op.cit.p.486

(71) Mommsen: op. cit. p. 264 (Eng. Trans)
Bury: op. cit.vol.1,p.216

(٧٢) مراد كامل : المرجع السابق ص٢٧

(73) Vasiliev: op cit . vol..1,pp.116-117

للحضارات القديمة من علوم وفنون وآداب، وما أنتجه الفكر المسيحي من علوم وآداب وفنون أيضا(٧٤).

فبعد أن استولى الرومان على مصر، وبحكم وراثتهم للحضارة الإغريقية القديمة، وما أثرى به الإغريق الحضارة الإنسانية من علوم وفنون وآداب، أبقى الرومان على ما تركه البطالمة في مصر من منشآت مختلفة، خاصة المنشآت العلمية، وذلك تكريما لذكرى ملوم البطالمة من جهة، ولما اشتهر به الرومان من الشغف بالعلوم والفنون والآداب من جهة أخرى(٧٥). ثم كان انتشار المسيحية ورسوخها في مصر وفي الإسكندرية بالذات عاملا جديدا لبزوغ فكر جديد وظهور علوم جديدة في مصر البيزنطية(٧٦).

وكان متحف الإسكندرية الذي اشتهر منذ القدم، بأنه موطن الأسرار ومقر الكهنوتية، قد أخذ في الأفول والابتعاد عن دوره كثيرا، حتى لم يعد مقرا للدراسات الدينية كما كان في الماضي، بل لم تعد له كبير أهمية في الحياة الدينية أو الكهنوتية، بل أخذ يختفي رويدا رويدا وحل محله السرابيوم الذي أصبح منذ زمن طويل الموطن الأصلي للوثنية المصرية، ثم أضحى مقرا للوثنية اليونانية في مصر(٧٧).

واعتقد أحد المؤرخين أن الإمبراطور كراكللا (٢١١-٢١٧م) قد خرب هذا المتحف ونهبه، فأسهم بذلك في تداعي هذا المتحف وتوقف دوره في الحياة العلمية والدينية في مدينة الإسكندرية، وأن الإمبراطور قنسطنطين الكبير (٣٠٦-٣٣٧م) عاد فجدد عمارته وأعطاه فرصة جديدة للبقاء

---

(74) Bell :op. cit .p. 127
(75) Ibid.p.33,pp.53-4
(76) lot: op. cit. p. 373
(77) Bury: op. cit . vol. 1,p.149,p.368

والاستمرار فترة أخرى(78). وليس ذلك صحيحا ولا منطقيا ما ذهب إليه ذلك المؤرخ، لأن ذلك المتحف كان يحمل واجهة الوثنية المصرية التي حرص الأباطرة قبل قنسطنطين على تشجيعها وتقويتها في مواجهة المسيحية كعقيدة وفكر جديد، وليس صحيحا أيضا أن يسهم الإمبراطور قنسطنطنين في إعادة دعم الوثنية في مصر ومنح رموز هذه الوثنية فرصة للبقاء والاستمرار فترة أخرى بتجديد عمارة المتحف، بعد أن اعترف بالمسيحية واتخذ من الوسائل ما يمنع الوثنيين من الهجوم على المسيحية(79)، وإن كان قنسطنطين قد شجع الدراسة والتحصيل وبذل الحماية لدور العلم ومؤسسات التعليم العام، وحرص على استتباب السلام في سائر أنحاء إمبراطوريته إثراء للحركة العلمية والفكرية في الإمبراطورية دون أن يعني ذلك تشجيع الواجهات الوثنية القديمة أو تقديم العون لها.

لكن ليس من شك في أن متحف الإسكندرية ظل قائما حتى نهاية القرن الرابع الميلادي ولم يجر اندماجه في السرابيوم إلا زمن الإمبراطور ثيودسيوس (٣٧٩-٣٩٥م) ، حين أصبح كهنة السرابيوم من رجال المتحف، والدليل على بقاء متحف الإسكندرية إلى ذلك الوقت ، وقوفنا على عدد من علمائه خلال القرن الرابع الميلادي، على الرغم من الإشارة إليه على أنه معبد كلوديوس أو معبد أوغسطس، ودل اندماجه في السرابيوم على أن الوثنية، كانت لا تزال حتى ذلك الوقت تحاول التشبث بالحياة وتصارع

(78) Matter : Histoire de l'Ecole d'Alexandrie, T.1,p.315

العريني: المرجع السابق ص ٢٧١

(79) Simon: Histoire de l'Ecole d'Alexandrie , T.1,p.153

العريني: نفس المرجع ص ٢٧٠-٢٧١

الموت فترة أخرى من الزمن، وظل المتحف يمثل جامعة عريقة خرجت أجيالا من العلماء والدارسين فترة طويلة من الزمن[٨٠].

غير أن ثمة رأي آخر يذهب إلى القول أنه لم يحدث اندماج بين المتحف والسرابيوم على الإطلاق، لأن المتحف عول في بقائه واستمراره في أداء رسالته على اتخاذ موقف لا يتعارض مع كل من المسيحيين والوثنيين، حتى يستطيع أن يستمر فترة أطول ، وأن لم يفده ذلك كثيرا ، بل إن رجاله لم يعارضوا اجتماع المسيحيين والوثنيين معا في مدرسة واحدة من أجل تحصيل العلم والدراسة [٨١]، وإن أدى ذلك إلى بداية انهيار وتداعي والمتحف، وخاصة بعد أن انتقلت الدراسة إلى مواضع أخرى ولم تعد قاصرة على المتحف، فضلا عن أنه لم يعد يؤدي عملا ذا قيمة للمسيحيين أو الوثنيين على حد سواء، بل بدا يتداعى وينهار ويفشل في أداء رسالته، واعتبره الكثيرون عاملا من عوامل إثارة النزاع بين الطائفتين ومعطلا لوصول الإيمان مثيرا للخلاف بين الفئتين، إحداهما ارتبطت ارتباطا وثيقا بالسرابيوم وفلاسفته ذائعي الصيت، على حين التفت الأخرى في كبرياء حول الكرسي الأسقفي[٨٢].

هذا وكان المتحف قد تلقى ضربات أخرى أسهمت في بداية تداعيه وانهياره، لعل أهمها منافسة مدارس بلاد اليونان وإيطاليا وآسيا الصغرى، التي هرع إليها الشبان المسيحيون والوثنيون للدراسة والتحصيل فأصاب بعضها شهرة كبيرة، وتحول بعضها الآخر إلى أكاديميات كاملة على حين أصبحت مدارس أثينا ونيقوميديا وأنطاكية مراكز رئيسية لدراسة الفلسفة

---

(80) Bell:op.cit.p.58
(81) Matter:op cit .1,p.316

(٨٢) العريني: المرجع السابق ص ٢٧٢

والبلاغة[٨٣]، كما اجتذبت مدرسة بيروت كل من أراد دراسة القانون والفقه، يضاف إلى هذه كلها مدرسة القسطنطينية التي اعتبرت منافسا خطيرا لغيرها من المدارس بما فيها مدرسة المتحف، والتي أصبحت يدرس فيها كل العلوم بما في ذلك الفلسفة، ولقد ألحقت هذه المدارس القوية بمتحف الإسكندرية ومدرسة الإسكندرية العلمية من الأضرار ما جعلها موضع إهمال شديد لم يلبث أن اشتد الإحساس به بمرور الأيام[٨٤].

وكانت المسيحية قد رسخت في نفوس الناس بعد سنوات قليلة غير حافلة بما تعرضت له من الاضطهادات، وبعد أن أدرك الناس مفاهيمها، على الرغم من صعوبة فهم كثير من قضاياها الجوهرية مثل التثليث والتجسيد والبعث والحض على حياة الإخلاص والبذل والتضحية، غير أن إظهار الإيمان والتخلص من البدع والقضاء على أعداء العقيدة، بعد أن عاشوا زمنا طويلا في فجور الوثنية ومجونها، وتنظيم الكنيسة، كل ذلك استغرق من الزمن مالا يقل عن ثلاثة قرون[٨٥]، لم يكف الفلاسفة بالذات خلالها عن محاولة القضاء على هذه العقيدة الجديدة، فلما انتصر الإمبراطور قسطنطين للمسيحية واعترف بها كإحدى الديانات في الدولة سنة ٣١٣م ، أقنط ذلك كثيرا أعداء المسيحية وجعلهم في يأس من محاولة الكيد لها، بل لم تعد لهم حرية الجدل والنقاش، فضلا عما عوملوا به من الشدة[٨٦]كل ذلك كان نصرا للمسيحية وزيادة في رسوخها في نفوس الناس في تلك الفترة .

---

(83) Bury: op. cit vol. 2,p.369
(84) Bell:op. cit . p. 54
(85) Simon: op.cit.T. 1,p.153

العريني: المرجع نفسه س ٢٧٠

(86) Matter : op. cit 1,p.314

ما يعنينا من ذلك أنه بانتصار المسيحية استنفدت مدرسة الإسكندرية الوثنية ما لديها من نظريات فلسفية في مهاجمة المسيحية، بل إن انتصار هذه العقيدة جاء بداية لفترة جديدة في تاريخ مدرسة الإسكندرية الوثنية(٨٧)، لأنه أصبح لزاما على هذه المدرسة أن تبحث لنفسها عن أسلحة جديدة تناضل بها المسيحية، وأن تلتمس في أسرار العقيدة الجديدة وسائل أخرى لتحارب بها العقيدة الجديدة(٨٨).

وكانت الكنيسة قد أقامت منذ البداية في الإسكندرية المدرسة المسيحية عند مدخل المتحف وهي مدرسة تبشيرية، أقامها فيما يبدو القديس مرقس، الذي كان أول أسقف للإسكندرية بعد أن اقتنع أنه من العسير على الناس في ذلك الوقت، خاصة الأطفال أن يكتشفوا بأنفسهم خالق هذا العالم ومنشئه، فعمد مرقس إلى إنشاء هذه المدرسة ليعلمهم عظمة الله في خلقه، ويأخذ بأيديهم في فهم ما غمض عليهم من الأمور(٨٩)، وتولى رئاسة هذه المدرسة الأستاذ بانتين Pantene الذي كان قد تخرج في مدرسة الرواقيين، والذي كان أستاذا لكلمنت السكندري وكذلك أستاذا لأوريجين (٩٠).

معنى ذلك أنه أصبح بالإسكندرية تياران لمدرسة واحدة تيار وثني فلسفي تمثل في المتحف وتيار مسيحي ديني تمثل في المدرسة التبشيرية، وبينما كان نجم التيار الوثني آخذ فالأقوال حين بدأ المتحف يفشل في أداء مهامه ويتلقى ضربات شديدة من الداخل والخارج، كان نجم التيار الثاني

---

(87) Bell: op. cit p. 116
(88) Chadwick op. cit .p.207
(89) Vasiliev:op.cit 1,p.116
(90) Bell· op.cit.p 90

آخذ في الازدهار بحكم تحول الناس إلى المسيحية واعتراف قنسطنطين بها بمقتضى مرسوم التسامح الديني والتفاف الناس حول أسقفها[٩١]

ويبدو أن الإمبراطور جوليان- الذي عرف بجوليان المرتد- قد أدرك أهمية مدرسة الإسكندرية والتيار الوثني الفلسفي فيها. لما اشتهر به هذا الإمبراطور من تعلق بالهللينية[٩٢]، وما اشتهرت به أسرته من الشدة والصرامة فيما يتعلق بالأمور الدينية والحضارية، إذ أمر جوليان بإعادة فتح كل المعابد الوثنية التي كانت قد أغلقت بمقتضى مرسوم قسطنطيوس[٩٣]،وعهد جوليان إلى أحد العلماء المقربين إليه وهو الطبيب زينونZeno القبرصي، بأن يسافر إلى الإسكندرية ليعمل على بعث المدرسة الوثنية في الإسكندرية[٩٤].

وكان من المتوقع أن تنجح هذه السفارة في عملها لأن الظروف التي قدمت فيها كانت مناسبة والطريق أمامها كان ممهدا، بسبب ما نشب في الإسكندرية حينئذ من ثورة قام بها الوثنيون ضد الأسقف الأريوسي الذي احتل كرسي القديس أثناسيوس، إذ قتلوا هذا الأسقف الأريوسي وأعادوا للوثنية ما كان لها من مجد، ولم يتعرضوا من قبل الإمبراطور لأية عقوبة، نظرا لأن جوليان كان قد أمعن في تشجيع الوثنية- كما سبق أن أشرنا- وأمل في بعث آلهتها للوقوف في وجه المسيحية [٩٥]. وكان على زينون القبرصي أن

---

(91) Matter: op. cit T.1,p.316
(92) Ostrogorski:op. cit .p.46
(93)Bury:op.cit. vol.1,p.367
(94) Matter:op. cit T 1,p.316 — العريني نفسه س ٢٧٣ و
(95) Chadwick:op.cit .pp. 126-7

يقوى التيار الوثني في الإسكندرية، ويزيد من تفوق الوثنيين وسيادتهم، بإعادة مدرسة الإسكندرية الوثنية إلى سابق عهدها، غير أنه قدر لمهمته إلا تنجح لأن العمل لم يكن سهلا في ظل تعلق معظم الرعايا بالمسيحية وميلهم إلى البطريرق أثناسيوس، الذي لم يلبث أن استعاد كرسي البطريرقية من جديد، دون أن يستطيع الإمبراطور جوليان منعه من ذلك إو تقديم ما يمكن أن يساعد زينون في سفارته إلى الإسكندرية على إتمام مهمتها وعملها[٩٦].

ونظرا لأن الإمبراطور جوليان لم يمكث طويلا في الحكم (٣٦١-٣٦٣م)، فقد حرم زينون القبرصي من الحماية ، ولهذا حرص على أن ينسى أمر سفارته والهدف منها ، واكتفى في الفترة التالية بشغل كرسي أستاذية الطب بالإسكندرية، حيث التف حوله عدد من الطلاب، نبغ منهم اثنان كثيراً وغدا بوسع زينون أن يفخر بأنه هو الذي أسهم في تعليمهما. وهكذا مرت فترة حكم جوليان المرتد دون أن تفيد كثيرا متحف الإسكندرية ومكتبتها والتيار الوثني في المدرسة الإسكندرية[٩٧]، لأن جوليان لم يبذل في الحقيقة جهدا في سبيل تدعيم المتحف والمكتبة، بل قيل إنه كان يضمر الكراهية والتعصب ضد الإسكندرية ذاتها، والدليل على ذلك أنه طلب من سفيره زينون القبرصي، أن يرسل إليه مجموعة المخطوطات الرائعة من مكتبة الإسكندرية، جعلها نواة لمكتبة هامة في بلاط القسطنطينية أخذت تنمو وتزدهر على حساب مكتبة الإسكندرية[٩٨].

---

(96) Bury: op. cit vol..1,p.436
(97) Vasiliev:op.cit .vol.1,pp.72-4
ostrogorski :op.cit. p.46
(98) Matter:op.cit T.1,p.318.

وكان حكم جوليان المرتد نشازا بين الاباطرة البيزنطيين، لأن خلفاءه حرصوا في الفترة التالية على مناهضة الوثنية والتصدى لها، ولم يحفلوا سوى بما كان يجرى في الإسكندرية من مناقشات حول الأريوسية ، بل أصدروا الأوامر بإغلاق المدارس والمعابد الوثنية في سائر جهات مصر، وقفوا موقفا صلبا من كل المؤسسات الوثنية، مظهرين الكراهية الشديدة لهذه التيارات المعادية لسياسة الدولة الدينية(٩٩).

أما السرابيوم فقد ظل يتشبث بالحياة فترة أخرى، حتى الربع الأخير من القرن الرابع الميلادي، إلى زمن الإمبراطور ثيودسيوس، نظرا لأن قطاعا من السكان كان يوليه تقديرا خاصا، إلا أن نهاية السرابيوم جاءت على غير توقع، وعلى أيدي الإمبراطور ثيودسيوس العظيم (١٠٠)، الذي عرف بتدينه وتقواه، والذي جعل المسيحية الدين الرسمي للدولة في مجمع القسطنطينية الديني سنة ٣٨١م، إذ يبدو أن المسيحيين في مصر قد أحسوا بميول هذا الإمبراطور وإخلاصه الشديد للمسيحية فتشجعوا وأعلنوا الحرب على الوثنية في مصر، فقاموا بتحويل المعابد الوثنية إلى كنائس وحطموا التماثيل وسخروا من الكهنة الوثنيين، وأمعنوا في الأعمال التي اعتبرها الوثنيون إهانات موجهة إليهم (١٠١)، عندئذ اشتدت ثائرة هؤلاء وبادروا بالهجوم على المسيحيين في كل مكان وقتلوا أعدادا كبيرة منهم وحملوا جماعة منهم إلى السرابيوم حيث استخدموهم في عمارة القلعة ، وغالوا في تصرفاتهم ضد المسيحيين ، فأمروا بإعدام كل من يرفض تقديم القرابين إلى الإله سرابيس، وفي هذه الظروف تدخل الإمبراطور ثيودسيوس سنة ٣٩١م وأمر بتدمير

(99) Vasiliev: op.cit 1,pp.81-2 , المريني المرجع السابق ص ٢٧٤

(100) Bury: op. cit. 1,p.149,pp.368-9

(101) Matter op.cit T.1,p.331

السرابيوم وتخريبه وتدمير كل المعابد التي أبدت مقاومة ضد الحكومة البيزنطية(١٠٢).

وعلى الرغم من أن بعض الروايات قد أشارت إلى أن تدمير السرابيوم كان شاملا، إلا أن روايات أخرى أشارت إلى أن التخريب لم يكن شاملا، إذ نصب هم الذين قاموا بالتخريب على تحطيم الآثار الوثنية وتدمير المعبد نفسه أو المشهد دون تدمير الأسس الرئيسية للسرابيوم ، لأن أسس السرابيوم اشتهرت بالمتانة والقوة، كما لم يشمل التخريب توابع المعبد كالأروقة والسقائف والمساكن والمكتبة التي بنيت منذ قرون، ونمت وتكاثرت كتبها على مر السنين، ويبدو أن تدمير هذه التوابع والأسس كان يتطلب وقتا طويلا لهدمها وتخريبها، الأمر الذي أجبرهم على تركها(١٠٣).

والدليل على أن التخريب لم يكن شاملا أو كاملا، وأنهم لم يصيبوا المبنى بكثير من الأذى أن عمارته من جديد لم تتطلب سوى إصلاحات قليلة، فضلا عن أن الكهنة لم يلبثوا أن نزلوا به بعد فترة قليلة، قبل أن يتخذه الرهبان مقرا لهم (١٠٤)، حين ازدهرت الرهبانية والديرية، بالإضافة إلى ما أشار إليه بعض المؤرخين والكتاب المسحيين من أنه قامت في موضع السربيوم كنيسة جرى تدشينها باسم كنيسة القديس يوحنا العمدان سنة ٣٩٥م،واشتهرت باسم كنيسة أركاديوس(١٠٥)، مما يؤكد استفادة مشيدي هذه الكنيسة من أسس وبقايا السرابيوم لإقامة هذه الكنيسة.

---

(102) Bury : op. cit. vol 1,p.149
Vasiliev: op.cit. vol.1,p.82

(١٠٣) العريني : نفسه ص ٢٧٤

(104) Chadwick: op.cit.p.171
(105) Matter :op. cit. T.1,p.171

ونظرا لأن توابع السرابيوم لم تتعرض للدمار الشامل بفضل متانتها وصلابتها، ولأنها كانت عمائر ضخمة رائعة، فقد انتقل إليها حاملو التيار القديم وما تبقى من منشآت الإسكندرية القديمة وسائر المعاهد الوثنية، وكذلك بقايا المدرسة المسيحية، وذلك في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، وترتب على ذلك أن زال من أذهان الناس بمضي الزمن سيرة المتحف وذكراه[١٠٦]، وجاء اجتماع هذه المؤسسات في توابع السرابيوم دليلا على تعلق فريق من الناس بما ساد قديما من تيارات ثقافية وفكرية ، وكذلك انتقال بقايا المدرسة المسيحية إلى هذه التوابع جاء دليلا على اتجاهات جديدة في الفكر الثقافي والعلمي ودليلا على إمكانية التعايش بين التيارين طالما انصرف كل إلى تحقيق غايته دون التعرض للآخر.

ولقد زار الإسكندرية عقب تدمير السرابيوم وتخريبه بعض الكتاب المشهورين، ومن بينهم كاتبان أحداهما وثني والآخر مسيحي ، أشار أولهما إلى أن توابع السرابيوم التي قامت على جوانبه الداخلية شملت قاعات كبيرة وأروقة متسعة ، استخدم بعضها مكتبة واستخدم بعضها الآخر حجرات للدرس ، ومنها ما خصص لعبادة الآلهة القديمة وخدمة التيار ا لوثني [١٠٧]، وأشار الكاتب الآخر إلى أن هذه التوابع شملت حجرات الدرس وأماكن للقسس أو الرهبان الزاهدين، واجتمع بذلك في توابع السرابيوم أصحاب الفكر الوثني، وكذلك أصحاب العقيدة المسيحية وفكرها الجديد[١٠٨].

---

(106) Vasiliev : op. cit . vol . 1,p.81
Parson : The Alexandria Library, pp.367-8

(١٠٧) العريني: المرجع السابق ص ٢٧٥-٢٧٦

(108) Parson : op.cit .p. 369

وبقيت الوثنية فيما تجدد من سقائف السرابيوم، حيث تقع بعض المزارات والمشاهد الصغيرة، ولم يحدث أعتراض على سير الدراسات الوثنية بالإسكندرية في رحاب السرابيوم بشكل يؤثر على تلك الدراسات في الذي ظلت فيه المدارس المسيحية تجرى على نحو ما كان سائدا، فتردد الطلاب الوثنيون والمسيحيون على هذه المدارس فواصلت ازدهارها وتواصل عطاؤها إثراء للحركة العلمية في الإسكندرية[١٠٩]، أي أن المدرستين عاشتا جنبا إلى جنب، كل منهما لها طابعها الذي يعكس الحالة الثقافية في الإسكندرية في ذلك الوقت، وأثرت كل منهما في الأخرى[١١٠]، فكان العالم الذائع الصيت ثيون Theonيلقى دروسه في الرياضيات[١١١]، وتخرج على يديه جيل من العلماء والباحثين، كما ذاع صيت ابنته هيباشيا Hypatia، التي اغتيلت سنة ٤١٥م والتي تعتبر آخر علماء المتحف في الرياضة والفلسفة وفي فلسفة أفلاطون بصفة خاصة، واشتهرت هذه العالمة الفاضلة بالتبحر في العلم حتى هرع إليها الطلاب من سائر أنحاء العالم، الذين رغبوا في تلقي دروس الرياضة والفلسفة عليها، وهيأت لها مكانتها وشهرتها من الأسباب ما جعلها وثيقة الصلة بسادة الإسكندرية وأكابر رجالها في ذلك العصر[١١٢].

لكن يبدو أن هيباشيا هذه أثارت المسيحيين من العامة بوثنيتها وشهرتها التي جذبت إليها بعض الرجال، ولترددها على مجالس الرجال، ودأبها على الظهور في المجتمعات العامة، وزيادة صلتها بحاكم الإسكندرية، فهجم عليها العوام بالمدينة أثناء قيادتها لعربتها أو عجلتها وأنزلوها من

---

(109) Chadwich:op.cit. p.171

(١١٠) مراد كامل : المرجع السابق ص ٩٦

(111) Bury : op.cit. vol.1,p.217
(112) Vasiliev: op.cit .vol.1,pp.121-122

العربة وجروها بالحبال إلى الكنيسة حيث لقيت حتفها(١١٣)، فكانت هيباشيا من ضحايا بطريرق الإسكندرية الطموح كيرلس(١١٤)، ولهذا حرص الفلاسفة الذين جاءوا بعدها على عدم إثارة الناس مثلما أثارت هيباشيا، فظلوا يواصلون دراساتهم طوال القرنين الخامس والسادس الميلاديين بفضل ما لجئوا إليه من إخفاء عدائهم للمسيحية والمسيحيين(١١٥).

وظل الفلاسفة يتعاقبون على مدرسة الإسكندرية، ليحوزوا شهرة عظيمة فاقت ما كان لفلاسفة أثينا في نفس الفترة، وكذلك في ميدان العلوم، ثم ما لبث جستنيان أن أغلق مدارس أثينا الفلسفية سنة ٥٢٩م(١١٦)، في الوقت الذي أبقى فيه على مدارس الإسكندرية ومنع فلاسفة الإسكندرية من مغادرة المدينة خوفا من أن يلحقوا بزملائهم أساتذة أثينا الذين لجأوا إلى فارس ودولة الفرس فتلقاهم البلاط الفارسي بترحاب شديد (١١٧)، فأتيح لمدرسة الإسكندرية أن تواصل ازدهارها وتواصل عطاءها في ميدان العلم والفلسفة بل وتتفوق على مدارس أثينا ذاتها.

ونجحت الإسكندرية في العصر البيزنطي في الحفاظ على ما كان لجامعتها القديمة من مجد غابر وشهرة عظيمة، فقد ذاع في أنحاء الإمبراطورية ما اشتهرت به الإسكندرية من المدارس والمتاحف التي هرع إليها الطلاب من سائر أنحاء الشرق للدراسة والتحصيل، وجذبت مدرسة الإسكندرية العلمية الطلاب من كل مكان (١١٨)، لا سيما من فلسطين وسوريا

---

(113) Bell: op.cit. p.369
(114) Bury:op.cit.1,pp.217-218
(115) Matter: op.cit. 1,p.333
Parson : op .cit.p.356
(116) Bury:op.cit . 2,p.369
(117) Vasiliev:op.cit.1,p.150
(118) Diehl:op.cit.p.491

وآسيا الصغرى وصار أساتذتها يعلمون الطلاب القانون والطب والعلوم الرياضية، فضلا عن البلاغة والفلسفة والمنطق وانصرف فريق من الطلاب إلى دراسة الآداب ونقد النصوص القديمة، ولقيت هذه الدراسة ترحيب الأوساط الهللينية في مصر (١١٩)

وفي القرن الخامس الميلادي انضم إلى علماء الإسكندرية علماء النحو والشراح ورجال المعاجم ولفيف من الذين تولوا تدريس نظريات الأفلاطونية الحديثة، بل إن الإسكندرية هي التي أنجبت " الأفلاطونية الحديثة" وتزعمت " الغنوصية " ونشرت هذه الفلسفات في أرجاء العالم المثقف(١٢٠) وكانت هيباشيا من هذا الفريق من العلماء ، فقد ذاع صيتها في الفلسفة والعلوم الرياضية في أوائل القرن الخامس الميلادي، وحظى أرسطو باهتمام الدارسين وعنايتهم، مثلما حظى أفلاطون واستمر عطاء علماء الإسكندرية في مختلف الفروع العلمية والأدبية(١٢١).

ولقد أشارت وثيقة ترجع إلى القرن الخامس الميلادي إلى ما كانت عليه جامعة الإسكندرية حينئذ، التي وصفها شاهد عيان وأشار إلى دورها وعطاء أساتذتها وعلمائها الذين أثاروا حماسة الطلاب وأذكوا المنافسة بينهم (١٢٢)، سواء أكانوا من الوثنيين أو المسيحيين، فقد احتدم النقاش بينهم في كل ما يتعلق بالأمور الدينية ، فعلى الرغم من أن عددا كبيرا من أساتذتها ظلوا

---

(١٩٩) العريني : نفسه ص ٢٧٨

(١٢٠) مراد كامل : المرجع السابق ص ٩٦

(121) Vasiliev : op.cit.1,pp.121-122

(122) Bell: op.cit. p. 83

حتى ذلك الوقت وثنيين، فإن ذلك لم يمنـع الطـلاب المسـيحيين مـن تلقـى الدروس عليهم على الرغم أيضا مما اتهم به بعضهم من التعصب الشديد[١٢٣]

ولم يكن دور أساتذة جامعـة الإسـكندرية قـاصرا علـى العلـم والـدرس والتحصيل، فقد كان بعضهم ينتمي إلى أسرات عريقـة، ولذلـك تـألف منـهم حزب قوي اشترك صراحة وفي بعض الأحيان في الصراع السياسي والديني في الإسكندرية، وصار بوسعهم أن يثيروا الاضطراب بالإسـكندرية متـى سـنحت لهم الفرصة بذلك معتمدين على ما كانت تكنه لهم فئـات كثـيرة مـن سـكان المدينة من الاحترام والتبجيل، خاصة الفلاسفة الوثنيين منهم، لما كـان لهـم من مكانة في المدينة ، ولما أسهموا به في الحركة العلمية والفكرية [١٢٤].

وإلى جانب هؤلاء العلماء الوثنيين أو مـن عرفـوا بـالهللينيين، اشـتهر فريق من العلماء المسيحيين، خاصة في الفـترة الـتي ضيقـت فيـها الحكومـة البيزنطيـة الخنـاق علـى العلمـاء الوثنيـين واضطهدتـهم، لا سـيما في عـهد الإمـبراطور البـيزنطي زينـون (٤٧٤-٤٩١م) الـذي نكـل بأسـاتذة جامعـة الإسكندرية الوثنيين في أواخر القرن الخـامس الميـلادي[١٢٥] ، فـأعطى فرصـة لبزوغ نجم الأساتذة المسيحيين وعلو مكانتهم وأفسح لهم المجال للمشاركة في إثراء الحركـة العلميـة في المدينـة في ذلك العصر. ومـن هـؤلاء العلمـاء،حنـا فيلوبونـس Philoponos أي المحـب للعمـل - والـذي كـان مـن أفـذاذ علمــاء الإسكندرية في النصف الثاني من القرن السادس الميـلادي (٤٩٠-٥٧٠م) [١٢٦] ، إذ اشتهر هذا العالم بثقافاته الواسعة واشتغاله بالفلسـفة، وشـغف بفلسـفة

---

(123) Diehl:op.cit.p.491
(124) Vasiliev op cit 1,pp 121-122
(١٢٥) العريني نفس المرجع السابق ص ٢٧٩
(126) Chadwick op cit p 207

أرسطو بصفة خاصة ، حتى اعتبره البعض من شراح هذه الفلسفة ، فضلا عن اشتغاله بالنحو واللاهوت ومؤلفاته في قواعد اللغة اليونانية والعلوم الرياضية[127]

وعلى الرغم من تدين هذا العالم المسيحي، فقد اشتهر أيضا بالتفكير الحر وعدم التزمت، فقد حاول أن يوفق بين آراء أرسطو وبين ما جاء في الكتاب المقدس والعقيدة المسيحية، وذلك في رسائله وكتبه عن خلق العالم وعن خلود هذا العالم، كما هاجم في كتبه الوثنيين وفلاسفة الأفلاطونية الحديثة، وأصحاب مذهب الطبيعتين أو من سموا أنفسهم بالأرثوذكس، لأنه نشأ على المذهب المونوفيزيتي، مذهب أهل الإسكندرية ومصر ، أو مذهب الطبيعة الواحدة ، وبفضل ذلك صار لهذا العالم مكانة مرموقة في جامعة الإسكندرية[128].

غير أن هذا العالم حاول أن يطبق طرق الفلسفة القديمة على نظرية التثليث وذلك في رسالة كتبها سنة ٥٦٣م حول هذه القضية الدينية، فأثار هذا العالم الدهشة والغرابة في الإسكندرية، واعتبر وكأنه انزلق إلى البدعة، لأنه اعتبر الأقانيم الثلاثة التي تتألف منها نظرية التثليث ليست إلا ثلاثة آلهة[129]، فضلا عن أن كتابة به عن البعث أحدث كثيرا من الجدل والإثارة، فاعتبرت أفكاره وآراؤه من النحل والبدع والخروج عن الدين، ولم يستطيع بطريرق الإسكندرية القضاء على أثار هذه الكتب والأفكار إلا بعد عناء شديد[130].

---

(127) Deihl op cit p 492
(128) Chadwick op. cit. p. 207
(129) Cross Dictionary of Christian Church, Art Tritheism.
(130) Diehl op cit.p 492

ومن علماء وفلاسفة الإسكندرية وجامعة الإسكندرية أيضا إسطفان المسيحي الذي تسبب مثل سلفه في إثارة الاضطراب في الإسكندرية في أواخر القرن السادس الميلادي، فقد درس أيضا فلسفة أرسطو وشرحها مثل فيلو بونس، وحاول فيما يبدو أن يثبت عن طريقها ضعف المذهب المونوفيزيتي، فأنكر ذلك أهل الإسكندرية[١٣١]، واشتد البطريرق في تحذيره ، ولكنه لم ينصت ولم يكف عن بث تعاليمه، بل إنه تحول في النهاية إلى المذهب الخلقدوني الذي يناهض مذهب أهل الإسكندرية ، ثم غادر إسطفان في النهاية الإسكندرية[١٣٢].

ونختم حديثا عن الحياة العقلية في الإسكندرية بالإشارة إلى الحركة الأدبية في مدينة الإسكندرية في العصر البيزنطي، لأن النشاط الفكري الغزير استمر بالإسكندرية إلى نهاية ذلك العصر، وطوال القرنين الخامس والسادس الميلاديين[١٣٣]. فقد اشتهر المصريون كثيرا بولعهم بالشعر وقرض الشعر كما شغفوا أيضا بالآداب العاطفية أو الرومانتيكية، ويدل على ذلك كتابات كثير من الكتاب سواء أكانوا وثنيين أو مسيحيين، فقد ظل أرباب الثقافة في الإسكندرية البيزنطية يقدسون الماضي ويزدادون تعلقا بتقاليد الحضارة الهللينية ويتذاكرون أمجادها، على الرغم من أن هذه كانت قد أخذت تلفظ أنفاسها الأخيرة وتقترب من نهايتها في القرن السادس الميلادي[١٣٤].

ويدل ما عثر عليه من برديات ذلك العصر على ذيوع الأدبيين اليوناني والروماني والاهتمام بالشعر القديم، إذ جرى حينئذ دراسة بعض الشعراء

---

(131) Hardy :op. cit .p. 492و العريني: المرجع السابق ص ٢٨٠-٢٨١
(132) Diehl:op. cit .p.162
(133) Bell:op. cit.p.127
(134) Vasiliev· op. cit.1,p.187

القدامى والتعليق على أشعارهم وأغرم كثير من الأدباء بالشعر اليوناني وقرضوا الشعر وأظهروا ميولا أدبية واضحة (١٣٥)، وصنف البعض الآخر معاجم يونانية وأخرى قبطية، مما يؤكد الإلمام بالأدب القديم، والاستفادة من الآداب الكلاسيكية واقتنى كثير من الناس في الإسكندرية وفي أنحاء مصر المخطوطات والنصوص القديمة، وأظهروا اهتماما بالغا بالثقافة والأدب الهلليني(١٣٦).

أما عن الجوانب الفنية في مدينة الإسكندرية في العصر اليزنطي والتي تشمل الرسم والتصوير والنحت وزخرفة المنسوجات، فقد حاز مهندسو الإسكندرية وفنانوها شهرة ذائعة في مجال الرسم والتصوير (١٣٧) في ميدانين، الأول منهما هو الرسم والتصوير على جدران العمائر والقصور والمباني والميدان الآخر هو رسم وتصوير وتزيين الكتب والمخطوطات.

فقد استخدموا مهندسو الإسكندرية الأساليب بالغة الجمال لإظهار الأبهة والعظمة في مباني الإسكندرية وقصورها، فقد كسوا جدران هذه العمائر بطبقة من الرخام الثمين أو العاج أو بأستار من النسيج المزركش أو بطبقة من الصفائح المعدنية، فاختفى الجدار البسيط وراء هذا الغطاء والسميك، وأفادوا كثيرا مما توفر بالبلاد من المواد الخام والمواد الثمينة والصناعات في هذه الزخارف (١٣٨).

كما حرص الفنانون على إكساب هذه الجدران وكسوتها لمعانا وجمالا، فرسموا الصور البارزة وجعلوها وكأنها جزءا من الحائط أو الجدار فبدت وكأنها صورا حية، ولهذا أعجبت روما كثير بهذا الفن السكندري، ونقلت

---

(135) Bell: op.cit. p. 128
(136) Vasiliev : op. cit.1,p.187

(١٣٧) مراد كامل: المرجع السابق ص ١٤٢-١٤٣

(١٣٨) العريني: المرجع السابق ص ٢٨٢

هذا النـوع مـن الزخرفـة إلى إيطاليـا فظـهر في جـدران مبـاني مدينـة بومـبي بإيطاليا، كما أعجب به البيزنطيون أيضا فزخرفوا قصورهم وكنائسهم بالرخام والصفائح المعدنية والعاج على طريقة أهل الإسكندرية [١٣٩]، وعلـى هـذا كـان أهم خصائص الفن السكندري في مجال الرسم والتصوير أنه فن زخرفي.

والمعروف أن الإسكندرية كانت مدينـة اللـهو والمـرح والحـب، ولهـذا حرص أهلها على إن يجدوا من العناصر الزخرفية ما يشبع أذواقـهم لتصويـر المحبين والعاشقين، ورسم المناظر الجميلة الخلابة التي يدور موضوعها حول المرأة والحب، وكذلك نقل الصور العاطفيـة أو الرومانتيكيـة وصـور القصـص والأساطير الغابرة، وما حفلت به العصـور السـابقة مـن قصـص رائعـة وصـور جميلة[١٤٠].

كما أحب السكندريون الطبيعة والزهـور والحدائـق والحقـول وعنـاصر الطبيعة الصامتة فأثرت البيئـة علـى الخيـال الفنـي، فزخـرف السكندريون بأوراق النبات أو الفروع النباتية ، خاصة شجر العنب وشجر الرمان أو سعف النخيل ونبات اللوتس، وبعضها كان يعبر عن ظواهر الطبيعة كمداعبة الهواء لأوراق الشجر [١٤١]، مثلما أحبوا صور الحياة الصاخبة التي شغفوا بها، لأنها تتفق مع ما اشتهروا به من الميـل للمـرح والفكاهـة وحـب السخرية وسـرعة الخـاطر، ولهـذا انعكسـت كـل هـذه المعـاني في فنونـهم في مجـال الرسـم والتصوير[١٤٢].

---

(139) Diehl op cit.p 494

(140) Ibid, p 494

(١٤١) مراد كامل نفس المرجع ص ١٤٣

(142) Rice Byzantine Art, p 167

ولا حظ الدارسون لفنون الإسكندرية في ذلك العصر، أن فن الرسم والتصوير استمد أصوله من الفن الهلنستي ولكنه نشأ ونما وترعرع في ظل الكنيسة وفي خدمتها، ولهذا حرص فنانو الأسكندرية على أن يكسبوا فنونهم مسحة مسيحية ، وأن تكون فنونهم معبرة عما جاءت به المسيحية من تهذيب لكل ما كان موروثا عن الماضي ، فصور الفنانون القديسين والشهداء واختاروا موضوعات من الكتاب المقدس(١٤٣)، ومن الأمثلة على ذلك تلك الصور التي وجدت بمقابر الإسكندرية والتي ترجع إلى القرن الرابع الميلادي، والتي انتقل تأثيرها من الإسكندرية إلى بقية أنحاء العالم المسيحي، حيث انتشرت مؤثرات هذا الفن السكندري، وتغلغلت في فنون العالم المسيحي(١٤٤)، حين تقبلت الكنائس في كل مكان مؤثرات الفن السكندري عن طيب خاطر، وقبل القائمون عليها أن تزين كنائسهم بما ابتدعته الإسكندرية من وحدات زخرفية من الرسوم الدينية المصورة وصور الطيور والزهور ومناظر الصيد والقنص على ضفاف النيل، وذلك في القرنين الرابع والخامس الميلاديين(١٤٥).

ويؤكد الدارسون لفنون الإسكندرية في العصر البيزنطي أن الأثر الهلليني في مجال الرسم والتصوير ظل قويا شطرا كبيرا من تلك الفترة البيزنطية في مصر، وكان واضحا في الزخارف التي زينت بها الكنائس وفي الصور الآدمية، خاصة في تفاصيل الوجه الإنساني، ومحاولة إظهار تعبيره عن الحزن أو الفرح أو الدهشة أو الاستنكار أو غير ذلك من التعابير(١٤٦)، ووضح ذلك كله في الأيقونات المكتشفة في أماكن متعددة من مصر ، وصور

---

(١٤٣) مراد كامل : المرجع السابق ص ١٤٣

(144) Deihl op. cit p 494

(١٤٥) العريني : المرجع السابق ص ٢٨٥

(146) Vasiliev op cit vol 1,p.127

الأساقفة والرهبان، فضلا عن صور أخرى تمثل الحياة الواقعية والأغراض الدنيوية.

وظهر هذا الأثر الهلليني أيضا في الصور والرسوم التي تزين الكتب والمخطوطات، فقد كان تزيين المخطوطات فنا من الفنون الشائعة في الإسكندرية في العصر البيزنطي، بل زين المصريون صحائف الكتب بالرسوم ذات الألوان الزاهية الثابتة فبهر جمال زخرفتها كل من رآها في ذلك الوقت(١٤٧)، بل يرجح المؤرخون أن هذا الفن بالذات خلق في الإسكندرية مهنة تصوير وتزيين بعض الكتب والمخطوطات المسيحية منها كتاب مزامير داود المحفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس، إذ تدل الصور التي يزدان بها هذا المخطوط على أن رسمه وتصويره وتزيينه ، إنما حدث في الإسكندرية ، فقد حوى مناظر ورموز وألوان براقة زاهية تتطابق مع روح الفن السكندري في ذلك العصر (١٤٨).

ومنها أيضا الكتاب المقدس أو مخطوط الكتاب المقدس ، لأن الصور التي ازدان بها تتطابق مع الفن السكندري، ومنها كذلك مخطوط تاريخ يوناني كتب على أوراق البردي، تؤكد الصور التي ازدان بها أن الفنان الذي رسمها، إنما ينتمي إلى هذه الفئة المتأثرة بالفنون الهللينية مع ما أثارته فيه المسيحية من روح قومية في الإسكندرية(١٤٩).

وهكذا ترعرع الفن السكندري الوطني بما تأصل فيه من مؤثرات قديمة يونانية وهللينية، ثم بدأ الفن الوطني بعد ذلك يتخلي عن المؤثرات اليونانية

---

(١٤٧) مراد كامل المرجع السابق ص ١٥٠

(148)Diehl: op .cit. p. 495

(١٤٩) العريني المرجع السابق ص ٢٨٦ -٢٧٨

والهللينية، وعن الزخرفة الجذابة وينزع إلى أسلوب جديد يعبر به عن الروح القومية في الإسكندرية ليجبر الفن الهلنستي على أن يخلى مكانه للفن الوطني الأقوى، خاصة وقد كانت الهلنستية قد أخذت تذوي في القرن السادس الميلادي [١٥٠]،وليس من شك في أن الرهبان في الأديرة أتقنوا هذا الفن، فقد نسخوا الكتب وزخرفوها بمختلف الزخارف الملونة الجميلة، كما تفننوا في رسم الرسوم إلى جانب ما اتقنوه من حرف أخرى [١٥١]، واضطرت بيزنطة ذاتها إلى أن تنقل عن الفن السكندري وتحاكيه في كل ما يتعلق بالصور الدينية وصور المخطوطات وما زينت به من رسوم[١٥٢].

أما بالنسبة للنحت فقد تفوقت الإسكندرية كثيرا في هذا الفن في العصر البيزنطي، يدل على ذلك الكم الهائل من التحف المحفوظة في نحو عشرين متحفا عالميا كلها تشهد بما كان للإسكندرية من نشاط فني في مجال النحت وما كان لفنانيها من قدرة إبداعية في هذا المجال، فيما بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين[١٥٣] فقد استخدم الفنان السكندري منذ زمن مبكر الحجر السماقي الذي يستخرج من المحاجر المصرية، في أعماله الفنية، فصنع فنانو الإسكندرية التوابيت الرائعة التي تحتفظ الفاتيكان بعدد منها والتي ترجع إلى القرن الرابع الميلادي، وكذا تابوت القديسة كونستانس وتابوت القديسة هيلانة، وأبدع الفنان السكندري في نحت رسوم هذه التوابيت، التي تتكون

---

(150) Bell:op-cit. p. 127

(١٥١) مراد كامل المرجع السابق ص ١٥٠

(152) Diehl: op.cit. p. 496

(153) Vasiliev op, cit vol 1,pp.126-7

من أكاليل الزهور ومن أطفال عراة يرقصون بين أشجار الكـروم، وإن بـدا في هذه النماذج تأثر فن النحت بالفن الهلنستي(١٥٤).

وأبدع الفنان السكندري أيضا في النحـت علـى الأدوات المصنوعـة مـن العاج التي كان لها بسوق الإسكندرية التجارية أهمية وشهرة تجارية منـها: اللوحات المصنوعة من العاج ومن العظام التي عثر عليها في مقابر الإسكندرية بأشكالها الجذابة وما اتبع في نحتها من أساليب جميلـة(١٥٥)، ومنـها الصـور الرائعة المحفورة على الكرسي المحفوظ في كنيسـة إكـس لا شـابل ، والـتي تمثل صور عرائس البحر أو الحوريات بين أغصان الكـروم وعددهـن خمسـون يمثلن على شكل فتيات عرايا جميلات يركبن أحيانا حيوانات بحريـة(١٥٦)، ومنها كذلك التحفة العاجية بمتحف اللوفر بباريس والتي تصـور قنسـطنطين كحامي المسيحية في هيئة الفارس المنتصر، وهناك بمتحف اللوفر أيضا قطعـة من العاج تمثل القديس مرقس بين خلفائـة البطارقـة، ومنـها أيضـا أروع مـا انتجه هذا الفن من المتحف، تلك اللوحة التي تمثل بعض العساكر يغطون في نومهم قرب القبر المقدس والقديسات عند المقبرة، وتعتبر هذه اللوحة من أروع الأعمال الفنية السكندرية، والتي ترجع إلى القـرن الرابـع الميـلادي، .وأخـيرا هناك قطعة أخرى محفوظة بالمتحف البريطاني، تمثل أحـد الملائكـة يرجـع تاريخها إلى القرن السادس الميلادي(١٥٧).

---

(154) Diehl: op. cit. p. 496

(١٥٥) العريني المرجع السابق ص ٢٨٩

(١٥٦) سعاد ماهر وحشمت مسيحة منسوجات المتحف القبطي ص ٦١

(157) Diehl op cit p 496

ويتضح من النحت على العاج الذي جرى صنعه في مصر، اتجاه الفنان السكندري نحو الأسلوب التقليدي مع ازدياد تغلغل المؤثرات الشرقية في فنون النحت السكندرية بجانب المؤثرات الهلنستية المعروفة والتي أشرنا إليها[١٥٨] وتتضح هذه الاتجاهات بصفة خاصة في قطعة العاج المحفوظة في متحف اللوفر، والتي تمثل القديس مرقس بين خلفائه البطارقة. ولقد لاحظ الدارسون لهذه الاتجاهات في فنون النحت السكندري أنه تطرقت إلى فنون الإسكندرية في هذا المجال في القرنين الخامس والسادس الميلاديين مؤثرات شرقية بجانب التقاليد اليونانية القديمة[١٥٩]. فضلا عما تغلغل من روح قومية مصرية رآها الدارسون تيارا جارفا من الواقعية قد أخذ ينفذ إلى الآثار الجميلة، وتفسير ذلك أن الإسكندرية لم تكن وحدها المكان الوحيد المتحكم في فن النحت، وإنما كان من ورائها كل القطر المصري ، حيث الطابع الحقيقي وما كان يسود بقية البلاد من روح قومية، بعد أن ذوت وذبلت الهلنستية وتداعت في القرن السادس الميلادي[١٦٠].

وربما لهذا لم تنل بعض التماثيل والآثار المصرية شيئا من إعجاب بعض الكتاب الأجانب لما تغلغل فيها من روح قومية مصرية، فضلا عن تغلغل التيارات والمؤثرات الشرقية، فرأى فيها هؤلاء الكتاب بعض مظاهر الإسراف والبعد عن النماذج التي عهدوها قبل ذلك في فنون الإسكندرية في العصرين اليوناني والروماني وبداية العصر البيزنطي[١٦١].

---

(158) Lot· op. cit .p. 136
(159) Vasiliev :op.cit. vol.1,pp.126-7
(160) Bell·op cit p.127

(١٦١) العريني : المرجع السابق ص ٢٩٠

أما بالنسبة لزخرفة المنسوجات،فقد حازت فيها الإسكندرية شهرة عظيمة في ذلك العصر أيضا، إلى جانب الشهرة التي حازتها في الميدانين الآخرين: الرسم والتصوير، والنحت. فقد زخرفت الإسكندرية المنسوجات والأقمشة المطرزة وصبغتها بعناية كبيرة ، حتى غدا لهذه الأقمشة أهمية خاصة في فنون الإسكندرية[١٦٢]، نظرا لسهولة نقلها من مكان إلي مكان وتصديرها إلى أسواق كثيرة في الشرق وفي الغرب أيضا،ولهذا فاقت هذه الأقمشة غيرها من المصنوعات والتحف في إطلاع الناس على تفوق الإسكندرية في هذا الفن، بأسلوبها المميز في زخرفة المنسوجات، ويبدو أن تفوق الفنون البيزنطية بصفة خاصة في القرن السادس وعصر جستنيان بالذات هو الذي جعل المؤرخين يطلقون على ذلك العصر، العصر الذهبي الأول للفنون البيزنطية[١٦٣]، وكان تفوق الإسكندرية ومصر بصفة خاصة صدى لتفوق الفنون البيزنطية عموما.

وأسهمت هذه المنسوجات المزخرفة أيضا في تقدم فن الأيقونات المسيحية، إذ رسم على أرضيتها صور الأشخاص أو ازدانت بالزخارف والألوان المتباينة ، وحفلت أيضا بصور المناظر الأسطورية ونقوش من الأساطير القديمة[١٦٤]، أو بقصص الصيد والقنص أو بالصور المستمدة من حياة السيرك، واتخذت إما ملابس أو ستائر أو بسط، كما زينت بها الكنائس واجتمعت في هذه الزخرفة المؤثرات الهللينية والشرقية معا [١٦٥].

---

(162) Diehl:op. cit .496
(163) Vasiliev op cit. vol.1,p.128
Dalton: Byzantine Art and Archaeology, p 10
(١٦٤) مراد كامل المرجع السابق ١٤٨
(165)Vasiliev op. cit.1,pp.126-7

وتميزت المنسوجات التي زينت بها الكنائس بالذات بصور ومناظر مستمدة من الكتاب المقدس كرسم الشهداء المشهورين وصور رمزية تمثل المعجزات التي أختص بها السيد المسيح عليه السلام، وصور القديس بطرس يتلقى المزامير من يد السيد المسيح وغيرها من الصور الدينية، على الرغم من أنه اختلطت أحيانا مناظر العهد القديم بمناظر العهد الجديد، فرسمت قصة سيدنا يوسف التي أحبها المصريون كثيرا، كما رسمت صور القديس بطرس والقديس بولس، وحفلت بعض هذه المنسوجات بصور ورسوم اعتبرت أشبه باللوحات[١٦٦].

وكان لهذه المنسوجات الأخيرة بالذات أثر عظيم في انتشار هذا الفن في كل أنحاء العالم المسيحي لأن هذه المنسوجات والأقمشة التي حفلت بصور ومناظر الكتاب المقدس حملت إلى كل أنحاء العالم المسيحي، فأكدت تفوق الإسكندرية في هذا الفن من ناحية وأثرت في فنون العالم شرقا وغربا من ناحية أخرى[١٦٧]، وحرصت كنائس روما على طلب الطنافس الشرقية والمنسوجات المصرية السكندرية المزخرفة، كما حرصت بيزنطة على التماس هذه المنسوجات المزخرفة ومحاكاة فنون الإسكندرية وتقليد النماذج السكندرية لقربها من ناحية ، ولأن مصر كانت إحدى الولايات التابعة لها من ناحية أخرى، ولهذا فلقد أكملت المنسوجات السكندرية المزخرفة نضوج الفن المسيحي ونقله إلى العالم كله وأعطتنا في نفس الوقت صورة لما كانت عليه الفنون في هذا المجال في العصر البيزنطي في مصر[١٦٨].

---

(١٦٦) العريني: المرجع السابق ٢٩٢

(167) Diehl op.cit p.497

(١٦٨) مراد كامل: نفسه ص ١٥٠

ونظرا لأن مصر اشتهرت من قديم الزمن بمنسوجاتها المتنوعة مثل المنسوجات الرقيقة المصنوعة من الكتان أو الحرير فقد أبدع فنانو الإسكندرية في زخرفة في هذه المنسوجات بصفة خاصة بالصور وبالألوان الجميلة البراقة، واستخدموا فيها أساليب وأنماط مختلفة فاجتمعت فيها أحيانا الأصول الهلنستية والمؤثرات الشرقية(١٦٩) ، فضلا عما انساب فيها من تيار قومي يعبر عن الروح القومية لا سيما في النصف الأخير من العصر البيزنطي خاصة في القرن السادس الميلادي بعد تداعي الهلنستية وموتها في تلك الفترة (١٧٠) و بذا أكملت زخرفة المنسوجات السكندرية ما سبق أن عرفناه من صور الفن المسيحي في مصر البيزنطية.

---

(169) Vasiliev: op. cit. 1,p.128
(170) Bell: op. cit.1,p.127

الفصل العاشر

أثر المسيحية في حياة المجتمع المصري في العصر البيزنطي

الفصل العاشر

اثر المسيحية في حياة المجتمع المصري في العصر البيزنطي

تشكل المجتمع المصري في العصر البيزنطي من سكان المدن سواء كانت مدنا كبيرة أو مدنا صغيرة و سواء أيضا أكانت مدنا ريفية أم مدنا حضرية أو مواني في الوجه البحري أو في صعيد مصر ،فضلا عن سكان القرى و الريف المصري ،الذين شكلوا الغالبية العظمى من ذلك المجتمع و النسبة الكبيرة من سكان مصر ،بالإضافة إلى بعض سكان الصحارى و الواحات المنبثة في صحراوات مصر غربا و شرقا و إن كان هؤلاء لا يمثلون إلا نسبة ضئيلة جدا من المجتمع المصري في ذلك الوقت .

و إذا كانت مدن مصر الهامة لازالت في العصر البيزنطي تحمل طابع الهللينية، بما ازدانت به من تماثيل ،و ما حوته من صور و مناظر ،وما تألف منه سكانها من عناصر ،فلا شك أن المسيحية غيرت شكل هذه المدن تغييرا كبيرا، وبدلت مظاهرها و طابعها تبديلا محسوسا بما أقامته فيها الكنيسة من الأبنية الدينية ، كالكنائس و الأضرحة و المشاهد و غيرها ،و شيدته من مستشفيات و فنادق و غيرها من الأبنية الدينية[١] .

فعلى سبيل المثال زخرت مدينة الفيوم (أرسينوى) في القرن السادس الميلادي بهذه الأبنية الدينية و المستشفيات و الفنادق و الأضرحة و المشاهد العظيمة ،فكان بها الكنيسة الكبرى التي عرفت باسم الكنيسة الجامعة،فضلا عن الأضرحة و المساجد المشهورة باسم العذراء و الرسل و القديس مرقس و بعض القديسين الآخرين مثل كوزما و داميان بالإضافة إلى كنائس أخرى

---

(١) العريني:المرجع السابق ص ٢٩٥- ٢٩٦

اصغر ،أقيمت في بعض أحيائها[٢] ،على حين اتخذت بعض شوارع المدينة أسماء بعض القديسين و أسماء ما كان يقع بها من كنائس شهيرة .

و تدل نصوص الكتاب المقدس التي جرت ترجمتها إلى لهجة الفيوم، والتي تم العثور عليها في الفيوم على أن نسبة كبيرة من سكان المدينة المسيحية ،كانوا من العنصر المصري ، بينما تشير البرديات الهامة التي كشفت بالمدينة أيضا ،و التي كتبت باللغة اليونانية إلى وجود أسماء كثيرة يونانية، مما يؤكد وفرة عدد اليونانيين بالفيوم ،فكأن المدينة سكنها المصريون و اليونانيون معا، و تشكل مجتمعها في ذلك العصر من العنصرين الوطني واليوناني[٣].

و هناك أيضا مدينة البهنسا التي كانت مدينة مسيحية كاملة زخرت بالكنائس و غصت بالأديرة ،و غلب على حياة سكانها التأثر بالمسيحية[٤]، فقد عثر بها على قطعة من البردي حوت تقويما كنسيا يرجع إلى القرن السادس الميلادي، تضمن قائمة بالأعياد الدينية التي يحتفل بها و أسماء الكنائس المقامة بها، و التي اتخذت أسماء بعض القديسين المشهورين أمثال حنا الإنجيلي و ميناس و كوزما ،فضلا عن العذراء و بعض الشهداء الآخرين[٥] ،و يستدل من البرديات التي عثر عليها في البهنسا و المنتمية إلي هذه الفترة و المكتوبة باللغة اليونانية على ما كان للعنصر اليوناني بالمدينة من مكانة .

---

(2) Diehl : L'Egypt Chretienne, p. 499

(3) Meinardus: Monks and Monasteries of the Egyptian deserts, p. 144

(4) Diehl: op. cit. p. 499

(٥) العريني: المرجع السابق ص ٢٩٦

أما مدينة أنتينوى ،بالقرب من ملـوي الحاليـة[٦]، الـتي كـانت مقـرا لدوق طيبة والتي تعتبر أهـم مـدن القطـر المصـري في العصـر البـيزنطي بعـد الإسكندرية، فقد غلبت عليـها الصفـة اليونانيـة في مظـهرها و تماثيلـها و في روحها و أدبها أيضا[٧]، فقد اتخذ حاكمها من داره بلاطا صغيرا أحاط نفسة فيه بالشعراء والأدباء، خاصة أولئك الذين درسوا هوميروس و الشعر اليوناني ،و قصدوه مادحين بقصائد الشعر، فضـلا عـن أولئـك الذيـن قصـدوه لبعـض حاجتهم، وعولوا لإجابتها على استعطافه والتوسل إليه بالشعر والنثر والأدب مما يؤكد أن هذه المدينة رغم بعدها وتطرفها، كـانت عـامرة بمجـالس الأدب والشعر اليوناني الذي شجع علـى قرضـه وتداولـه كبـار رجالهـا وموظفيـها، وبعض سادتها الإقطاعيين خاصة في القرن السادس الميلادي[٨].

ويتضح من ذلك أن شكل المدن المصرية وطابعها قـد تـأثر تـأثرا عميقـا بالمسيحية من خلال ما أقامته الكنيسة فيـها مـن الأبنيـة الدينيـة كالكنـائس والأضرحة والمشاهد والأبنية غير الدينيـة كالفنـادق والمستشـفيات وغيرهـا[٩]، من ناحية، فضلا عن أن حياة المجتمع في تلك المـدن قـد تـأثر أيضـا تـأثرا كبيرا بالمسيحية في نظمه وتقاليده وأعياده من خلال ما عـثر عليـه مـن قوائـم بالأعياد الدينية، وما حرص عليه سكان تلك المدن مـن مواءمـة حياتـهم مـع نظم المسيحية وأعيادها وتقاليدها من ناحية أخـرى، علـى الرغـم مـن وجـود العنصر اليوناني واحتلاله مكانة هامة في بعض هذه المدن، بما عرف عن هـذا العنصر من ميل إلى تراث اليونان من شعر ونثر وأدب، وحرص هـذا العنصر

---

(٦) مراد كامل :المرجع السابق ص ٢١٥

(7) Bell: op. cit. p. 127
(8) Diehl : op. cit. p. 500

(٩) العريني: نفس المرجع السابق ص ٢٩٧

على عقد مجالس الشعر والأدب في تلك المدن، وتشجيع الحكام والسادة وكبار رجال تلك المدن خاصة من الإقطاعيين للشعراء والأدباء هناك[١٠]، وذلك طوال القرن السادس الميلادي بصفة خاصة.

ومما وصلنا من نصوص وبرديات منتمية لذلك العصر نستدل على أن الصلوات كانت تؤدي في تلك المدن- كما هي العادة- يوم الأحد، كما كانت تقام صلاة أخرى يوم السبت في مدن عديدة، لا سيما في الإسكندرية، كما جرت الاحتفالات بأعياد كثيرة تخليدا لذكرى مولد السيد المسيح وموالد بعض القديسين من تلامذته ومشايعيه[١١]، إذ حوى التقويم المشار إليه ما لا يقل عن ثلاث عشرة صلاة، كانت تؤدي على مدى الشهر، وفي ذلك دليل على نشاط الحياة الدينية وانتعاشها في تلك المدن، خاصة في القرن السادس الميلادي.

وإذ غصت المدن الهامة في مصر البيزنطية بالعنصر المصري والعنصر اليوناني أيضا، إذا بالريف المصري والقرى المصرية تصبح قاصرة على وجود العنصر المصري الخالص، المتمثل في الفلاحين وأهل الريف، الذين اشتهروا في ذلك العصر وغيره من العصور بشيء كبير من البساطة والهدوء[١٢]، وكان معظمهم في العصر البيزنطي من المسيحيين الذين اعتنقوا المسيحية في صورتها الأولى السهلة غير المعقدة أو المفلسفة، والذين تعصبوا لها كثيرا وتعلقوا بها، وازدادت حماستهم لها بمرور الأيام[١٣]، وإن كانوا لا يفهمون من أصولها إلا

(10) Diehl: op. cit. p. 500

(١١) مراد كامل: المرجع السابق ص ١٨٦ ـ ١٨٨

(١٢) العريني: نفس المرجع السابق ص ٢٩٩

(13) Chadwick: op. cit. p. 64

قدرا ضئيلا، وأكثر مـا فـهموه منـها وتعلقـوا بـه مـن تلـك العقيـدة، قصـص القديسين والشهداء والرهبان الأوائل، وشدهم كثيرا ما حفلت به هذه القصص من الغرائب والنوادر والمعجزات والكرامات، فضلا عن التصوف(١٤).

ولم يكن يحسن القراءة من سكان مصر البيزنطية، إلا فئة قليلة، وعلى الرغم من ذلك اشـتهر أغلبـهم بـالتقوى والـورع والإخـلاص للعقيـدة والتعلـق برجـال الكنيسـة، فتلقـوا مـا كـان يـرد لهـم مـن الإسـكندرية مـن التعـاليم الدينية(١٥)، دون أن يكون بوسعهم إدراك مـا إذا كـان البطريـرق الجـالس في الإسكندرية قد انزلق إلى الإلحاد أو الهرطقة، وحاد عـن الطريـق المسـتقيم أم لا، لأن علامة الإيمان الصادق عندهم تتمثل في تقديس ما وصفه كبـار رجـال الدين من تقاليد، لا سيما ما تركه مرقس الإنجيلي وبطرس السكندري الشهيد وأثناسيوس وثيوفيل وكيرلس وثيودسيوس من تقاليد دينية. حقيقـة لم يـدرك أغلبهم كنه هذه التقاليد الدينية، ولكن يكفي أنهم يشعرون بانتمائـهم إليـها وأنهم مؤمنين بها ليكونوا مسيحيين كاملين وأرثوذكس صالحين (١٦).

ومع تلك المسيحية البسيطة السهلة، بقيت كثير من مخلفات الوثنيـة والتقاليد القديمة، فلا زالت بعض الشياطين التي عرفت في غابر الأزمان تجد لنفسـها طريقا إلى نفوس الناس في مصر البيزنطية، وسط ما يظهرونه مـن روع وتمسك بتعاليم المسيحية، ووسط ما يظهرنه من تعظيم وإكبار للقديسين ومـن حـرص شـديد علـى اكتشـاف الأشـخاص الأتقيـاء الصـالحين لتقديسـهم واحترامهم، لقدرتهم على إحداث الكرامـات والمعجـزات، لم يغفـل النـاس- وسط ذلك كله - عما كان معروفا قديما من الشياطين الذين تطـرق إلى النـاس

(14) Diehl: op. cit. p. 500
(15) Bury: op. cit. Vol. 1, p. 216

(١٦) العريني: نفسه ص ٢٩٨

الخوف منهم[١٧]، وما خلفته قصة أوزريس وعبادة ما تناثر ما أعضاء جسده قد جعل المصريين - قبل غيرهم - يقدسون الأطلال ويظهرون الاحترام للمخلفات الدينية، فضلا عما عرف عن العوام من سرعة التصديق لأعمال السحر والشعوذة والاعتقاد في مثل هذه الأمور، ولذلك حملوا الأحجبة والتعاويذ، مثلما كان يحدث في الزمن الغابر، وأن صاروا يكتبون عليها آيات من الإنجيل وبعض الدعوات بالإضافة إلى ما كانوا يقدمونه من ابتهالات إلى السيد المسيح وإلى بعض القديسين، بدلا من الابتهال إلى حورس وأبوللو وغيرهما من الإلهة القديمة، بل كانوا يستخيرون الله ويسألونه حدوث المعجزات مثلما كانوا يفعلون مع الآلهة الوثنية[١٨].

ومما يدل على بقاء هذه المخلفات الوثنية والتقاليد القديمة وسط تيار المسيحية ما كشف عنه في بعض مدن مصر من تعاويذ صيغت في قالب مسيحي، واتخذت مظهرا قديما وثنيا، كتلك التي كشف عنها في إحدى مدن مصر، وقد التف بها خيط أحمر وتحوي دعاء مسيحيا نصه: " اللهم يا رب العزة والقوة يا أبا سيدنا ومنقذنا المسيح عيسى ... نتوسل إليك أنا سيلوام بن صيرابيون، وأحنى الرأس إجلالا متوسلا إليك مبتهلا أن تطرد عنى عبادك من الشياطين، وأعوذ بك من شر المرض ومن كل ضعف لأصون صحتي " [١٩]، وتلي ذلك نص الدعاء الإنجيلي.

كذلك بقيت بعض المخلفات الوثنية والموروثات الوثنية متغلغلة في نفوس المصريين في العصر البيزنطي، ولم يستطع التدين والرسوخ في العقيدة والإخلاص لها ، أن تمحو هذه الموروثات، فجرى ظهورها ربما دون إحساس

(17) Diehl: op. cit. p. 501

(١٨) العريني: نفس المرجع السابق ص٢٩٩

(19) Diehl: op. cit. p. 501

أو شعور أو تعمد. ففيما يخص الفكرة عــن الحيــاة الآخـرة ويـوم الحسـاب. تصور كثير من الناس المسيح مثلما تصوروا من قبل أوزريس [٢٠]. مما يدل على بقاء تلك المخلفات والمورثات القديمة في نفوس المصريين.

ويتضـح أيضـا الأثـر المسـيحي في الوثـائق المصريـة الـتي تعـاصر هـذه النصوص والتي ترجع إلى القرن السـادس الميـلادي في عقـود البيـع والشـراء وعقود عتق الرقيق والوصايا وغيرها من الوثائق مـا يزخـر بـالصيغ المسـيحية والتوسلات للقديسين وكذلك في الحكم المأثورة التي تناسبت مع تقدم ورسـوخ المسيحية في مصر، فضلا عن آيات الإنجيل التي تجعل من الوثيقة القانونيـة عظة دينية خالصة[٢١]، وتؤكد الأثر المسيحي في هذا الجـانب مـن المعـاملات القانونية.

واتضح الأثر القوي للمسيحية أيضا في التربية السليمة والتعليم الصحيح للنشء في مصر، مما زخرت به الرسائل الخاصة التي كان يبعث بـها النـاس بعضهم إلى بعض، بما حفلت به هذه الرسائل من الاحترام الشديد والعبارات الرقيقة التي جاءت دليلا على التربيــة الســليمة والتعليـم الصحيـح، وجـرى كتابة هذه الرسائل الخاصة وفقا لنماذج معينة أعدت لذلـك الغـرض، وظـهر منـها الالـتزام بـالخلق القويـم والتديـن الشـديد تـأثرا بالمسـيحية واسـتجابة لتعاليمها [٢٢].

وكان للمسيحية دور أيضا في إظهار الشعور الوطني والاعتزاز بالوطنيـة اقترنت بحماسـة قومية عظيمة، وإحساس وطني عميق ويؤكد المؤرخون أنه لم

(٢٠) العريني: نفس المرجع ص ٣٠٠

(٢١) العريني: نفس المرجع ص ٢٩٩

(22) Diehl: op. cit. p 502

تتضح القومية المصرية في عصر من العصور مثلما وضحت في العصر البيزنطي وهي حقيقة لا مراء فيه. ففي وثيقة هامة ترجع إلى نهاية القرن الخامس الميلادي يتردد ذكر الكلمات والعبارات: "وطننا " و "الأرض" و" مسقط رءوسنا"، ودل الإصرار على استخدام لفظة "وطني" أو " قومي" وتكرار الإشارة إليها في آداب القرنين الرابع والخامس الميلاديين، وفي العلوم والعادات ومظاهر الديانة على أنها تعني كل ما هو قومي عزيز على قلوب المصريين[٢٣]، كما جاءت للتفرقة بين كل ما هو منتسب للوطن وما هو غريب عنها أو وارد من الخارج أي من العالم اليوناني إذ كره المصريون السيادة اليونانية والحضارة اليونانية طالما تمسح فيها البيزنطيون وحاولوا الانتساب لها وربما يفسر ذلك أن المسيحية لم تلبث أن اتخذت عند المصريين صورة المعارضة السياسية، ووجد فيها المصريون وسيلة للتعبير عن ذاتهم وقوميتهم[٢٤].

فإذا انتقلنا إلى رجال الدين والرهبان واستعرضنا دورهم في حياة المجتمع المصري في ذلك العصر، وجدنا أنهم كانوا يمثلون قوة كبيرة إلى جانب قوة الأرستقراطية المدنية، وكانوا فريقين: الفريق الأول هم رجال الدين الملتفين حول بطريرق الإسكندرية أما الفريق الآخر فمن رجال الدين في الأقاليم ووحدات مصر الأخرى[٢٥]. ولم يكن ثمة أوجه للمقارنة بين الفريقين، لما عرف به رجال الدين في الأقاليم من الجهل والقصور الفكري وضعف الشخصية، لأنهم لم يصيبوا إلا قدرا ضئيلا من التعليم ، وغلب عليهم الجهل

---

(٢٣) العريني: المرجع السابق ص ٣٠٠

(24) Chadwick: op. cit. pp. 205 – 6
Bury: op. cit. Vol. 1, p. 216

(25) Chadwick: op. cit. p. 185

وغلظة الطباع. مقارنة بأولئك المتمتعين بالقرب من بطريرق الإسكندرية، والذين نالوا حظا عظيما من الثقافة والتعليم وتهذبت طباعهم ورقت حاشيتهم في العاصمة وما حولها، وبينما لعب بعض رجال الدين في الإسكندرية أدوارا هامة خلال الأحداث الدينية والسياسية التي مرت بمصر في ذلك الوقت، ودللوا على تأثيرهم القوى في كثير من مجالات الحياة سواء أكانت سياسية أو دينية (٢٦)، إذا بالفريق الآخر من رجال الدين بالأقاليم لا يفكرون إلا في أمر واحد هو الطاعة التامة للبطريرق الذي استقر بالإسكندرية (٢٧)، لأنه ليس لأحد من الأساقفة أو رجال الدين – في عرفهم – أن يتصرف من تلقاء نفسه بل لا بد لهم من الرجوع إلى البطريرق. فقد اشتد خوفهم كثيرا من البطريرق لما يعلمون من مكانته الدينية وتعلق المسيحيين به في كل أنحاء مصر (٢٨). ولما تقرر دعوة الأساقفة المصرين لحضور مجمع خلقدونيا للنظر في إدانة بطريرق الإسكندرية " ديوسقروس" أجابوا في حسرة "إننا لو فعلنا ذلك فلن نستطيع أن نعيش في البلاد فسوف يقتلنا الناس" وعلى هذا لم يكن لهذا الفريق من رجال الدين في الأقاليم كبير أثر في حياة المجتمع من الناحية الأخلاقية، لأنهم كانوا مجرد أداة طيعة في يد بطريرق الإسكندرية (٢٩).

أما الرهبان فقد كان لهم تأثير عميق في حياة المجتمع المصري في ذلك العصر سواء أكانوا من المنقطعين المتنسكين، الذين التجأوا إلى "صحراء القديسين"، أو كانوا من الديريين الذين هجروا العالم وانقطعوا للعبادة والتأمل

---

(26) Bell: op. cit. p. 96, p. 112

(٢٧) العرينى: المرجع السابق ص ٣٠٥

(28) Bury: op. cit. Vol. 1, p. 216

(29) Diehl: op cit p. 506

والعمل في الأديرة التي أقيمت في أماكن مختلفة من أرض مصر [٣٠]، فقد توافرت الثروة لتلك الأديرة بفضل ما أغدقه عليها كبار الشخصيات والأباطرة وآحاد الناس من هبات، وما أوقفوه عليها من أوقاف. فصارت الأديرة تحوز الأراضي والقرى ورقيق الأرض وتتعامل مع المستأجرين، فقد أوردت بعض البرديات المحفوظة في أحد الأديرة تجاه طيبة مثالا للثروة التي تمتع بها الدير في ذلك العصر، وما توافر له من الأراضي والممتلكات وعلى هذا المثال كانت كثير من الأديرة في جهات مختلفة من أرض مصر البيزنطية[٣١].

وكانت ثروة هذه الأديرة عاملا هاما من عوامل قوة نفوذ الرهبان وعمق تأثيرهم في حياة المجتمع المصري في ذلك العصر. غير أن الأهم من ذلك أثرا ما حظي به أولئك الرهبان من المكانة والإعجاب في نفوس المصريين ، إذ اعتبرهم المصريون فقهاء العقيدة الدينية وأنبياء الديانة المسيحية والقديسين الذين خصهم الله بالقدرة على القيام بالمعجزات والكرامات [٣٢]، لأن العلاقة توطدت بين الملائكة والأنبياء وبين هؤلاء الرهبان الزهاد الأتقياء، الذين ارتقوا بقداستهم حتى صاروا فوق ما هو مألوف، و ارتفعوا فوق القانون، قد آمن المصريون بما حفلت به حياة هؤلاء القديسين من قصص المعجزات والكرامات، على الرغم من أن كثيرا من هؤلاء الرهبان كانوا على حظ ضئيل من التعليم والثقافة، فلم يفقهوا في كثير من الأحيان شيئا مما كان يدور في الإسكندرية من المناقشات الدينية والخلافات حول اللاهوت، ولم يبذلوا جهدا في السعي للشهرة والظهور عن طريق البلاغة أو بصفتهم كتاب، وكل ما

(30) Vasiliev: op. cit. Vol. 1, p. 127
Chadwick: op. cit. pp. 179 --180
(31) Diehl: op. cit. pp. 506—7

(٣٢) العريني: المرجع السابق ص ٣٠٦

هدفوا إليه في أغلب الأحوال إعلان ثقتهم التامة في بطريرق الإسكندرية. طالما احترمهم وأقر بقداستهم واعتبرهم من رجاله المقربين[٣٣].

لكن نفوذ هؤلاء الرهبان وسلطانهم على العامة كان كبيرا وأمرا لا جدال فيه، فما حازوه من مكانة هامة في مصر البيزنطية. إنما يرجع إلى ما اشتهروا به من التعصب الشديد والاستعداد الدائم لأن يدافعوا بقبضة أيديهم وعصيهم القوية عن كل من يدعوهم لمساعدته أو من يستنصرهم من رجال الدنيا أو رجال الدين ، خاصة في الأمور التي تهمهم والقضايا التي يحرصون على المشاركة في حلها سواء أكانت دينية أو سياسية[٣٤].

وخير مثال لهذا النوع من الرهبان كان شنوده الأتريبي، بل لعله أكمل نموذج لهذا النوع من الرهبان وللمسيحية المصرية، إذ كان رجلا شديد البأس بالغ العنف قاسيا على رهبان ديره، لا يتردد في إنزال أشد العقوبات وأعنفها بمن يحدث أقل خلل أو اضطراب بنظامه الديري دون رحمة أو شفقة[٣٥]، ولم تقتصر شدته على الرهبان، بل تجاوزتهم إلى الوثنيين، لأنه كان يمقت أوثانهم التي يختفي فيها - على حد قوله- الشيطان ، فضلا عما اشتهر به من مناوأة السلطة العامة وتحدى أوامرها وطرد مندوبيها، غير أن المؤرخين يشيرون إلى أنه كان أشد قسوة على نفسه من غيره، بمصارعته لنوازع الشيطان وجهاده لنفسه وأخذها بالشدة [٣٦].

وعلى الرغم من كل ذلك، فقد أبدى شنودة الأتريبي في بعض الأحوال اهتماما شديدا وعناية ملحوظة بالمرضى والفقراء، فكان يأمر بإنزالهم في ديره،

---

(33) Diehl: op. cit. p. 507

(٣٤) العريني نفس المرجع ص ٣٠٠

(35) Meinardus: op. cit. p. 182

(36) Diehl: op. cit. p. 507

ويقدم لهم المؤن والعلاج، كما تجسدت فيه روح القومية المصرية، والتعصب لكل ما هو مصري، فكتب بالقبطية من الرسائل والمواعظ ما يؤكد هذه الحقيقة، وما ينطوي على روح مسيحية حقه (٣٧)، مع أنه- كما وصفه المؤرخون - كان محدود الذكاء لم يحاول أن يفهم شيئا من دقائق علم اللاهوت السكندري أو يتعمق في فهم أصول العقيدة؛ وإذا كان البطريرق كيرلس الرأس المفكر في الكنيسة المصرية(٣٨)، فقد كان شنودة الأتريبي الذراع القوية الطيعة له، والأداة التي يعول عليها لتحقيق أهداف الكنيسة، إذ التف حول شنودة عدد كبير من المعجبين به وبصفاته وتقواه وما أحاط به من جو المعجزات والكرامات، فلما توفى شنودة كان الحداد عليه عاما، وحفظت مصر لشنودة من الذكرى ما حفظته لكبار قديسيها (٣٩).

و يتضح من هذا المثال أن رجال الكنيسة بشقيها :النظاميين و غير النظاميين ازدادوا اقترابا من الشعب المصري ،يشاركونه الآمة و ما كان يكنه من كراهية للبيزنطيين . و شاطروه مشاعره الوطنية و حسه القومي ،بل أخذ الأساقفة شيئا فشيئا يبتعدون عن اللغة اليونانية و يستخدمون القبطية(٤٠)، حتى صارت طائفة كبيرة منهم في القرن السادس الميلادي لا تعرف من اللغات سوى القبطية ،نظرا لان رجال الدين من الأساقفة و الرهبان كانوا جميعا من العنصر الوطني ،و ربما لهذا السبب وقف رجال الدين بأكملهم خلف بطارقة الإسكندرية لتأييد المذهب المونوفيزيتي(٤١)، و لم يلبث الشعب

---

(37) Meinardus: op. cit p 192

(38) Bury: op. cit. Vol. 1, pp. 216 –218
Chadwick: op. cit. p.194

(39) Diehl: op. cit. p. 507, العريني: المرجع السابق ص ٣٠٧

(40) Bell: op. cit. p. 113

(41) Chadwick: op. cit. pp. 203 -6

أن اقتفى أثرهم في هذا التأييد، معتبرا هذا التأييد ضربا من ضروب المعارضة السياسية لبيزنطة في مصر، و نموذجا للمقاومة ضد الهللينية البغيضة، ومظهرا من مظاهر الدفاع عن القومية المصرية و الوطن المصري العزيز[٤٢] .

ومن القديسين الذين أثروا كثيرا في المجتمع المصري في العصر البيزنطي أيضا القديس مينا الذي اعتبر أكثر القديسين احتراما و تبجيلا عند المسيحيين في مصر البيزنطية [٤٣]، إذ تشير الروايات إلى أنه استشهد في الاضطهاد الكبير زمن الإمبراطور دقلديانوس، فجرى حمل جثمانه على جمل و عند الموضع الذي توقف فيه الجمل عن السير في الصحراء الغربية تجاه ليبيا بالقرب من مريوط تم دفن رفاه هذا القديس [٤٤] ، ثم ما لبثت أن بنيت كنيسة على مقبرته و نشأت على ضريحه مدينة صغيرة مقدسة، أخذ الناس يحجون إليها من مصر و من سائر بلاد الشرق [٤٥]، و جرى تصوير مينا في الأيقونات المسيحية واقفا بين جملين قاعدين، وصار يعتبر راعيا للقوافل، وبالقرب من قبره تفجر نبع اشتهر بالكرامات و المعجزات حتى قيل أن مياهه تشفى كل الأمراض، وورد في النقش الذي عثر عليه بالقرب من ضريحه ما نصه: " اشرب من ماء القديس ميناس تزايلك جميع الآلام " [٤٦].

وتقع مدينة القديس مينا غرب الإسكندرية، و على الطريق الممتد منها إلي وادي النطرون و هو الطريق الذي كان يؤدى قديما إلى واحة آمون(سيوة

---

(42) Hardy: op. cit. p. 119

(43) Vasiliev: op. cit. Vol. 1, p. 127

(44) Meinardus: op. cit. p. 169

(45) Butler: Arab Conquest of Egypt, p. 177 (N . 2)

(٤٦) العرينى: المرجع السابق ص ٣٠٨

الآن) وظلت هذه المدينة موضع الاحترام و التبجيل حتى منتصف القرن التاسع الميلادي. حتى تعرضت للنهب زمن الخليفة المتوكل العباسي[٤٧]، (٨٤٧- ٨٦١ م) وفي القرن الحادي عشر كانت أطلالها لازالت باقية تنم عما كانت عليه من جمال و بهاء، و هي مشهورة الآن باسم "كوم أبو مينا "إلى الجنوب من مريوط مباشرة، و غدت صحراء لا يدل على مجدها الغابر إلا كومة كبيرة من الخرائب، بعد أن كانت واحة تتوسطها مدينة صغيرة مقدسة ضمت كنيسة اشتهرت بأنها "أجمل كنائس مصر" وأهم المزارات القومية في ذلك العصر[٤٨] ،كان يقصدها الناس من كل مكان في القرنين الخمس و السادس الميلاديين .

ما يهمنا من ذلك كله هو ما يتصل بحياة المجتمع المصري في ذلك العصر، و ما كان للقديس مينا من أثر في حياة الشعب في مصر البيزنطية ، فقد قصد كنيسته و ضريحه و الينبوع الذي تفجر بالقرب من ضريحه أعداد كبيرة من الناس كانوا يلتمسون العلاج و الشفاء من أمراضهم[٤٩]، أما بشرب ماء القديس مينا و حمل ما يمكن حمله منها عند العودة التماسا للشفاء و إما بالاستحمام في الحمام المقدس الذي يضم حوضا كبير المساحة تحيط به حجرات للاغتسال ،و صهاريج للمياه و غرف للانتظار، و يجرى تسخين الماء بواسطة أفران كبيرة مشيدة تحت هذا الحوض[٥٠]، و إما بالغطس في مغطس أو معمودية هذا القديس القريب من كنيسته التماسا للبركة و الصحة

---

(47) Diehl: op. cit. p. 509
(48) Vasiliev: op. cit. Vol. 1, p . 127
(49) Diehl: op. cit. p. 510
Meinardus: op. cit. p. 169

(٥٠) العريني: المرجع السابق ص ٣١١

والعافية و التوفيق في الحياة، و إكمالا لما ينبغي أن يقوموا به من طقوس التعميد للصغار في مياه هذا القديس التقى و ذلك في حوض آخر به ثلاثة تجاويف، خصصت ليغطس فيها المرضى و المراد تعميدهم(٥١)، خاصة بعد أن ذاعت قدرة هذا المكان على الشفاء، حتى قصدته الإبنة الوحيدة للإمبراطور قنسطنطين الكبير التي كانت تعاني من مرض الجزام، فشفيت من مرضها ، كما شفى الرجال و النساء الذين قصدوا هذا المكان من أمراض أخرى مختلفة(٥٢).

فقد حرص حجاج هذا الضريح على شرب مياه القديس مينا خلال حجهم و زيارتهم للمكان ، كما حرصوا على حمل ما يمكن حمله من هذه المياه عند عودتهم حملوها في قوارير صغيرة مصنوعة من الفخار أو من الرصاص حملت اسم القديس مينا و صورته التي ألفها الناس في ذلك العصر. وكما رسمت في الأيقونات المسيحية (٥٣)، معتبرين هذا الماء ماء مباركا مقدسا، وآمنوا أن فيه الشفاء ،و لازالت نماذج من هذه القوارير محفوظة في كثير من المتاحف العالمية ، بينما حرص فريق منهم على الاستحمام و الاغتسال في الحمام المقدس التماسا للشفاء ـ كما سبق أن أشرنا ـ و الغطس أيضا من اجل الشفاء و للبركة أحيانا أو إكمالا لطقوس التعميد أحيانا أخرى مستفيدين مما توفر في هذه الأماكن المقدسة من استعدادات و تسهيلات لطالبي العلاج عند ضريح القديس مينا (٥٤).

---

(51) Diehl: op. cit. p. 510
(52) Meinardus: op. cit. p. 169
(53) Butler: op. cit. p. 177, (N .2)

(٥٤) المريني: نفس المرجع ص.٣١١

و كان يقع إلى الشمال من كنيسة القديس مينا دير كبير بدا و كأنة مدينة بذاتها لا تقل مساحته عن أربعين ألف متر مربع . لم يبق منها الآن إلا بعض القلايات و المخازن و قاعات الاستقبال الفسيحة، و لازالت بعض مقابر هذه المدينة التي قامت حول الدير باقية إلى الآن، فضلا عن بعض دورها (٥٥)، و استطاع الأثريون أن يميزوا في هذه الدور دار صانع الخزف الذي صنعت منة القوارير التي كان يشتريها الحجاج للئها بماء القديس مينا عند عودتهم، وكذلك اكتشفوا مصنع الفخار الذي حفلت حوائطه برسوم عجيبة و ميز الأثريون أيضا الحانوت الذي كان يجرى فيه بيع القوارير وأيضا المخبز. و على الرغم من أن هذه كلها لم تعد إلا خرائب و أطلال في وقتنا الحاضر(٥٦)، إلا إنها ـ مع ذلك ـ تحمل عبير الماضي و تحكى قصة من قصص التاريخ المصري في العصر البيزنطي و تؤكد الأثر العميق الذي أحدثه هذا القديس في حياة المجتمع المصري بكل فئاته في ذلك العصر .

و من القديسين الذين أثروا أيضا في حياة المجتمع المصري في ذلك العصر القديس جريمى JEREMIE أو إرميا، الذي ذاعت شهرته في جميع أنحاء مصر، لما كان يمارسه من حياة القداسة والطهارة، ولأنه على حد قول المؤرخ حنا النقيوس - حباه الله "فجعله يحيط بمعرفة الأشياء كلها"(٥٧) لأنه كان أحد الزهاد الصالحين، ولذا قصده المسيحيون "للتبرك به وليشفع لهم

---

(55) quatremere: Memoiree geographiques et Historiques sur l'Egypte,T.1, p . 488 (Paris 1811)
(56) Diehl: op. cit. p. 511
(57) The Chronicle of John Bishop of Nikiu, p. 121

عند السيد المسيح"، وتزايد مجد جريمي أو إرميا بعد وفاته ، وتضاعفت شهرته في كل أنحاء البلاد [٥٨]

وكان جريمي قد أنشأ ديره في سقارة بالقرب من خرائب مدينة منف القديمة حوالي سنة ٤٧٠م، فأعطى هذا الدير صورة أخرى لمصر المسيحية في العصر البيزنطي. إذ ما لبث أن تزايد مجد هذا القديس، وتضاعفت ثروة الدير الذي أنشأه، وازدادت شهرته بعد وفاته، ونشأت حول الدير مدينة صغيرة مقدسة كان لها أثر عظيم في حياة الشعب المصري في ذلك العصر [٥٩]، فقد أقيمت فيها الدور والفنادق والإسطبلات والمواضع التي كانت تربط فيها المطايا والسقايات التي كانت تسقى منها [٦٠]، وكان لهذا الدير كنيسة عمرت بأكملها من أحجار ومواد منتزعة من الآثار القديمة، يؤدى إليها رواق يصعد إليه الإنسان عن طريق درج واشتهرت هذه الكنيسة بزينتها وزخرفتها الفاخرة، إذ جمل حجرها بالفسيفساء، وكسيت أعمدتها بالصور، وقرب ضريح القديس جريمى كان يرقد أشهر خلفائه على مقربة من الدير [٦١]، ويصل هذه المباني التي يؤمها الزائرون بالدير طريق فسيح، وعلى مقربة من الدير يقع أيضا المطعم والمخبز والمخازن، التي لا زالت تزخر بالقدور المرصوصة والمستشفى التي يشرف عليها " أبونا صاحب المستشفى" وبها غرفة صغيرة منفردة ينزل فيها المصابون بأمراض معدية [٦٢] .

---

(٥٨) العريني: نفس المرجع ص٣١٢

(59) Diehl: op. cit. p. 511

(60) Ibid. p. 511

(٦١) العريني: نفس المرجع ص ٣١٢- ٣١٣

(٦٢) العريني: نفسه ص٣١٣

ما يعنينا من ذلك كلـه أن هـذا القديـس أثـر تأثيراً واضحـاً في حيـاة الشعب المصري في العصر البيزنطي، وغدا ديره مزاراً لجمـوع الزائريـن الذيـن قصدوه للتبرك والتماس الشفاعة عند السـيد المسيح (٦٣)، وطلـب الشـفاء مـن الأمـراض وقضـاء الحاجـات، يـدل علـى ذلـك خرائـب الـدور والفنـادق والإسطبلات والمواضع التي كانت تربط فيها المطايـا والفسـقيات الـتي كـانت تسقى منها تلك المطايا (٦٤) ،وكل ما يدل على أن هذا المكـان كـان يومـاً مـن مواضع الحج الشهيرة في مصر البيزنطية ، فقد أصاب الدير الخراب والإهمال عند نهاية ذلك العصر.

وهناك أديرة أخرى لم تندثر، ومهما أصابها من تغيـير بفعـل الزمـن، فإن ما تبقى منها من العمائر ومن المشتملات، يعطي صورة صادقة عـن مصـر المسيحية في ذلك العصر، ومدى ما كان لهذه الأديرة والقديسين الذين كرست هذه الأديرة بأسمائهم من تأثير في حياة الشعب المصري في ذلك العصر، مثـل الدير الأبيض والدير الأحمر الذين أقامهما شنودة حوالي نهايـة القـرن الرابـع الميلادي، علـى الشـاطئ الأيسر لنهر النيـل قـرب سـوهاج الحاليـة بـإقليم طيبة(٦٥).

وهناك أيضاً بصحراء وادي النطرون بعض الأديـرة يرجـع تاريخـها في أغلب الظن إلى القرنين الخـامس والسـادس الميلاديـين، مثـل ديـر أبـو مقـار (أوالقديس مقار) (٦٦). ودير الأنبا بشوى (أو بشـاى)، وديـر سـوريان وديـر

(63) The Chronicle of JOHN Bishop of Nikiu. P. 121
(64) Diehl: op. cit. p.511
(٦٥) العريني: نفس المرجع ص ٣١٦ – ٣١٧
(66) Meinardus: op. cit. p. 94

البراموس وكلها ذاعت شهرتها في أنحاء مصر، وقصدها المصريون من كل مكان [٦٧]، وكان لقديسيها أثر كبير في حياة الشعب المصري في العصر البيزنطي.

(67) Ibid. p. 50, p. 54

الفصل الحادى عشر

الحياة اللغوية والأدبية فى مصر البيزنطية

الفصل الحادي عشر

الحياة اللغوية والأدبية في مصر البيزنطية

استخدمت اللغة المصرية القديمة "الديموطيقية" كلغة تخاطب وكتابة في مصر منذ عصر الأسرة الخامسة والعشرين أي منذ حوالي سنة ٧٠٠ق.م. حتى أواخر عصر الرومان ربما إلي سنة ٤٧٠م، لأن آخر نص كتب بالديموطيقية إنما يرجع إلي سنة ٤٧٠م، أي أن الديموطيقية ظلت تستخدم كلغة تخاطب وكتابة طوال العصرين البطلمي والروماني في مصر رغم انتشار اللغة اليونانية منذ بداية عهد البطالمة، وهي التي أصبحت اللغة الرسمية للبلاد [١]، في العصرين البطلمي والروماني.

ونظرا لأن الكتابة الديموطيقية كانت كتابة مقطعية، فقد صعب هذا تداولها بالنسبة للكتابة اليونانية التي كانت كتابة أبجدية، ولهذا اضطر بعض المستنيرين المصريين لاستخدام الحروف الأبجدية اليونانية في كتابة اللغة الديموطيقية [٢]، وجري ذلك في القرن الثالث قبل الميلاد أي قبل ظهور المسيحية.

وبمرور الوقت دخلت إلي اللغة الديموطيقية المكتوبة بالحروف اليونانية كلمات وتعبيرات جديدة من اليونانية، خاصة بعد ظهور المسيحية وترجمة الكتاب المقدس إلي هذه اللغة الجديدة، فتطورت اللغة الديموطيقية، وخرج منها ما عرف باللهجة القبطية، وأخذت هذه اللغة الجديدة، التي اعتبرت لغة دارجة من الديموطيقية تحل رويدا رويدا محل اللغة الديموطيقية

---

(١) مراد كامل: المرجع السابق ص٦٤

(2) Bell: op. Cit. p.113

وتستخدم في التخاطب وفي الكتابة، أي أن المصريين حينما أحسوا بأهميتهم وحسهم القومي ابتكروا كتابة جديدة للتعبير عن ذاتيتهم واعتزازهم بروحهم القومية (٣)، لأن أغلبية المصريين كانوا لا يعرفون اليونانية ولا يميلون إلي استخدامها، ويفضلون عليها اللغة المصرية التي أصبحت في صورتها الجديدة تعرف بالقبطية، والتي ظلت لفترة طويلة لغة تخاطب وكتابة في مصر البيزنطية (٤).

معني ذلك أن القبطية هي اللغة المصرية القديمة في صورتها الأخيرة أو المرحلة الأخيرة من مراحل تطور اللغة المصرية القديمة (٥)، ثم جري وضع أبجدية لهذه اللغة الجديدة أي القبطية حافظ المصريون من خلالها علي سبعة حروف من الخط الديموطيقي تعبر عن أصوات ليس لها مقابل في اللغة اليونانية، وأكملوا الأبجدية بالحروف اليونانية، وذلك لرفع القبطية إلي مصاف اللغات الأدبية، حتى تصبح أداة تعبير أدبي وتستطيع أن تنهض بالتعبير الأدبي (٦)، ولهذا فقد أخذت القبطية تنهض بآدابها منذ أواسط القرن الثالث الميلادي خاصة بعد انتشار المسيحية، واستخدام القبطية في التبشير بهذه الديانة الجديدة، وترجمة الإنجيل منذ زمن مبكر إلي هذه اللغة، ثم جري التأليف بالقبطية لاسيما في الكتابات الدينة وتراجم حياة القديسين (٧).

---

(٣) العريني: مصر البيزنطية ص٣٢٠

(4) Hardy: op. cit. pp.169- 172

(٥) مراد كامل: المرجع السابق ص٦٤

(6) Bell: op. cit. p.113

(7) Dawes: Three Byzantine Saints, P.ix-xiv

وبعبارة أخري قام المصريون بتدوين لغتهم القبطية بحروف يونانية مع الحفاظ علي بعض الحروف الديموطيقية، التي لا نظير لها في اليونانية، وكتبوا بهذه اللغة نصوصا قبطية لازال بعضها محفوظا في متحفي باريس ولندن، لغتها مصرية وحروفها يونانية وبها بعض الحروف الديموطيقية (٨).

ولاشك أن انتشار المسيحية في مصر انتشارا حثيثا، مع ازدياد التصادم مع السلطات الحاكمة الأجنبية في مصر وشعور المصريين بأهميتهم وذاتهم القومية، قد جعلهم أكثرا إصرارا علي استخدام لغتهم القومية، خاصة في التبشير بهذه العقيدة الجديدة، لتبلغ إلي سائر الناس وترجمة الكتاب المقدس إلي اللغة القومية لتحقيق هذه الغاية (٩)، فإذا أضفنا إلي ذلك اضطرار رجال الدين لاستخدام القبطية في شرح العقيدة وتفسير مفاهيمها للغالبية العظمي من المصريين الذين كانوا يجهلون اللغة اليونانية أو يكرهونها، فضلا عن جهل بعض هؤلاء الأساقفة أنفسهم باللغة اليونانية، تأكدنا أنه أصبح لزاما أن يجري التأليف والكتابة بالقبطية خاصة في الكتابة الدينية من أجل صالح المصريين (١٠).

وتفسيرا لجهل الغالبية العظمي من المصريين باللغة اليونانية– يشير بعض المؤرخين– إلي أن الهللينية انتشرت انتشارا واسعا بين الطبقات العليا فقط والفئات المميزة من الشعب، أما جموع الناس من الطبقات الأخرى فقد استمروا يتكلون لغتهم القومية (١١)، ونظرا لأن رجال الدين كانوا غالبا من هذه

---

(٨) مراد كامل: حضارة مصر في العصر القبطي ص٦٦–٦٧

(٩) العريني: المرجع السابق ص٣٢٠

(10) Hardy: Chistian Egypt, pp.169-172

(11) Vasiliev: op. Cit. vol.1, p.90

الطبقات الأخيرة، فقد جهل أغلبهم اللغة اليونانية واستخدموا لغتهم القومية في شرح العقيدة وعرض تعاليمها علي الناس ولم يعبأوا كثيرا باليونانية (١٢).

ونظرا لانتشار هذه اللغة الجديدة في مناطق متسعة وتوالي العصور عليها، فقد ظهرت فيها لهجات متعددة ومختلفة سادت في مصر العليا وفي مصر السفلي متشعبة عن اللغة الأم، كما يحدث الآن للغة العربية في مصر الحالية وفي بعض أقطار العالم العربي، تعددت لهجات القبطية في مصر، فعرفت لهجة مصر السفلي باللهجة البحيرية نسبة إلي البحر، أي لهجات الأراضي المجاورة للبحر أو ربما المنسوبة إلي إقليم البحيرة، وكانت أهم لهجات اللغة القبطية، لأنها كانت لهجة مدينة الإسكندرية من ناحية، ولأنها وصلت إلي درجة اللغة الأدبية من ناحية أخري (١٣)، بينما تعددت لهجات مصر العليا في طيبة والفيوم وإخميم وغيرها من جهات الوجه القبلي، خاصة وأن اللغة المصرية القديمة التي ارتكزت عليها القبطية كانت تتميز ببعض الاختلافات في جهات متعددة من مصر القديمة، أصبحت أساسا لما ظهر في القبطية من لهجات متعددة (١٤).

وفي نفس الوقت أخذت القبطية بلهجاتها المتعددة تتباعد شيئا فشيئا عن اللغة المصرية القديمة منذ أن بدأت كتابتها بالحروف اليونانية، لاسيما وقد دخل عليها مفردات وتعبيرات يونانية من ناحية، وجري كتابتها بالحروف الصامتة والمتحركة من ناحية أخري (١٥)، فتباعدت رويدا رويدا عن اللغة المصرية القديمة والخط القديم، الذي كان يكتب بالحروف الصامتة

---

(12) Bell: op. Cit. p.113

(١٣) مراد كامل: المرجع السابق ص٦٧–٦٨

(١٤) مراد كامل: المرجع السابق ص٦٧

(15) Bell: op. Cit. p.113

فقط، وبدأت تزخر بكلمات جديدة لا وجود لها في اللغة المصرية القديمة وتعبيرات لم تكن معروفة في هذه اللغة من قبل (١٦).

ولقد عاشت القبطية في مصر فترة طويلة حتى بعد أن جري فتح مصر علي أيدي العرب إلي جانب اللغة اليونانية القائمة في مصر فعلا واللغة العربية التي بدأت تتقدم علي ما عداها منذ ذلك الفتح، إذ كانت القبطية هي لغة التخاطب بين عامة الناس في مصر (١٧)، بينما كانت اللغة اليونانية هي لغة الكتابة، ولهذا اضطرت اللغة العربية الجديدة أن تعيش إلي جانب هاتين اللغتين لفترة، حتى أسهمت بعض العوامل في إعطاء العربية تفوقا علي ما عداها، أهمها انتشار الإسلام انتشارا واسعا بين المصريين، واستخدام المتحولين إلي الإسلام العربية في إقامة الشعائر الدينية وقراءة القرآن الكريم، والتعامل مع الحكام العرب المسلمين، فضلا عن تعريب الدواوين، الذي جري في عهد الدولة الأموية وعلي عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، الذي هيأ الفرصة للعربية لتصبح لغة الكتابة والدواوين، ولتحل محل اليونانية في مصر في هذه الناحية (١٨).

وبعبارة أخري أخذت القبطية تنكمش شيئا فشيئا في مصر بعد الفتح العربي مع انتشار الإسلام انتشارا حثيثا بين المصريين، وبدأت تضعف كثيرا وتتلاشي حتى بين الأقباط أنفسهم، ومن لم يتحول منهم إلي الإسلام (١٩)، فلم ينته القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري)، إلا وكانت اللغة العربية قد أصبحت هي السائدة بين أهالي مصر، لتصبح كل من القبطية واليونانية هي

---

(١٦) مراد كامل: المرجع السابق ص٦٩

(17) Vasiliev: op. Cit.1, p.90, p.216

(١٨) محمد الشيخ: تاريخ مصر الإسلامية ص٤٧

(19) Vasiliev: op. Cit. vol.1, p.216

لغة الأقليات [٢٠]، ولتتفوق العربية علي هاتين اللغتين وتسود في كل أنحاء مصر في القرون الأولي التي تلت فتح مصر علي أيدي المسلمين، ويدل ذلك علي مدي اختلاط العرب بالأقباط، كما يدل علي تأثر الأقباط بالعرب تأثرا كبيرا، وكان هذا التأثر أسرع في الوجه البحري منه في الوجه القبلي [٢١].

فالمسألة إذن كانت مسألة تحول من الكتابة باللغة اليونانية في الدواوين والتخاطب بالقبطية بين عامة المصريين، إلي الكتابة والحديث باللغة العربية، وقد ظل هذا التحول يسير سيرا حثيثا طوال القرون التي تلت الفتح العربي الإسلامي لمصر حتى نهاية القرن التاسع الميلادي [٢٢]، فلما دخل القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري)، كان أغلب الشعب المصري يتحدث ويكتب باللغة العربية ولا يفهم القبطية، وإن ظلت القبطية معروفة في بعض جهات مصر العليا عدة قرون أخري، وظل بعض الناس في جهات مختلفة من صعيد مصر يتخاطبون بها فترة أخري.

معني ذلك أن القبطية ظلت تتشبث بالبقاء أمام اللغة العربية عدة قرون، لأن تأثر الأقباط بالعربية لم يكن سريعا [٢٣]، ثم كان النصر النهائي للعربية التي انتشرت كلغة تخاطب بين أفراد الشعب المصري، ثم أصبحت لغة كتابة ودواوين بعد فترة أخري، ثم صارت لغة التعليم في مصر الإسلامية، ولم يكد يحل القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري)، حتى كان علماء

(20) Bell: op. Cit. pp.128-130

(٢١) مراد كامل: المرجع السابق ص٧٠

(22) Bell: op. Cit. pp. 26-27

(٢٣) مراد كامل: المرجع السابق ص٧٠

الأقباط يؤلفون في اللاهوت باللغة العربية [٢٤]، ويتركون تماما القبطية، مما يدل علي سيادة العربية وتقهقر القبطية وانكماشها كثيرا.

والدليل علي ذلك ما أشار إليه المؤرخ الكبير "المقريزي" في القرن الخامس عشر الميلادي في حديثه عن أحد الأديرة: "والأغلب علي نصاري هذه الأديرة معرفة القبطي الصعيدي، وهو أصل القبطية، وبعدها اللغة القبطية البحيرية" فقد ظل رهبان الأديرة وبعض رجال الدين يتمسكون بالقبطية فترة أخري من الزمن [٢٥]، ويضيف المقريزي: "ونساء نصاري الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون إلا القبطية الصعيدية"، وأيضا ما أشار إليه ماسبيرو إذ يقول: "ولكن من المؤكد أن سكان صعيد مصر كانوا يتكلمون ويكتبون بالقبطية حتي السنين الأولي من القرن السادس عشر" [٢٦].

والواقع أن القبطية انكمشت كثيرا، ثم اقتصرت علي كونها لغة الكنيسة وبعض رجال الدين، واستخدمت في الصلوات وقراءة الكتب المقدسة، كما اقتضرت معرفتها علي بعض الأفراد من الأقباط في الأديرة والمدن عن طريق هذه الصلوات [٢٧]، فضلا عن المتهمين بدراسة هذه اللغة والمعنيين بها من العلماء والدارسين في الشرق وفي الغرب علي حد سواء، وكان لها أثر في بعض اللغات التي تسربت إليها كلمات من القبطية ومنها اللغة العربية ذاتها التي انسابت إليها كثير من الكلمات القبطية ومن اللغة المصرية القديمة أيضا

---

(٢٤) مراد كامل: نفسه ص٧١

(25) Diehl: op. Cit. p.517
Hardy: op. Cit. pp.169-172

(٢٦) مراد كامل: المرجع السابق ص٧٢

(27) Hardy: op. Cit. pp. 169-172

لا زالت تستخدم في العربية حتـى يومنـا هـذا [٢٨]، أورد الكتـاب والمؤرخـون بعضها أو نماذج منها مركزة في الأسماء والأفعال وبعض التعبيرات [٢٩].

هذا فضلا عما زخرت به البرديات العربيـة مـن كلمـات قبطيـة، ومـا حفلت به النصوص الـتي كتبت في تلك الفترة، مـن كلمـات ومصطلحـات وتعبيرات قبطية أو مصرية قديمة، أي أن تأثير القبطيـة في العربيـة لم يكـن قاصرا علي لغة الحديث والتخاطب، وإنما تعدي ذلك إلي اللغة المكتوبة التي ضمت كلمات وألفاظ قبطية حفظتها البرديات التي ترجع إلي تلك الفترة [٣٠]، فضلا عما دخل العربية من ألفاظ وكلمات يونانية ولاتينية، دخلت إليها عن طريق القبطية ومعظمها من ألفاظ الإدارة، بالإضافة إلي أسماء الشهور القبطيـة في البرديات العربية بطريقة نطقها القديم [٣١]، كما عرفه المصريـون القدمـاء،

---

(28) Vasiliev: op. Cit. vol.1, p.216

(٢٩) أما الأسماء فأشهرها:

أردب– تندة– حلق– رقاق– كحك– قلة– ماجور– يم– كحلة– برسيم– بلح – بصارة– بقوطي– سمان – شونة – شوطة – شوش – شورية – شبورة – شرش– نونو – ننوس– نبوت – تاتا (أمشي) – أمبو (ماء) – بيبة (برغوث)– لقمة – لبشة – خن.

ومنها أيضا الأفعال مثل:

قرفر– فتفت – نكت – نط – هوش– هلوس– دمس– لكلك.

وبعض التعبيرات أيضا مثل:

وروو (للفجل)– بح (انتهي أو خلص)– كاني ماني (سمن وعسل)

انظر: مراد كامل: حضارة مصر في العصر القبطي ص٧٣–٧٤

(30) Bell: op. Cit. p.26-27

(٣١) مراد كامل: المرجع نفسه ص٧١

والتي لازال الفلاح يعرفها ويحفظها حتى الآن لارتباطها بالمواسم الزراعية والفصول الزراعية.

أما بالنسبة للأدب القبطي، فقد واكب ظهوره ظهور الفن الوطني في مصر البيزنطية، وزاد نموه كثيرا بعد أحداث مجمع خلقدونيا، وتعصب مصر لمذهبها المونوفيزيتي، واستخدام القبطية بدلا من اليونانية خاصة في الكنيسة(٣٢)، علي الرغم من أن معظم المصريين- باستثناء أهل الإسكندرية - لم يكونوا شغوفين كثيرا بالأدب، لأن معظم كتاباتهم كانت كتابات دينية وتراجم لحياة القديسين والرجال الأتقياء الصالحين (٣٣)، إلا أننا لم نعدم وجود كتابات أدبية، وقصائد شعرية وصل إلينا منها مختارات ونماذج لهذا الأدب القبطي، منها: قصص مشاهير الزهاد والرهبان، وسير الشهداء، وقصص الرجال الصالحين، وكلها نماذج لأدب شعبي حافل بالمعجزات الخيالية والكرامات الخارقة، وبكل ما يستهوي خيال القراء المصريين (٣٤).

ويقرر الدارسون لهذه الآداب القبطية أنها لم تكن جيدة، ولم ترتفع إلي مصاف الآداب التي شهدتها مصر في عصور أخري، علي الرغم من وفرتها وغزارة إنتاجها، ومع ذلك كان لها أهمية خاصة، لما يمكن أن يستخلص منها من أفكار مصر المسيحية، واتجاه الفكر المسيحي في ذلك العصر، فضلا عما يمكن أن يستنتج منها من نتائج تتعلق بحياة المصريين إذ ذاك، لأنها تعكس صورا من تلك الحياة في مصر البيزنطية (٣٥).

(32) Vasiliev: op. Cit. vol.1,p.122
(33) Dawes: op. Cit. p.IX-XIV
(34) Diehl: op. Cit. p.517

(٣٥) العريني: المرجع السابق ص٣٢١

وأبرز تلك النتائج ما حدث من تقلص وانحسار المؤثرات الهللينية وظهور الأمة المصرية واضطراد تقدمها في العصر البيزنطي، فقد أظهرت تلك الآداب ما كان من تخلي اليونانيين عن مكانهم للعنصر الوطني، بعد أن استرد المصريون قوتهم في ثقة واطمئنان، علي الرغم من أن عملية النهوض هذه استغرقت زمنا غير قصير، لم يكف خلالها هذا العنصر الوطني عن إظهار كراهيته للهللينية، وإعلان معارضته للسيادة البيزنطية [٣٦]، وزادت كراهيته لهذه السيادة بعد اعتناقه المسيحية علي المذهب المونوفيزيتي المخالف لمذهب بيزنطة، مما عرض الشعب المصري لنقمة البيزنطيين واضطهادهم، الأمر الذي جعلهم ينظرون للغزو الفارسي الذي حدث علي عهد الإمبراطور هرقل، ثم الفتح العربي لمصر قرب منتصف القرن السابع الميلادي علي أنه تحرير لهم من ظلم واستبداد الإمبراطورية البيزنطية [٣٧].

ومن تلك النتائج أيضا، أنه كان للمسيحية أثر عميق في حياة المصريين في ذلك العصر، وأهمية كبيرة في تطور تاريخ مصر البيزنطية، لما بثته المسيحية في نفوس المصريين من حماسة وثقة، جعلتهم يلفظون الهللينية ويقاومون كل ما هو يوناني بيزنطي، ولما بذلته المسيحية من تشجيع لإثارة الروح القومية في مصر بالصورة التي عكستها تلك النماذج من الآداب القبطية[٣٨].

وثمة نتيجة أخري أمكن استخلاصها من تلك النماذج الأدبية الوفيرة المنتمية إلي العصر البيزنطي في مصر، لا تقل أهمية عن النتائج المشار إليها

---

(36) Hardy: op. Cit. p.119

(37) Diehl: op. Cit. p.518, العريني: المرجع السابق ص٣٢١

(38) Chadwick: op. Cit. p. 64
Simon: op. Cit. 1,p.153

والمستخلصة من هذه الآداب القبطية، ذلك أنه صحب ظهور القومية المصرية، وانبعاث الروح الجديدة في مصر تدهور اقتصادي وقصور فكري في مجالات أخري متعددة [٣٩]، إذا اضمحلت أحوال البلاد الاقتصادية، وعانت مشكلات في هذه الناحية انعكست علي نماذج الأدب في ذلك العصر، وظهرت واضحة في تلك الصور الأدبية، فضلا عن ضعف مستوي الفن وتداعي الثقافة بصفة عامة في مصر البيزنطية- باستثناء الإسكندرية- ووضح ذلك وعكسته تلك النماذج والصور الأدبية المنتمية إلي تلك الفترة، ولم يكن هذا التدهور الفكري قاصرا علي المصريين، بل شاركهم فيه البيزنطيون، كما أشار إلي ذلك آخر الشعراء اليونانيين في مصر ويدعي ديوسقروس Dioscore [٤٠].

وقد لاحظ المؤرخون أن ظهور تلك الروح القومية في مصر البيزنطية لم يصاحبه ظهور أحد من الأدباء أو الشعراء، يستطيع أن يصور تلك الروح وذلك الشعور الوطني، وما كانت مصر جديرة به من تعظيم وتصوير، ويستطيع أيضا أن يتولي الدفاع عن قضايا الأمة تجاه الصلف البيزنطي وتحكم الإمبراطورية واستبدادها [٤١]، وذلك عن طريق الأدب: نثره وشعره، وهو الذي يلهب الحماس ويذكي روح المقاومة ضد الحكم الأجنبي، علي الرغم من أن مقاومة المصريين وكراهيتهم لذلك الحكم كان لابد وأن تؤدي إلي زوال هذه السيادة البيزنطية [٤٢].

وإذا استعرضنا نماذج للمخلفات الأدبية المؤلفة بالنثر في مصر البيزنطية، وجدنا منها الكثير ومن هذه النماذج: ترجمة الكتاب المقدس،

---

(39) Diehl: op. Cit. p.518

(٤٠) العريني: المرجع السابق ص٣٢٢

(41) Diehl: op. Cit. p. 518

(٤٢) العريني: نفس المرجع ص٣٢٢

وهي بالدرجة الأولي من آداب اللغة القبطية وقد ترجمت عن النسخة اليونانية، أي جري ترجمتها عن اليونانية، ربما في القرن الثاني الميلادي [٤٣]، واعتبرها الدارسون من أدق الترجمات، نظرا لإلمام الذين تولوا القيام بها باللغتين اليونانية والقبطية إلماما تاما، ولم يحل القرن الرابع والقرن الخامس الميلاديين، إلا وكان الكتاب المقدس كله مترجما إلي بعض اللهجات القبطية الشمالية والجنوبية، بسبب ما أظهره المترجمون من حماسة دينية بالغة [٤٤].

ومن هذه النماذج الأدبية أيضا، أقوال المتنسكين ومعلمي الرهبنة، وأقوال آباء الكنيسة المسيحيين، وتدور هذه النماذج حول التنسك والزهد، وتحث عليه وتدعو إلي التجرد من الماديات والعالميات وترويض النفس علي الفضيلة، والطهر والنقاء، ومن أمثلتها الرسائل العشرون التي أرسلها القديس أنطون إلي تلاميذه، وكذلك الأنظمة الديرية التي وضعها القديس باخوم لتنظيم حياة الرهبان [٤٥]، ومنها أيضا المواعظ والخطب الدينية التي كانت تلقي في أيام الآحاد أو الأعياد أو في بعض المناسبات الدينية الأخرى، ومن أشهرها خطب الأنبا شنودة أثناء كفاحه ضد الوثنية وخلال نشره لتعاليم المسيحية [٤٦].

ومنها أيضا سير القديسين والأتقياء الصالحين، وهي كثيرة جدا تتحدث عن جهاد من استشهد منهم في سبيل العقيدة، وتصف حياة الرهبان العظام والزهاد وبعض البطارقة ورجال الدين، ولم تكن مجرد تاريخ مسرود، وإنما وضعت في أسلوب أدبي مميز بالغ الأثر، لحث الناس علي السير في

---

(43) Bell: op. Cit. p.113

(٤٤) مراد كامل: المرجع السابق ص١١٣

(45) Bell: op. Cit. p.113

(٤٦) مراد كامل: المرجع السابق ص١١٣-١١٤

الحياة الفاضلة، والاقتداء بحياة أولئك الصالحين من الشهداء والرهبان ورجال الدين المخلصين (٤٧).

ثم هناك أيضا القصص، ومعظمه قصص ديني ولكنه شمل أيضا القصص الوطني، وتميز القصص الديني بخصب الخيال وحسن التصور، ومن أمثلته قصة ملكة سبأ ومقابلتها للنبي سليمان الحكيم، بينما اتسم القصص الوطني بصدق المشاعر القومية وبأنه كان وسيلة نفس به المصريون عما في أنفسهم من مشاعر ظلت مكبوتة فترة طويلة، تحت ضغط المستعمر البيزنطي (٤٨)، ومن أمثلته رواية الاسكندر الأكبر التي عكست الروح القومية والحس الوطني المصري، ووجدت لها ترجمة باللهجة القبطية الجنوبية محفوظة في الدير الأبيض، وكذلك من أمثلته رواية قمبيز وغزو مصر التي عبرت عن اتجاهات أدبية خاصة ونوازع قومية، أعطت صورة واضحة عن هذا النوع من القصص في مصر البيزنطية (٤٩).

ومن هذه النماذج أيضا ذلك الأدب الذي اتصف بالإصلاح الاجتماعي وعكس روح المصلحين الاجتماعيين، مثل خطب الأنبا شنودة التي أنكر فيها البدع والسحر والشعوذة وانتشار الدجل واستخدامه في العلاج، والموالد وما يحدث فيها من فوضي وتسيب، وبناء الهياكل علي رفاة الشهداء، وغير ذلك من السلوك المرفوض، ومنها أيضا الآداب الكنيسة وطقوس العبادة، فضلا عن نصوص سرد التاريخ ومواد القانون وشرح القوانين (٥٠).

---

(47) Dawes: op. Cit. p.IX-XIV
(48) Bell: op. Cit. p.128

(٤٩) مراد كامل: المرجع نفسه ص١١٥-١١٦

(50) Bell: op. Cit. p.26 و مراد كامل: نفس المرجع ص١٢٠-١٢١

هذا عن الأعمال الأدبية المؤلفة بالنثر، أما عن المنظومات الشعرية، فلم يصل إلينا شعر من ذلك العصر يتناول الأغراض الدنيوية إلا القليل، وما وصل من ذلك الشعر المنتمي إلي القرنين لرابع والخامس الميلاديين غلبت علي طابعه الروح الدينية وعلي اتجاهات المصريين في قرص هذا النوع من الشعر، فلم يولوا الأغراض الدنيوية كبير اهتمام [٥١]، إذ مدحوا العذراء مريم والملائكة والأنبياء والقديسين والشهداء، ومجدوا بالنظم هذه النماذج التي تحتل في نفوسهم مكانة سامية، وعلي الرغم من هذا الاتجاه الديني في الشعر فإن ما عثر عليه من مقطوعات شعرية في الأديرة والكنائس، دلت علي مواهب كثيرة في قرض الشعر في تلك الآداب القبطية، ولازالت نماذج كثيرة من هذه المنظومات الشعرية محفوظة في المكتبة الأهلية بباريس ومكتبة المتحف البريطاني[٥٢].

كما خلف لنا ذلك العصر القصص الشعرية، التي نظمها المصريون في قصائد طويلة، كقصة راهب رفض مقابلة أمه وفاء لنذر قطعه علي نفسه ألا يري امرأة قط، وهي قصيدة طويلة نظمت في شكل حوار يمس ناحية حساسة في المشاعر الإنسانية ويصور براعة الشاعر وموهبته في إدارة هذا الحوار بما فيه من قوة التأثير والقدرة الفائقة في التمثيل، ويعطي صورة دقيقة لهذا النوع من المنظومات الشعرية والقصص الشعرية [٥٣].

ثم هناك أيضا الأشعار الكنسية التي تعبر عن موضوعات أخذت من المزامير أو الإنجيل وجرت علي شكل تسبيح في بعض الأحيان، إذ نظموا لكل يوم تسبيحه خاصة جري تلحينها بلحن مميز وقراءتها بصورة غنائية

---

(51) Vasiliev: op. Cit. vol.1, pp.122-123
(52) Bell: op. Cit. p.128

(٥٣) مراد كامل: المرجع السابق ص١٢١

خاصة، وسجلت في بعض الكتب لتعطي صورة واضحة عن هذا النوع من الشعر الذي صيغ في قالب مسيحي وطبع بطابع ديني (٥٤).

وقد لاحظ الدارسون لنماذج هذا الشعر والأدب القبطي أن الموضوعات التي تناولها شعر مصر البيزنطية دارت حول كثير من الحكم والأمثال المتوارثة، ربما من مصر القديمة أو المتأثرة بروح مصر القديمة، فقد انطوت القصائد الشعرية حينئذ والمعاني الأدبية علي اتجاهات تأثرت بموروثات مصر القديمة من حكم وأمثال، وجري التركيز عليها في تلك الفترة بما يؤكد استمرار وجود المؤثرات القديمة في الشعر (٥٥).

وبجانب كل ذلك وصلت إلينا أيضا نماذج من الآداب الشعبية المنتمية إلي هذه الفترة، وإن كانت متأثرة أيضا بموروثات مصر من عصورها الغابرة، لاسيما الآداب الشعبية الخاصة بالمناسبات الجنائزية، وندب الميت وتعديد مآثره ومزاياه، والتي جري نظمها نظما خاصا يناسب المفاهيم الشعبية والأذواق الشعبية، وسجلوه في أحيان أخري ونقشوه علي الرخام كشواهد القبور (٥٦)، وعثر علي كثير من منظومات الندب القبطية التي نظمت في قصائد تهدف إلي تعديد محاسن الميت وندبه وتصور الهلع الذي أحدثه فقده، كتلك المنظومة التي تقول: "أيتها النساء يا كافة من أنجبن أبناء تجمعن وأبكين معي" وكانت هذه المنظومات الشعبية محل اهتمام الدارسين لنماذج الأدب باعتبارها أدبا شعبيا يعبر عن تراث قومي وموروث قومي (٥٧).

---

(54) Vasiliev: op. Cit. vo;l.1,pp.122-123
(55) Bell: op. Cit. p.128

(٥٦) مراد كامل: نفس المرجع ١٢٢

(57) Bell: op. Cit. p.113

وعلي هذا فآداب مصر البيزنطية ظهرت في كتابات أنطون وباخوم ومواعظ شنودة الذين لم يعرفوا إلا القبطية، والذين لم يكتبوا إلا بالقبطية، وتركز هذا الأدب المصري في وادي النطرون باللهجة البحيرية أو الشمالية، وكذلك انتشر أيضا في الدير الأبيض والأديرة الباخومية بالصعيد باللهجة الجنوبية أو الصعيدية، وهكذا تحولت أديرة الرهبان إلي معاقل للأدب القبطي ومراكز لنشر هذا الأدب المصري الصميم (٥٨)، وأمام هذا التقدم الأدبي أخذت اليونانية تتقهقر وتتراجع بمقدار النمو المطرد الذي انتشرت به المسيحية بين المصريين، وتعصبهم لمذهبهم المونوفيزيتي ويعدول الناس عن استخدام اللغة اليونانية وتحولهم إلي القبطية كلغة أدب (٥٩).

وهكذا بعكس ما جري في الإسكندرية التي تأثر فيها الأدب بمؤثرات يونانية حيث انتشرت فيها الثقافة الهللينية حتى اضطر كثير من المسيحيين إلي الكتابة باللغة اليونانية، الأمر الذي أجبر البعض علي ترجمة كتاباتهم في مصر من اليونانية إلي القبطية، لينتفع بها الأقباط، وأولئك الذين لم يعرفوا اليونانية أو لم يهتموا بها (٦٠) .

(58) Vasiliev: op. cit.1, p.122
(59) Ibid. p.122
(60) Hardy: op. cit. pp.169-172

الفصل الثانى عشر

الصعوبات التى واجهت الحكم البيزنطى فى مصر.

الفصل الثاني عشر

الصعوبات التي واجهت الحكم البيزنطي في مصر

ليس من شك في أن الأمور لم تكن سهلة بالنسبة للحكم البيزنطي في مصر، ولم تجر تبعية مصر للإمبراطورية البيزنطية في سلاسة أو دون صعوبات، وإنما صادف الحكم البيزنطي في مصر عقبات كثيرة وصعوبات متعددة، وضعها المصريون أمام الإدارة المركزية من ناحية [1]، فضلا عن المظالم والمحن التي أحدثها الموظفون لسكان مصر والتي ترتبت عليها نتائج بالغة الخطورة بالنسبة للحكم البيزنطي من ناحية ثانية، بالإضافة إلي ما اتسمت به سياسة الحكومة البيزنطية ذاتها من مساوئ وأخطاء، أضافت إلي الصعوبات التي كان عليها أن تواجهها في تلك الولاية من ناحية ثالثة [2].

ويري كثير من المؤرخين أن بيزنطة لم تهنأ كثيرا بحكم هذه الولاية التي توالت عليها المحن وتعاقبت فيها المشكلات بدءا من الخلافات الدينية التي باعدت بين أهلها وبين الحكومة المركزية، ووضعت حاجزا كبيرا بين بيزنطة وأهل هذه الولاية، ومرورا بالمشكلات السياسية والاقتصادية، ومظالم الموظفين لأهل البلاد [3]، وسوء الإدارة وأخطاء الحكومة المركزية في مصر، وكل هذه المحن حالت دون انتظام الحكم البيزنطي وسلاسته في مصر، وحالت بين الحكومة الإمبراطورية وأهل هذه الولاية، علي الرغم من أن مصر

(1)Procopius: Secret Hist. Xviii, 10, xxiii, 1-6
(Enq. Trans. P.215, p.269)
(2) Maspero: Hist. Des Patriaches d'Alexandrie , p.130
(3) Rouillard: op. cit. p.208

بالذات كانت لها مكانة خاصة وأهمية كبيرة بين أقاليم الإمبراطورية البيزنطية.

وإذا كان الحكم البيزنطي قد امتد في مصر قرابة ثلاثة قرون وثلث القرن أو ونصف القرن، فإن الفترات التي اتسمت بالهدوء والسكينة خلال هذه الحقبة لم تكن طويلة، ولم يلق الحكم البيزنطي في مصر ما لقيه في أقاليم أخري من رضي وقبول، بل واجهته مشكلات وعقبات حالت دون اطراده وسلاسته، وتخللته فترات عاصفة وثورات ومحن [4]، أدت إلي خلخلة الثقة بين الحاكم والمحكوم، وعمقت كراهية المصريين لهذا الحكم، وجعلتهم في النهاية يرحبون بالفرس الغزاة والعرب الفاتحين باعتبارهم مخلصين إياهم من نير هذا الحكم البغيض [5].

الصعوبات التي أحدثها المصريون للإدارة المركزية:

وأهم هذه الصعوبات هي الصعوبات المالية التي واجهتها بيزنطة في مصر، وأهم العقبات التي وضعها المصريون أمام الحكم البيزنطي، لاسيما حين تفاقمت هذه المشكلات وازدادت بمرور السنين، حتى هيأت الظروف لفقد هذه الولاية البيزنطية تماما ومهدت لانضوائها تحت لواء قوة جديدة، ودخولها في حوزة دولة ناشئة فتية في المنطقة.

وأول تلك الصعوبات المالية، ما حدث من مقاومة المصريين لعمال الخراج، والتفنن في الهرب من دفع الضرائب، وما ترتب علي ذلك من اضطراب النظم المالية وإفلاس الخزائن وإحداث مشاكل للحكومة المركزية،

---

(4) Maspero: op. cit. p.130, Diehl: op. cit. p.534

(5) Vasiliev: op. cit. Vol.1, p.99
Ostrogorski: op. cit. p.99
Bury: op. cit. Vol.1, p.216

التي أولت هذه العائدات اهتماما كبيرا، وعولت علي خـراج مصر بـالذات، لإصلاح أحوالها المالية والاقتصادية (٦)، فقد لجأ المصريون إلي كثير من الحيل والأعذار، للامتناع عن تأدية مـا هـو مقرر عليـهم مـن ضرائـب، فتسـببوا في إفـلاس خزائـن الدولـة، وأصابوا اقتصادهـا بكثـير مـن القصـور، وأشــارت البرديات والنصوص إلي فئات كثـيرة كـانت مدينـة للحكومـة البيزنطيـة مـن الصناع والتجار ورجال الكنيسة وصغار الملاك الذين لم يـؤدوا مـا كـان مقـررا عليهم من الضرائب (٧).

ويعلل المؤرخون تنصل تلك الفئات من المصريين من دفع الضرائب بما كان فيه الناس من الفاقة، ولما تعرض لـه النـاس في كثـير مـن الأحيـان مـن البؤس والشقاء، إذ كان جـل هـذه الفئـات مـن الطبقـة الدنيـا في المجتمـع، كالفلاحين وعامة التجار وصغار الملاك ومستأجري الأراضي الزراعيـة، الذيـن عجزوا في كثير من الأحيان عن دفع ما كان مقررا عليهم من ضرائب، فضـلا عن ثقل هذه الضرائب بالنسبة لهم وشدة وطأتها عليـهم (٨)، ومـا جـرت بـه العادة من أن يدفع مسـتأجر الأرض الزراعيـة لمالكـها إيجـار تلـك الأرض في صورة عينية، مما تغله الأرض من قمح أو محصولات أخـري، بمـا لا يمكنـه من تخصيص جانب آخر من محاصيله لدفع الضرائب للدولة (٩).

وأسهمت طريقة جباية الضرائب ذاتها إلي حد كبـير في هـذا الخلـل، وفي إصرار المصريين علي التنصل من دفع الضرائب، ففضلا عن ثقل الضرائب ذاتها والتعسف في جمعها، أسهمت طريقـة الجبايـة ذاتـها في هـذا الخلـل،

---

(6) Vasiliev: op. cit.1, p.142
(7) Bury: op. cit.1, p.49
(8) Rouillard: op. cit. pp. 176-7

(٩) العريني: المرجع السابق ص٣٢٤

فتارة كان المزارعون يقومون بدفع ما هو مقرر علي أراضيهم من ضرائب إلي عامل الخراج مباشرة (١٠)، وتارة أخري تولي ذلك كبار الملاك نيابة عنهم، حين أضافوا أراضي هو الملاك الصغار إلي أراضيهم، بعد أن تحول هؤلاء إلي ما يشبه الأقنان، فأصبح كبار الملاك بذلك مسئولين عن حق الجباية الذاتية، فأتيح لهم بذلك التنصل في كثير من الأحيان من دفع الضرائب لما كان لهم من نفوذ وقوة في البلاد (١١).

ولم تستطع القوانين التي حرصت الحكومة البيزنطية علي سنها بين الحين والحين علي الحد من ازدياد قوة ونفوذ كبار الملاك المصريين، والحد من انتشار نظام الحماية الذاتية، لأن هذا النظام صار من التقاليد الثابتة في حياة المجتمع، فأصبح من اليسير حصول صغار الملاك علي حماية كبار الإقطاعيين (١٢)، بعد أن صارت الضرائب من الثقل والضخامة بحيث لم يكن بوسع هذه الفئة سدادها ولذا بدأوا في التخلي عن أراضيهم شيئا فشيئا لكبار الملاك الذين هم أكثر قوة وثباتا منهم في مناوأة الحكومة وجباة الضرائب والموظفين الماليين، فامتلك الإقطاعيون الجانب الأكبر من أرض مصر، وأضاعوا علي الخزانة قدرا كبيرا من العائدات التي كان ينبغي أن تحصل من البلاد، فضلا عما بذلوه من حماية لصغار الزراع، ومساعدتهم علي التخلص مما كان مقررا عليهم من التزامات (١٣).

ومما أضاف إلي هذا الخلل، وما أصاب الشئون المالية في مصر من إفلاس وقصور أيضا ما حدث من شيوع الملكية الخاصة علي حساب الأراضي

(10) Vasiliev: op. cit. Vol. 1, p.161
(11) Bury: op. cit.1, p.48
(12) Lemerle: op. cit. p.61
(13) Vasiliev: op. cit. Vol. 1, p.159

المملوكة للإمبراطور والأملاك العامة للدولة، ففقـدت الدولـة جانبـا هامـا مـن أملاكها في مصر، وتناقصت عائداتها من تلك الأراضي بمرور السـنين [١٤]، في الوقت الذي أخذت فيه الفئـات المشـار إليـها تتنصـل مـن دفـع الضرائـب، وتحايل كبار الملاك للهرب من دفع ما كان مقررا عليهم وعلي الملتجئين إليهم من صغار الملاك من ضرائب، فبدأت خزائن الدولة تعاني الإفلاس وكثيرا من القصور [١٥].

يضاف إلي ذلك لجوء كثير من دافعي الضرائب إلي الهرب من أراضيهم والتخلي عن زراعاتهم علي الرغم من القوانين الصارمة التي أصدرتـها الدولـة ضد الملاك الذين يهجرون أراضيهم هربا من دفع الضرائب. وتشير النصـوص ووثائق ذلك العصر إلي هذه الظاهرة وشيوعها، بأنه لازالـت هنـاك أراضـي لا سيد لها، وحقول هجرها أصحابها، وأمـلاك مـهجورة في كثـير مـن جـهات مصر في تلك الفترة، عجز أصحابها في أغلب الظن عـن دفـع مـا كـان مقـررا عليها من ضرائب فهجروها [١٦].

ويبدو أن جباية الضرائب ذاتـها كـانت أمـرا مكروهـا، حتـى لأولئـك الموظفين الذين يوكل إليهم هذا العمل، لما يتوقعه جباة الضرائب من صدام مع دافعي الضرائب، وما جرت به عادة هؤلاء من مقاومة عنيفة لهؤلاء الجبـاة، لذلك لم يقبل علي هذا العمل الكثيرون، بل لجأ معظم المكلفـين بـهذا العمـل إلي التهرب منه وعدم قبول هذه الوظائف [١٧]، وحفظـت لنـا مسـجلات هـذا العصر رسالة حررت بالقبطية تشير إلي ما أظهره شخص جري تكليفه بجباية

(14) Rouillard: op. cit. p. 176
(15) Diehl: op. cit. p. 466
(16) Ostrogorski: op. cit. p. 121
Vasiliev: op. cit.1, p. 161
(17) Rouillard: op. cit. p. 179

الضرائب من امتعاض وضيق عندما بلغ بهذا التكليف، وامتدت هذه المتاعب إلي الجباة المكلفين من قبل كبار الملاك في الضياع المتمتعة بحق الجباية الذاتية، ففي رسائلهم ما يشير إلي ما كان يسببه لهم ملاك الأراضي ومستأجروها من متاعب وعقبات (١٨).

ومما زاد الأحوال سوء، وأضاف إلي ما عانته بيزنطة من خلل مالي واقتصادي أن جهات كثيرة في مصر كانت معرضة لغارات البدو، بما يترتب علي ذلك من إحداث المحن الاقتصادية وإتلاف كثير من المزروعات وإحداث الخراب والدمار، وتعطيل التجارة وضرب الصناعة، مثال ذلك ما كان يحدث لبعض جهات الوجه القبلي، التي كانت تتعرض لغزو قبائل البدو وإغارتهم بقصد النهب والسلب بين الحين والحين، وخطف السكان للحصول علي فدية لفك أسرهم (١٩)، ودأب النوبيون علي القيام بمثل هذه الغارات علي أطراف مصر الجنوبية، حتى بعد تحولهم إلي حلفاء للإمبراطورية، واعتناقهم المسيحية، الأمر الذي أجبر دوق طيبة- كما سبق أن أشرنا- علي تحصين جزيرة فيلة، في الوقت الذي تعرضت فيه الجهات الشمالية في مصر لغارات البربر وقبائل البدو أيضا، بهدف السلب والنهب وخطف السكان أيضا الأمر الذي بالغ في سوء الأحوال المالية بالنسبة للإمبراطورية (٢٠). وإذا أضفنا إلي ذلك كله ما حدث من ازدياد ونمو حياة الرهبنة والديرية في مصر، التي لم تكن في صالح الإدارة المالية البيزنطية، إذ استهوت هذه الحياة الدينية أعدادا كبيرة من المصريين، غادروا مدنهم وقراهم والتجأوا إلي حياة الزهد

---

(١٨) العريني: المرجع السابق ص٣٢٦

(19) Maspero: Organisation Militare de L'Egypte Byzantin, p.9

(20) Ibid. p. 9

والتنسك[٢١]، نأيا بالنفس عن شرور العالم ومفاسده وصونـا للعقيـدة ورغبـة في التعبد وابتغـاء مرضـاة الله في بعض الأحيـان، وتخلصـا أحيانـا أخـري مـن الالتزامات المالية المفروضة عليهم، فاتجه كثير منـهم إلي الصحـاري وشـعاب الوديان والمغارات لمارسة حياة التنسك والزهد والانقطـاع للعبـادة[٢٢]، فـإذا أضفنا ذلك إلي ما سبق ذكره من صعوبات، تأكدنا أن الإدارة البيزنطية كانت تمني بخسائر متزايدة بمرور الأيام والسـنين، لأنـه لازال في جعبة المصريـين الكثير والكثير من الصعوبات والعقبات التي يمكن وضعـها أمـام تلـك الإدارة المستبدة.

هـذا فضـلا عمـا حـدث مـن نمـو أمـلاك الكنيسـة والأديـرة، بعـد أن أصبحت الكنيسة من كبـار المـلاك، وبعـد أن تعـاظمت ثرواتـها، بفضـل مـا حصلت عليه من هبات وأوقاف وأراضي وعقارات، حتى صارت تمتلك جانبا كبيرا من أرض مصر، وغدت قوة مالية كبيرة[٢٣]. وتشير الوثـائق والبرديـات إلي أن ممتلكات كنيسة الإسكندرية من الأراضي امتدت حتى إقليم أرسـينوي (الفيوم) إلي جانب ما كان لها من نصيب في ضريبة القمـح أو المـيرة العامـة، الأمر الذي مكنها من أن تجمع من القمح ما شحنت به ذات مرة ثلاث عشرة سفينة كبيرة من السفن التجارية لتصديره[٢٤]، بالإضافة إلي ما لجأت إليه من حماية فلاحيها، وما اتخذته من إجراءات للحيلولة بـين هـؤلاء وبـين جبـاة الضرائب وعمال الماليـة، ممـا أضـاف إلي أعبـاء الدولـة، وأسـهم في تنـاقص

---

(21) Meinardus: op. cit. p. 203

(22) Lot: op. cit. p.10
Ostrogorski: op. cit. p.424

(23) Hardy: op. cit. p.45
Rouillard: op. cit. p.181,

(٢٤) العريني: المرجع السابق ص٣٢٧ – ٣٢٨

عائداتها (٢٥). في الوقت الذي استطاعت فيه الأديرة الحصول علي امتيازات بالإعفاء من دفع الضرائب، مع ازدياد ممتلكاتها، وما كان يضاف كل يوم إلي أملاكها من أراضي مستصلحة أصلا أو بذلت جهدا في استصلاحها، فسببت هذه الأديرة خسائر كبيرة للخزانة العامة، وأسهمت في تناقص عائدات الدولة المالية أيضا (٢٦). وليس بخاف ما كانت تلجأ إليه الكنيسة من إعطاء خطابات لدافعي الضرائب بإعفائهم من هذه الضرائب، الأمر الذي دفع الإمبراطور جستنيان- كما سبق أن أشرنا- إلي إصدار أوامره بمنع البطريرق ورجال الكنيسة من إعطاء هذه الخطابات لدافعي الضرائب في محاولة لمنع تفاقم الأمر وتقليل لما كانت تفقده الإدارة المالية في مصر من عائدات (٢٧).

فإذا أضفنا إلي هذه العقبات كلها ما كان يحدث بين الحين والحين من حروب داخلية ومنازعات في مصر بين سكان المدن والقري، وما كان يجري من حروب أهلية وثورات، بما يترتب عليها من فوضي واضطراب، تأكدنا أن الإدارة المالية كانت الضحية لكل هذه المشكلات والصعوبات في مجتمع حرص كل فرد فيه أن ينال حقه بيده، خاصة في الفترات التي اشتهرت فيها الحكومة البيزنطية بالضعف والاضمحلال والعجز عن وضع حد لهذه الفوضى (٢٨)، أما في الفترات التي تعسفت فيها بيزنطة واشتدت في معاملة المصريين، فقد هيأت بذلك الظروف لهذا الشعب لأن يتخلي عنها

---

(25) Diehl: op. cit. p. 466
(26) Johnson: Economic Studies, pp. 69-73
(27) Diehl: op. cit. p. 466
Lemerle: op. cit. p. 61
(28) Rouillard: op. cit. p. 184

ويتطلع إلي من يخلصه من جورها وتعسفها. وجعلته يرحب بقدوم الغزاة الفرس والعرب الفاتحين خلاصا من هذا الجور والتعسف (٢٩).

هذا كله أول الصعوبات التي وضعها المصريون أمام الحكومة المركزية ومعظمها صعوبات مالية. أما ثاني هذه الصعوبات ما حدث من مناوأة المصريين لبيزنطة ومقاومتهم لها بمختلف السبل، فقد كره المصريون الحكم البيزنطي كراهية شديدة، واحتقروا كل أجنبي في مصر وكل ما هو قادم من بيزنطة (٣٠)، واشتد إعجابهم بكل ما هو مصري وتعلقوا بالقومية المصرية. فليس من شك في أن العصر البيزنطي في مصر اتصف بأنه من العصور المكروهة من قبل المصريين، ومن الفترات البغيضة بالنسبة لهم. ولهذا أخذوا في مناوأة السلطة البيزنطية بمختلف السبل، ووضع العراقيل في وجهها ما وسعهم الجهد (٣١).

فالمعروف أن اليونانيين في مصر لم يشكلوا إلا جانبا ضئيلا من السكان، تركز أغلبهم في مدينة الإسكندرية وضواحيها، وبعض جهات مصر الأخرى، وعلي الرغم من ذلك شكلوا أرستقراطية محلية جري انتخاب مجلس السناتو الخاص بالمدينة ورجال البلدية من بين أفرادها لما اشتهروا به من ثروة ونفوذ. بينما شكل المصريون الغالبية العظمي من سكان المدن والقري والبوادي، خاصة مناطق الساحل وغرب النيل وبقية أنحاء البلاد (٣٢).

ويشير المؤرخون إلي أن نظم بيزنطة وحضارتها قد أخذت في التداعي والانهيار بمرور الأيام، مع تنامي قوة المصريين، وتعاظم شعورهم القومي،

---

(29) Vasiliev: op. cit. Vol. I, p. 99
(30) Hardy: op. cit. p. 119
(31) Aussaresses op cit p. 105
(32) Diehl· op. cit p. 482

فعلي الرغم مما أصاب القري المصرية ومدنها من تطور في العصر البيزنطي. حتى أخذت القري بالتدريج بحياة البلديات أو حياة أشبه بحياة المدن. إذ اختص نفر من أهلها ببعض الوظائف الهامة. وتولي بعضهم وظائف عامة في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، إلا أن حياة المدن والقري في مصر قد بدأ نصيبها ما أصاب سائر مدن الإمبراطورية من الانهيار والتداعي بمرور الأيام [٣٣].

كما أخذت الثقافة اليونانية في مصر تتعرض لضربات خطيرة استتبعها اضمحلال اللغة اليونانية، التي كانت لغة الإدارة والقانون، فأصبح الإلمام بها أمرا شكلياً وظاهريا إلي حد بعيد حتى عند الكتّاب الذين يحررون العقود، وسادت القبطية- كما سبق أن أشرنا- وغدت الوثائق يجري تحريرها في القرن السادس بالقبطية باعتبارها لغة الحديث ولغة الكنيسة [٣٤].

وفي ضوء ذلك يمكن فهم الروح التي سادت مصر، وتعليل المقاومة التي أبداها المصريون لبيزنطة، والكراهية التي أضمروها للحكم البيزنطي، إذ كان تعلق المصريين الشديد بمذهبهم الديني وكنيستهم المونوفيزيتية، مظهرا من مظاهر المقاومة للحكومة البيزنطية التي اعتبروها حكومة أجانب [٣٥]، فضلا عن أن التقاليد المصرية القديمة، وبقايا الديانة القديمة والموروثات المصرية القديمة كانت لا تزال قائمة، خاصة في الوجه القبلي، ولم تختف تماما روح القومية حتى خلال الجبروت البيزنطي، وإنما أخذ شعور المصريين القومي

---

(33) Rouillard: op. cit. p.185

(34) Hardy: op. cit. pp.169-172

(٣٥) العريني المرجع السابق ص٣٣٢

ينمو ويزداد بمرور الأيام. حتى عدت مصر ولاية شبه ضائعة بالنسبة لبيزنطة بعد أن اشتد المصريون في مقاومة السلطة الإمبراطوريه [٣٦]

وبدت مصر في فترات كثيرة. لاسيما قرب نهاية العصر البيزنطي وكأنها إمارة قائمة بذاتها أو مملكة مستقلة خاصة حين كانت تهدا فيها الأحوال وتنتظم الأمور. ويدلل المؤرخون علي ذلك بأن قيرس (المقوقس) أو عظيم مصر قبيل فتحها علي يد العرب المسلمين. بدا في مكانة تضاهي مكانة الملوك، وتماثل مكانة الأمراء، وعومل علي أنه رجل عظيم مثل كسري الفرس أو نجاشي الحبشة أو حتى قيصر الروم، بل إن الرسول الكريم محمد صلي الله عليه وسلم، أرسل إليه الرسل يدعوه إلي الإسلام، كما فعل مع الأمراء والملوك والأباطرة [٣٧]، ولاشك أن اعتزاز المصريين بمذهبهم الديني وتعصبهم له واعتزازهم بقوميتهم المصرية، هو الذي أعطي هذه الصورة وعزز هذا الاتجاه.

فقد تعلق المصريون بمذهبهم الديني، والتفوا حول كنيستهم كمظهر من مظاهر القومية ودليل علي التمايز الوطني، فقد كان هذا المذهب نتاج الفكر الديني المصري، وفلسفة كهنة الإسكندرية المسيحيين وإسهامهم في إثراء العقيدة المسيحية وتحديد تعاليمها [٣٨]، فلم يكن ثمة من استطاع مقاومة مذهب الدولة، سوي المصريين، ووقف في وجه المذهب الخلقدوني سوي المصريين، بفكرهم وعقولهم وإصرارهم علي ما يؤمنون به [٣٩]، ويشير تاريخ

---

(36) Maspero: Histoire des Patriaches d'Alexandrie, p. 23

(٣٧) العريني المرجع السابق ص٣٣٢.

Maspero op cit p. 23

(38) Vasiliev op cit Vol 1, pp. 98-99

(39) Bury Hist of the later Roman Empire, p 216
Chadwick op cit pp.205-6

بطارقة الإسكندرية إلي المقاومة العنيفة التي أبداها دير بالوجه البحري، لما قام به الإمبراطور هرقل من اضطهاد للمونوفيزيتيين. لأن ما أبداه الرهبان من بسالة وإقدام، إنما يرجع إلي أنهم كانوا من العنصر الوطني الخالص. الذي لم تختلط به عناصر أجنبية، ولم تشبه شائبة غريبة (٤٠).

وفي مقاومتهم لبيزنطة لم يخف المصريون شعورهم القومي واعتزازهم بأنفسهم إذ كان الشخص نفسه يتيه فخرا بهذه القومية، ويشيد أيضا بمواطنيه المميزين، ويمتدح انتسابهم لمصر، خاصة أولئك الذين برزوا خلال الأحداث السياسية أو قدموا لوطنهم القربان. والدليل علي ذلك ما سجله أحد شعراء طيبة، حين أشاد بأحد كبار الموظفين المصريين ممن تولوا دوقية طيبة باعتباره من الوطنيين، ولم يكن أجنبيا أو غريبا عن مصر (٤١)، إذ لقي هذا الموظف المصري الكبير الثناء والإطراء وخلدت أعماله باعتباره ابنا لمصر ورمزا من رموزها، في وقت تعاقب فيه علي مثل هذه الوظيفة الهامة رجال أجانب كانوا غرباء عن البلاد. والدليل علي ذلك أيضا أن بعض الشخصيات التي أثارت الخيال الشعبي بما قدمته من أعمال جليلة، جعلها المصريون في غمرة كبريائهم الوطني– مصريين ونسبوهم إلي مصر، وزعموا أنهم من أبناء مصر، لأن مصر دون غيرها من البلاد كانت في نظرهم خير الأوطان (٤٢).

وزاد من احتقار المصريين لبيزنطة، واشتداد كراهيتهم لها، أنها لم تظهر الإعجاب بالعنصر الوطني، ولم تعترف بما كان للمصريين من نبوغ وذكاء، وما كان لمصر من حضارة، إذ لم تلق الأهرامات وما حاط بها من القداسة من بيزنطة ومؤرخيها أمثال بروكبيوس سوي الازدراء، ولم تعترف

---

(40) Rouillard: op. cit. p. 188

(41) Maspero: op. cit. p. 23

(٤٢) العريني: المرجع السابق ص٣٣٣

بيزنطة بعظمة أو أهمية هذه الآثار التي تحمل مجد الأجداد وعظمتهم، ولم يبد الكتاب البيزنطيون شيئا من الاهتمام بالمصريين وحضارتهم علي مر الأجيال [٤٣]، علي حين لم تحظ الصفات الفكرية للمصريين من أقباط مصر بشيء من التقدير في القسطنطينية، فوصف البيزنطيون أقباط مصر بأن عواطفهم سقيمة، لا يركن إليهم في الأعمال الجدية، ولم تتوافر لهم الكياسة في المناقشات الدينية والعلمية، وأن علماء الدين عندهم اشتهروا بالجهل والقصور [٤٤].

ولم تتغير نظرة بيزنطة هذه إلي المصريين، علي الرغم من التطور الكبير الذي أصاب مصر والمصريين في القرن السادس الميلادي، فقد نال كثير من المصريين حظا وافرا من التعليم وصار بعضهم من كبار ملاك الأراضي والإقطاعيين، وأضحي البعض الآخر من كبار موظفي الحكومة، إلا أن ذلك كله لم يغير نظرة بيزنطة إلي المصريين، التي ظلت تنظر إليهم علي أنهم مجرد رعايا محكومين، لازال يعتريهم الجهل والقصور، في الوقت التي كانت تتيه فخرا بنفسها وتعتبر نفسها وارثة البطالمة والرومان، وصاحبة السلطة المطلقة في حكم البلاد، علي الرغم من فشلها في كثير من الأمور، حتى في جعل لغتها الرسمية اللغة القومية بينما نجح العرب في ذلك [٤٥].

ومن مظاهر مناوأة المصريين لبيزنطة، أنهم لم ييسروا لموظفي القضاء والشرطة أداء واجبهم في الوقت الذي لم يقبل فيه المصريون علي تولي مثل هذه الوظائف أو تحمل أعبائها، بل نفروا من هذه الوظائف الحرجة الخطيرة، التي تتطلب مواجهة إخوانهم المصريين وإخضاعهم لأحكام القانون

(43) Rouillard: op. cit. p. 188
(44) Ibid. p. 188

(٤٥) العريني: المرجع السابق ص٣٣٣

والقوة (٤٦)، الأمر الذي اضطرت معه السلطات البيزنطيـة إلي التدخـل لحـمل بعض الأشخاص علي قبول هذه الوظـائف، فـزاد ذلـك في كراهيـة المصريـين للسلطة البيزنطية والحكومة المركزية، ولقي المكلفون بممارسة القضاء والشرطة في مصر كثيرا من المتاعب والمصاعب مما زاد من هموم بيزنطة في مصر وصعوبة ممارستها لحدود سلطتها (٤٧).

ويمكن أن نتبين حجم هذه العقبات التي وضعها المصريون لبيزنطة مما كان يجري أحيانا من منازعات بين الناس في مصـر، ومـا كـان يحـدث مـن عدوات تؤدي إلي إحداث أضرار بالملكيات الخاصة والعامة، كالمنازعات التي تجري بين الرعاة والفلاحين، وبين القرويين بعضهم والبعض الآخر، وما كان ينجم عن ذلك من خسائر وأضرار وسلب ونهب، مع عجز الحكومة عن وضع حد لمثل هذه المنازعات، الأمر الذي أضاف إلي سـوء الأحـوال، وألقـي أعبـاء جديدة علي السلطة البيزنطيـة في مصـر (٤٨)، فضـلا عمـا كـانت تتعـرض لـه الملكية العامة من أضرار وخسائر من جـراء هـذه الأحـداث، كـالمرافق العامـة والمستشفيات وغيرها (٤٩).

ويؤكد المؤرخون أن اضطراب أمن مصر في فـترات مختلفـة مـن العصر البـيزنطي، كـان أحـد أسـباب الكراهيـة الـتي أضمرهـا المصريـون للحكـم البيزنطي، إذ يمكن أن نتصور حجـم الأضـرار الـتي كـانت تنجـم عـن تلـك المشاجرات والاشتباكات بين أهل القري بعضهم والبعض الآخـر، ومـا تسـفر عنه مثل هذه الاضطرابات من نهب وسلب (٥٠)، كسرقة المواشي وحرق المزارع

---

(46) Diehl: op. cit. p. 454
(47) Rouillard: op. cit. p. 189
(48) Diehl: op. cit. p. 473
(49) Rouillard: op. cit. p. 190
(50) Maspero: op. cit. p.16

وإتلاف البساتين. وهدم الجسور فضلا عن سرقة نصيب القري ومقرراتها من الضرائب العامة. وقد سجلت البرديات التي عثر عليها من ذلك العصر أخبار هذه المحن والحروب الداخلية. التي عكرت صفو الأمن وأضافت إلي أعباء بيزنطة. وإلي ما يكنه المصريون لها من كراهية وأحقاد (٥١)

ولعل هذه الاضطرابات والفتن الداخلية. هي التي دفعت بعض كبار الملاك إلي اتخاذ جيوش خاصة وحرس خصوصيين لهم. سلحوهم تسليحا جيدا وكلفوهم بحفظ الأمن في ضياعهم وحراسة أملاكهم (٥٢). فأسرف هؤلاء في إظهار القسوة وتعسفوا كثيرا ضد السكان. وغدوا أداة تنكيل بالناس. وازدادت شرورهم بمرور الأيام واستفحل خطرهم، حتى أشارت بعض البرديات إلي شكاوي تقدم بها بعض الناس إلي رجال السلطة يلتمسون فيها الحد من شرور هذه الجيوش الخاصة، والتخلص من تجاوزاتها، والحد من استخدام أسلحتها الخطيرة حتى لا تحدث ردود فعل سيئة ويعم الشغب والفتن في البلاد (٥٣).

ولم تقتصر الفتن والثورات علي ما كان يحدث من طوائف الشعب والسكان. وإنما تعدي ذلك إلي ثورات قام بها بعض حكام المدن الكبرى أحيانا، كتلك التي حدثت زمن الإمبراطور موريس (٥٨٢- ٦٠٢م) في بعض جهات الوجه البحري. خاصة في إيكيلا (فوة الحالية). حيث قام ثلاثة من الإخوة كانوا يتولون الوظائف الهامة في ثلاث مدن، بثورة عارمة ضد السلطة البيزنطية (٥٤)، وألفوا جيشا من المغامرين والثوار، وقطعوا الطريق علي بعض

---

(٥١) العريني المرجع السابق ص٣٣٥ ٣٣٦

(52) Arnold The end of the Byzantine Empire, p.33

(53) Rouillard op cit p 190

(54) Maspero op. cit p 130
Diehl op cit p 534

السفن التي كانت تحمل القمح إلي الإسكندرية، وأحدثوا خسائر كبيرة لبيزنطة، وانتشرت الثورة فيما حولها من مدن وقري، وعجز الوالي الكبير في الإسكندرية عن إخمادها، ولم يتمكن من ذلك إلا حين حشد الجيش بأكمله من قوات الإسكندرية، وبقية أنحاء مصر والنوبة، حيث جري كثير من التخريب والتدمير، ولم تخمد الثورة في النهاية، إلا بعد محن شديدة ومعارك ضارية، وتقرر التنكيل بالثوار وإحراق مدينة إيكيلا، ولم يعد الهدوء والسلام إلا بعد فترة طويلة (٥٥).

هذا بالإضافة إلي ما كان يجري من منازعات وتنافر بين فريقي الزرق والخضر، إذ أن الميل إلي سباق الخيل كان معروفا وشائعا في أنحاء مصر، ووجدت في المدن الكبرى والمدن الداخلية ميادين للسباق، كالتي كانت بالإسكندرية، وكثيرا ما حدثت المنازعات العنيفة بين أنصار الفريق: الزرق والخضر، مثلما كان يحدث تماما في بيزنطة ذاتها، وتردد صدي هذه المنازعات بين الفريقين أو الحزبين المتنافسين في المدن وضواحيها، وامتد أحيانا ليغطي مساحات كبيرة من البلاد، وانعكس علي عمل الموظفين وأعمال الناس العاديين، ليضيف عبئا جديدا علي السلطات البيزنطية ويمثل عقبة من العقبات التي كان عليها أن تواجهها في مصر لتضمن انتظام حكمها في تلك الولاية الهامة (٥٦).

وتكمن خطورة النزاع بين هذين الحزبين المتنافرين، فيما كان يحدث من تدخلهما في الثورات التي اندلعت في جهات مختلفة من مصر، والتي كانت تعبر عن ضيق بالسلطة ومناوأة لممثليها في مصر، مثلما حدث

---

(٥٥) العريني: نفس المرجع ص٣٣٧

(56) Diehl: op. cit. p.535

سنة٦٠٩ م ضد الإمبراطور فوقاس (٦٠٢-٦١٠م)، حين دخل نائب هرقل (حاكم إفريقية) القائد نقتاس مصر متمردا علي الإمبراطور فوقاس [٥٧]، حيث انحاز إليه المصريون وأيدوه، وأيده حزب الزرق بالإسكندرية بصفة خاصة، لمناهضة الحكومة البيزنطية التي يمثلها الوالي أو دوق الإسكندرية، الذي كان صديقا للإمبراطور فوقاس، فلما انحاز المصريون للقائد نقتاس، وعززه حزب الزرق جرت مصادرة أملاك الوالي، وحدث كثير من التخريب والتدمير في مصر، ثم أعقب ذلك انحياز حزب الخضر إلي الثورة فزاد اشتعالها، وجري اتفاق الحزبين علي مناهضة الحكومة والوقوف في وجه ممثليها في مصر [٥٨].

وتجلت مناوأة المصريين لبيزنطة خلال الثورة المشار إليها ثورة نقتاس ضد الإمبراطور الظالم فوقاس، فيما قدمته مصر لهذا الثائر من معونة وتأييد، بل ورفعت روحه المعنوية وجعلت نقتاس أكثر إيمانا بإمكان النجاح في ثورته وإحلال هرقل محل فوقاس [٥٩]، فقد أسهم بعض الزهاد والمتنسكين في تأييد هذه الثورة وتوجيه مسارها بأن أوحوا إلي هذا الثائر أن ثورته ستلقي كل نجاح، وأن هرقل سيصبح إمبراطورا جديدا في القسطنطينية، ونظرا لأن خيال المصريين قد امتلأ بقدرة الزهاد والمتنسكين علي إحداث المعجزات والكرامات والتنبؤ بما يمكن أن يحدث في مستقبل في الأيام، فقد أعطي ذلك نقتاس ثقة في إمكان نجاح ثورته وتحقيق هدفه كممثل لهرقل [٦٠].

إذ تذكر سجلات هذه الفترة أنه حين أوحي الزاهد المصري ثيوفيل إلي الثائر نقتاس بأنه سوف يحقق الهدف بإسقاط فوقاس، وسوف يكون هرقل

---

(57) Rouillard: op. cit. p.192
(58) Diehl: op. cit. p.535
(59) Bell: op. cit. p.129

(٦٠) العريني: نفسه ص٣٣٨

إمبراطوراً، تشجع نقتاس وتقدم توا إلي الإسكندرية، وشن هجوما كبيرا علي جيش الإمبراطور الذي يقوده بونوسوس قائد فوقاس ومبعوثه [٦١]، فأحرز نقتاس النصر علي جيش الإمبراطور فوقاس، بعد أن ارتفعت معنوياته وآمن بإمكان تحقيق نبوءة الزاهد المصري وقدرته علي إحداث الكرامات، ومستفيدا مما قدمته مصر له من تأييد ومساعدة [٦٢]، ولم يكن ذلك إلا مظهرا من مظاهر مناوأة المصريين للسلطة الإمبراطورية، ودليلا جديدا علي كراهية المصريين لفوقاس الطاغية.

فخلال هذه الثورة والثورات الأخرى التي اندلعت في مصر ضد بيزنطة كان الناس يطاردون جنود الحكومة ويقذفونهم بالسهام وبالحجارة، ويشيعون الفوضى بين رجالها، فكانوا أخطر من الجند علي أنصار الحكومة، وأكثر فاعلية ضد قوات الإمبراطور المكروه، وخلال ثورة إيكيلا (فوة) أحدثوا كثيرا من الخسائر للحكومة، ونهبوا شون القمح الكبيرة، فانعدم الخبز وضج الناس وازدادوا هياجا، وحاولوا الفتك بالوالي الكبير في الإسكندرية، وألحقوا بالمدينة خسائر فادحة [٦٣].

ولعل معرفة الإمبراطور جستنيان بمدي ما تكنه مصر من كراهية لبيزنطية وكراهية الإسكندرية بالذات لحكومة الإمبراطورية، هي الدافع الرئيسي لما سنه جستنيان من قوانين تحرم بيع الأسلحة إلي الأفراد، خاصة الأسلحة التي يجري صنعها في مصانع الحكومة، حتى لا تستخدم هذه الأسلحة ضد السلطة من ناحية، وفي المنازعات الداخلية من ناحية أخري، لاسيما وقد اشتهر سكان الإسكندرية بسرعة الإثارة والميل لإحداث الشغب

---

(61) Rouillard: op. cit. p. 193

(62) Diehl: op. cit. p. 535

(٦٣) العريني: المرجع السابق ص٣٣٩

والاضطرابات (٦٤)، فضلا عن أنهم كانوا أخلاطا من السكان- كما سبق أن أشرنا- من اليونانيين والسوريين واليهود والعرب وكذلك المصريين، وجري فرض غرامة علي من يخالف القوانين المشار إليها الخاصة ببيع الأسلحة للأفراد، بل جري تهديد الدوق نفسه بدفع غرامة كبيرة إذا أهمل في مراقبة تجارة الأسلحة (٦٥).

ويبدو أن ذلك كله هو الذي جعل المؤرخين يقررون أن إصلاحات جستنيان في مصر، اعترضتها كثير من المشكلات، وواجهتها كثير من الصعوبات، وصار من العسير أن ينتظم في مصر تطبيق القوانين أو أن تنتظم إدارة مالية وقضائية ثابتة، كما صار من العسير علي موظفي الحكومة أن يباشروا في اطمئنان عملهم، أو أن يؤدوا حدود وظائفهم في شيء من الهدوء(٦٦).

أخطاء موظفي الحكومة في مصر:

إذا كان المصريون قد حرصوا علي وضع العراقيل والعقبات أمام بيزنطة في مصر- كما وضح في الصفحات السابقة- فإن أخطاء موظفيها وممثليها في مصر بإهمالهم وعسفهم وفسادهم قد أضاف عقبة جديدة أمام الحكم البيزنطي، وأعطي سببا جديداً لكراهية المصريين لهذا الحكم البغيض، فليس من شك في أن مصر تعرضت خلال العصر البيزنطي لعسف الموظفين وسوء طباعهم وسلوكهم غير السوي في مباشرة سلطتهم بما لا يتفق ورغبة السلطات البيزنطية ذاتها في كثير من الفترات (٦٧).

---

(64) Mommsen: op. cit. 2, p. 264
Bury: op. cit. 1, p. 216
(65) Rouillard: op. cit. p.194
(66) Diehl: op. cit. p. 536
(67) Bell: op. cit. pp. 102-103

وعلي الرغم من ذلك ينبغي ألا ننساق وراء كل ما يقال في هذا المجال– كما يري كثير من المؤرخين– إذ أن هناك من الشواهد في القرنين السادس والسابع الميلاديين ما يدل علي حزم الولاة واهتمامهم بصالح المحكومين (٦٨)، وينبغي ألا نبالغ في القول باستمرار الظلم الذي تعرض له الرعية في كل الفترات، كما لا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا مدي الرخاء الذي نعم به سكان وادي النيل، وما كان في مصر من أمارات الرفاهية، بحكم أن مصر كانت مركز حركة تجارية وصناعية ناشطة والدليل علي ذلك ما حققته مصر من مكانه في الناحية الفكرية والثقافية والفنية ما جرت الإشارة إلي بعض جوانبها من قبل، وكذلك ما شهدته عند فتح العرب من ازدهار وعظمة في كافة الميادين وما عاشته من حياة ثرية ناعمة (٦٩).

وتحدثنا البرديات المصرية المنتمية إلي ذلك العصر، أن مصر شهدت تكاثر المؤسسات الخيرية بفضل نفوذ الكنيسة وموافقة السلطات العامة، كما جري إنشاء المستشفيات لعلاج المرضي وكذلك الفنادق لاستقبال الغرباء والأجانب، وأسهم كبار الملاك في الإنفاق علي هذه المؤسسات، بفضل ما اشتهروا به من الثروة وحب الخير (٧٠)، مما يؤكد الحياة المزدهرة وتمتع الشعب المصري بالخدمات العامة في كثير من فترات ذلك العصر.

وكان لرجال الدين رقابة علي الموظفين للحد من مفاسدهم وتجاوزهم حدود السلطة المخولة لهم،لأن القانون جعل للأساقفة نفوذا وسلطانا كبيرا، للدفاع عن السكان ضد مظالم الموظفين الفاسدين، وصل هذا إلي حد الرقابة

---

(٦٨) العريني: المرجع السابق ص٣٤٠

(٧٠) العريني: نفس المرجع ص٣٤١

العليا علي حكام الأقاليم أنفسهم والزامهم بأداء واجباتهم، وأصبح من حق السكان أن يرفعوا شكاياتهم إلي الأسقف عما يرتكب في حقهم من مظالم (٧١)

فعلي الرغم مما منح للموظفين من سلطة، فإنها لم تكن سلطة مطلقة. وإنما جري تحديدها وتقييدها في كثير من الأحيان، وجعلها خاضعة لرقابة شديدة، لاسيما رقابة الكنيسة، ولهذا عمل موظفو مصر حسابا لرقابة الأساقفة وما اشتهر به هؤلاء من الصرامة والغلظة، فلم يجد الموظفون يدا من الإذعان لرجال الدين في هذه الناحية (٧٢). وحفظت لنا برديات ذلك العصر ما جاء في أحد الالتماسات التي رفعها موظف إلي الأسقف يطلب فيه التجاوز عن الأخطاء التي ارتكبها، وكان قد اتهم بأنه أساء السيرة مع الرعية، وبرر هذا الموظف خطأه بأنه لم يكن إلا مرءوسا ينفذ أوامر رئيسه الذي يعتبر المذنب الحقيقي (٧٣).

غير أن هذه الرقابة والمساعدة التي قدمتها الكنيسة لحكومة بيزنطة، تأثرت في أحيان كثيرة بما كان يحدث من منازعات دينية وخلافات مذهبية، إذ لم يكن لرجال الدين الخلقدوني سلطان ونفوذ علي معظم الموظفين الوطنيين المونوفيزيتيين، كما أن الموظفين القادمين من بيزنطة ويدينون بالمذهب الخلقدوني لم يخضعوا لرقابة الأساقفة المونوفيزيتيين، وبذلك قلت رقابة الكنيسة كثيرا في فترات مختلفة من تاريخ مصر البيزنطية، وقل سلطان رجال الدين في مقاومة الفساد الإداري (٧٤)، فضلا عما أظهرته السلطة البيزنطية في كثير من الأحيان من التراخي والضعف في معاملة موظفي مصر،

---

(71) Rouillard: op. cit. p.199
(72) Chadwick: op. cit. pp.179-180

(٧٣) العريني: نفسه ص٣٤٢

(74) Rouillard: op. cit. p.200

بسبب بعد العاصمة من ناحية وانشغالها بأمور أكثر أهمية من ناحية أخري. فانتشر الفساد وتغلغل في الوظائف العامـة بمصـر بعـد أن فقـدت إصلاحـات جستنيان كثيرا من فعالياتها (٧٥)

لهذه الأسباب أصبح الوضع مهيأ في مصر لكثـير مـن مظـالم الموظفـين علي حسـاب السـلطة المركزيـة، لاسيما وأن جسـتنيان حـرص علـي تركـيز السلطة في أيدي الأدواق رغبه في زيادة هيمنتهم علي حكم مصر، إلا أن الأمر لم يقتصر علي الأدواق، وإنما درج الموظفون الأقل في الرتبة علي جمع سلطات عديدة في أيديهم حتى لم يعد الدوق وحده هو الـذي يجمـع السـلطة المدنيـة والسلطة العسكرية (٧٦)، وإنما شاركه في ذلك مندوب الـدوق، الـذي كـان إلي جـانب وظيفتـه المستشـار القضـائي في الدوقيـة، وكذلـك حـاكم المدينـة أو (الباجرك) الذي أصبح له اختصاصات عديدة منـها الاختصاصـات القانونيـة أيضـا، وفي الأبروشـية حيـث تطـورت سـلطة حـاكم الأبروشـية، وازدادت اختصاصات هذا الموظف أيضا. وهكذا اجتمع في يد الموظف سـواء في الدوقيـة أو في الباجركية، أو في الأبروشية سلطات بلغـت مـن القـوة مـا جعـل هـؤلاء الموظفين وكأنهم حكام لهم شأن عظيم، طالما توفـرت وتـهيأت لهـم الظـروف والأحوال لممارسة هذه السلطات المتعددة (٧٧).

وأضاف إلي سلطة هؤلاء الموظفـين، ومنحـهم نوعـا مـن الاسـتقلال أن معظمهم كان ينتمي عادة إلي طبقـة كبـار المـلاك، فمنحتـهم ثروتـهم واتسـاع أملاكهم نفوذا كبيرا، إذ حازوا أراضي شاسـعة شملـت قـري بأسـرها، تـولي

(75) Maspero: op. cit. p.130
(76) Diehl· op cit p.520
Bury op cit Vol. 2, p 339

(٧٧) العريني: المرجع السابق ص٣٤٣

زراعاتها فلاحــون صــاروا أقنانــا لهــم، وبفضــل ذلــك امتــدت ســلطة هــؤلاء ونفوذهم لتشمل كل هذه الممتلكات وما حولها، وإذا أضفنــا إلي ذلــك تمتعــهم بحق الجباية الذاتية ونظام الحماية. أدركنا كيف تصــرف هــؤلاء باعتبــارهم سادة إقطاعيون وكبار ملاك إلي جانب ما حازوه من سلطة وظيفية خطيرة(٧٨).

فقد استخدم هؤلاء جباة ضرائب خاضعين لهم، وصــارت لهــم خزائــن يتولي أمرها موظفون من قبلهم وموثقــون وكتبــه، بــل قــاموا بتســليح أتباعــهم واتخذوا لأنفسهم شــرطة خاصــة، وأنشــأوا في ضياعــهم ســجونا خاصــة (٧٩)، واتخذوا أحيانا أسطولا خاصا يمخر عباب النيل ويرتاد الأقاليم، واســتخدموا نظام البريد، بل بلغ الأمر أحيانا ببعض الأســر الإقطاعيــة في مصــر الوســطي ومصــر العليــا، أن ســكوا النقــود باســمــهم وازداد ســلطانهم واســتقلالهم علــي حساب الحكومة البيزنطية وسلطة الإمبراطور، الذي كان يقيم بعيدا عنهم في القسطنطينية (٨٠).

ونظرا لما حازه هؤلاء من ثراء ونفوذ فضلا عما حازوه أيضا من وظائف عامة فقد أصبح لهم سلطة قوية، وأصبحت الحكومة لا تركن كثيرا إلي ولائهم أو تضمن إخلاصهم، إذ اصبح بوسعهم تحدي القوانين والإفلات من العقوبات التي تنص عليها، بالإضافة إلي ما ربط بين أفراد هذه الطبقة من روابط القرابة والمصاهرة، مما زاد من نفوذهم وســلطانهم كطبقــة أرســتقراطية عظيمــة، ومــا لبثــت أن صــارت بعــض الوظــائف مثــل الــدوق أو حــاكم المدينــة أو رئيـــس الأبروشية وراثية في أسرات معينة من هــذه الأســرات الأرســتقراطية (٨١)، بــل

(78) Vasiliev: op. cit. Vol.1, p. 159
(79) Arnold: op. cit. p. 33
Jouguet: la vie municipale dans l'Egypt Romane, p.193
(80) Bell: op. cit. p. 122
(81) Diehl· op. cit. p.456

تطلع أفراد هذه الأسرات إلي تولي وظائف هامة ليس في مصر فحسب، بل أيضا في العاصمة ذاتها في القسطنطينية. إذ تشير بعض الوثائق إلي تولي فرد من أسرة أبيون الأرستقراطية أمانة الخزانة بالعاصمة البيزنطية (٨٢).

وشيئا فشيئا تراخت علاقات تبعية هؤلاء الموظفين الأقوياء للحكومة المركزية، وفترت الصلة بين رجال السلطة المركزية وموظفي مصر الأقوياء، ولم يعد يحكمها الانضباط كما كان الأمر في بدايات التاريخ البيزنطي في مصر، والدليل علي ذلك أن دوق طيبة اتخذ لنفسه بلاطا، وأحاط نفسه بالحاشية والأتباع، وكان له شاعر يتغني بأعماله ويشيد بأسرته ويمتدح أبناءه الأمجاد، وحرص علي أن يحتفي بعيد جلوسه أو توليه الحكم والوظيفة، وعيد زواجه وورد في بعض البرديات ما يشير إلي "ما يبذل من الولاء للدوق الذي يعتبر الحاكم الحقيقي للإقليم بأسره" (٨٣).

لكن علي الرغم من ذلك ينبغي ألا ننساق وراء الاعتقاد بأن بيزنطة كانت تسرف في منح هذه الوظائف للمصريين، إذ من الثابت أنها كانت تتردد كثيرا في إسناد الوظائف الهامة للمصريين أو أن تغدق علي السكان الوطنيين الألقاب الكبيرة، بل إنها كانت تحذر كل الحذر وتحرص حرصا شديدا علي ألا تسرف في تعيين الوطنيين في الوظائف الكبيرة، فقد كان أعيان مصر وكبار أساقفتها يتقدمون إلي الإمبراطور - في القرن السادس- بقوائم مرشحيهم ليختار من بينهم من يختار، وجرت عادة الإمبراطور حينئذ علي أن يتريث في هذا الاختيار كثيرا، ثم يختار بعضهم في النهاية في حدود معينة (٨٤)، وبمرور الأيام صار من المصريين رؤساء مدن وأدواق ورؤساء

---

(82) Rouillard: op. cit p. 204

(٨٣) العريني: نفس المرجع ص٣٤٤-٣٤٥

(84) Diehl: op cit. p 520

أبروشيات وغير ذلك، ولكنهم لم يكونوا أغلبية، إذ وضعت السلطة المركزية في اعتبارها فترات المحن والثورات وبروز الفتن، وقدرت أن أولئك الموظفين ليسوا أقل اندفاعا من سائر سكان مصر، لأن بعضهم اشتركوا أكثر من مرة فيما كانت تثيره المقاومة الوطنية من ثورات واحتجاجات ضد الحكومة، وكثيرا ما أيد الموظفون المصريون مواطنيهم المونوفيزيتيين في نضالهم ضد السلطة البيزنطية، التي جدت في فرض مذهبها علي أهل مصر (٨٥).

ويحدثنا حنا النقيوسي- الذي عاش في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي- وكان قريب العهد بالفترة الأخيرة من حكم بيزنطة في مضر، وكذلك أحداث الفتح العربي لمصر (٨٦)، أن أحد أدواق الإسكندرية المصريين وهو أريستوماك، اشتهر بالقوة والكبرياء وبمواقفه المؤيدة لأبناء وطنه وبلده المونوفيزيتيين، كما أشار إلي أن هذا الدوق المصري ورث أموالا طائلة عن أبيه، فأحاط نفسه بحاشية وحراس زودهم بالسلاح وأنشأ سفنا يستخدمها في تنقلاته وزياراته لمدن مصر الهامة، فلما أصبح قائدا حربيا وممثلا للإمبراطور في مصر، زادت عجرفته وكبرياؤه، إذ كان يجد متعة كبيرة في استبقاء رسل الإمبراطور زمنا غير قصير في الميناء قبل أن يستقبلهم، وربما لهذا استدعي إلي العاصمة للتحقيق معه بشأن هذه التصرفات (٨٧).

كما أشار حنا النقيوسي أيضا إلي ما كان يحدث أحيانا من تأييد الموظفين الوطنيين لأبناء بلدهم خلال الثورات التي فجرها المصريون ضد مظالم الموظفين البيزنطيين، وما كان يجري أحيانا من إشعالهم الحرائق ونهب سفن

---

(85) Ibid. pp.520-522

(٨٦) مراد كامل: المرجع السابق ص١٠٦

(87) The Cronicle of John Bishop of Nikiu pp.152-153 (Eng.Trans.)

القمح المرسل إلي العاصمة، الأمر الذي كان يثير الشك في ولاء وإخلاص هؤلاء الموظفين المصريين لبيزنطة، مما دفع الحكومة المركزية كثيرا إلي التدخل بقواتها لإقرار الأمن في البلاد [٨٨]، ولم يكن هذا التدخل إلا ليزيد الفوضى ويكشف مزيدا من تعاطف الموظفين المصريين مع أبناء بلدهم المصريين خلال هذه الأحداث.

علي حين تخاذل كثير من الموظفين في أداء مهام وظائفهم، فألحقوا أضرارا بالغة بخزانة الدولة بصفة خاصة، أي أن دافعي الضرائب لم يكونوا وحدهم المسئولين عن المماطلة والتأخير في دفع الضرائب المقررة عليهم، بل إن هذه المسئولية كانت تقع أيضا علي كاهل كثير من الموظفين لما تعودوا عليه من الإهمال في تأدية واجباتهم ومهام وظائفهم، فلم يتخذوا ضد هؤلاء المماطلين من وسائل الردع والعقاب ما فرضه جستنيان، ولهذا تحملت خزانة الدولة أعباء هذه المماطلة والإهمال [٨٩].

بل إن بعض الموظفين كانوا يتجاهلون ما هو أخطر من ذلك، فقد أشارت البرديات إلي ما حدث في إقليم إخميم من فتنة قام بها مغامر حشد قوة من العبيد الأحباش واستولي في غفلة من السلطات المحلية علي ما تحصل من الضرائب بذلك الإقليم، ولم يبد الموظفون اهتماما بهذا الأمر، ولم يطلبوا المساعدة أو النجدة من السلطات الأعلى ضد هؤلاء الثوار [٩٠]، بل إن هذا النوع من الموظفين ربما استغل مثل هذه الفرصة ليحتفظ لنفسه بما جباه من

---

(٨٨) العريني: المرجع السابق ص٣٤٧

(89) Rouillard: op. cit. p.208
(90) Diehl: op. cit. p.524

الضرائب، إذ أشارت بردية إلي أن أحد حكام المدن احتفظ لنفسه بمبلغ كبير جباه من السكان دون أن يحرر لهم إيصالات بذلك، فتقدموا إلي المحكمة الإمبراطورية بالعاصمة بشكوى ضده، فثبت أنه لم يقم بتوريد هذا المبلغ إلي إدارة الحسابات (٩١).

وهكذا استشري الفساد في نظم مصر الإدارية، لاسيما في الفترة السابقة مباشرة علي الفتح العربي لمصر، بعد أن فقدت إصلاحات جستنيان كثيرا من فاعلياتها واستنفدت جانبا كبيرا من أغراضها (٩٢)، إذ أشارت الروايات وسجلت البرديات ما كان يقوم به كبار الموظفين من كفالة للموظفين الماليين الأصغر، في الدعاوى القضائية أو القانونية، وضد ما يتعرض له الموظف المالي من اتهام أو تجريح أمام المحاكم، ويدل ذلك علي المصالح المشتركة بين الجانبين، والأمور الخفية المتبادلة بين الطرفين، الأمر الذي جعل موظفاً صغيراً بالبهنسا يحاول إقناع متولي الخزانة بضمانه أو كفالته، بأن أقسم له بأنه سوف لا يندم علي هذه الكفالة أو يصيبه أي ضرر، بل سوف يجني ثمار هذا الضمان (٩٣)، بما يؤكد مدي الفساد الذي استشري في كثير من شئون مصر الإدارية.

ويؤكد المؤرخون أن بدايات هذا الفساد ربما حدثت علي عهد جستنيان نفسه الذي أدرك آخر الأمر، أن موظفي مصر الإداريين ليسوا علي المستوي المطلوب من الأمانة أو مقيمين علي الطاعة أو فوق مستوي الشبهات، بل إنهم ليسوا أهلا للثقة نظرا لأن أكثرهم لم يكن يحفل بأوامر العاصمة أو ما

(91) Bury: op. cit. Vol. 2 p.358
(92) Maspero: op. cit. p.130

(٩٣) العريني: نفس المرجع ص٣٤٨

كان يرد من القسطنطينية من توجيهات [٩٤]، بل أنهم كانوا أشد قوة وسطوة من القوانين التي سنها جستنيان نفسه لبعدهم عن العاصمة من ناحية وعن الرقابة الإمبراطورية من ناحية أخري.

ولم يقتصر الأمر علي أخطاء الموظفين تجاه الحكومة المركزية، وإنما تعدي ذلك إلي أخطائهم مع سكان البلاد، إذ أظهروا في كثير من الفترات شدة وقسوة وسوء معاملة مع أهل المدن والأبروشيات والفلاحين، وأسهموا فيما حدث من كراهية المصريين لحكم بيزنطة البغيض [٩٥]. فقد حفظت لنا البرديات شكاوي عديدة، تقدم بها كثير من السكان، أشاروا فيها إلي ما كانوا يقاسونه من العذاب من هؤلاء الموظفين، وإلي ما أصابهم من التعاسة والشقاء علي أيدي أولئك الموظفين، وصورت تلك الشكاوي ما حاق بالبلاد من أضرار من جراء هذه المظالم، بل قدمت التماسات إلي جهات عليا كي تتدارك البلاد برحمتها بعد أن تعرضت لمظالم الموظفين وتعسفهم [٩٦].

وتجلت قسوة هؤلاء الموظفين وظلمهم في تقدير الضرائب وجبايتها، وعدم مراعاة العدالة في توزيعها، فقد أشارت بعض شكاوي الناس إلي أنهم دفعوا ضرائب عن أراضي لم يحوزوها، فضلا عن أن الموظفين ألزموا في أحيان أخري دافعي الضرائب بأداء ما يزيد علي ما هو مقرر عليهم من ضرائب مستخدمين في ذلك كافة الوسائل بما في ذلك إذلال المعارضين منهم لهذه الأساليب، وعانت أحيانا قري بأكملها من تحكم هؤلاء الموظفين ومخالفتهم

---

(94) Vasiliev: op. cit. p.130,

فشر: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ق١ ص٥٣

بينز: الإمبراطورية البيزنطية ص ٥٠

(95) Rouillard: op. cit. p. 211

(96) Diehl: op. cit. p. 520

للقوانين (٩٧)، بل إن هؤلاء الموظفين لجأوا في بعض المناطق إلي تحميل دافعي الضرائب ما عرف ببدل السفر، علي الرغم من أن جستنيان حرم علي الموظفين تقاضي هذا البدل، وحفظت لنا البرديات ما يفيد أن سكان طيبة التزموا بدفع مبالغ من المال للموظفين عند رحيلهم (٩٨).

وبلغت قسوة هؤلاء الموظفين أحيانا حد الإغارة بالجنود علي بعض القري لإرغامها علي أداء الضرائب مستخدمين العنف والقسوة، كما حدث لإحدى القري التابعة لطيبة وهي قرية أفروديتو، التي تولي الباجرك بنفسه جمع ما كان مقررا عليها من ضرائب، فأغار عليها مستصحبا كثيرا من الجنود، عازما علي استخدام العنف والقسوة ضد أهلها (٩٩). وأشارت البرديات إلي قيام هذا الحاكم ومن معه من الجنود بأعمال قبيحة في القرية حيث اغتصبوا البنات ودمروا ديراً للراهبات وسدوا القناة التي تمد القرية بمياه النيل، واحتجزوا قافلة تابعة لأهل القرية، كانت في طريقها إلي أحد الأسواق فاستولوا علي دوابها وصادروا ما كان مع رجالها من أموال، وأمروا بحبس أصحابها ومعاملتهم معاملة سيئة وفرض هذا الباجرك علي أهل القرية غرامة كبيرة فوق ما كان مقررا عليها من ضرائب، دون أن يحرر لأهلها عن ذلك أية إيصالات، بل إنه أمعن في التنكيل بأهل القرية وأعيانها، فصادر ممتلكاتهم ومنحها لأتباعه، وأجبر بعضهم علي مغادرة القرية بعد تجريدهم من أموالهم وممتلكاتهم (١٠٠).

---

(٩٧) العريني: المرجع السابق ص٣٥٠

(98) Rouillard: op. cit. p.213
(99) Bell: op. cit. pp.125-127
(100) Ibid. pp.125-7

ونستخلص من الوثائق وما أشارت إليه البرديات أن ما حاق بقرية أفروديتو من الجور والعسف، لم يكن أمرا نادر الحدوث، وإنما كان أمرا شائعا، لأن الاعتدال والتسامح لم يكن من شيم ممثلي الحكومة البيزنطية في مصر فكثيرا ما صودرت أموال الناس وأملاكهم، وجري طردهم من مدنهم وقراهم ليس بجريمة سوي إظهار الوطنية والروح القومية، أو مناوأة السلطة المتعسفة، وعدم الخضوع لمشيئتها وبرر كبار الموظفين ذلك أحيانا بامتناع هؤلاء عن أداء الضرائب أو الوقوف في وجه السلطة الحاكمة ومناوأتها، فبالغوا في إذلال الناس، وجعلوا أملاكهم نهبا لرجال السلطة (١٠١).

وجري تقدير الضرائب في كثير من الأحيان والإلزام بدفعها في وقت محدد، دون النظر إلي ما كان يمر بالفلاحين من ظروف صعبة، وما كانوا يتعرضون له أحيانا من الفقر والعوز، لأسباب كانت في كثير من الأحيان خارجة عن إرادتهم، كانخفاض النيل أو اضطراب الأحوال الجوية أو زيادة الفيضان وإغراق المحاصيل، أي أن موظفي المالية كثيرا ما تعسفوا مع الفلاحين دون أن يضعوا في اعتبارهم مثل هذه الظروف وتغير الأحوال (١٠٢). وحفظت لنا البرديات شكاوي تقدم بها بعض الفلاحين، أرغموا علي أداء الضرائب المقررة، علي الرغم من ضياع محاصيلهم، وفشل زراعاتهم، لانخفاض النيل، وعدم وصول مياه الري، فقد أصر جباة الضرائب علي تحصيل ما تقرر عليهم من ضرائب مستخدمين في ذلك مختلف وسائل العنف ما جعل أحدهم يهيم علي وجهه فترة ثم يلجأ إلي أهل الخير ليقفوا إلي

(١٠١) العريني: المرجع السابق ص٣٥٢

(102) Rouillard: op. cit. p. 215

جانبه في تلك المحنة (١٠٣). وأشارت برديه أخري إلي لجوء أحد هؤلاء المتضررين إلي القديس حنا المتصدق، الذي ولي بطريرقية الإسكندرية ونذر نفسه لمساعدة فقراء المصريين والوقوف إلي جانبهم (١٠٤)، ووردت فقرة في سيرة هذا القديس تصور ما كان يتعرض له دافع الضرائب من ظلم وعسف وقسوة، دون النظر للظروف الخارجة عن إرادته.

وفي أحيان أخري أصبح جباة الضرائب أداة في أيدي كبار الملاك ورجال الإقطاع لإذلال الفلاحين، خاصة الملاك الذين وقعت الخصومة بينهم وبين فلاحيهم، إذ كان يجري أحيانا اتفاق بين بعض كبار الملاك وبين جباة الضرائب لإذلال الفلاحين والتعسف معهم في جباية الضرائب الباهظة، فصب هؤلاء الجباة جام غضبهم علي أولئك الفلاحين التعساء، لإثبات ولائهم لكبار الملاك والحصول منهم علي مقابل ذلك، فأضاف هذا إلي ما تجرعه الفلاحون المصريون من عذاب وإذلال خلال فترات كثيرة من الحكم البيزنطي (١٠٥).

فإذا علمنا أن القضاء في مصر البيزنطية كان فاسدا خلال فترات كثيرة من ذلك العهد، مع عدم اطمئنان الناس إلي سطوة القانون، وما يكفله القضاء من حماية وعدالة لكل الرعايا، تأكدنا أن ظلم الموظفين للسكان، لم يكن تحده حدود ولم يردع هؤلاء الموظفين رادع من سلطة أو قانون، حتى بعد

---

(103) Maspero: les papyrus Beauge (Bul. De l'Inst. Franc. d'arch. or. VII, P. 145

(١٠٤) علي الرغم من أن حنا المتصدق كان خلقدونيا وولي بطريرقية الإسكندرية بين سنتي ٦١٢و ٦١٧م إلا أنه أظهر عطفا كبيرا علي الفقراء والمستضعفين، وكان يطعم كل يوم نحو سبعة آلاف وخمسمائة فقيرا بالإسكندرية، فضلا عما اشتهر به من العدالة وحب الخير والتسامح حتى أحبه الناس كثيرا حتى المونوفيزيتيين أنظر:
Maspero: op. cit. VII, p.145

(105) Diehl· op. cit. p. 522

إصلاحات جستنيان التي أريد بها محاربة الإهمال والفساد، وإصلاح أمر القضاء، فظلت الإدارة القضائية بمصر علي حالها من الفساد (١٠٦)، يضاف إلي ذلك ما أظهره رجال الشرطة من إهمال وعدم اكتراث وسوء نية، كل ذلك يجعلنا نتأكد أن مظالم الموظفين استمرت فترات غير قصيرة من العهد البيزنطي في مصر، اضطربت خلالها أحوال الأمن وانتشرت الفتن، وتطلب الأمر إرسال الجنود ورجال الجيش لإقرار الأوضاع مع دافعي الضرائب من ناحية والموظفين الماليين من ناحية أخري (١٠٧).

ومما يدل علي فساد نظام القضاء في مصر البيزنطية، حتى بعد إصلاحات جستنيان، حرص هذا الإمبراطور علي إصدار مرسوم يحرم علي القضاة تحصيل هبات من المتقاضين تتجاوز المنصوص عليها قانونا وما هو مقرر قانونا، بل تحتم علي أحد أدواق طيبة أن يحدد قدر هذه الهبات، وأمر الموظفين المرءوسين له بألا يتقاضوا من الخصوم ما يتجاوز هذه الهبات المحددة، كما أمر بنشر هذا القرار بالقبطية حتى يلم به المصريون، وحتى لا يستغل جهلهم باللغة اليونانية في تحصيل ما يزيد علي ما حدده القانون(١٠٨)، فإذا أضفنا إلي ذلك عدم استطاعة المتقاضين تنفيذ ما حصلوا عليه من أحكام أدركنا كم كان المصريون يعانون من فساد القضاء وما يتصل به من شرطة ونظام إداري (١٠٩).

ولعل ذلك هو الذي دفع المصريين أحيانا إلي اللجوء إلي المحكمة الإمبراطورية في العاصمة البيزنطية متجاوزين القضاء المحلي، حتى يتسنى

---

(١٠٦) العريني: نفس المرجع ص٣٥٤

(١٠٧) مراد كامل: المرجع السابق ص٢٠

(108) Johnson: Ec. St. p.207
(109) Rouillard: op. cit. p.218

لهم الحصول علي حقوقهم وتنفيذ ما يمكن أن يصدر في صالحهم من أحكام، غير أن هذا الأمر كان بالغ التكاليف، وتطلب السفر والإقامة في العاصمة خلال نظر القضية نفقات باهظة خاصة إذا وضع في الاعتبار ما اشتهر به القضاء من بطء شديد، وما يمكن أن يترتب علي رفض الدعوى وخسارة القضية من نتائج (١١٠).

بل أن المتقاضين لم يستطيعوا في حالات كثيرة تنفيذ ما حصلوا عليه من أحكام أصدرتها المحكمة الإمبراطورية ذاتها وقرارات إمبراطورية أخري نالها أصحاب حقوق في مصر، إذ لم يكن الأمر سهلا لتنفيذ مثل هذه الأحكام، ولهذا كثيرا ما كان أصحاب الحقوق يلجأون إلي طرق مختلفة للحصول علي حقوقهم التي صدرت من أجلها أحكام وقرارات، ومن هذه الوسائل دفع المبالغ الطائلة لكبار الموظفين أو دفع نسبة معينة من الأموال التي جري الحكم بردها، والوثائق المصرية والبرديات المنتمية إلي تلك الفترة زاخرة بأمثلة متنوعة لمثل هذه الأحكام والقضايا، التي تصور مدي الفساد الذي استشري في شئون مصر القضائية والإدارية معا (١١١).

وخلاصة القول أنه علي الرغم من حرص جستنيان علي إصلاح ما فسد من أحوال مصر وشئونها الإدارية والمالية والقضائية، فإن الدلائل كلها تشير إلي أن الموظفين في مصر لم يستجيبوا لرجاء جستنيان ويحسنوا معاملة دافعي الضرائب ويهدئوا من روع المصريين، إذ يبدو أن ذلك كان يتعارض مع مصالحهم الخاصة ومكاسبهم الذاتية، ويؤدي إلي انقطاع مواردهم من الاختلاس (١١٢)، واستفادتهم من هذه الفوضى لتحقيق الأغراض الخاصة،

---

(110) Ibid. p.219

(١١١) العريني: المرجع السابق ص ٣٥٦

(112) Vasiliev: op. cit. Vol. 1, p.159

حتى بدا الموظفون وكأنهم مستقلون تماما عــن الحكومــة المركزيــة، في الوق الذي ازدادت فيــه منــاوأة المصريــين للجـهاز الإداري كلـه، واضطربــت في الأحوال وكثرت الفتن والثورات [113]، ولولا لجوء هؤلاء الموظفين إلي استخد القوة والاستعانة بالجند لتداعي ما بقي لهم مـن هيبـة وسطوة ونفـوذ عذ السكان، ولم يجر جمع الضرائب إلا بمساعدة الجند والقوة الحربية في مصر فضلا عن قيام الجيش في كثير من الأحيان بتولي أعمال الشرطة وإخماد الفت والثورات التي تكرر حدوثها، خاصة في القرن السادس الميلادي [114].

مساوئ وأخطاء الحكومة المركزية:

علي الرغم من أن جستنيان أراد بقوانينه وتنظيماته في مصــر، إصلا أحوالها حتى يتسنى له استغلال ثرواتــها، والحصــول علــي أكـبر عــائد م دخلها، إلا أن الحكومة المركزية، كانت المسئولة عن فشل هذه الإصلاحــا إلي حد كبير، وكانت سياستها المالية سببا في ازدياد الانحدار وسوء الأحــو في مصر.

فقد اتجه جستنيان إلي محاولة تخفيف الأعباء عن أهل مصر بتخفيف ما هو مقرر عليها من ضرائب [115]، فقرر تخفيف الأعبــاء عــن بعــض القر والتجاوز أحيانا عن ربع ضريبة القمح، وما كان يدفع بالذهب مــن ضريبـة وتوريد بعض المحاصيل الأخرى تخفيفا علي أهل هذه القـري [116]، وكذلـ الضريبة التي كانت تؤدي برسم مرتبات الموظفين، والتجاوز كذلك عــن جـ من الضرائب المقررة علي أولئك الذين لم يصب مــاء الفيضــان أراضيــهم، بـ

---

113) Aussaresses: op. cit. p.105
114) Rouillard: op. cit. p.221
115) Vasiliev: op. cit. Vol.1, p.161

(١١٦) العريني: المرجع السابق ص١٩٢

جري أحيانا إطلاق سراح بعض المقبوض عليهم ليقوموا بجمع محاصيلهم، حتى لا تتعرض جباية الضرائب لشيء من الصعوبات، وجري نصح الموظفين بأن يحسنوا معاملة دافعي الضرائب، وألا يتصرفوا بما يخالف القوانين والأوامر الإمبراطورية (١١٧).

غير أن الموظفين الماليين كانوا يتجاوزون حدود سلطتهم ويتصرفون بما يتفق في كثير من الأحيان مع مصالحهم الخاصة، الأمر الذي أفشل كثيرا سياسة جستنيان الإصلاحية، ولم يعط فرصة لإصلاح الأحوال بالقدر الذي أمله جستنيان (١١٨). لهذه الأسباب لجأ دافعوا الضرائب إلي رفع شكاياتهم إلي الإمبراطور بسبب ما كانوا يتعرضون له من أضرار من قبل جباة الضرائب. وتشير كثير من البرديات إلي أن الإمبراطور كثيرا ما كان يأمر بفحص هذه الشكاوي، وتحقيق رغبات المتقدمين بها إذا كانت شكاياتهم صحيحة، وعلي الرغم من ذلك تشير الدلائل إلي أن ذلك كان أمرا استثنائيا ولم يكن يمثل القاعدة، أي أنها كانت استثناءات ولم تكن قاعدة، فقد فرض الإفلاس الذي تعرضت له خزائن الإمبراطورية، وقلة الموارد منذ زمن جستنيان علي الحكومة المركزية التغاضي عن المبادئ التي كان الإمبراطور يأمل في تحقيقها في إدارة الأقاليم (١١٩)، وفي مصر بصفة خاصة، بل أرغمه هذا الإفلاس علي اتباع الشدة في جباية الضرائب، وعدم التسامح مع دافعي الضرائب في مصر، بعد أن ثبت أن خزينة الوالي الكبير في مصر لا تكفي لتغطية نفقات الحكومة في مصر ودفع رواتب الموظفين وبقية الالتزامات (١٢٠).

---

(117) Ostrogorski: op. cit. Vol.1, p.60
(118) Diehl: op. cit. p.466
(119) Vasiliev: op. cit. Vol.1, p.161
(120) Procopius: Secret History, XVIII, 10, XXIII, 1-6
(English trans. P.215, p.269)

وإذا أضفنا إلي ذلك حاجة مصر بصفة دائمة إلي مبالغ كبيرة من المال لإقامة المرافق العامة مثل الحمامات والسقايات والشون المنيعة وتشييد الاستحكامات والتحصينات اللازمة للدفاع عن مصر، وإقامة المساكن لإيواء الموظفين خلال انتقالاتهم وسفرهم عبر البلاد، أدركنا مدي حاجة القطر المصري إلي مبالغ كبيرة من المال لتغطية كل هذه النفقات [١٢١]، ويبدو أن الأباطرة بعد جستنيان لم يستطيعوا استخدام الشدة والقسوة في جباية الضرائب بسبب سوء الأوضاع المالية والاقتصادية وما اعترى المصريين من الفاقة بعد أن أنوا من ثقل الضرائب وسوء الأحوال، ولعل ذلك كان العامل الرئيسي الذي استغله القائد نقتاس عند دخوله مصر لانتزاعها من يد فوقاس لحساب هرقل، وانتزاع تأييد المصريين لهرقل فقرر التجاوز عن الضرائب لمدة ثلاث سنوات تخفيفا عن المصريين وتقربا إليهم [١٢٢].

ونستطيع أن نضيف سببا آخر من أسباب سوء الأحوال في البلاد، ومظهرا جديدا من مظاهر مساوئ الحكومة المركزية وأخطائها في مصر، أن اختيارها لموظفي المالية لم يكن في كل الأحوال اختيارا سليما أو صحيحا، إذ تسببت أهواء الإمبراطور الخاصة في اختيار الأدواق الذين لم يكن أغلبهم أهلا لهذه الوظيفة الكبيرة، أو يصلح لمهام هذا المنصب الرفيع، كما جاء إسناد الوظائف الهامة إلي كبار الملاك عاملا آخر من عوامل الاضمحلال، لأن أغلب هؤلاء أيضا لم يكن يصلح لمثل هذه الوظائف ولم يلتزموا بتنفيذ القوانين الإمبراطورية، إلا ما كان يتفق مع مصالحهم الخاصة في كثير من الأحيان [١٢٣].

---

(121) Diehl: op. cit. p.522
(122) Rouillard: op. cit. p.225

(١٢٣) العريني: المرجع السابق ص٣٦٠

ولم يكن الأمر قاصرا علي أخطاء الحكومة المركزية في السياسة المالية في مصر، بل إنها كانت مسئولة أيضا عن الفوضي التي حدثت في كثير من الأحيان مصاحبة للفتن والثورات، إذ أعوز الحكومة المركزية بعض الكياسة واللباقة في سياستها الأمنية في مصر، فكثيرا ما اتسمت تصرفاتها بالتردد وقلة الحزم إزاء ما كان يحدث في مصر من فتن وثورات، ولدينا أمثلة علي ذلك علي مدي الفترة الزمنية التي أعقبت عهد جستنيان (١٢٤)، وحتى جستنيان نفسه لم يسلم من ذلك التردد وعدم الحزم في بعض الأمور مما أدي إلي نتائج سيئة وبالغ في تفاقم الأحداث، وفي عهد الإمبراطور موريس تفجرت ثورة الأخوة الثلاثة حكام المدن التي أشرنا إليها من قبل، فأمر الإمبراطور - دون ترو أو تبصر- بعزل حكام المدن الثلاثة حين نقل إليه خبر هذه الثورة، الأمر الذي ضاعف من ازدياد الفتنة والاضطراب (١٢٥)، بل كثيرا ما ترددت الحكومة المركزية في اتخاذ القرارات أو تراجعت بعد اتخاذها، كما حدث حين أمرت بعزل والي الإسكندرية وطلبت مثوله أمام الإمبراطور في العاصمة، ثم سمحت له من جديد بالعودة إلي مصر للتنكيل بالمتمردين، ولم يؤد ذلك إلا إلي ازديادا اشتعال الفتن والاضطرابات (١٢٦).

ولم يكن التردد وعدم الحزم هو كل أخطاء الحكومة المركزية في مصر، فعلي عكس ذلك أظهرت في فترات أخري قسوة وعنفا في معالجة الأمور يفوق الوصف، فاشتدت كثيرا في قمع الثورات، وبالغت في استخدام التعسف مع المصريين (١٢٧)، فخلال الثورة التي أشرنا إليها من قبل، ثورة الباجركات

(124) Maspero: Hist. Des patriaches d'Alexandie, p.130
(125) Rouillard: op. cit. p.226
(126) Rouillard: op. cit. p.226
(127) Diehl: op. cit. p. 534

الثلاثة، حشدت القوات المرابطة في الإسكندرية وفي كل مصر، فضلا عن قـوة من النوبة، للقضاء علي هذه الثورة وللتنكيل بالقائمين بها، ولم يستتب الأمن إلا بعد أن نشبت معركة مع الثـوار أريقت فيـها كثير مـن الدمـاء. ويشـير المؤرخون إلي أن وسائل القمع التي لجأت إليها الحكومـة المركزيـة، لم تكـن تدل إلا علي ما بلغته الحكومة من ضعف وعدم اكتراث، ولا تدل علي القـوة أو الثقـة بـالنفس، لأن هـذه الوسـائل القمعيـة أسـهمت في ازديـاد الفوضـى والاضطراب في البلاد، وازدياد الكراهية والعداوة لبيزنطة (١٢٨).

وتكررت هذه الأخطاء حين علم الإمبراطور فوقـاس بتدبـير مؤامـرة في الإسكندرية تهدف إلي الإطاحة به، وإحلال هرقل محلـه، مـن خـلال نشـاط القائد نقتاس، إذ بادر الإمبراطور فوقاس بحشد قوات ضخمة واستدعي القائد بونوسوس المشهور بصرامته وقسـوته، والـذي سبق أن سـحق ثـورة قـام بـها اليهود في أنطاكية، واتخذ فوقاس من التدابير ما اعتقد أنـها كفيلـة لسـحق ثورة مصر، ووصل بونوسوس إلي مصـر بعـد أن جلـب معـه الأسـود والفـهود والحيوانات المفترسة والأغـلال الـتي أزمـع اسـتخدامها في تعذيـب المصريـين والتنكيل بهم، فكان ذلك أحد أخطاء الحكومة المركزيـة وسـببا مـن أسـباب كراهية المصريين لها (١٢٩).

ومن أخطاء الحكومة المركزية أيضا، جهلها بما كان يقع من الأحداث في مصر، فلم تكن تهتم بتتبع الأحـداث جيـدا في هـذا القطـر، أو تسـعي إلي الوقوف علي أحواله أولا بأول، ويبدو أن بعد مصر عن القسـطنطينية أسـهم إلي حد كبير في ذلك الجهل، فاكتفت الحكومة المركزية في كثير من الأحـوال

(128) Aussaresses: op. cit. p.105

(١٢٩) العريني: المرجع السابق ص ٣٦٢

بالإلمام بأخبار مصر من خلال الرسائل والتقارير التي كان يبعث بها الأدواق وأعيان البلاد أو البطريرق أو من خلال ما كان يرفعه الموظفون إلي العاصمة من تقارير رسمية ، ويبدو أن هذه المعلومات والتقارير لم تكن دقيقة أو وافية ، لأن الذين كتبوها لم يكن يهمهم سوي سلامتهم الشخصية وصورتهم أمام الإمبراطور، دون اكتراث بالحقائق التي ينبغي أن يعلمها الإمبراطور (١٣٠).

ولم تقتصر أخطاء الحكومة المركزية علي الأخطاء في السياسة المالية، وشدتها في قمع الفتن والثورات، وإنما تعدت ذلك إلي أخطائها في السياسة الدينية، حين أولت اهتماما كبيرا بفرض مذهبها الخلقدوني علي أهل مصر، واتخذت الإجراءات التي تحد من نفوذ كنيسة الإسكندرية المونوفيزيتية، خاصة النفوذ المالي والقضائي إلي جانب النفوذ الديني، فانتهي الأمر بانكسارها وكراهية المصريين لها ونفورهم منها (١٣١).

فالمعروف أن نفوذ الأساقفة في مصر قد تعاظم في الناحيتين السياسية والاجتماعية إلي جانب النفوذ الديني، وازداد تأثيرهم في حياة المجتمع المصري في ذلك الوقت، فلم يبلغ أحد من رجال الدين في الإمبراطورية ما بلغه بطريرق الإسكندرية كيرلس وديوسقوروس من الجرأة والعناد، والقدرة علي تحدي سلطة الحكومة المركزية، حتى اعتبر كل منهما خليفة فرعون مصر، فقد رفع كل منهما راية التحدي للإمبراطور البيزنطي، ولم يعيرا الحكومة المركزية كبير اهتمام (١٣٢)، وبلغ نفوذ رجال الدين في بعض الفترات من الشدة ما أضعف سلطة الموظفين المدنيين، ولم يكن الأساقفة قضاة في المنازعات

---

(130) Rouillard: op. cit. p.229
(131) Vasiliev: op. cit. Vol.1 p.99
Chadwick: op. cit. p.205
Hardy: op. cit. p.119
(132) Maspero: op. cit. pp.62-3

الدينية فحسب، بل كانوا أيضا يمارسون النظر في القضايا المدنية، وانعقدت محاكمهم إلي جانب محكمة الدوق الكبير (١٣٣).

بل إن كثيرا من رجال الدين منحوا أنفسهم حقوقا في الإدارة المالية، وأعطوا دافعي الضرائب خطابات تجيز إعفاءهم من دفع الضرائب، وسلكوا في ذلك طرقا مختلفة وغير سليمة، فاصطدموا أحيانا بالحكومة المركزية التي وجدتها فرصة للحد من نفوذ الكنيسة والوقوف في وجه رجال الدين، ولعل الرغبة في تعيين الحدود بين السلطة المدنية والسلطة الدينية، هي التي دفعت جستنيان إلي الخوض في هذه المسالة، حينما تعرضت مصالح الخزانة والإدارة المالية في مصر للخطر، فجري تحديد الظروف التي يجوز فيها للبطريرق منح دافعي الضرائب حق الالتجاء أو الإعفاء من أداء الضرائب (١٣٤).

ومن أخطاء الحكومة المركزية أنها لم تستفد من ازدواج هذه السلطة الزمنية والكنسية بل حاولت الفصل بين السلطتين، علي الرغم من أن هذا الفصل كان أمرا بالغ الدقة والصعوبة، فأدي ذلك إلي ضعفها وتداعي نظامها الإداري (١٣٥)، فضلا عن أن الخلافات الدينية زادت الأمور تعقيدا، فإذا كان البطريرق خلقدونيا، جلبت سلطاته المشاكل وباعدت بينه وبين المصريين، واشتد اضطهاد الحكومة المركزية للمصريين، لتسهيل مهمة هذا البطريرق، وإذا كان البطريرق مونوفيزيتيا تطلع إلي استمرار ازدواج السلطة واصطدم بالحكومة المركزية، ومن هنا لم تحسن الحكومة المركزية التصرف في هذه الناحية المعقدة، فإذا أضفنا إلي ذلك ميل بعض البطارقة الخلقدونيين إلي

---

(133) Rouillard: op. cit. p.156, p. 231
(134) Diehl: op. cit. p.466
(135) Rouillard: op. cit. p.232

العنف والشدة في معاملة المصريين (١٣٦)، أدركنا تماما حجم أخطـاء الحكومـة المركزية في سياستها الدينية في مصر.

ويذكر المؤرخون وتؤكد البرديات، ما لجأ إليـه البطريـرق بولـس علـي عـهد الإمـبراطور جسـتنيان مـن وسـائل، لفـرض مذهـب الإمبراطوريـة علـي المصريين، وجعل الأرثوذكسية شغله الشاغل بمحاولة فرضها علي أهل مصر، إذ كان يلقي بالمصريين في نيران الحمامات العامة ليصيروا وقودا لهـا واتخـذ من وسائل التنكيل ما لم يتخذه الأباطرة الوثنيون، وأشـار ماسـبيرو إلي ذلـك بقوله: "إن مصر لن تصبغ بالصبغة اليونانية إلا إذا تجردت مـن قساوسـتها ورهبانها وأعيانها وموظفيها المصريين، وغمر الأجانب البلاد واختفـي سـكان مصر" (١٣٧)، ونظرا لأن هذا البطريرق تمتـع بتـأييد الحكومـة المركزيـة، فقـد أضاف هذا التأييد إلي أخطاء الحكومة المركزية خطأ جديدا وأكـد مـا وصلـت إليه السلطة المركزية من مساوئ.

وبلغت كراهية المصريين لذلك البطريرق الخلقدوني بولـس حـدا بعيـدا لعنفه وتعسفه وإصراره علي فـرض المذهـب الخلقدونـي البيزنطي علـي أهـل مصر، حتى كرهته أيضـا الإمـبراطورة ثيـودورا الـتي كـانت تخلـص لمذهـب الطبيعة الواحدة مذهب أهل مصر (١٣٨)، ولذلك لم يعمر بولس كثيرا في منصبه الديني، وجري عزله وتعيين أخر محله يدعي زويل Zoile لم يسـتطع البقـاء هو الآخر في كرسيه الديني إلا في حمايـة الجنـد، ومـا لبـث أن عـزل أيضـا ليلحـق بسـابقه سـنه ٥٥١ م، وولي مكانـه رجـل علمـاني فرضتـه الحكومـة المركزية يدعي أبولفياريس في حراسة جيش كبير، بعد أن اتخذ زي البطريرق

---

(136) Maspero: op. cit. p.144
(137) Ibid. p.145
(138) Vasiliev: op. cit. Vol. 1, pp.151-2

ودعا الناس إلي اجتماع في كنيسة الإسكندرية خيرهم فيه بين ترك مذهبهم أو التعرض لنقمه الإمبراطور، الذي أزمع علي حد قوله إهدار دمائهم واستباحة نسائهم وتيتيم أبنائهم (١٣٩)، وكان رد الناس علي هذا البطريرق العلماني أن قذفوه بالحجارة، وعندئذ هجم الجند علي الناس، وأحدثوا مذبحة مريعة داخل الكنيسة وخارجها حتى بلغ من هلع الناس أن هربوا إلي الأديرة بالصحراء، وهاموا علي وجوههم، بعد أن سقط منهم عدد كبير، حتى بالغت الروايات في ذلك بقولها أن من قتلوا في تلك المذبحة بلغ نحو مائتي ألف شخص (١٤٠).

وعلي الرغم من كل ذلك فشلت الحكومة المركزية في إرغام الناس علي ترك مذهبهم وفشلت محاولات جستنيان لإخضاع المونوفيزيتيين أو إرغامهم علي التحول إلي المذهب الخلقدوني أو الملكاني الذي تعتنقه الدولة، في الوقت الذي لم ينس فيه المصريون أبدا تلك المذبحة الدامية، ولم يغفروا للحكومة المركزية هذه السياسة التعسفية حتى قال البعض "إن ما حدث وقتذاك لم يكن له مثيل حتى زمن الوثنية" (١٤١).

وإذا كان الإمبراطور جستين الثاني الذي خلف جستنيان قد حاول أن يهدئ الأمور في مصر، وأن يظهر بعض التسامح مع أهلها بإعلانه في مستهل

(١٣٩) وجه إليهم هذا التهديد قائلا: " يا أهل الإسكندرية، يا أيها الأشرار ، إن رجعتم إلي الإيمان وتخليتم عن البدعة اليعقوبية (المونوفيزيتية) كان ذلك خيرا لكم ، وإن لم ترجعوا عما أنتم فيه فاشد ما أخشاه أن يبعث إليكم الإمبراطور من القادة من يهدر دماءكم ويستبيح نساءكم وييتم أبناءكم ". أنظر العريني: المرجع السابق ص٣٦٦

(140) Maspero: op. cit. p.163

(١٤١) العريني: نفس المرجع ص٣٦٧

حكمه "إن الله لا يجيز لنا أن نلقي القبض علي أحد أو نقذف بـه في السـجن من أجل العقيدة " فإن هذه السياسة وهذا التسامح لم يستمر طويلا فسرعان ما أعاد الإمبراطور النظر في هذه السياسة وعادت حكومته إلي الشدة والقمع ضـد المصريين (١٤٢).

فقد اختار جستين الثاني رجلا كان صهرا للقائد بلزاريوس يدعي فوتن Photin وكلفه بإعادة الأمن والهـدوء إلي كـل كنـائس مصـر، ومنحـه سـلطات استثنائية كبيرة، غير أن جستين لم يكن موفقـا في اختيـار هـذا الرجـل، لما اشتهر به من القسوة والجشع، فتسبب في اضطراب الأمور من جديد في مصـر وإثارة أهلها ضد الحكومة المركزية (١٤٣)، ولم يستطع في نفس الوقت الهيمنـة علي كنائس مصر أو إخضاع رجال الدين فيها فلجأ جستين الثاني إلي سياسة العنف من جديد واتباع الشدة في قمع الفتن والاضطرابات، واضطهاد المصريين وإذاقتهم ألوان العذاب، ليؤكد من جديد فشـل سياسـته الدينيـة، واستمرار كراهية المصريـين للحكومـة المركزيـة بسـبب أخطائـها الفادحـة في السياسـة الدينية بصفة خاصة (١٤٤).

وعلي عهد الإمبراطور طيبريوس الثاني الذي خلف جسـتين الثـاني في الحكم عاد التسامح من جديد مع أهل مصـر واتخـذ هـذا الإمـبراطور سياسـة دينية أكثر اعتدالا من سابقه، فتشجع المونوفيزيتيون واستغلوا هـذه السياسـة لاستعادة مكانة كنيستهم، وانتخبوا بطريركا مونوفيزتيا هو بطرس ٥٧٥ م، إلا أن هذا البطريرق اضطر إلي الإقامة في دير يبعد عن الإسكندرية تسعة أميـال،

---

(142) Diehl: op. cit. p.527
(143) Maspero: op. cit. p.168
(144) Diehl: op. cit. p.527

نظرا لوجود البطريرق الخلقدونـي (الملكاني) في الإسكندرية ممثلا للحكومة المركزية (١٤٥).

ولعل وجود اثنين من البطارقة أحدهما خلقدوني والآخر مونوفيزيتي، يعبر عن مدي ما وصلت إليه أخطاء الحكومة المركزية في مصر، فعلي الرغم من تضاؤل نفوذ البطريرق المونوفيزيتي كثيرا في تلك الظروف وضعف مركزه وتأثيره، إلا أن عودة البطريرقية المونوفيزيتية في حد ذاتها تعد أمرا بالغ الأهمية في مصر، خاصة وأن هذا البطريرق بادر بتعيين نحو ست وستين أسقفا مونوفيزيتيا دفعة واحدة لتدعيم الكنيسة المصرية (١٤٦)، ولولا ما جري من انقسام ونزاع في جوف هذه الكنيسة ذاتها وبروز جماعات ونحل لا حصر لها منشقة عن المونوفيزيتية، بلغت في أواخر القرن السادس نحو عشرين نحلة، فضلا عما جري من شقاق بين المونوفيزيتيين في مصر والشام، وما أدى إليه ذلك من تضاؤل شأن هذه الكنيسة وتهالكها، لولا ذلك لحدثت محن كثيرة في مصر واضطربت شئونها الدينية كثيرا لتضيف إلي مساوئ الحكومة المركزية وأخطائها في مصر (١٤٧).

غير أن الكنيسة المونوفيزيتية لم تلبث أن انتعشت كثيرا وقوي مركزها علي عهد البطريرق دميان الذي خلف بطرس سنة ٥٧٨ م والذي امتد عهده إلي سنة ٦٠٠ م، لأن هذا الرجل اشتهر كثيرا بالشجاعة ونشاطه الجم وحماسته للمونوفيزيتية. إذ لم يقنع بالإقامة خارج الإسكندرية، بل تردد عليها مرارا وعقد بها بعض المجامع الدينية، وراح يعظ الناس ويحثهم علي تأييد الكنيسة المصرية، بل زار أنطاكية والقسطنطينية ذاتها وحرص علي

---

(145) Hardy: op. cit. pp.152-3
(146) Diehl: op. cit. p.527
(147) Hardy: op. cit. pp.145-6

إعادة كنيسة الإسكندرية إلي سابق عهدها من القوة والعظمة متحديا بذلك سلطة الخلقدونيين معيدا الوحدة الدينية إلي المونوفيزيتية، ممعنا في مهاجمة المذاهب المناهضة للمونوفيزيتية، ولهذا فقد ازدهرت الكنيسة المصرية في عهده وانتعشت الحركة الديرية في مصر، خاصة وقد أظهر بعض بطارقة الإسكندرية الملكانيين شيئا من التسامح في تلك الفترة [١٤٨].

ولم يؤد انتعاش الكنيسة المصرية المونوفيزيتية إلي تغيير كبير في الأوضاع الدينية، إذ لازالت الكنيسة الرسمية الملكانية في الإسكندرية كنيسة قوية، ولي أمرها عدد من الرجال الأقوياء والزعماء البارزين منهم علي سبيل المثال القديس حنا المتصدق [١٤٩]، الذي جرت الإشارة إليه من قبل، والذي ولي كرسي البطريرق فيما بين سنتي ٦١٢ - ٦١٩، والذي حاول أن يعلي من شأن كنيسته بالمودة والموعظة الحسنة، وإقناع المخالفين وأتباع المونوفيزيتية، إلا أن جهوده لم تسفر عن شئ هام، وظلت الأوضاع الدينية علي ما كانت عليه وأخطاء الحكومة المركزية كما هي [١٥٠].

وشهدت الفترة التي ولي فيها الإمبراطور فوقاس انتكاسة للمونوفيزيتية، لأن هذا الإمبراطور لم يقنع بوجود الكنيسة الملكانية الرسمية في مصر، وإنما تطلع إلي كبت الكنيسة المصرية المونوفيزيتية، فأمر بانتزاع الكنيسة التي أقامها المونوفيزيتيون تحت رعاية بطارقتهم المشهورين، وحاول أن يوقف تماما النزاع الديني والخلاف بين الاتجاهين، لأنه لم يحفل في

---

(148) Diehl: op. cit. p. 528
(149) Maspero: op. cit. p. 234
(150) Rouillard: op. cit. p.234

أغلب الظن بهذا الخلاف، ولم يضعه في مكانه من الأهمية واعتقد أن سطوة الحكومة المركزية وقوتها كفيلة بوقف أي نزاع أو خلاف من هذا القبيل (١٥١).

ونظرا لما أسهم به المصريون في الثورة التي أطاحت بفوقاس، وأتت بهرقل، والمواقف الطيبة التي وقفها الشعب المصري مع هرقل، تعين علي هرقل أن يظهر قدرا كبيرا من التسامح مع المصريين، وأن يشملهم برعايته لذلك أظهر ممثله في مصر القائد نقتاس عطفا علي المصريين ومودة تجاه المونوفيزيتية، حتى بدا للناس حينئذ أن النزاع بين المذهبين والذي استمر نحو قرن ونصف من الزمان قد انتهي إلي غير رجعه، خاصة وأن هذا النزاع لم يؤد إلي نتيجة، ولم يثن المصريين عن الإخلاص للمونوفيزيتية (١٥٢)، إذ سمحت الحكومة المركزية للمونوفيزيتيين بتشييد ما كان لهم من مزارات ومشاهد وكنائس، ووافقت علي استمرار البطريرق المونوفيزيتي في كرسيه الديني في الإسكندرية، وكان حينئذ أنستاسيوس، الذي توفي فخلفه البطريرق أندرونيقوس الذي اتخذ الإسكندرية مقرا له دون معارضة من الحكومة المركزية، ثم خلفه بنيامين أو الأنبا بنيامين، الذي عاصر الفتح الإسلامي لمصر، والذي اضطر إلي الهرب من الإسكندرية، والتخفي قبيل دخول المسلمين مصر وأثناء الموجة الأخيرة من سياسة العنف التي لجأ إليها هرقل مع المونوفيزيتيين (١٥٣). فكأن هرقل لم يثبت علي سياسة التسامح مع المصريين، وإنما استبدل هذا التسامح بسياسة البطش والعنف في السنوات الأخيرة من عهده، مما كان له أثر في ضياع مصر تماما وتجسيد أخطاء الحكومة البيزنطية فيها.

---

(151) Hardy: op. cit. p.157
(152) Diehl: op. cit. p.539

(١٥٣) محمد الشيخ: تاريخ مصر الإسلامية ص١٤-١٥

وفي تفسير هذا التحول في سياسة هرقل تجاه أهل مصر، يشير المؤرخون إلي أن هرقل في محاولة لإعادة الوحدة الدينية إلي مصر، أمر بعقد مجمع ديني لاتخاذ صيغة توفيق بين قرارات مجمع خلقدونيا ومبادئ مذهب جديد جرت صياغته في عهده سمي بمذهب المونوثلستية أو مذهب الإدارة الواحدة(١٥٤)، أي ان ما للمسيح من طبيعة إلهية وطبيعة بشرية تتسمان بإدارة واحدة، بمعني أن المسيح ينطوي علي إرادة واحدة (١٥٥)، ونشاط واحد، فأراد هرقل أن يفرض مذهبه الجديد علي أهل مصر وسماه مذهب التوفيق، أي التوفيق بين مذهب الطبيعتين الملكاني ومذهب الطبيعة الواحدة أي المونوفيزيتي، فخلق بذلك مشكلة بالغة الدقة والحرج في مصر، بعد أن أعلن أنه سيفرض هذا المذهب علي أهل مصر مهما كلفه الأمر (١٥٦).

ولحمل المصريين علي قبول الصيغة الجديدة، أرسل هرقل سنة ٦٣١ م إلي مصر قيرس Cyris، مزودا بصلاحيات كبيرة تتيح له تحقيق تلك الغاية، فأصبح قيرس منذ ذلك الوقت محور الأحداث حتى نهاية العصر البيزنطي في مصر سنة ٦٤١ م، فقد عينه هرقل بطريركا علي الإسكندرية، ودوقا كبيرا علي مصر، وأجاز له طلب المساعدة من بقية الأدواق وسائر السلطات في أقاليم مصر الأخري لتحقيق ما أرسل من أجله (١٥٧)، علي الرغم من معرفة هرقل بان تلك المهمة كانت بالغة الصعوبة، لما اشتهر به أهل مصر والإسكندرية بالذات من عناد وصلابة في الرأي واعتداد بالنفس، لاسيما وأن الصيغة التي

(154) Hardy: op. cit. p.184
Vasiliev: op. cit. Vol. 1, p. 222
Ostrogorski: op. cit. p. 97
(155) Hardy: op. cit. pp.184 -5
(156) Rouillard: op. cit. p. 235

(١٥٧) محمد الشيخ: المرجع السابق ص١٤

أصدرها المجمع الأخير أثارت كل من الخلقدونيين والمونوفيزيتيين علـي حـد سواء[١٥٨].

بادر قيرس بعقد مجمع ديني في الإسكندرية سنة ٦٣٣ م للحصول علي موافقة الفريقين علـي المذهـب الجديـد، إلا أن هـذا المجمـع فشـل في حمـل الجانبين علي الموافقة، ولم يحظ مذهب التوفيق بالقبول لدي كل منهما [١٥٩]، وظل المصريون علي عنادهم وإصرارهم علي الاستقلال الديني الذي جاهدوا في سبيله منذ مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١ م، ولم يـول المصريـون صيغـة التوفيـق الجديدة أية أهمية، ولم ينظروا إليها إلا علـي أنـها محاولـة لفرض مذهـب خلقدونيا البغيض عليهم مرة أخري، فضـلا عـن أن نوايـا قـيرس، وإزماعـه اللجوء إلي العنف لابد وأنها سـبقته إلي مصـر [١٦٠]، وربمـا لهـذا بـادر الأنبـا بنيامين بطريرق الإسكندرية بـالهرب والتخفـي عنـد وصـول قـيرس أو قبيـل وصوله بوقت قصير، إذ لجأ إلي أديرة وادي النطرون، ثم مـا لبـث أن اتخـذ طريقة إلي الجنوب إلي طيبة وظل يظهر ويختفي في جـهات غـير معروفـة إلي نهاية الفترة التي مارس فيها قيرس سلطته في مصر، فقد اشتد اضطهاد قيرس للمصريـين حتـى لقـي كثـير منـهم حتفـه علـي يديـه، ومنـهم أخ للبطريـرق بنيـامين، وجـري طـرد عـدد كبـير مـن الأسـاقفة والرهبـان مـن كنائسـهم وأديرتهم[١٦١]، وساءت الأحوال الدينية في مصر كثيرا بسبب أخطاء الحكومـة المركزية.

---

(١٥٨) العريني: المرجع السابق ص٣٧١

(159) Hardy: op. cit. p. 185
(160) Rouillard: op. cit. p. 235
(161) Hardy: op. cit. p. 185

ونظرا لفشل هرقل في محاولته فرض مذهب التوفيق علي المصريين، فقد لجأ إلي كسب روما إلي جانبه، و إقناع بابا روما بقبول صيغة التوفيق، أملا في جعل مصر تنصاع في النهاية لرغبته، خاصة وأن روما لم تكن تقر المصريين علي الاعتقاد في أن للمسيح طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلهية (١٦٢)، فأوعز هرقل إلي بطريرق القسطنطينية سرجيوس، بأن يحصل من بابا روما علي إقرار صيغة التوفيق، لهذا اقترح سرجيوس علي البابا أن يقبل المونوثلستية، مذهب الإرادة الواحدة، فوافق البابا علي الصيغة التي اقترحها سرجيوس في الوثيقة التي عرفت باسم " تقرير العقيدة "، والتي أذاعها سرجيوس سنة ٦٣٨ م، أملا في حمل المونوفيزيتيين المصريين علي أن يقتدوا بالبابا وكنيسة روما (١٦٣).

ثم لجأ قيرس إلي سياسة الاضطهاد الشديد للمصريين لإجبارهم علي قبول مذهب التوفيق، فتظاهر كثير من الأساقفة بقبول المذهب الجديد، وحذا حذوهم عدد كبير من الناس، حتى لا يتعرضوا للموت بعد أن استشهد عدد كبير منهم، علي أثر تعرضهم لتعذيب شديد، فأرسل سرجيوس تقريرا إلي البابا يتباهي فيه بأنه والإمبراطور هرقل استطاعا أن يجبرا كنيسة مصر علي الانصياع لرأي العاصمة والأخذ بعقائد الكنيسة الصحيحة، بعد أن عاش المصريون زمنا طويلا في شقاق مع العقيدة الحقة، وانقسموا شيعا وأحزابا، لتتحقق في النهاية وحدة الكنيسة في بيزنطة والإسكندرية. ولم يكن هذا التقرير صحيحا (١٦٤)، لأن المصريين لا يزالون يضمرون الكراهية الشديدة لبيزنطة، ولم يكونوا علي استعداد لقبول مذهبها الجديد، وإن كان عليهم أن

(162) Rouillard: op. cit. p. 236
(163) Ibid. p. 236
(164) Butler: op. cit. p. 184 (N.2)

يتظاهروا بهذا القبول، في الوقت الذي ظلوا فيه يمارسون شعائر مذهبهم في الخفاء بمساعدة بعض الأساقفة الذين اضطروا أحيانا للتخفي والمرور علي المنازل لمباشرة الطقوس المونوفيزيتية (١٦٥).

ولما أمعن قيرس في اضطهاداته للمصريين، دبر هؤلاء مؤامرة للخلاص منه، لولا أن اكتشفت هذه المؤامرة وقبض علي القائمين بها، وجري التنكيل بهم، فلقي بعضهم حتفه، بينما جري قطع أيدي الآخرين، واستمر التنكيل بالمصريين حتى خلال أحداث الفتح العربي الإسلامي لمصر (١٦٦)، فقد أثبتت الدلائل أن الاضطهادات الدينية للمصريين لم تتوقف خلال حصار العرب لحصن بابليون، وحين خرج البيزنطيون من الإسكندرية علي إثر الصلح الذي أبرم مع عمرو بن العاص، لم يخرجوا من المدينة إلا بعد أن قتلوا المسجونين فيها، ومثلوا بهم بتقطيع أطرافهم، ولم يتحقق لهم ما كانوا يؤملونه من الوحدة الدينية، فقد ترتب علي سوء سياستهم الدينية نتائج بالغة السوء، وترتب علي أخطائهم في مصر أن خرجت مصر من أيديهم وهوت أفئدة أهلها إلي العرب الفاتحين (١٦٧)، ليؤكد ذلك أخطاء الحكومة المركزية في مصر.

---

(165) Ibid. p.190

(١٦٦) العريني: المرجع السابق ص٣٧٤

(167) Vasiliev: op. cit. p. 99
Ostrogorski: op. cit. p. 99
Bury: op. cit. Vol. 1, p. 216

الفصل الثالث عشر

موقف مصر البيزنطية من أحداث ثورة هرقل

الفصل الثالث عشر

موقف مصر البيزنطية من أحداث ثورة هرقل

وضح من العرض السابق أن السنوات الأخيرة من الحكم البيزنطي في مصر، غصت بالمحن بين أنصار المذهب الخلقدوني وبين أتباع المذهب المونوفيزيتي المصريين أصحاب الطبيعة الواحدة، وشهدت مصر فترة من أقسى فترات التاريخ اضطرابا وأكثرها اضطهادا للمصريين، فقد اعتبر المونوفيزيتيون أنفسهم أصحاب الكنيسة الوطنية، وأصحاب الحق الشرعي في تقرير العقيدة [1]، بينما ظاهرت الحكومة البيزنطية وساندت الكنيسة الخلقدونية أو كما كانت تسمي الكنيسة الأرثوذكسية الملكانية، التي وضعت يدها علي أقدم العمائر الدينية وتصرفت علي أنها الكنيسة الرسمية في البلاد، علي الرغم من أن المصريين نظروا إليها باعتبارها كنيسة مهرطقة ملحدة، تستند إلي نفوذ أجنبي، وترتكز علي قوة الحكومة وبطشها، ولا يمتد سلطانها إلي سائر أنحاء مصر، بينما حازت الكنيسة المونوفيزيتية ولاء الناس في سائر أنحاء البلاد [2].

ويعتبر طيبريوس الذي أصبح وصيا علي العرش البيزنطي من سنة ٥٧٤م إلي سنة ٥٧٨ م، ثم صار إمبراطورا من سنة ٥٧٨ م إلي سنة ٥٨٢ م، آخر إمبراطور حظي بعطف المصريين ومحبتهم، نظرا لتسامحه مع المصريين، وعدم قيامه باضطهادهم، أو قيام حكومته في مصر بإلحاق الضرر بالمونوفيزيتيين أو الكنيسة المصرية في ضواحي الإسكندرية [3]، علي الرغم من

---

(1) Chadwick: op. cit. p. 205
(2) Ostrogorski: op. cit. p. 55
(3) Hardy: op. cit. p. 179

وجود بطريرق خلقدوني رسمـي في مصر وفي مدينـة الإسـكندرية كمـا جـرت العادة.

ولم يكن الإمبراطور موريس، الذي خلف طيبريوس علي العـرش فيمـا بين سنتي ٥٨٢ و ٦٠٢ م محبوبا من المصريين أو ممن يحظون بعطف وتأييد الشعب المصري، نظرا لما بذله من جهود لملئ خزائن بيزنطة بالمال ولجوئه إلي الأساليب المختلفة لانـتزاع الأمـوال مـن المصريـين والضغـط عليـهم بمختلـف السبل، فضلا عما اشتهر به من البخـل وشـدة الشـح والميـل إلي جمـع المـال واكتنازه بكل السبل، بالإضافة إلي إقدامه علي خطوة كانت بالغة الخطورة في ذلك الوقت، حين أمر ببيع قمح مصر، ومنع ما كان يوزع بالمجان علي أهل الإسكندرية وأهل القسطنطينية، فـأدي ذلـك كلـه إلي كراهيـة النـاس لـه[٤]، وسقوطه في النهاية، إذ عزله فوقاس عن العرش، ثم انتـهي الأمـر بقتلـه هـو وأفراد أسرته [٥].

غير أن هـذا الإمـبراطور الجديـد فوقـاس (٦٠٢ - ٦١٠م) أثـار النـاس بعنفـه وقسـوته، وفجـر المقاومـة والمعارضـة في البـلاد، فطفحـت العاصمـة البيزنطية بالفتن الداخلية، وعانت من المجاعات والأوبئة واضطربت أحوالها كثـيرا [٦]، ثـم مـا لبـث فوقـاس أن أمـر بطـرد البطريـرق المونوفـيزيتي في الإسكندرية أنستاسيوس وأصدر قرارا بأنـه لا يجـوز لمصـر وسـوريا أن تختـار رئيسا كنسيا لها، إلا بعد موافقته شخصيا، فأحنق بذلك الرعايا في البلدين، فاجتمع بطريرق الإسكندرية ونظيره بطريرق أنطاكية سنة ٦٠٨ م متناسين ما

(4) Ibid. p. 179

(5) Evetts: Hist. of the Patriarches, p.475,

العريني: المرجع السابق ص ٣٧٦

(6) Ostrogorski: op. cit. p.76

بينهما مـن نـزاع، لمواجهـة عـداء فوقـاس وهجومـه [٧]، وانحـاز اليـهود إلي المونوفيزيتيين، فتفجرت ثورة في بلاد الشام، وجرت مقاومة شـديدة للقـوات البيزنطية، بل أحرز الثوار النصر علي القوات الإمبراطورية، الأمر الذي دفع فوقاس إلي إرسال كونت الشرق لإخماد فتنة أنطاكية وبيت المقدس [٨].

وترتب علي ذلـك تدبـير مؤامـرة للإطاحـة بفوقـاس والخـلاص منـه، ودبرت هذه المؤامرة في إفريقية، التي تـأهبت لإرسـال حملـة لتقويـض حكـم فوقاس والإطاحة به سنة ٦٠٨ م، وتقرر أن يتولي هرقـل الصغـير ابـن هرقـل حاكم إفريقية أمر الحملة المنفذة ضد فوقاس، بينما يغزو نقتاس مصر ليستولي علي الإسكندرية، في الوقت الذي يتوجه فيه هرقل الابن بحـرا إلي سـالونيك ليتخذها قاعدة للهجوم علي العاصمة [٩]، وانحازت الإسكندرية- كما سبق أن أشرنا- إلي جانب الثوار، فجري إنزال هزيمـة بقـادة فوقـاس في مصـر، كمـا انحاز حزب الزرق إلي الثوار، وعمل علي نصـرة هرقـل وتـأهبت مصـر كلـها للثورة ضد الحكومة البيزنطية، وضد طغيان فوقاس [١٠].

ولم يجد نقتاس صعوبة في اجتياز حـدود مصـر، بعـد أن انحـاز إليـه حاكم مريوط، ثم رحبت به الإسكندرية، ولم تجد محاولة القائد الإمبراطوري لوقف تقدم نقتاس أو التصدي لحركـة الثـوار في الإسـكندرية، بـل إنـه لقـي مصرعه علي يد الثوار الذين رفعوا رأسه علي رمح وطـافوا بـه شـوارع المدينـة فعمت الفوضى والاضطراب في الإسكندرية [١١]، الأمر الـذي أقلـق الإمـبراطور

---

(٧) العريني: نفس المرجع ص ٣٧٧

(8) Camb. Med. Hist. V. 2, pp. 286 -7
(9) Bell: op. cit. pp. 128-9
(10) Diehl: op. cit. p. 535
(11) Butler: op. cit. p. 15

فوقاس، فحاول إعادة الأمن فيها وإعادة مصر إلي الولاء له، فأرسل كونت الشرق بونوسوس، الذي نجح في قمع ثورة بلاد الشام، وأخضع أنطاكية، وزوده بالجند والأموال، وأمره برد جيش هرقل عن مصر، والقضاء علي ثورة المصريين لأهمية هذا القطر بالذات في الصراع الدائر بينه وبين هرقل، وأوصاه بمحاولة إبقاء مصر علي ولائها وتبعيتها للدولة البيزنطية (١٢).

ومما ساعد علي نجاح حملة نقتاس وازدياد تأييد المصريين لها أن البطريرق الخلقدوني المدعو تيودور اضطر إلي اللجوء إلي كنيسة القديس أثناسيوس علي ساحل البحر، كما لجأ الوالي الكبير بالإسكندرية حنا ومعه مراقب المالية إلي كنيسة بشرق المدينة، خوفا من الثوار وهربا من جند نقتاس، وكان البطريرق الخلقدوني والوالي الكبير لا يزالان علي ولائهم للإمبراطور، إلا أن البطريرق الخلقدوني ما لبث أن لقي مصرعه، الأمر الذي جعل لحملة نقتاس طابعا دينيا، وشاع أنها موجهة ضد الخلقدونيين ولنصرة المذهب المونوفيزيتي(١٣)، بينما جري نهب قصر الوالي الكبير علي يد أهل الإسكندرية المونوفيزيتيين والاستيلاء علي الأموال التي بعث بها الإمبراطور فوقاس، ووضع الثوار أيديهم علي كل ما تحصل من ضرائب، واقتفت أثرهم مدن مصر كلها، وتصاعدت الثورة في كل مكان، حتى يقرر المؤرخ حنا النقيوسي، أنه لم يبق في مصر مدينة أو قرية لم تعلن انحيازها للثورة (١٤)،

---

(12) Hardy: op. cit. p.179
The Chronicle of John Bishop of Nikiu CVII, p.168
(13) Camb. Med. Hist. V.2, p.287
(14) The Chronicle of John Bishop of Nikiu, cvii, pp.169-170

فضلا عن انحياز أعيان مصر كلها للثورة أيضا، وكان أغلبهم موظفين رسميين، فلما تخلوا عن الحكومة التي يخدمونها، أصبح الموقف بالغ الخطورة وينذر بشر مستطير [١٥]، في الوقت الذي وضع فيه نقتاس يده علي جزيرة وحصن فاروس والأسطول الراسي في ميناء الإسكندرية وخزائن الأموال الإمبراطورية في مصر، وبعث بأحد قادته ليطوف بأرجاء الدلتا فأخضع كثيرا من مدنها، حتى لم يبق علي الولاء لفوقاس في الدلتا سوي مدينتي سمنود وأتريب [١٦].

وفي نفس الوقت أبحر القائد بونوسوس Bonosus الذي أرسله الإمبراطور من قيسارية بفلسطين تجاه مصر لإخماد الثورة، إلا أنه سمع بنبأ سقوط الإسكندرية في يد نقتاس، فنزل علي الساحل واتجه علي رأس جيشه برا إلي مصر، بينما دخل قسم من أسطوله في فرع النيل الشرقي والقسم الآخر في فرع النيل الغربي [١٧]، وتقدم بونوسوس نحو الدلتا مكتسحا كل ما صادفه من مقاومة، وأنزل هزيمة ساحقة بقادة هرقل قرب مدينة منوف، ثم استسلمت له مدينة نقيوس، التي أمر بقتل أسقفها بعد أن تبين له ما كان يقوم به هذا الأسقف من نشاط سياسي ضد فوقاس، فسيطر بونوسوس بذلك علي كل الدلتا وهرب إلي الإسكندرية بقايا المتمردين الذين استبد بهم الخوف فاتخذ بونوسوس من مدينة نقيوس قاعدة لأعماله الحربية [١٨].

زادت هذه الأحداث من استعدادات نقتاس للقاء بونوسوس، فحشد قوات ضخمة في مدينة الإسكندرية، ورتب علي أسوارها الآلات وأدوات

---

(15) Diehl: op. cit. p.536
(16) Butler: op. cit. p.16
The Chonicle of John Bishop of Nikiu, CVII, pp.169-170
(17) Camb. Med. Hist. V.2, P.287
(18) Hardy: op. cit. p.180

الحرب اللازمة للدفاع، وتأهب هو ومن معـه للقـاء جيـش بونوسـوس وحـين تقدمت بعض فرق بونوسوس لمهاجمة الإسكندرية من جهة الجنوب تعرضـت لوابل من القذائف الحجرية من فوق أسوار المدينة، فاضطرت إلي التراجع بعد أن منيت ببعض الخسائر [١٩]، غير أن بونوسوس أصر علي مهاجمـة المدينـة مرة ثانية في الوقت الذي اقتنع فيه نقتاس بضـرورة الدخـول معـه في معركـة فاصلة عملا بنصيحة الراهب المتنسك ثيوفيل المعـترف، الـذي تنبـأ بانتصـار الثورة والإطاحة بفوقاس، وتنصيب هرقل إمبراطورا[٢٠]، لذلـك حشـد نقتـاس جيشه وأمر جنده بالمبادرة بالهجوم، بعد أن فتـح لهـم أحـد أبـواب المدينـة المسمي باب الشمس، فاندفع جنود نقتاس للاشتباك مـع جنـود بونوسـوس، ودارت معركة رهيبة بين الجانبين تعرضـت فيـها قـوات بونوسـوس لهزيمـة ساحقة حتى لقي كثير من قادته حتفهم وفر بونوسوس نفسه هاربا متخذا فرع النيل الغربي طريقا للهرب ومتجها إلي قاعدته الحربية في نقيوس[٢١].

ولم يدع نقتاس فرصة لعدوه لتنظيم صفوفه أو جمع شتات جيشه، بل بادر بمطاردته متجها إلي نقيوس لمحاصرتها، فأذعنت له بعد أن هرب منها بونوسوس متخذا طريق الشرق إلي تـانيس والفرمـا (بلوزيـوم)، حيـث اسـتقل إحدي السـفن إلي سـاحل فلسـطين ثـم اتجـه إلي القسـطنطينية حيـث لحـق بالإمبراطور فوقاس، فخضعت بذلك مصر للإمبراطور الجديد هرقـل و لقـائده نقتاس[٢٢].

---

(19) Butler: op. cit. pp.19-20
(20) Diehl: op. cit. p.537
(21) Butler: op. cit. p.25
John of Nikiu, CVII, p.173 (Eng. Trans.)
(22) The chronicle of John Bishop of Nikiu, CIX, p.174
Diehl: op. cit. p.537

وجه نقتاس اهتمامه لإعادة الأمن والسكينة إلي مصر، خاصة وقد اضطربت شئونها كثيرا خلال تلك الأحداث، وعادت الضغائن بين حزبي الزرق والخضر، وحدثت الاشتباكات بينهما، ومضي كثير من الناس في عمليات السلب والنهب والقتل وسط هذه الفتن، وعودة الأحقاد واستشراء الضغائن، لهذا بادر نقتاس بالقبض علي زعيمي الحزبين المتشاحنين، وبذل جهوده في تهدئة الأمور والتوفيق بين الحزبين [٢٣]، وراح يعيد تنظيم البلاد، فعين ولاة جددا علي المدن الهامة من رجاله، وممن يثق فيهم، وتنازل عما كان للدولة من ضرائب مقررة لمدة ثلاث سنوات، فهدأت الأحوال وعادت السكينة إلي البلاد، ومال المصريون لهذا الرجل، حتى يشير المؤرخ حنا النقيوسي إلي أن "المصريين ازدادوا تعلقا بنقتاس" [٢٤].

ولاشك أن نقتاس قد أفاد كثيرا من الجو الذي ساد في مصر قبل هذه الثورة، وبما استشري فيها من كره للإمبراطور الطاغية فوقاس، باعتباره رمز السلطة الأجنبية في مصر والمذهب الديني المكروه لدي المصريين، ولأنه كان طاغية كبيرا ينبغي التصدي له ومناهضته، ولهذا فقد أسعد المصريين كثيرا ما ورد من أنباء وصول هرقل إلي العاصمة القسطنطينية، وإنزاله هزيمة ساحقة

---

(٢٣) العريني: المرجع السابق ص٣٨١

(٢٤)وردت في كتاب حنا النقيوسي (الترجمة الإنجليزية) ونصها:

" The Egyptians were very much attached to him"
The Chronocile of John Bishop of Nikiu, CIX, p.175

بفوقاس بفضل القوات التي صحبها معه من ولاية إفريقيـة ومـن الإسـكندرية حتى نودي به في النهاية إمبراطورا جديدا في العاصمة وسط حماس شديد[٢٥].

وبنجاح ثـورة هرقـل واعتلائـه العـرش البـيزنطي سـنة ٦١٠م، بـدأت مرحلة جديدة في تـاريخ الإمبراطوريـة البيزنطيـة وفي تـاريخ مصـر البيزنطيـة أيضا[٢٦]، فقد غدا نقتاس حاكما علي مصر وشغل وظيفة الوالي الكبير في مصر وصار له من السلطات ما يجعله نائبا عن الإمبراطور في القطـر المصـري كلـه، وشغل نقتاس هذه الوظيفة في السنوات الأولي من حكم الإمبراطور هرقل، أمـا أنصار فوقاس في مصر، فمنهم من لقي حتفه أو تقرر نفيه من مصر، ومنهم من تخلـي طواعيـة عـن نصـرة فوقـاس وقضيتـه الخاسـرة وتعـاون مـع السـلطة الجديدة، فهدأت الأحوال وعادت السكينة إلي مصر في ظـل حكومـة جديـدة وسلطة بدت للمصريين كثيرة الاعتدال[٢٧].

فبعد أن أعاد نقتاس الأمن والسكينة إلي مصر، بدأ يعيد تنظيـم الإدارة المدنية في مصر، وإعادة الجيش البيزنطي إلي حالتـه الطبيعيـة، لأنـه لاشـك أدرك أنه بفضل الإدارة المنظمة والجيش اليقظ يمكن لبيزنطة الاحتفاظ بمصـر خاصة وأن هاتين الأداتين مـن أدوات الحكـم، وهذيـن الجـهازين كانـا أداة طيعـة في أيـدي حكـام بيزنطـة في مصـر[٢٨]، اسـتخدما في تحقيـق الغــرض التقليدي والهدف الأسمى لبيزنطة وهـو ابـتزاز أكـبر قـدر مـن أمـوال مصـر، والحصول علي أكبر كمية من قمح مصر، لينعم الحكـام في بيزنطـة بخـيرات هذه الولاية الهامة، ولم يكن يهم هؤلاء الحكام استخدام هذه الأجـهزة لجعل

---

(25) Hardy: op. cit. p. 18 , العريني: نفس المرجع السابق ص ٣٨١

(26) Ostrogorski : op. cit. p.78

(27) Butler: op. cit. p.42

(28) Hardy: op. cit. pp.180-181

الحكم وسيلة لتحقيق الرفاهية للرعايا المصريين أو تحسين أحوال الناس، ورفع مستوي المعيشة لديهم أو الارتقاء بهم ثقافيا أو ماليا، أي أن هذا الحكم لم يكن إلا حكما أجنبيا أنانيا لا يعتمد إلا علي القوة والبطش ولا يشعر بشيء من العطف أو الحنو علي ذلك الشعب المغبون [٢٩].

وجرت العادة طوال الحكم البيزنطي في مصر، أن تكون عاصمة البلاد في أيدي حكام بيزنطة، فضلا عن سيطرتهم علي حصن بابليون الذي حشدوا فيه قوات هامة، كما كانوا يسيطرون علي المدن العديدة والحصينة الممتدة من جنوب الوادي إلي شماله، أي من طيبة جنوبا إلي بلوزيوم شمالا [٣٠]، فكان جند الحكومة وجباتها ينتشرون في تلك المدن يجمعون الأموال ويجبون ضريبة القمح، ويفرضون سطوة الدولة وجبروتها في كل أنحاء البلاد، في الوقت الذي صرحت فيه السلطات البيزنطية للتجار اليونانيين واليهود بالنزول أينما شاءوا تحميهم القوات البيزنطية وتمكنهم من الإمعان في منافسة التجار الوطنيين [٣١].

وتشير الدلائل إلي أن نقتاس قد نجح في كسب ود أهل الإسكندرية ومحبتهم، علي الرغم من اشتهارهم بالعناد والصلابة وسرعة الإثارة، وعلي الرغم أيضا من صعوبة حكم هذه المدينة لما يمثله سكانها من أخلاط الناس، وتباين أهوائهم ومشاربهم [٣٢]، وسبيله في ذلك كان مسامحتهم في الضرائب والأموال مدة ثلاث سنوات، فضلا عما لمسه أهل الإسكندرية في هذا القائد من

---

(٢٩) العريني: المرجع السابق ص٣٨٢

(30) Butler: op. cit. p.43

(٣١) العريني: نفس المرجع ص٣٨٢

(32) Bury: op. cit. 1, p.216
Mommsen: op. cit. Vol.2, p.264

شدة علي الأعداء وبلاء في الحرب وإخلاص ووفاء لولي نعمته، ولهذا فقد عضدوه ووقفوا إلي جانبه (٣٣)، وساعده بعض رجال الدين وأيدوه خاصة البطريرق حنا المتصدق، الذي أشرنا إليه من قبل، والذي صار من أكبر أعوان نقتاس ومناصريه (٣٤).

ويبدو أن اطمئنان نقتاس إلي أهل مصر، وعودة الهدوء إلي البلاد قد شجعه علي أن يتوجه إلي بلاد الشام وآسيا الصغرى لإخضاعهما للإمبراطور الجديد هرقل، فما لبث أن غادر الإسكندرية بعد عدة شهور متوجها إلي بلاد الشام حيث نجح في إخضاعها ثم مضي إلي آسيا الصغرى، فأعادها هي أيضا إلي الولاء للعاصمة ثم أتجه بعد ذلك إلي القسطنطينية (٣٥)، فوصلها سنة ٦١٢م، حيث جري تكليفه من قبل الإمبراطور بعدة مهام، ثم لم يلبث أن عاد إلي الإسكندرية سنة ٦١٤ م أو سنة ٦١٥ م في بعض الروايات دوقا كبيرا وحاكما عاما علي مصر، ليواجه الغزو الفارسي لمصر والأحداث الخطيرة التي واكبت هذا الغزو في السنوات التالية.

---

(33) Hardy: op. cit. p.181

(٣٤) أنظر عن حنا المتصدق:

Maspero: les papyrus Beauge (B.de l'Inst franc. d'Arch. or. VII, p.145

وأنظر أيضا:

بتلر: فتح العرب لمصر ص٣٦ (ترجمة محمد فريد أبو حديد)

(35) The Chronicle of John Bishop of Nikiu, CIX, p.175

الفصل الرابع عشر

غزو الفرس لمصر بعد اجتياحهم لبلاد الشام

الفصل الرابع عشر

غزو الفرس لمصر بعد احتياجهم لبلاد الشام

سبقت الإشارة إلى أنه كـان بمصـر منـذ مجمـع خلقدونيـا سـنة ٤٥١م مذهبـان همـا المذهـب الملكـاني أو الخلقدونـي الـذي يمثـل اتجـاه الحكومـة المركزية، وتعتبره بيزنطة مذهبها الرسمـي، وأكـثر مـن يديـن بـه مـن أصـل يونـاني أو أوربـي، وهنـاك أيضـا المذهـب المونوفـيزيتي أو مذهـب الطبيعـة الواحدة، الذي يدين به معظم المصريين، فضلا عـن بعـض العنـاصر الأخـرى الوافدة، وجرى تنافس بين أتباع المذهبين، واستشرت الفتن بين أنصـار كـل منهما[1]، وأيدت الحكومة- بطبيعة الحال- أتباع المذهب الملكاني، وحـرص كل إمبراطور على مهاجمة أنصار المذهب المونوفيزيتي واضطهادهم، على حين تطلع المونوفيزيتيون لاستئصال شأفة المذهب الخلقدونـي وأنصـاره، والانفـراد بالسلطة الدينية في مصر[2]

كما سبقت الإشارة أيضا إلى مصرع البطريرق الخلقدونـي تيـودور عنـد استيلاء نقتاس علـى الإسـكندرية سـنة ٦٠٩م، الأمـر الـذي جعـل المصريـين يعتقدون أن تلك الثورة ذات طابع ديني مؤيد لأهـل مصـر، وأنصـار المذهـب المونوفيزيتي[3]، على الرغم من أنها كـانت موجهـة ضـد سـلطان الإمـبراطور فوقاس في مصر، ولم تكن ثورة دينية أو ذات طابع مذهبي، غير أن المصريين

---

(1) Bury: op. cit. Vol. 1,p. 358
(2) Diehl: op. cit. p.540, Butler op. cit. p. 81
(3) Camb.Med.Hist.Vol.2,p 47

أملوا باشتراكهم في تلك الثورة وتأييدها أن يلقوا من المعاملة الطيبة ما لم يلقوه من الإمبراطور الطاغية فوقاس[٤].

وفي بداية الأمر لم يخب رجاء المصريين، فقد ظل البطريرق المونوفيزيتي في كرسيه الديني نحو ست سنوات زيادة على سنوات أخرى قضاها بطريرقا، أثناء أحداث الثورة، وتوفى هذا البطريرق المدعو أنستاسيوس في أواخر ديسمبر سنة ٦١٦م، أي أن مصر نعمت خلال تلك الفترة بالهدوء كثيرا والسكينة في ظل حكومة نقتاس[٥]، إذ تشير الوثائق والكتب المعاصرة وسير القديسين والرجال الصالحين إلى أن هذه الفترة حفلت بالرؤيات الصالحة وزخرت بالأعمال الخيرية وانتعشت الحياة الدينية، وهدأ أنصار المذهب المونوفيزيتي وتمتعوا بالتسامح الديني، وحتى الكنيسة الخلقدونية، بدت أيضا مزدهرة وافرة الرخاء، إذ أصبح لها سبعون كنيسة بعد أن كانت كنائسها لا تتجاوز سبع كنائس، وذلك بفضل حماسة بطريرقها وما لقيته من تأييد رسمي[٦].

وكان الإمبراطور هرقل حريصا على استمالة قلوب المصريين، وكسب ودهم، ووجد نقتاس لزاما عليه أن يجزي المصريين خير الجزاء، على ما قدموه من خدمات للثورة ، وتأييدهم لها خلال تلك الأحداث، فأظهر تسامحا جما معهم، وأعاد الهدوء السكينة إلى البلاد، فاستطاع المونوفيزيتيون أن يشيدوا بالإسكندرية بعض الكنائس الجديدة، وأن يعمروا كنائس أخرى[٧]، على الرغم مما كان يحدث أحيانا من شقاق بين المونوفيزيتيين

---

(٤) العريني: المرجع السابق ص ٣٨٤

(5) Bulter: op. cit. p.47
(6) Diehl: op. cit. p. 538
(7) Bulter: op. cit. p.47

أنفسهم، وعلى الرغم أيضا من أن الخلقدونيـين، كـانوا لا يزالـون يحتفظـون بسلطانهم في الإسكندرية، وكان لهم أكـبر الكنـائس بـها، وفي نفـس الوقـت جرى تنصيب بطريرق خلقدوني جديد- سبقت الإشارة إليه- وهو البطريـرق حنا المتصدق الذي كان له مـن السجايا والصفـات مـا جعـل أتبـاع المذهـب المونوفيزيتي أنفسهم يعجبون به ويقدرونه[٨]، فضلا عما بذله نقتاس من جهد للتوفيق بين المونوفيزيتيين في مصر والشام، ورأب التصدع الذي حدث بينهما لتهدئة الأمور في البلدين من ناحية والظهور بمظهر التسامح الديني من ناحية أخرى[٩].

ويبدو أن هذه السياسة قد أثمرت، فقد عاد إلى الخلقدونية أو الملكانية عدد من الكنائس وكثير من الأديرة في أنحاء البلاد، فضلا عن بعض النسـاك الصالحين والمترهبين، وبعض القرى في جهات مختلفة من مصـر، بفضـل مـا قدمه البطريرق حنا المتصدق من مثل عليا، وما أظهره من حنو على المصريين لا سما الفقراء منهم، وضربـه المثـل الأعلـى في رعايـة كافـة السـيحيين علـى اختلاف مذاهبهم أو انتماءاتهم وبفضل تسـامح نقتـاس وحرصـه علـى الوفـاء للمصريين ومجازاتهم جزاء حسنا على تأييدهم له[١٠].

وقد تعطى هذه الصورة انطباعا بـأن مصر عاشـت هـذه الفـترة ناعمـة هادئة، لا يعكر صفوها شيء في ظل حكومة هرقل، إلا أن ذلـك لم يكـن هـو الانطبـاع الصحيـح تمامـا، لأن الأمـور مـا لبثـت أن تبدلـت حـين صـادفت الحكومة البيزنطية في مصر بعـض الصعوبـات الماليـة[١١]، الأمـر الـذي جعـل

(8) Maspero: op. cit. VII, p. 145

(٩) بتلر: فتح العرب لمصر ص ٣٦

(10) Diehl: op cit. p. 538

(١١) العريني: المرجع السابق ص ٣٨٥

نقتاس يضع يده على أموال الكنيسة التي كان حنا المتصدق يصرفها في وجوه البر والإحسان، فتسبب بذلك في تعكير صفو العلاقات بين الرعايا والكنيسة من جهة، وبين الكنيسة والسلطة البيزنطية من جهة أخرى[١٢].

وإذا أضفنا إلى ذلك ما حدث من هلع بين الناس على إثر ما تواتر من أنباء غزو الفرس لبلاد الشام واستيلائهم على بيت المقدس، وتأهبهم لغزو مصر، وما ترتب على اجتياحهم لبلاد الشام من لجوء آلاف من الناس إلى الإسكندرية، يلتمسون الإحسان من البطريرق حنا المتصدق أدركنا أن الصورة لم تكن طيبة في مصر كما حاول البعض تصويرها، وأن أحوال البلاد لم تكن في الصورة التي وصفت بها في العقد الثاني من القرن السابع الميلادي[١٣].

وعل الرغم من أن العداء بين الفرس والبيزنطيين قديم ، وكان يتفجر بين الحين والحين بسبب التنافس على مناطق النفوذ في أعالي الرافدين وأرمينيا، ويتسع أحيانا ليشمل المناطق الشرقية أو الأقاليم الشرقية للإمبراطورية البيزنطية[١٤]، إلا أننا نلحظ أن هذه الموجة من العداء، لم تبدأ في عصر هرقل، وإنما سبقت ذلك إلى السنوات التي حكمها الإمبراطور فوقاس، بعد قضائه على سابقه الإمبراطور موريس، حين تذرع الفرس في هجومهم على الإمبراطورية البيزنطية بما زعمه كسرى الثاني الفارسي من أنه خرج ليثأر لصديقه الإمبراطور موريس [١٥].

---

(12) Diehl: op. cit. p. 538

(١٣) العريني: نفس المرجع ص ٣٨٥

(14) Ostrogorski: op. cit. pp. 46-7, p. 52, p.73
Vasiliev: op. cit. V. 1, pp. 67-71, pp.76-8, p. 90

(15) Hardy: op. cit. p.181

فقد استولى الفرس على أرمينيا التي كانت مثار شجار دائم بين الإمبراطوريتين، ثم ما لبث كسرى الثاني أن قسم جيشه إلى قسمين، قسم زحف صوب الجنوب للاستيلاء على بلاد الشام والقسم الثاني زحف صوب الغرب ليجتاز آسيا الصغرى في طريقه إلى القسطنطينية (١٦)، وما يعنينا الآن هو الجيش الذي توجه ناحية الجنوب للاستيلاء على بلاد الشام وما والاها، فقد جرى هذا الهجوم في السنوات الأولى من حكم الإمبراطور هرقل(١٧).

إذ استولى الجيش الفارسي على مدينة أنطاكية، بعد أن صار هرقل إمبراطورا، فأثبت كسرى الثاني أن ادعاءه لم يكن صحيحا، فلو كان خروجه فعلا من أجل الانتقام من الإمبراطور فوقاس ثأرا لصديقه موريس، لكانت هذه العمليات العسكرية قد توقفت بمجرد مصرع فوقاس ونجاح هرقل في اعتلاء العرش في القسطنطينية إمبراطورا جديدا(١٨)، ولكن استمرار الهجوم الفارسي على أملاك بيزنطة في بلاد الشام استمر بعد ذلك، مما يؤكد أن المسألة ليست محاولة انتقامية كما ادعى الفرس، أو أخذا بثأر موريس، وإنما هو غزو لأملاك بيزنطة في الشرق، ومحاولة لتقليم أظافرها وحسم النزاع معها على مناطق النفوذ (١٩).

ويشير المؤرخون إلى أن نجاح كسرى الثاني في حربه ضد بيزنطة، وتحقيقه انتصارات في ميدان القتال، فضلا عن اقتناعه بضعف بيزنطة وتهالكها في تلك المرحلة ، خاصة في السنوات الأولى من حكم هرقل، كان هو الدافع للاستمرار في الحرب والمضي في غزو أملاكها في بلاد الشام، وزاده

(16) Bell: op.cit.p.130,Vasiliev:op.cit.1,p.196
(17) Butler: op. cit. p. 58
(18) Hardy: op cit. p.181
(19) Bulter: op. cit. p.58

النجاح رغبة في المضي في تحطيم قواتها في الشرق[٢٠]، ولعله تطلع إلى إعادة إمبراطورية الفرس إلى سابق عهدها، وإلى استعادة عظمتها، وأدرك أنه لن يحقق ذلك إلا بإخضاع بيزنطة والسيطرة على أملاكها. ويؤكد المؤرخون أن ذلك لم يكن حلما بعيد التحقيق، فقد كانت قواته أكثر عددا وأتم عدة، وأحسن نظاما، وكان قادته أعظم من قادة بيزنطة خاصة بعد وفاة نارسيس وبونوسوس[٢١]، فضلا عن أن خزائن كسرى كانت عامرة بالأموال والشعب يؤيده في مشروعاته، في الوقت الذي أفلست فيه خزائن بيزنطة وران عليها ضعف واضمحلال، وفرقتها الفتن والثورات، وأضعفتها الانقلابات العسكرية والخلافات الدينية[٢٢].

وعلى الرغم من كل ذلك لم يستطع القائد الفارسي شهر بارازShahr Baraz أن يمضي في بلاد الشام، بعد استيلائه على أنطاكية وعلى دمشق وقيسارية ليصل إلى بيت المقدس، إلا في السنة الخامسة من حكم هرقل (٦١٤-٦١٥م) ، وذلك بسبب وعورة المسالك وظهور بعض المقاومة البيزنطية وإن كانت مقاومة باهتة[٢٣]، ويعجب المؤرخون من أن هرقل أبدى حينئذ

---

(٢٠) العريني: المرجع السابق ص ٣٨٦، Vasiliev:op.cit1,p.196

(21) Hardy:op.cit.p 381
Ostrogorski: op. cit. p. 76

(22) Butler: op. cit. p. 58
Ostrogorski: op. cit. p.p.76

(23) Butler: op. cit.p.59

فتورا شديدا، وعدم اكتراث خلال زحف الفرس في بلاد الشام، فلم يصادف الفرس إلا مقاومة ضئيلة، فما لبثت بيت المقدس أن سقطت في أيديهم دون مقاومة بسبب خيانة اليهود وذلك في أواخر سنة ٦١٥م وأوائل سنة ٦١٦م[٢٤]، وظل الفرس واحداوعشرين يوما يقتلون فيها وينهبون ويفرغون حصيلة هائلة من الكراهية في تلك المدينة المقدسة، فخربوا كنيسة القبر المقدس، وكثير من الكنائس الأخرى بالمدينة، واستولوا على الصليب الأعظم أو الصليب المقدس[٢٥]، ونهبوا كثيرا من الأواني المقدسة من الذهب والفضة، ووقع في أيديهم عدد كبير من الأسرى ومنهم البطريرق زكريا، الذي أرسلوه في معية الصليب المقدس هدية إلى زوجة كسرى الثاني، على حين من لم يدركه القتل أو الأسر من سكان المدينة فر ناحية الجنوب[٢٦].

تسبب هذا الغزو في لجوء الفارين والمشتتين من المسيحيين إلى مصر، التي أصبحت الملاذ الأكبر للهاربين من وجه الفرس، لا سيما عاصمتها الإسكندرية التي أخذ عدد سكانها يتزايد بمن كان يصل إليها من اللاجئين والناجين من سيوف الغزاة، فوضع البطريرق حنا المتصدق كل موارد الكنيسة في خدمة اللاجئين والهاربين من وجه الفرس للتخفيف عنهم وشمولهم برعايته[٢٧]، ولم يكتف بذلك بل حاول أن يعيد بناء ما تخرب من كنائس بيت المقدس وإعادتها إلى سابق عهدها، فرصد لذلك الأموال وحشد الموارد اللازمة لذلك، وبعث إلى أهلها كميات كبيرة من القمح والخضر والنبيذ وكثير من الدواب، وغير ذلك من الإمدادات، وبعث عددا من الأساقفة بأموال كثيرة

---

(٢٤) العريني: المرجع السابق ص ٣٨٦، Hardy:op.cit.p.181

(25) Vasiliev: op. cit. 1, p.195

(26) Hardy: op. cit. p.181

(27) Maspero: op. cit. VII p.145

لافتداء الأسرى من أيدي الفرس، وأظهر تعاونا جما مع الكنيسة المونوفيزيتية، على الرغم من أنه كان خلقدونيا وراعيا للكنيسة الخلقدونية أو الملكانية[٢٨].

ولم تكن مطامع الفرس تقف عند حد غزو بلاد الشام، وإنما تعدت ذلك إلى غزو مصر خاصة وقد شجعتهم السهولة التي تقدموا بها في بلاد الشام على التفكير في إكمال غزوهم لمصر، فبدأت الاستعدادات الحربية لغزو مصر بعد استيلائهم مباشرة على بيت المقدس [٢٩]، وتولى القائد الفارسي شاهين قيادة الجيش الموجه لغزو مصر، فبدأ مسيره من العريش إلى الفرما (بلوزيوم) فلم تبد هذه القلعة الأخيرة أية مقاومة، فاتخذ الفرس أيسر الطرق إلى حصن بابليون، ثم اجتازوا الطرف الجنوبي للدلتا، وزحفوا إلى الإسكندرية مارين بنقيوس[٣٠].

وما أن أخذت الأخبار تترى بقرب وصولهم إلى الإسكندرية، حتى حدث هلع شديد واضطراب بين أهل الإسكندرية، خاصة وقد سبقتهم أخبار المذابح البشرية الرهيبة التي أحدثوها في بيت المقدس، وكان لا يزال ماثلا في الأذهان ما أحدثوه من قتل وأسر وتخريب ونهب في تلك المدينة المقدسة، الأمر الذي خشي معه أهل الإسكندرية أن يتكرر ذلك في مدينتهم على أيدي الفرس[٣١].

أحكم الفرس الحصار على الإسكندرية، ولجئوا إلى تخريب ضواحيها جريا على عادتهم في الغزو ونهبوا المناطق الواقعة حولها وخاصة الأديرة،

(28) Ibid. VII, p. 145
(29) Ostrogorski: op. cit. p. 86
Diehl:op.cit.p.539
(30) Butler: op. cit. pp.75-6
(31) Hardy: op.cit.p.181

وأشعلوا الحرائق في كثير من هـذه الأديرة، غير أن الإسـكندرية كـانت مـن المناعة ما جعلها تصمد في المقاومة، إذ كانت أسوارها شاهقة وأبراجها منيعة، يمكن أن تصمد لحصار طويل، إلا أن حاميتها لم تكن قوية، بعد أن سحبت منها بعض الفرق وأرسلت للدفاع عن مدن أخرى أو أنقذت إلى بيزنطة للدفاع عنها[٣٢]، فعانت حامية المدينة شيئا من القصور، فضلا عن نقص الإمدادات والمؤن، خاصة القمح، الذي لم يعد يرد لها من ريف مصر بسبب إحكام الفرس الحصار حولها، ولم يكن يكفي ما استورده البطريرق حنا المتصدق من قمح قبرص[٣٣].

ولما طال أمد الحصـار ونفـذت الأقـوات ولم تـرد الإمـدادات مـن قبـل هرقل، استبدت الحاجة بالناس وفكروا في الاستسلام للفـرس، لا سـيما وقـد ارتحل نقتاس وبصحبته البطريرق حنا المتصدق، غير أن البطريـرق مـرض في الطريق، فتوجه إلى قبرص فهبط إليها وتوفي بها في نوفمبر سنة ٦١٧م، ففقد الناس كل أمل في النجاة، واستبد بهم الخوف، ولهـذا مـا لبثـت المدينـة أن سقطت في أيدي الفرس في يونيو سنة ٦١٨م[٣٤]، والراجـح أن سـقوطها كـان بفعل الخيانة والخديعة، فأحدث الفرس مذبحة بشرية رهيبة بين سكانها، وأسروا ونهبوا ما استطاعوا ، واستولوا في الميناء على عدد من السفن كان أهل الإسكندرية قد شحنوا فيها ثروة الكنائس وكنوزها، وكل ما كان يملكه عليـة القوم من التحف والنفائس والأموال، فأرسل الفرس كل ذلك مع عدد كبير من الأسرى إلى كسرى الثاني مع مفاتيح المدينة[٣٥].

(32) Butler: op. cit. p.78
(33) Hardy op. cit.p.181
(34) Vasiliev :op. cit. Vol. 1, p. 196
(35) Diehl op. cit. p. 539

استأنف الفرس بعد ذلك إخضاع البلاد لسيطرتهم، وإكمال غزوهم لمصر، فساروا في النيل دون أن يجدوا مقاومة تذكر(٣٦). نظرا لما أصاب الناس من الخوف والوجل الشديد ولعسف الفرس وما اشتهروا به من العنف والقسوة، فقد أثاروا الرهبة والخوف في قلوب الناس ، فهرب الأساقفة، وتخلى رجال الدين عن الرعايا، وتقدم الفرس يستولون على البلاد، حتى بلغوا جنوب الوادي وأسوان الحالية (٣٧)، ويذكر المؤرخون أن المصريين قد فوجئوا بما أحدثه الفرس من قتل وتدمير وسلب ونهب، فلم يبدو نحوهم أية مشاعر طيبة، ولم يرحبوا بهم أو يروا فيهم محررين لمصر من ظلم البيزنطيين، كما كانوا يوملون من قبل، وأن الصورة قد اختلفت كثيرا عما توقعوه، وربما يرجع ذلك لما اقترفه الفرس من الجرائم وسفك الدماء وارتكابهم كل المحرمات في مصر (٣٨)

غير أن هذه الخطب ما لبث أن انجلى وتحسن الموقف في مصر،على إثر انسحاب الحاميات البيزنطية منها، وجلائهم عن البلاد، إذ يبدو أن ما أقدم عليه الفرس من قسوة وغلظة، كان بسبب وجود هذه الحاميات في مصر، وخوف الفرس من أن يتعرضوا لمشاكل من قبل هذه الحاميات ، فقد نظروا للبيزنطيين والخلقدونيين نظرة الشك والريبة، ولم يستريحوا لوجودهم في مصر، واعتبروهم مشبوهين يخشى غدرهم، بينما نظروا إلى المونوفيزتيين

---

(٣٦) العريني: نفس المرجع السابق ص ٣٨٩

بتلر: فتح العرب لمصر ص ٧٦ (المترجم)

(37) Diehl· op. cit. p. 539

(38) Amelineau Monuments pour servir `a l'Histoire de d'Egypte chretienne,

العريني: نفسه ص ٣٨٩

نظرة أخـرى، واعتـبروهم الجـانب المغبـون والمغلـوب علـى أمـره، فأحسـنوا معاملتهم إلى حد ما، وأظهروا لهم الرفـق ولـين الجـانب، وذلـك بعـد هـدوء الأحوال وانتهاء مرحلة الغزو(٣٩)، فانفرد البطريرق المونوفيزيتي لأول مرة ومنذ زمن طويل بالإقامة وحده في الإسكندرية دون أن يشاركه بطريرق خلقدوني في السلطة الدينية، كما كان الحال من قبل، فتميزت السنوات العشر التي احتل فيها الفرس مصر، أو الأثنتا عشرة سـنة منـذ بدايـة الغـزو، بمعاملـة خاصـة للمونوفيزيتيين وإظهار اللين لهم (٤٠).

ويعلل المؤرخون انفراد البطريرق المونوفيزيتي "أندرو نيقوس" بالإقامة في الإسـكندرية، بـأن هـذا البطريـرق جـرى انتخابـه أثنـاء حصـار الفـرس للإسكندرية، وانشغال البيزنطيين بأمر هذا الحصار في الوقت الذي لم يلتفت فيه نقتاس لمثل هذه الأمور، كما لم يحفل الفرس أيضا بذلك بعد نجاحهم في الاستيلاء على الإسكندرية، فواصل هذا البطريـرق انفراده بالسـلطة الدينيـة نحو ست سنوات، حتى وفاته سنة ٦٢٣م(٤١)، وبعـد وفاتـه جـرى انتخـاب الأنبا بنيامين بطريرقا للإسكندرية خلفا له.

وكـان بنيـامين هـذا - الـذي ذاع صيتـه كثـيرا خـلال أحـداث الفتـح الإسلامي لمصر - راهبا مصريا ينتمي إلى أسرة قبطية موسرة، اشتهر بـالتقوى والـورع، والتبحـر في العلـم والبراعـة فيـه ، وكـان قـد اتصـل بـالبطريرق أندرونيقوس ولزمـه فـترة مـن الزمـن، وسـاعده في كـل أمـور الكنيسـة وإدارة البطريرقية، ولهذا فقد أوصى اندرونيقوس بأن يخلفه بنيامين في منصبه، ثـم

---

(39) Diehl : op. cit. p.540
(40) Butler :op. cit. p.81
(41) Hardy:op.cit.p.182

ما لبث أن توفي بعد عدة شهور[٤٢]، ومنذ ذلك الوقت وعلى مدى نحو أربعين سنة، ظل بنيامين يوجه إدارة الكنيسة المونوفيزيتية في ظروف وأحوال بالغة الدقة والصعوبة، خاصة في الفترة التي حكم فيها قيرس مصر من قبل هرقل، والفترة التي صاحبت دخول العرب مصر، وأحداث هذا الفتح قرب منتصف القرن السابع الميلادي[٤٣].

فعلى الرغم من أن الكنيسة الخلقدونية قد اضمحل شأنها في مصر، عقب فرار حنا المتصدق إلى قبرص، إلا أن الخلقدونيين ظلوا يتشبثون بما كان لهم من سلطة ومن كنائس بالإسكندرية، ويحاولون مزاحمة المونوفيزيتيين في نشاطهم الديني، أي أنهم كانوا لا يزالون متطلعين إلى بقاء سلطانهم الديني، وعدم التسليم بانفراد البطريرق المونوفيزيتي بالسلطة الدينية في الإسكندرية[٤٤]، ولهذا فقد اختاروا خلفا لحنا المتصدق رجلا لم يكن معروفا تماما مدى نشاطه، وهل كان بطريرقا أم رتبة أقل من ذلك، والراجح أن اختياره حدث سنة ٦٢٧م أو سنة ٦٢٨م عقب جلاء الفرس عن مصر، وكل ما هو معروف أن قيرس الذي بعث به هرقل إلى مصر حينئذ هو الذي خلف هذا الشخص في البطريرقية الخلقدونية[٤٥].

غير أنه من المؤكد أن رجال الكنيسة المونوفيزيتية قد لعبوا دورا هاما وخطيرا خلال أحداث الاحتلال الفارسي لمصر نظرا لاختفاء السلطة الدنية، وما كان لبيزنطة من قبل من إدارة مدنية في مصر، فصار رجال الدين المونوفيزيتيون هم الممثلين للسلطات القضائية في الدوقيات، وسلم لهم الناس

(42) Butler: op. cit. pp. 169 -170
(43) Hardy. op. cit. p. 183
(44) Butler :op. cit. p. 171

(٤٥) العريني : المرجع السابق ص ٣٩١

قيادهم في غيبة السلطة المدنية واعتبروهم رعاة الشعب الحقيقيين[٤٦]، وجاء ذلك في صالح الكنيسة المونوفيزيتية، حين تخلصت مصر من عبء السيادة البيزنطية لأول مرة منذ قرون، وصارت إلى أيدي الفرس لنحو عقد من الزمان، وتؤكد السهولة التي تم بها احتلال مصر على أيدي الفرس مدى الضعف والاضمحلال الذي ران على البلاد في ظل السيادة البيزنطية، كما تأكد رجال الكنيسة المصرية أن بوسعهم العيش في سلام وأمان في ظل سيادة أخرى غير السيادة البيزنطية، وأن بوسعهم استرجاع سلطاتهم الدينية دون مضايقة من السلطة الزمنية[٤٧].

وحين أنتصر هرقل على الفرس، وعادت مصر إلى حظيرة الإمبراطورية البيزنطية من جديد، لم تضع الدروس التي تعلمها المونوفيزيتيون هباء، فلقد ازداد شعور المصريين بقوتهم وبعث قوميتهم من جديد ، بعد أن بلغت الإدارة البيزنطية في مصر من السوء ما عاد بها إلى درجة الفساد والاضمحلال في الفترة التي ولي فيها جستنيان العرش[٤٨]، وأعادها إلى الظروف التي جعلت هذا الإمبراطور يفكر جديا في إصلاح الأحوال المتردية ورأب الصدع الذي أصاب حكم بيزنطة في مصر[٤٩]، يضاف إلى ذلك أن كراهية المصريين لكل ما كان يونانيا بيزنطيا زاد الأحوال سوءاً وزادها حدة، وأضاف إلى شعور المصريين بأن في إمكانهم العيش في هدوء وأمان في ظل سلطة أخرى غير تلك

---

(46) Diehl: op. cit. p. 540

(٤٧) العريني: نفس المرجع ص ٣٩٢

(٤٨) العريني: نفس ص ٣٩٢

(49) Bury: op. cit. Vol. 2 ,p.339
Rouillard: op. cit. pp. 20-24

السلطة المكروهة، ولهذا رحب المصريون بالفتح العربي الإسلامي لمصر لما تعلموه من تجربة الغزو الفارسي من قبل (٥٠).

(50) Diehl: op. cit. p. 540

الفصل الخامس عشر

أحوال مصر البيزنطية قبيل الفتح العربى لمصر

الفصل الخامس عشر

أحوال مصر البيزنطية قبيل الفتح العربي لمصر

رأينا كيف اجتاح الفرس أملاك الإمبراطورية البيزنطية في الشرق في السنوات الأولي من عهد هرقل، ووضعوا أيديهم علي أعظم ما في عقدها من دور، فاستولوا علي بلاد الشام، واقتحموا بيت المقدس، وأخذوا الصليب الأعظم أو الصليب المقدس ونقلوه إلي عاصمتهم (١)، ثم اندفعوا إلي مصر فاستولوا علي الإسكندرية ثم علي بقية أنحاء مصر، ولم يبد هرقل خلال كل ذلك ما ينبئ عن رد فعل سريع، أو استعداد لمواجهة هذه الانتهاكات، بل أظهر تبلدا وفتورا خلال تلك الأحداث ما تعجب له المؤرخون كثيرا المعاصرون منهم واللاحقون علي حد سواء (٢).

غير أن الكنيسة البيزنطية ما لبث أن أظهرت رغبة صادقة في التعاون مع هرقل ومساعدته علي شن حرب شاملة ضد الفرس، لاستخلاص بيت المقدس من أيديهم، واستعادة الصليب الأعظم والانتقام لمن سفك الفرس دماءهم من رجال الدين وعامة الرعايا البيزنطيين في تلك الجهات (٣)، وشرعت الكنيسة في تدبير ما يلزم من المال لمعاونة هرقل لإعداد الحملة، ووافقت علي تقديم هذه الأموال للدولة وكل ما لديها من ثروة قوامها التحف النفسية من الذهب والفضة والأواني الذهبية والفضية وكل ما يمكن أن يصهر ويسك نقودا لتستعين بها الدولة في إعداد جيوشها لحرب الفرس (٤). وفي

(1) Vasiliev op cit Vol 1, p 195
Ostrogorski op cit p 85
(2) Hardy op cit p 181
(3) Camb Med Hist Vol. 2, p 292
(4) Vasiliev op cit Vol 1 p 197

نفس الوقت تبنت الكنيسة حركة دعائية كبيرة بين الرعايا تهدف إلي تهيئة الناس للحرب وشحذ هممهم لطرد الفرس واستعادة أملاك بيزنطة من أيديهم، فقد آمنت الكنيسة أن ما ينبغي أن تخوضه الدولة من حرب ليست حربا عادية، وإنما هي حرب صليبية تهدف إلي تطهير المدينة المقدسة من دنس الكفار، واستخلاص الصليب المقدس من أيدي عبدة النار [٥].

وكان لوقفة الكنيسة إلي جانب الدولة آثار هامة، شجعت هرقل علي بدء الحرب المقدسة ضد الفرس، ومحاولة طردهم من كل ما استولوا عليه من أملاك الإمبراطورية البيزنطية، فخرج هرقل علي رأس جيوشه من القسطنطينية سنة ٦٢٢م، ليبدأ سلسلة من المعارك مع الفرس، تمكن خلالها من إلحاق الهزائم المتوالية بجيوش الفرس وطردها من أعالي الرافدين ومن بلاد الشام [٦]، وذلك علي مدي نحو خمس سنوات كان آخرها الانتصار عليهم في معركة نينوي بالقرب من الموصل الحالية سنة ٦٢٧م، قرر بعدها ملاحقتهم في عقر دارهم وتتبع فلول جيوشهم في الأراضي الفارسية ذاتها، الأمر الذي أجبر الفرس علي إرسال مبعوث من البلاط الفارسي إلي معسكر هرقل سنة ٦٢٨م يخبر هرقل بوفاة كسري الثاني وولاية ابنه شيرويه الحكم، ويعرض استعداد شيرويه لعقد الصلح مع هرقل، فوافق هرقل علي الفور [٧]، وتضمنت شروط الصلح إعادة الصليب الأعظم والجلاء عن كل الأراضي البيزنطية التي احتلها الفرس، والتعهد بعدم انتهاك شروط هذا الصلح [٨].

---

(5) Lemerle: op. cit. pp. 66-67

(6) Ostrorski: op. cit. pp. 91-92

محمد الشيخ: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ص٨١ (ط ١٩٩٨)

(7) Theophanes: Chronographia , pp. 317-326 (Eng. Trans. By Harry Turtledore, pp. 23-29)

(8) Vasiliev: op. cit. Vol. 1, p. 198

فعادت الحدود البيزنطية إلي ما كانت عليه في معاهدة سنة ٥٩١م بين الدولتين، وانتهت الحرب الفارسية البيزنطية، التي استمرت سنوات طويلة، وجلا الفرس عن مصر في العام التالي لعقد الصلح مع هرقل أي سنة ٦٢٩م[٩]، فأعاد هرقل الصليب المقدس إلي مكانه في بيت المقدس وسط مشاعر فياضة وفي احتفال مهيب، يعكس شعوره بأنه الإمبراطور الذي أذل الفرس وأجبرهم علي الخضوع والتسليم، والاعتراف بعظمة الإمبراطورية البيزنطية، والتعهد بعدم المساس بأملاكها في الشرق [١٠].

ويبدو أن هذا الشعور كان له ضلع فيما أمله هرقل من إعادة الوحدة الدينية إلي الإمبراطورية، وتوحيد مذاهبها، وإنهاء الخلافات التي فرقت رعاياها شيعا وأحزابا، مثلما أعاد لها الوحدة السياسية، وتراءي له أن ذلك ليس ببعيد، بعد أن أضحي بطل المسيحية وناصرها، وبعد أن حقق مجدا حربيا ودينيا عظيما وانتصر علي الفرس [١١]، فكان عليه يعثر علي رجل دين يقبل أن يؤيده فيما أزمع القيام به، وينصره في سياسته الدينية لتحقيق ما فكر فيه من إعادة الوحدة الدينية للإمبراطورية، خاصة وقد توفي بطريرق بيت المقدس سنة ٦٣١م، وبقي كرسيه الديني شاغرا، في الوقت الذي صمم فيه هرقل علي التوفيق بين الخلقدونيين في بيزنطة والمونوفيزيتيين في مصر والشام[١٢].

---

(9) Camb. Med. Hist. Vol. 2, p. 299
(10) Hussey: The Byzantine world, p. 24
(11) Diehl: L'Egypte Byzantin, p. 453
Ostrogorski: op. cit. p. 97
(12) Butler: op. cit. p. 136, العريني: المرجع السابق ص ٣٩٥

ولم يطل انتصار هرقل إذ أبدي بطريرق القسطنطينية سرجيوس، وهو من أصل سوري موافقته علي رأي الإمبراطور، واستعداده لتنفيذ سياسته الدينية، فابتكر صيغة "التوفيق" بين أتباع المذهبين الخلقدوني والمونوفيزيتي[١٣]، التي تقضي بأن يمتنع الناس عن الخوض في كنه طبيعة المسيح والحديث عما إذا كان له صفة واحدة أو صفتان، وإنما عليهم أن يعترفوا أن له إدارة واحدة أو قضاء واحدا، أي أن ما للمسيح من طبيعة إلهية وطبيعة بشرية تتسمان بإرادة واحدة [١٤]، وهذه هي صيغة التوفيق التي ابتكرها سرجيوس واقتنع بها هرقل، ولهذا فقد بذل جهودا صادقة في حمل الناس علي الأخذ بها، فاستجابت له الكنيسة الأرمينية وكنيسة لازيقا وكذلك أنطاكية، التي أسند كرسيها الديني إلي البطريرق أثناسيوس، وأقر أساقفة هذه الكنائس الثلاث شروط التوفيق، وأمل هرقل أن تحذو بقية الكنائس حذو هذه الكنائس وأن يسود السلام الكنيسة كلها [١٥].

والراجح أن صيغة التوفيق هذه، قد صدرت سنة ٦٣٢م، أعقبها إسناد بطريرقية الإسكندرية إلي قيرس Cyrus (المقوقس) الذي زوده الإمبراطور بنصائحه ليتمكن من جمع أنصار المذهبين المونوفيزيتي والخلقدوني في المذهب الجديد، وتحقيق الوحدة الدينية في مصر بعد صراع طويل [١٦]، وزوده كذلك بصلاحيات واسعة وسلطات استثنائية، ليجمع في يده السلطة المدنية إلي جانب السلطة الدينية، فقد أخذت الأخبار تترى من مصر تبشر بالنجاح

(13) Theophanes: op. cit. p. 330 (Eng. Trans. P. 31)
(14) Hardy: op. cit. p. 184
(15) Camb. Med. Hist. Vol. 2, pp. 398-400
(16) Theophanes: op. cit. p. 330 (Enq. Trans. Pp. 32-3)

وتنبئ بأن الكنيسة المصرية قد أوشكت أن تتوحد، كما كان الإمبراطور يحب ويهوي [١٧].

وجرت الإشارة من قبل إلي أنه كان علي رأس كنيسة الإسكندرية منذ سنة ٦٢٣م البطريرق بنيامين، الذي أصاب شهرة كبيرة وحاز ثقة المصريين، واشتهر بجهوده الصادقة لإعادة تنظيم الكنيسة، وإعادة وحدة الكنيسة المونوفيزيتية، وتحقيق الاستقرار لها، بعد أن تعرضت لكثير من المحن بسبب النزاع بينها وبين الكنيسة الخلقدونية من ناحية، وبسبب تلاحق الأحداث السياسية من ناحية أخري [١٨]، وعلي الرغم من أن بنيامين لم يكن متساهلا في كل ما يتعلق بالدين أو العقيدة أو الخلق، ولم يكن لينا في هذه الأمور، فقد حاز محبة الناس وتقديرهم، وظل محور الأحداث في مصر سنوات طويلة حتى بعد الفتح العربي لمصر [١٩].

وكان بنيامين قد زار بابليون قبل رسامته، واطلع علي أحوال القسس هناك ولم تعجبه، ولهذا حين تولي البطريرقية، انتقد كثيرا أولئك القسس ووصفهم بأنهم من أهل الكبر والعناد، وبعث إلي الأساقفة يأمرهم بأن ينظروا مرة في كل شهر في أمر كل رجل من رجال الدين لم تمض علي رسامته عشر سنوات، ومضي بنيامين في أخذ قساوسته بالشدة، وحرص علي المثاليات وانتزاع الشرور والرذائل من نفوسهم، لرفع رجال الدين في أعين الشعب والبعد بهم عن المآخذ والوقوع في الزلل [٢٠]، وساعده علي ذلك أنه أمضي في

(17) Diehl: op. cit. p. 542
(18) Butler: op. cit. p. 173

(١٩) العريني: المرجع السابق ص ٣٩٧

(20) Meinardus: op. cit. p. 77
Diehl: op. cit. p. 542

ظل الحكم الفارسي نحو خمس سنوات قضاها في هدوء وسلام ولم يشغله خلالها شاغل، وشهد في نهايتها جلاء الفرس عن مصر بعد انتصار هرقل[21].

ومن المرجح أن هذا الجلاء وخروج الحاميات الفارسية من مصر قد بدأ منذ سنة ٦٢٧م وانتهي في سنة ٦٢٨م بجلاء آخر حامية فارسية نهائيا عن البلاد، بمقتضي شروط الصلح مع هرقل أعقبه عودة الأسري المصريين إلي بلادهم، ثم بدأ الجيش الذي بعث به هرقل لاحتلال مصر من جديد يصل تباعًا، ابتداء من شتاء سنة ٦٢٨م، وعلي مدي العام التالي أي سنة ٦٢٩م بطريق البحر، حتى اكتمل لهرقل السيطرة مرة ثانية علي مصر [22].

ويشير المؤرخون إلي أن المسيحيين علي اختلاف نحلهم وأهوائهم قد ترقبوا حروب هرقل ضد الفرس بقلوب واجفة خاشعة، مؤملين أن ينتصر هرقل علي أعداء المسيحية الفرس، فلما تم له النصر علي الكفار، واستخلص منهم بيت المقدس، وعاد بالصليب الأعظم أو الصليب المقدس، أعلن المسيحيون علي اختلاف مذاهبهم الفرح والسرور [23]، وعم الابتهاج كل أنحاء الإمبراطورية، وكانت هذه لحظة هامة لو اغتنمها هرقل، لأدت إلي وفاق واتحاد دائم، ونبذ الخلاف والصراع الذي استمر فترة طويلة، ولكنه أرجأ إعلان مذهبه بعض الوقت، ومر نحو ثلاث سنوات قبل أن يخرج علي الناس بصيغة التوفيق، ولم يكن يدرك أن محاولة التوفيق هذه قد يأباها المصريون، ولا يتعاطفون مع آماله في الانضواء تحت مذهب وصيغة جديدة تريدها الدولة وتحاول فرضها [24].

---

(21) Hardy: op. cit. p. 183
(22) Butler: op. cit. p. 175
(23) Theophanes: op. cit. p. 328 (Enq. Trans. P.30)
(24) Butler: op. cit. p. 175

ولهذا جاء اختيار هرقـل لقيرس ليكون بطريرقا علـي الإسكندرية. إجراء شديد الخطورة، لأن المصريين إذا أصروا علي رفـض مذهبـه الجديـد. فلن يسعه إلا أن يفرضه عليهم، ويحملهم علي قبولـه قسرا. متخـذا قـيرس أداة للتنكيل بهم، وربما لهذا منح هذا الرجل سلطات استثنائية وصلاحيـات واسعة لتحقيق هذا الفرض، بل أن هرقـل قـرر أن مـا أمـر بـه الأسـاقفة مـن مذهب جديد لابد له أن يسود بكل الوسائل السلمية وغير السلمية (٢٥). ومـن هنا جاء خطأ هرقل، مرة لعدم انتهازه فرصة الابتهاج بالنصر، ومـرة أخـري لاختيارة قيرس وتزويده بتلك الصلاحيات الكبيرة لإجبار المصريين علي قبول مذهبه والانصياع لرأيه، خاصة وقد سبقت هذا الرجـل سمعتـه إلي مصـر، إذ سبق له أن شغل منصب الأسقف الكبير في شمال شرق آسيا الصغرى، وأظهر غلظة وقسوة حملت الناس علي كراهيته (٢٦).

تلقي الأنبا بنيامين نبأ تعيين البطريرق الجديد بشيء كبير من الحذر، وذلك سنة ٦٣١م، إذ لم يستشره أحد فيمـا ينبغـي أن يتبـع في مصـر، بعـد إعلان المذهب الجديد، والتوصل إلي صيغة جديدة هـي صيغـة التوفيـق (٢٧)، ولهـذا لم ينتظـر بنيـامين قـدوم قـيرس، بـل بـادر بعقـد مجمـع ديـني في الإسكندرية لرفض المذهب الجديد، وخطب في القساوسة والرعية يحثهم علي الثبات علـي عقيدتـهم حتـى المـوت، ثـم كتـب إلي أسـاقفته جميعـا يـأمرهم

---

(25) Vasiliev. op cit Vol. 1, p. 208

(26) Diehl op cit p. 542
Hardy op. cit p. 184

(٢٧) العريني المرجع السابق ص ٣٩٩

بالهجرة إلي الصحاري والجبال المقفرة للاختباء بها، وتنبأ لهم أنهم سوف يتعرضون للظلم والعسف عشر سنوات، ثم يرفع عنهم هذا الجور [٢٨].

وما لبث الأنبا بنيامين أن تسلل تحت جنح الظلام من الإسكندرية في صحبة رفيقين فقط، فسار إلي مريوط ومنها إلي قرية مينا، ثم واصل سيره حتى بلغ الأهرام، ومنها اتخذ حافة الصحراء طريقه إلي الصعيد، حتى وصل إلي مدينة قوص، فلجأ إلي دير صغير بالصحراء غير بعيد عن المدينة [٢٩]. ويذكر المؤرخون أن هروب الأنبا بنيامين صادف الوقت الذي وصل فيه قيرس إلي الإسكندرية أو قريبا منه، ولم ترد من الإشارات ما يدل علي أن قيرس قد سعي إلي التفاهم مع البطريرق المونوفيزيتي [٣٠].

وعلي الرغم من أن قيرس تظاهر بأنه إنما جاء مسالما يبغي وحدة الكنيسة وإعادة الهدوء إليها، وراح يشرح للناس مذهب التوفيق الجديد أو المذهب المونوثلستي، ويؤكد علي أن الإمبراطورية تؤمل من ورائه إزالة ما أحدثه مجمع خلقدونيا من شقاق ديني، وجمع الخلقدونيين والمونوفيزيتيين في وحدة واحدة، إلا أن قدوم قيرس مع ذلك، أدي إلي هروب رجال الدين الأقباط، وتشريد كثير منهم، لما شاع من تزيدوه بسلطات كبيرة وجمعه السلطتين الدينية والزمنية في يده، مما جعل سلطانه مطلقا وأضعف كثيرا سلطان الأنبا بنيامين [٣١].

ويبدو أن قيرس أساء شرح مذهبه الجديد، مثلما أساء الناس فهمه، فقد اعتبر المونوفيزيتيون هذا المذهب بدعة جديدة، وذهبوا إلي أنه ما دام هذا

---

(28) Butler: op. cit. pp. 176-7
(29) Meinardus: op. cit. p. 171
(30) Butler: op. cit. p. 179
(31) Ostrogorski: op. cit. p. 97

المذهب قد سلم بأن المسيح له إرادة واحدة وفعل واحد، فإنه لابد وأن يسلم بأن له طبيعة واحدة، فلابد وأن قيرس قد جاء إلي مصر مسلما بالمذهب المونوفيزيتي، وفي نفس الوقت رأي كثير من الخلقدونيين مخالفة هذا المذهب الجديد لأسس المذهب الخلقدوني [٣٢]، فكأن هذا المذهب لم يحظ برضاء أتباع المذهبين المتنافسين، ولهذا اضطر قيرس لعقد مجمع ديني بالإسكندرية ليزيل ما علق بالأذهان حول المذهب الجديد علي الرغم مما تفجر من معارضة شديدة ضد قيرس من ناحية وضد المذهب الجديد من ناحية أخري [٣٣].

غير أن قيرس لم يظهر شيئا من الكياسة والرحمة، بل واجه المعارضة بكل قسوة وعنف تعكس ما كان يظهره من كبرياء وخيلاء، تدعمه سلطة قوية وصلاحيات واسعة، تقابلها صلابة وعناد وعدم تبصر بالأمور من قبل الأقباط، الذين كرهوا تغيير شئ من عقيدتهم أو انتقاص شئ من استقلالهم الديني، الذي ناضلوا من أجله وفي سبيله فترات طويلة [٣٤]، فعبر الأقباط عن كراهيتهم الشديدة للمذهب الجديد والنحلة التي ابتدعها بطارقة الإمبراطور في الشرق واعتبر الأقباط أن مجرد تفكيرهم في المذهب الجديد خيانة لدينهم وعقيدتهم بل استقلالهم الديني والسياسي معا [٣٥].

ولهذا اشتد قيرس كثيرا في معاملة المصريين، وأظهر غلظة وقسوة في محاولة حملهم علي قبول المذهب الجديد، ولابد وأن الإمبراطور هرقل هو الذي أمره بذلك، علي إثر ما حملته الأنباء إلي القسطنطينية من فشل سياسته الدينية في مصر، ورفض أقباط مصر مذهبه الجديد، ويأسه في حملهم علي

---

(32) Diehl: op. cit. p. 543
(33) Butler: op. cit. p. 182
(34) Hardy: op. cit. p. 184

(٣٥) العريني: المرجع السابق ص ٤٠١

إتباع ما أراد، فاستجاب قيرس للإمبراطور، وأذاق المصريين ويلات العذاب، وأظهر قسوة بالغة في اضطهادهم [٣٦].

غير أن بطريرق القسطنطينية سرجيوس، اقترح تعديلات جديدة علـي مذهب الإرادة الواحدة أو مذهب التوفيق، في وحاولة لاستمالة المعـارضين لـه خاصة في مصر، وأرسل هذه المقترحات إلي بابا روما هونريوس، طالبا موافقته علي تلك المقترحات حلا لهذه المشكلة [٣٧]، كمـا بعـث بـهذه المقترحـات إلي جميع الكنائس الشرقية طالبا موافقتها علي ذلك، كما بعث بذلك إلي قـيرس مع صليب له قدر من القداسة، كهدية حاثا إياه علـي بـذل الجـهد لحمـل الناس علي الاعتقاد في مذهب الإدارة الواحدة بتعديلاته الجديدة، إلا أن هذه الرسالة زادت حدة المعارضة في مصر، ولم تلق إلا الرفض، إذ وجد المصريـون أن الصيغة الجديدة، جاءت أكثر قبحا وأكثر مرارة من الصيغة الأولي، ولذلك لم يسعهم إلا رفضها [٣٨].

ورغم ما أصاب جـهود قـيرس مـن عـدم توفيـق في سياسـته الدينيـة، بسبب عناد المصريين وصلابتهم، فإن نجاحه في إعـادة الأمـن والاسـتقرار إلي مصر، قد فهمته العاصمة علي أنه قد نجح في إعادة الوحدة الدينيـة والهـدوء الديني، بل إن بيزنطة اعتقدت أن قيرس قـد أصـاب كثـيرا مـن النجـاح في تحقيق هذا الهدف بالذات [٣٩]، وأنـه نجـح في إعـادة الهـدوء والسـكينة إلي الكنيسة وأعاد الوحدة الدينيـة مـن جديـد إلي مصـر، ربمـا اسـتنادا إلي عـدم

---

(36) Butler: op. cit. p. 182
(37) Vasiliev: op. cit. Vol. 1, p. 222
Ostrogorski: op. cit. p. 97

(٣٨) العريني: المرجع السابق ص ٤٠١

(39) Diehl: op. cit. p. 543

حدوث قلاقل وثورات مؤثرة في تلك الفترة، أو فتن تعبر عن معارضة شـديدة أو شاملة للسياسة الدينية، خاصة بعد أن قبلت البابوية الصيغة الجديدة ووافقت عليها [٤٠]، ولهذا فقد أشارت الرسالة التي بعث بها البطريرق سرجيوس الى البابا هونريوس سنة ٦٣٤ م، أي بعد نحو سنتين من ظهور المذهب الجديد إلى أن كل سكان مصر قد اصبحوا يهتفون بصوت واحد ويؤمنون بالعقيدة الصحيحة [٤١].

ولابد وأن قيرس كان حريصا علي إقناع العاصمة بنجاحه في إعادة الوحدة الدينية إلي مصر، ولم يكن يدري ما كان ينتظره من معارضة، إذ لم تلبث الأمور أن ساءت كثيرا في مصر بسبب المعارضة الشديدة التي تفجرت من قبل الرعايا الخلقدونيين منهم قبل المونوفيزيتيين [٤٢]، فقد طلب منه الخلقدونيون ألا ينزلق إلي البدعة الجديدة، التي أسماها المونوثلستية، وألا يعتقد أن الناس قد حملوا علي الأخذ بمذهبه، أما المونوفيزيتيون، فعلي الرغم من أنهم نزعوا أول الأمر إلي الوفاق والصلح والتريث والهدوء، إلا أنهم لم يلبثوا أن أعلنوا عداءهم السافر وخصومتهم الشديدة للسلطة، ولم ترضهم الصيغة الأولي للمذهب الجديد، ولا الصيغة الثانية التي اقترحها البطريرق سرجيوس [٤٣]، وكان الأنبا بنيامين قد فر هاربا من الإسكندرية - كما سبق أن

---

(40) Chadwick: op. cit. p. 210

(٤١) ونصت الرسالة علي أن: "كل سكان الإسكندرية وكل مصر وطيبة وليبيا وسائر أقاليم القطر المصري التي سيطر عليها فيما مضي عدد لا حصر له من البدع والهرطقات، قد أضحت، بفضل الله وحماسة البطريرق قيرس متحدة تهتف بصوت واحد وتؤمن بالعقيدة الصحيحة"

(42) Ostrogorsky: op. cit. p. 97

(43) Diehl: op. cit. p. 543

أشرنا– مفضلا الأختفاء حتى تتضح الأمور، فساعد ذلك علي إعلان المصريين معارضتهم لقيرس ورفضهم لمذهبه، وكان من المتوقع أن تسوء الأحوال أكثر من ذلك في المرحلة التالية (٤٤).

وما أن شعر قيرس أنه قد أخفق في سياسته الدينية، حتى بدأت فترة هامة وخطيرة في تاريخ مصر البيزنطية، لأن قيرس لم يعبأ بما أدخل علي هذا المذهب الجديد من تعديل أو تهذيب، وإنما أخذ يعرض علي الناس أحد أمرين، إما قبول مذهب التوفيق أو التعرض للاضطهاد الشديد، خاصة وقد خضعت مصر تماما لسيطرته، وأخذ يتصرف فيها كيف يشاء، واحتل الجيش البيزنطي مواقعه في سائر أنحاء البلاد، حتى الأطراف الجنوبية، وامتد نفوذ بيزنطة إلي كل بقعة في مصر (٤٥).

رفض المصريون تهديدات قيرس وازدادوا في عنادهم، وعلي حد قول أحد المؤرخين، إذا لم يكن هناك من الدواعي ما يحمل المصريين علي محبة الفرس، فإنهم سرعان ما اكتشفوا أن الحكام البيزنطيين العائدين من جديد إلي مصر، لم يهيئوا لهم من الأسباب ما يجعلهم يفرحون لما حدث من تغيير(٤٦)، إذ لم يلبث المصريون أن تعرضوا لموجة شديدة من الاضطهاد علي أيدي قيرس والحكام البيزنطيين، أحسوا معها بمدي تسامح الفرس، وكيف أن الفرس أجازوا لهم حرية العبادة، ولم يتدخلوا في طقوسهم أو شعائرهم، فلما عاد البيزنطيون نزعوا منهم هذا الامتياز، وجدوا في فرض مذهب جديد عليهم، لم يكن يلقي لديهم القبول (٤٧).

---

(44) Vasiliev: op. cit. Vol. 1, p. 222
(45) Butler: op. cit. p. 183

(٤٦) العريني: المرجع السابق ص٤٠٣

(47) Diehl: op. cit. p. 543

استمر اضطهاد قيرس للمصريين نحو عشر سنوات، تعرض خلالها المصريون للضرب الشديد والجلد ولسع العقارب والتعذيب، وتصاعد الاضطهاد حتى وصل إلي السجن والنفي والقتل والتنكيل، إذ كان قيرس – علي حد ما ورد في الوثائق القبطية – بالغ القسوة والعنف، نزعت من قبله الرحمة، بدأ اضطهاداته بعد نحو شهر أو شهرين من انعقاد مجمع الإسكندرية الديني، الذي عقد في أكتوبر سنة ٦٣١م (٤٨)، وما وصل إلينا من معلومات وروايات وردت في سير القديسين، المنتمية إلي هذا العصر، تنبئ بمدي ما نزل بالناس من تعذيب وتنكيل، حتى وصف قيرس في تلك الروايات بالكافر والزنديق، وبأنه غير خليق بإقامة الشعائر والطقوس، ولهذا فقد أجمعت مصر كلها علي كراهية هذا الرجل (٤٩).

وتؤكد الروايات أن صمود المصريين أمام هذه الاضطهادات كان عظيما كعادتهم، وأن القسوة والعنف لم تنل من ثبات المؤمنين أو تفت في عزائهم، وأعطت الأمثلة علي ذلك، فقد تعرض مينا أو ميناس شقيق الأنبا بنيامين لتعذيب وتنكيل لم يجر مثله إلا في عهود الوثنية، إلا أن ذلك لم ينل منه أو يوهن عزيمته، فقد أوقدت النيران تحت جسده، الذي أخذ يحترق " حتى سال دهنه من جنبيه إلي الأرض" (٥٠)، ولكن إيمانه لم يتزعزع، فنزعوا أسنانه، ثم وضعوه في حقيبة مملوءة بالرمل، وأوغلوا به في البحر، وراحوا يعرضون عليه الحياة إذا هو آمن بما أقره المجمع الديني، إلا أنه أصر علي الرفض، فتركوه يغوص في البحر حتى مات غرقا، وأكدت الرواية علي انهم

(48) Butler· op. cit. p. 183
(49) Diehl· op. cit. p. 544
(50) Butler. op. cit. p. 184

بذلك الفعل "لم يقهروا ميناس الذي اختار أن يموت شهيدا، بل دللوا علي ما اشتهر به المصريون من صبر وجلد وتضحية في سبيل العقيدة" (٥١)

أما صمويل القلموني، فقد حمل إلي قيرس مكتوف الأيدي وقد وضع في عنقه طوق من الحديد ودفعوا به كما يدفع اللصوص، فأمر قيرس جنده أن يضربوه ضربا مبرحا حتى سال دمه كما يسيل الماء (٥٢)، وعلي الرغم من ذلك قال صمويل "إن البر في طاعة الله وطاعة البطريرق بنيامين وليس في طاعة قيرس أو الدخول في مذهبه الشيطاني" (٥٣)، وعندئذ أمر قيرس رجاله أن يضربوه علي فمه حتى لا يتحدث، إلا أن ذلك كله لم يمنعه من أن يعلن إنكاره لمذهب خلقدونيا وما ترتب عليه من نحل، قائلا "لعن الله المرسوم الكافر الذي أصدره الإمبراطور الرومي، لعن الله كل من يقبله أو يتبعه"، فكان جزاءه التعذيب والتنكيل حتى صار هذا الرجل بعد ذلك قديسا في أعين المصريين (٥٤).

وتعرض الناس في الدلتا ووادي النيل فضلا عن رهبان الأديرة ورجال الدين للاضطهاد الشديد، إذ أعلن قيرس ومعاونوه أن كل من يرفض التخلي عن مذهبه أو يفكر في منازعة قيرس رأيه أو التصدي لأمره تعرض للجلد والتعذيب أو ألقي به في السجن أو لقي حتفه، إذ لا بديل عن الانصياع للسلطة ولا رجعة عن الاضطهاد والتنكيل (٥٥). وأتبع قيرس هذا بوضع أساقفة خلقدونيين في سائر مدن القطر المصري، بعد أن تقرر طرد الأساقفة المصريين

---

(٥١) العريني المرجع السابق ص٤٠٤

(52) Diehl. op cit p 544
Butler op cit pp. 186-188

(٥٣) العريني نفس المرجع ص٤٠٤

(54) Meinardus: op cit. p 145
(55) Butler. op cit p 188

من كراسيهم الدينية، وطرد الرهبان من أديرتـهم، بـل تعـرض بعـض رجـال الدين للقتل والتشريد، ومن نجي منهم التمس الاختفاء في أمـاكن نائيـة (٥٦)، وجد قيرس وزبانيتة في البحث عن الأنبا بنيامين، إلا أنهم أخفقوا في العثـور عليه، إذ يبدو أنه راح يتنقل من مكان إلي آخـر، ومـن ديـر إلي ديـر، حتـى وجد ملاذا آمنا في طيبة– علـي الأرجـح– مثلمـا حـدث حـين لجـأ القديـس أثناسيوس– منذ قرون– إلي طيبة أيضا فاختفي فيها عن أعين السلطات ووجد فيها ملجأ آمنا (٥٧).

علـي حـين ظـل في الإسـكندرية بقيـة ممـن واصلـوا ممارسـة الشـعائر المونوفيزيتية، خلال هذه الاضطـهادات، وعلـي مـدي نحـو عشـر سـنوات، وأشارت الروايات إلي تفنن بعضهم في الإفلات من السلطات ومواصلـة القيـام بواجبهم الديني(٥٨)، فذكرت أن قسا من أهـل مريـوط كـان يتسـلل نـهارا إلي الإسكندرية في لباس نجار، فإذا جاء الليل توجـه إلي الكنيسـة ليقيـم شـعائر العبادة المونوفيزيتية لإخوانه الأقباط، الأمر الذي حفظـه لـه المونوفـيزيتيون، حتى صار هذا القس فيما بعد من أخلص أصدقـاء الأنبـا بنيـامين، وفي نفـس الوقت بقي دير بالقرب من الإسكندرية علي مقامته للبطريرق قيرس، لأن كل رهبانه كانوا من المصريين وليس فيه أحد من الغرباء (٥٩).

وعلي الرغم من وجود هذه النماذج الطيبة، وما حفلت به الوثائق مـن نماذج أخري مشرفة، فإن فئة من الناس ورجال الدين لم تسـتطيع الإفـلات من العقوبة من ناحية، ولم تتحمل التعذيب في نفس الوقت أو تصمد للتنكيل

(56) Meinardus: op. cit. p. 171
(57) Hardy: op. cit. p. 186
(58) Diehl: op. cit. p. 544

(٥٩) العريني: المرجع السابق ص ٤٠٥ – ٤٠٦

من ناحية أخري. فاضطروا للاستجابة لأوامر قيرس وزبانيتة وقبلوا المذهب الجديد (٦٠)، ومنهم من أغرته الوعود بالمناصب والمال، فهلل لهذا المذهب طامعا مؤملا، ومن هؤلاء أسقف نقيوس وأسقف الفيوم، بل إن هذه العدوي تفشت في غيرهم من الأساقفة ورجال الدين، علي الرغم من استمرار المقاومة المصرية للاضطهاد والتنكيل (٦١)

ولما استمرت اضطهادات قيرس للمصريين، وغالي في ذلك كثيرا، أثار سخط الناس ورجال الدين وكراهيتهم، فاجتمع نفر منهم في إحدى الكناس بالقرب من مريوط، وخططوا لاغتياله وتخليص مصر من شروره، غير أن خبر هذه المؤامرة تسرب إلي مسامع أحد قادة البيزنطيين ممن اشتهروا بعدائهم الشديد لأقباط مصر، الذي سارع بقمع هذه الفتنة والقبض علي رءوسها، فأمر بقتل عدد منهم، وقطع أيدي جماعة أخرى منهم، دون محاكمة وأفلتت فئة ثالثة من هذه المذبحة بعد أن أصابتها الجراح(٦٢).

وتذكر الروايات أن الأنبا بنيامين كان خلال اختفائه متتبعا لنشاط إخوانه وهو في مكمنه، مشجعا للمقاومة المشرفة التي أبداها المونوفيزيتيون، علي الرغم مما كان يصله من أنباء الشدائد التي كانت تتوالى على هؤلاء الصامدين من الأقباط، وأخبار المحن التي كانوا يتعرضون لها، ومع ذلك كان بنيامين يذكى روح المقاومة ويشجع على استمرارها بحماسته المعهودة وصموده النادر، ليظل الشعب المصري ثابتا مقيما على الإيمان، رغم تصاعد موجات

---

(60) Butler: op. cit. p. 189
(61) Hardy: op. cit. p. 186
(62) Diehl: op. cit. p. 544

البطش وازدياده عن الحدود، بما يمحو كل أمل في عودة السلام والهدوء إلي ربوع البلاد، ويضيع كل فرصة لعوده الوفاق بين الطائفتين المتنازعتين[٦٣].

ويعلق المؤرخون المحدثون علي كل هذه الأحداث بأن هرقل كان يقصد في أول الأمر إلي هدف نبيل، إذ كان يتطلع إلي الوحدة الدينية، وعودة الأمن والسلام والاستقرار إلي الكنيسة، وأن يشمل هذه برعايته ويهيأ لها ما هيأه للدولة من أمن وأمان، غير أنه فاته أن يدرك ما كان للمصريين من قدرة علي الثبات، خاصة في كل ما يتعلق بالدين والعقيدة، كما فاته إدراك قدر صلابة المصريين وعنادهم في كل هذه الأمور، لأن الدين -كما يقول أحد المؤرخين- قد خالط منهم اللحم والدم، فإذا شاء أن ينتزعه منهم بالقوة، كان عليه أن ينزع لحومهم ودماءهم [٦٤]، يضاف إلي ذلك أنه لم يكن موفقا في اختيار الرجل الذي يعهد إليه بتحقيق هذا الوفاق، أي أنه أساء اختيار الأداة التي يمكن أن تحقق أغراضه، فقد أرسل إلي مصر طاغية وليس حاكما، وأرسل جبارا وليس بطريرقا، لم يع هدف الإمبراطور ورسالته عن سلام الكنيسة، كما لم يحاول أداء ما عهد إليه من مهام بأسلوب طيب أو بطريقة مقبولة [٦٥].

فلما عجز قيرس عن تحقيق أهدافه واضطر إلي الانغماس في حركة اضطهاد عنيفة، أقره هرقل علي ذلك، فكان هذا خطأ هرقل الثالث، إذ يبدو أن هرقل لم يستطع قبول الفشل، ولم يكن بوسعه تصور خيبة الأمل، وضياع ما كان يؤمله من الوحدة والوفاق في مصر، وكفالة الأمن واستقرار الأوضاع في تلك الولاية الهامة [٦٦]، ولهذا استمر في خوض تلك المعركة التي لم يكن

---

(63) Butler: op. cit. pp. 191-2

(٦٤) العريني: المرجع نفسه ص ٤٠٦-٤٠٧

(65) Hardy: op. cit. p. 186

(66) Butler: op. cit. p. 192

يدري أنها خاسرة لا محالة، فقد أدرك ذلك بعد فوات الأوان، وبعد أن مهد السبيل في مصر والشام لنجاح الفاتحين وجنود الإسـلام لتحقيـق انتصاراتـهم الباهرة في تلك الأقطار علي حساب الإمبراطورية البيزنطية ورصيدهـا المتدنـي من ولاء الشعوب في تلك الأقطار [٦٧]

(67) Ostrogorski: op. cit. p. 98
Vasiliev: op. cit. Vol. 1, p. 223

الفصل السادس عشر

فتح العرب لمصر

الفصل السادس عشر

فتح العرب لمصر

حين استسلمت مدينة بيت المقدس للعرب سنة ٦٣٨م / ١٧-١٨ هـ، أصر بطريرقها ألا يسلم مدينته إلا للخليفة عمر بن الخطاب نفسه [١] ،وفعلا حضر عمر وتسلم منه المدينة، ثم سار صوب الشمال وبصحبته عمرو بن العاص، إلى مقر قيادة المسلمين في الجابية ، جنوبي دمشق ، للاجتماع بقادته ورجالة ، ويبدو أن عمر بن الخطاب قد فوتح في موضوع فتح مصر وهو في الجابية ، وكان عمرو بن العاص أكثر القادة حماسا لهذا المشروع وأشدهم حرصا على إتمامه [٢]، لما كان يعرفه عن مصر من رخاء وثراء ، وضعف في نفس الوقت عن الدفاع عن نفسها ، نتيجة سياسة الروم بها ، فضلا عن أنه أدرك بفطرته وهو القائد الطموح أن سلامة العرب في بلاد الشام رهن بالاستيلاء على مصر ، والحيلولة بين البيزنطيين وبين اتخاذها مركزا للهجوم من جديد على بلاد الشام [٣] . ومما قاله عمرو في هذا للخليفة عمر "يا أمير المؤمنين إذا أردنا البقاء في الشام فعلينا بفتح مصر "، فلابد و أنه أدرك أيضا أن مصر والشام كثيرا ما خضعتا في العصور المختلفة لحاكم واحد لأن كلا منهما يتمم الآخر، ولأنه لا يمكن اعتبار الحدود بينهما حدودا فاصلة، كما

---

(1) Vasiliev: op. cit. Vol. 1 , p. 211

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص٥١ (ط هنرى ماسيه -المعهد الفرنسي- القاهرة ١٩١٤)

(٣) الكندى: الولاة والقضاة ص٧

أنهما يقعان على طريق التجارة العالمية بين الشرق والغرب، فكانت تربطهما دوما مصالح تجارية وحربية واحدة ومصيرهما كان دائما مصيرا واحدا .(٤)

وتشير الروايات إلى أن عمرو بن العاص أوضح للخليفة سهولة فتح مصر في ذلك الوقت ، وخوفه كذلك من بقائها في أيدي البيزنطيين (٥) ، لاسيما وأن اريتيون Aretion حاكم بيت المقدس البيزنطي ، كان قد لجأ إليها بعد سقوط بيت المقدس ، وراح يحشد الجند بها لمنازلة المسلمين مرة ثانية،ويعد العدة للهجوم عليهم في بلاد الشام ، فينبغي الإيقاع به قبل أن يستفحل خطرة ويستعصي أمره(٦)، إذ يمكن أن تحصر القوات الإسلامية بين شقي الرحى ، بين جيوش يمكن أن تأتي من الشمال وجيوش قد تزحف من الجنوب من مصر . وقد عقد مؤتمر الجابية هذا بالقرب من دمشق في خريف سنة ٦٣٩م، أي خلال قيام المسلمين بحصار قيسارية .(٧)

ويبدو أن الخليفة عمر بن الخطاب ، فكر مليا في المشروع الذي عرض علية لفتح مصر ، بل تردد في إجابة عمرو إلى مطلبه ، وتريث في ذلك ربما لضخامة المشروع من ناحية ، ولعدم اطمئنانه إلى كفاءة عمرو بن العاص من ناحية أخري ، لا سيما أن عمرو لم يكن قد أكد عظمته وكفاءته كقائد كبير بعد، كما يبدو أن عمر اقتنع في النهاية بالفكرة (٨)، خاصة وقد كانت مصر في نظره قريبة من بلاد العرب، واشتهرت بوفرة خيراتها وثرائها ووفرة الحبوب بها والقمح اللازم لأهل الجزيرة العربية ،ويمكن لها أن تضيف إلى قوة العرب

---

(4) Camb. Med. Hist. Vol. 2, p. 349

(٥) محمد الشيخ : تاريخ مصر الإسلامية ص١٦ (ط ١٩٩٨)

(6) Butler : op. cit. p. 195

(7) Camb. Med. Hist. Vol. 2, p. 349

(٨) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى ج٢، ص ١٦٨- ١٦٩

الناشئة قوة أخرى ،وأن تؤمن وجودهم في بلاد الشام ،وتحرم بيزنطة من قاعدة عسكرية هامة بموانيها الهامة لا سيما الإسكندرية ،ومما قاله عمرو بن العاص أيضا في ذلك "أنها أكثر الأرض أموالا "(٩).

وتكثر القصص والروايات حول الظروف والملابسات التي أذن فيها عمر ابن الخطاب لعمرو بالمسير إلى مصر ، واكثر هذه القصص شيوعا أن عمر بن الخطاب سير عمرو بن العاص لفتح مصر، وكان لا يزال مترددا ،فاتفق معه على أنه سوف يستخير الله تعالى في هذا المشروع ثم يرسل إلي عمرو كتابا(١٠)، "فإن أدركك كتابي وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها ،فانصرف، وان كنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهتك واستعن بالله واستنصره" ،ونظرا لتحمس عمرو لهذا الموضوع فقد تعمد ألا يتسلم كتاب الخليفة من الرسول، إلا بعد أن دخل أرض مصر فعلا، ليمضي في مشروعه، حتى لو كان الخليفة قد .أمره بالانصراف عنها، كما جرى الاتفاق بينهما(١١).

سار عمرو بن العاص على رأس جيش صغير يتراوح– حسب أقوال الرواة – بين ثلاثة وأربعة آلاف مقاتل (١٢)،معظمهم من الفرسان، لكن يبدو أنه اخذ يتزايد باستمرار بانضمام أعداد كبيرة من عرب جنوب فلسطين وسيناء وشرق الدلتا ، وهى الجهات التي كانت تعمرها في ذلك الوقت قبائل عربية كثيرة ، وبطون من قضاعة وبنى راشدة وقبائل أخرى من لخم

---

(٩) الكندى: الولاة والقضاة ص٧

(١٠) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص ٥٣

(١١) بتلر: فتح العرب لمصر ص١٧٤ (ترجمة محمد فريد أبو حديد)

(١٢) البلاذى. فتوح البلدان ص٢١٢ ، اليعقوبى: تاريخه ج ٢ص ١٦٨

وجذام[١٣]. ولم تصادف عمرا مقاومة أو اعتراض حتى بلغ رفح على مرحلة واحدة من العريش بأرض مصر ، ثم استولى عمرو على العريش في أوائل سنة ٦٤٠م/أوائل سنة ١٩هـ ، ثم سار بعد ذلك إلى الفرما (بلوزيوم) شرقي بورسعيد الحالية، وكانت تقع على رأس الطريق الصحراوي القديم المؤدى إلى مصر [١٤].

وكان قيرس (المقوقس) قد اتخذ في السنوات السابقة على الفتح العربي بعض التدابير للدفاع عن البلاد وحمايتها ، إذ حفر خندقا حول حصن بابليون ، واهتم بالحصون الأخرى ، ورمم أسوار كثير من المدن التي خربها الفرس في غزوهم لمصر ،ولكن على الرغم من ذلك فقد أصاب الجيش البيزنطي في مصر ضعف شديد في الفترة السابقة للفتح العربي[١٥]، وتولى قيادة الجيش في مصر القائد تيودور ولم يكن هذا القائد يتميز عن سائر نوابه ومرءوسيه الذين قلت خبرتهم العسكرية وانعدم تقريبا فكرهم العسكري ،ولذلك ليس عجيبا أن يرد في البرديات المصرية ما ينبئ عن ضعف الجيش البيزنطي في مصر ونقص الاستعدادات الحربية في مواضع أخري كثيرة في مصر وضحالة خطط الدفاع عن البلاد [١٦].

فمدينة الفرما (بلوزيوم) تلك المدينة القديمة التي كانت تقع على مصب فرع النيل البيلوزى، والتي كانت تعتبر مفتاح مصر من جهة الشرق ، لإشرافها على الطريق الممتد عبر الصحراء إلى مصر، لم تكن مع ذلك مدينة منيعة إذ يبدو أن الفرس خربوا أسوارها وحصونها ، وهدموا كنائسها أثناء

---

(١٣) محمد الشيخ : تاريخ مصر الاسلامية ص١٩

(14) Diehl: op. cit. pp. 544 - 545
(15) Wiet: Histoire de la Nation Egyptienne, T. IV, pp. 15 - 16
(16) Hardy: op. cit. p. 187

تقدمهم قبل نحو عشرين عاما من هذا الوقت (١٧)، ولهذا استطاع عمرو أن يستولي عليها بعد حصار لم يستمر أكثر من شهر واحد بعد مقاومة باهتة ، على الرغم من قلة خبرة العرب في اقتحام الحصون ودكها ، فسقطت في أيدي العرب في يناير سنة ٦٤٠م / أوائل سنة ١٩هـ (١٨).

وبالاستيلاء على الفرما اطمأن عمرو بن العاص إلى تأمين خط مواصلاته مع بلاد العرب وطريق العودة إذا قدر وحلت بجنده هزيمة ، ولهذا اتجه بعدها إلى الجنوب الغربي، فسلك الطريق الذي يحاذى الحافة الشرقية للدلتا، وهو الطريق الذي سبق أن سلكه الفرس من قبل، حتى بلغ بلبيس ولم تجد نفعا مقاومة البيزنطيين فيها ، إذ لم تلبث بلبيس أن سقطت هي الأخرى ، في أيدي العرب بعد نحو شهر آخر (١٩)، استطاع عمرو في نهايته أن يلحق الهزيمة بحامية الروم فيها ،ويتقدم بعد ذلك بخطى ثابته نحو نهر النيل، إلى موضع يقع إلى الشمال من حصن بابليون ، أطلق علية المؤرخون العرب اسم قرية أم دنين ، وورد في كتاب حنا النقيوسى باسم Tendunias(٢٠).

وصل عمرو بن العاص إلى قرية أم دنين في مايو سنة ٦٤٠م / جمادى الأولى سنة ١٩ هـ، فأدرك القائد البيزنطي تيودور وكذلك قيرس أن الأمر في غاية الخطورة، وينبغي التفكير في الدفاع عن حصن بابليون، ومنع سقوطه في أيدي العرب لما اشتهر به هذا الحصن من أهمية وما كان له من موقع يمكن أن يكون سقوطه تهديدا لمصر كلها، فقد كان يجاوره مرفأ علي النيل ترسو

---

(17) Butler: op. cit. p. 210
(18) Diehl: op. cit. p. 545

(١٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص٥٦

(20)The chronicle of John Bishop of Nikiu , CXII, p. 180

فيه السفن، للدفاع عن الحصن باعتباره مركز الدفاع البيزنطي عن مصر كلها، ولهذا عاد تيودور وقيرس إلي الحصن ينظمان الدفاع فيه، ويحشـدان القوات للذود عنه[٢١]، ويبدو أن عمرو أحـس بـدوره بعظـم المقاومـة في تلك البقعـة، فأرسل إلي الخليفة عمر بن الخطاب يستنجد به ويطلب المدد، بعد أن أدرك أنه ليس بوسع من بقي معه من جند الاستيلاء علي ذلك الحصن أو المضي في محاصرته[٢٢]، ولذا قرر عمرو الاتجاه نحو إقليم الفيوم ريثما يصل المدد الـذي وعد الخليفة بإرساله، ولم يجد عمرو صعوبة كبيرة في اجتياح إقليـم الفيـوم، وإنزال هزيمة ساحقة بقوات بيزنطة هناك، وفي نفس الوقت حاز عمرو غنائم وفيرة من تلك الغارة[٢٣].

وفي الوقت الذي احتشدت فيه قوات بيزنطية كبيرة في حصن بـابليون جمع شطر منها من سائر أنحاء القطر المصري، وجاء الشطر الآخر كإمدادات من القسطنطينية، وهرع إلى الحصن القائد البيزنطي تيودور ومعـه البطريريـق قيرس، وصل المدد الذي أرسله الخليفـة لتعزيـز قـوات عمـرو بـن العـاص في مصر، وتضاربت الروايات بشأن عـدده، فقيـل أنـه بلـغ نحـو خمسـة آلاف جندى، وقيل بلغ نحو اثني عشر ألف جندي، ولكن يبدو أن الروايـة الأولي هي الأقرب إلي الحقيقة، وكان علي رأس هذا المدد أربعة من كبـار الصحابـة هم: الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت والمقداد بن الأسود ومسلمة بن مخلد وقيل خارجة بن حذافة بدل مسلمة [٢٤].

---

(21) Butler: op. cit. pp. 216 - 17

(٢٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص ٥٦.

(23) The Chronicle of John Bishop of Nikiu, CXII, pp. 180-1.

(٢٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٣ ، ابن عبد الحكم . فتوح مصر ص٥٦

وكان حصن بـابليون يقـع جنوبـي عـين شمـس، في مواجهـة جزيـرة الروضـة، ويعـد هـو والمنطقـة مـن حولـه مركـز القـوة الحقيقيـة في مصـر البيزنطية[٢٥]، وكان عمرو قد اتخذ من هليوبوليس قـاعدة لجيوشـه لما توافـر فيها من الماء وبعض المؤن، وإذا كان جيش عمرو قد تراوح عدده ما بين عشرة واثني عشرة ألف جندي، أو خمسة عشر ألف جندي في بعض الروايات[٢٦]، بما انضم إليه من المدد، فإنه ليس من المعروف تماما عدد جنود بيزنطة تحت قيادة تيودور، ولكن من المعروف تماما أن تيودور كان قد سحب أعدادا كبيرة من العساكر المرابطة بمدن الدلتا، حتى يتوافر لديه من القوة ما يكفـي لطـرد العرب من هليوبوليس[٢٧]، ولهذا فقد لقي عمرو ومـن معـه عنـاء شـديدا لقلـة عددهم من ناحية، وقلة الأقوات من ناحية أخرى، واضطر عمـرو إلى إرسـال السرايا لجلب المؤن من الجهات المجاورة، ولكن بعد وصـول المـدد ارتفعـت روح العرب المعنوية وقويت عزائمهم، وبدأ عمرو يعد العدة لمعركة فاصلة مـع الروم في مصر[٢٨].

---

(٢٥) يقع الآن جنوب القاهرة في المنطقة المعروفـة الآن بمصـر القديمـة، ولازالـت بعـض بقاياه موجودة من جانبين اثنين، كما بقي من أبراجه المرتفعـة السـميكة برجـان، يقع بينهما الباب العظيم القديم، فضلا عن أجزاء من الأسـوار المتينـة، وكـان مـاء النيل يجري تحت أسواره، والسفن ترسوا تحتها، وكان للحصن باب يطـل علـى النـهر لعلـه كـان بـين البـرجين الكبـيرين، وكـان النيـل يصـل إلى البـاب الأكـبر الجنوبي، وإلى مرسى السفن. انظر العريني : المرجع السابق ص ٤١٢-٤١٣

(٢٦) جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية ج١ ص ١٥-١٦، والعريني: نفس المرجع ص ٤١١

(27) Butler: op. cit p 225

(٢٨) ابن عبد الحكم . فتوح مصر ص ٦١

ولما تأكد عمرو بن العاص أن أمر الروم سيطول خلف أسوار الحصن، عمل على جذبهم إلى الخارج للدخول معهم في معركة فاصلة، لا سيما وأن المسافة بين الحصن وهليوبوليس لا تزيد على ستة أو سبعة أميال(٢٩)، فوضع خطة فيها كثير من المكر والدهاء، إذ قسم جيشه إلى عدد من الفرق، وجعل بعض هذه الفرق في كمائن خلف تلال رملية وبعض الكثبان والسواتر، على حين جعل فرقة أخرى تهاجم الحصن وتتظاهر بالانهزام، حتى يخرج البيزنطيون في إثرها(٣٠)، وحين اندفعت القوات البيزنطية خلف الفرقة المنهزمة ووصلت إلى مكان الكمائن، برزت لها الفرق الأخرى من مكامنها، فأبادت أغلبها وشتت شمل الباقي منها، ولاذ فلول الروم بالحصن، على حين هامت جموع كثيرة منهم في مصر السفلي. وهكذا لحقت الهزيمة بالبيزنطيين فيما عرف بموقعة عين شمس أو هليوبوليس، وهي التي حدثت في منتصف يوليو سنة ٦٤٠م أي في رجب سنة ١٩هـ، وقررت هذه الموقعة مصير مصر كلها(٣١).

أفاد العرب من هذا الانتصار، فأصبحوا يسيطرون على شاطئ النيل شمالي وجنوبي حصن بابليون، ونقلوا معسكرهم من هليوبوليس إلى موضع شمال الحصن وشرقه، بين البساتين والكنائس، أي في الموضع الذي أقيمت فيه - فيما بعد- مدينة الفسطاط ، يضاف إلى ذلك أن أضحى للعرب فرصة إحكام الحصار على حصن بابليون(٣٢).

---

(29) Diehl: op. cit. p. 546
(30) The Chronicle of John Bishop of Nikiu, CXIII, p. 181
(31) Butler: op. cit. p 233

(٣٢) العريني: المرجع السابق ص ٤١٢

ويبدو أن وقع الهزيمة كان ثقيلا على بقية الحاميات البيزنطية في مصر، إذ فزع حاكم الفيوم الرومي على إثر ما بلغه من أخبار انتصار العرب وتداعي قوة الروم،فترك مدينته ليلا وفر إلى نقيوس في الشمال تاركا مدينته دون حام أو مدافع. فأرسل عمرو إليها فرقة من جيشه أدخلتها في طاعة المسلمين في صيف نفس العام ٦٤٠م /١٩هـ ، كما غزت فرقة عربية أخرى إقليم وسط الدلتا، حتى منوف الحالية منتهزة فرصة الهلع الذي أصاب الحاميات البيزنطية. والفزع الذي سيطر عليها، حتى بدأ كثير من السكان يهربون مذعورين نحو الإسكندرية، وأخذ كثير من الأقباط منذ ذلك الوقت يقدمون المساعدة للمسلمين(٣٣).

غدا بوسع عمرو بن العاص بعد انتصاره في عين شمس تشديد الحصار على الحصن، إذ لم يكن يستطيع أن يمضي نحو الشمال في إثر الذين هربوا إلى الإسكندرية بسبب ارتفاع مياه النيل في أواخر شهر أغسطس من ناحية، ولأنه لم يكن يأمن مهاجمة البيزنطيين له من هذا الحصن من ناحية أخرى، فهاجم عمرو الحصن من جميع جهاته، ونصب عليه منجنيقات، وإن أعوزته الأدوات الأخرى للحصار، فلم يكن لدى العرب إلا ما غنموه من البيزنطيين أثناء قتالهم في الفيوم ومنوف(٣٤)، وتذكر الوثائق والروايات أن الحامية البيزنطية في بابليون كان عددها حينئذ يتراوح بين خمسة آلاف وستة آلاف مقاتل، وعلى رأسها القائد تيودور والبطريرق قيرس، وبرز من قادة البيزنطيين خلال الحصار إلى جانب تيودور قائد يدعي أوقيانوس، وذكرت الرواية العربية قائدا آخر أسمته الإعيرج، وهرع إلى الحصن جماعات من

---

(33) The Chronicle of John Bishop of Nikiu, CXIII,p.181
(34) Diehl· op cit p 547

الأهالي من غير الجند من المناطق المحيطة ومن الأديرة المجاورة، فضـلا عـن جماعات من جند الأقباط ومقدميهم(٣٥).

ثم اشتد حصار العرب للحصن وازداد صبرهم في الحصـار، وفي نفس الوقت أخذت مياه النيل تتدفق في الخندق المحيط بالحصن، وأدت شدة بأس العرب في القتال إلى ضعف عزيمة البيزنطيين داخل الحصن وانخفاض روحهم المعنوية ، وثار بينهم النزاع واحتدم الخلاف، ولما يمض على بدايـة الحصـار شهر واحد، فاشتد جزع الجنـد بـالحصن واضطربـت قيـادة البـيزنطيين(٣٦)، وأحس قيرس بعبث المقاومة فجمع من يثق فيهم من رءوس الحـرس وأسـقف بابليون واستشارهم في الأمر وذلك في أوائل شـهر أكتوبـر سـنة ٦٤٠م، وبسـط لهم الأحوال وأبدي لهم رأيه، وخلص إلى أن المعركـة خاسـرة لا محالـة وأن سقوط الحصن أمر لا مفر منه، وأنه لا يتوقع قـدوم إمـدادات لنجدتـهم قبـل مضي عدة أشهر، وأن الحكمة تقضي ببذل المال للعرب مقابل جلائـهم عـن البلاد(٣٧)، وبذلك يمكن حفظ مصر البيزنطية. فاستقر الرأي على طلب الصلح من العرب والاتصال بعمرو للمفاوضـة، وغادر قيرس الحصن إلى جزيرة الروضة ، وأمر بقطع الجسر الذي يصلها بالحصن، ولحق به الأعيرج في نفر قليل من أعوانه، فاتخذوا الروضة مقرا لقيادتهم(٣٨).

أرسل قيرس جماعة من أصحابه منهم أسقف بابليون لبدء المفاوضـات مع عمرو بن العاص، فاختار عمرو وفـدا مـن رجالـه علـى رأسـه عبـادة بـن الصامت، الذي عبر في حديث بليغ عن روح العرب الأصيلة في الجهاد طـرح

---

(35) Butler: op. cit. p. 225
(36) The Chronicle of John Bishop of Nikiu, CXIII, pp.186-7
(37) Diehl: op. cit p.457, جمال الدين الشيال: المرجع السابق ص ١٨–١٩
(٣٨) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص ٦٥

في نهاية حديثه شروط العرب الثلاثة: الإسلام أو الجزية أو القتال[٣٩]، فمال قيرس إلى الجزية على الرغم من أنها أثارت معارضة شديدة تزعمها الوالي البيزنطي جريجوري، الذي طلب من قيرس الرفض وأكد عزمه على القتال، فانقطعت المفاوضات واستمرت المقاومة، وحاول البيزنطيون القيام بهجوم مضاد لرد العرب عن أسوار الحصن، غير أنهم فشلوا في ذلك، ولقي كثير منهم مصرعهم وارتدوا إلى داخل الحصن[٤٠].

حدث كل ذلك وقيرس لا زال يميل إلى الإذعان والتسليم، ويرضي بدفع الجزية، ولذلك اتخذ من فشل البيزنطيين في هجومهم وسيلة للضغط على المعارضين لاستئناف المفاوضات من جديد مع العرب، فتم الاتصال مرة ثانية بعمرو بن العاص، وتقرر عقد الصلح على أن يبعث به قيرس إلى الإمبراطور هرقل، فإن أقره جرى تنفيذه. ويقضي هذا الصلح بقبول قيرس الاستسلام ودفع الجزية، وأن تبقى الجيوش حيث هي، وتتوقف الأعمال العدائية، ويظل الحصن بأيدي الروم إلى أن يقر هرقل شروط الصلح[٤١].

وتذكر الروايات أن قيرس توجه بعد ذلك إلى الإسكندرية، فأرسل منها إلى القسطنطينية تقريرا وافيا عن الموقف في مصر، وشرح الظروف التي اضطر معها لقبول هذا الصلح والضرورة التي ألحت عليه لتوقيع هذه الاتفاقية المبدئية مع العرب، وطلب من الإمبراطور والحكومة البيزنطية إقرار الصلح. غير أن بيزنطة تلقت هذه الرسالة بفتور شديد، وكان رد فعلها بالغ السوء، خاصة وأن الإمبراطور هرقل كان قد وجه قبلها بشهور اللوم إلى قادته

---

(٣٩) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢١٣

(40) Diehl op. cit. p. 548

(٤١) محمد الشيخ: تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٢-٢٣

في مصر، وإلى نائبه في حكمها قيرس،لإهمالهم في الدفاع عـن مصـر [٤٢]،حتـى استطاعت فئة قليلة من العرب أن ترفع ألويتـها في تلـك الولايـة البيزنطيـة الهامة، وتتغلب على جيوش الإمبراطورية ، فإذا بقيرس يرسـل للإمـبراطور شروط صلح مبهمة لا يدري ماذا يقصد بـها هـل يقصـد بـهذا الصلـح رشـوة العرب بمال مقابل الجلاء عن البلاد، أو أن قيرس يسلم لهم بـامتلاك مصـر بما تحويه من خيرات وثروة وقمح [٤٣] ولهذا قـرر الإمـبراطور استـدعاء قـيرس نفسه إلى القسطنطينية ليشرح الموقف ويبرر هذا التصرف الـذي بلـغ في نظـر الإمبراطور حد الخيانة [٤٤]، ويشـير المؤرخـون المعـاصرون إلى أن الإمـبراطور أساء استقبال قيرس، ولم يقتنع بما شرحه مـن أن المقاومـة البيزنطيـة بـاتت مستحيلة، وبما قدمه من تبريرات لتصرفـه، وبمـا أبـداه مـن أن العـرب قـد يجبرون- فيما بعد- علي الخروج من مصر، وأن ما أزمع دفعه من جزيه لهم يمكن تدبيرها بفرض ضريبة علي متاجر الإسكندرية وسلعها، فيعـوض بذلـك ما قد تخسره خزائن الدولة من أموال [٤٥]، إلا أن ذلك كله لم يشفع لقيرس، إذ اشتد الإمـبراطور في لومـه وتوبيخـه، لأنـه فـرط في ثـروة مصـر وذهبـها، لتنساب إلي أيدي العرب، ووصفه بالخسة والنذالة واتهمه بالخيانة ، ونعتـه بـالجبن والكفـر، وأمـر في النهايـة بعزلـه مـن منصبـه، وسـلمه إلي حـاكم القسطنطينية الذي عرضه للمهانة، وأمر بنفيه من البلاد [٤٦].

---

(٤٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص ٦٤-٦٥،

Butler op. cit. p. 262

(٤٣) العريني. المرجع السابق ص ٤١٦

(44) Diehl op cit p. 548
(45) Butler op cit p. 264
(46) Diehl op.cit.p.548

ثم أصدر هرقل أوامره إلي قادته في مصر بأن يقوموا بمحاوله أخيره لتخليص حصن بابليون إلا أن الظروف لم تكن مهيئه لتغيير الأوضاع فقد أخذ النيل يهبط سريعا لينخفض الماء بالخندق حول الحصن. وتضعف امال المدافعين وتفتر عزائمهم. فضلا عن تخاذل السكان ورفضهم التعاون مع القادة البيزنطيين، بل أشارت الروايات إلي أن هؤلاء السكان أخذوا يساعدون المسلمين في مهاجمة جانب الحصن المطل علي النيل(٤٧)، فأثارت هذه المساعدة الارتباك والاضطراب لدي المدافعين،وحرمتهم من الإفادة من النهر، ولما مضي الشتاء قل خروج البيزنطيين من الحصن لقتال المسلمين، في الوقت الذي اشتد فيه هجوم المسلمين علي الحصن مع مطلع العام الجديد(٦٤١م) ومع إحكام الحصار خارت قوي البيزنطيين داخل الحصن، وفتك المرض بأهله، فأخذ عددهم في التناقص، ولم يكن في الاستطاعة مدهم بأي مدد (٤٨)، ومضت الأيام دون ما يبعث علي الأمل في النجاة، بل أخذت الأخبار السيئة تتوالى، فقد جاءت الأنباء في مارس سنة ٦٤١م بوفاة الإمبراطور هرقل، وكان قد توفي في ١١ فبراير سنة ٦٤١م (٤٩)، ففت ذلك في عضد الروم، بينما زاد ذلك العرب جرأة وضاعف من همتهم لفتح الحصن وإنهاء ذلك الوضع (٥٠).

ويشير المؤرخون المسلمون إلي أن الزبير بن العوام ، قاد هجمة موفقة علي أسوار الحصن في زاويته الجنوبية الشرقية قضت علي كل أمل للمحاصرين وأقنعتهم بعبث المقاومة، فاجتمع قادتهم وتشاوروا في أمر الصلح

---

(47) The Chronicle of John Bishop of Nikiu ,p 186
(48) Butler op cit pp 266-7
(49) Theophanes The Chronicle of theophanes, p. 40
(٥٠) ابن عبد الحكم فتوح مصر ص ٦٤- ٦٥

وفي شروط التسليم(٥١) ، وبعث جريجوري قائد القوات المرابطة بالحصن إلي عمرو بن العاص، يعرض التسليم مقابل تأمين الجند علي أنفسهم، فوافق عمرو علي ذلك ، وتم الاتفاق علي توقيع المعاهدة التي عرفت بمعاهدة بابليون، ومن أهم شروطها : أن يخرج الجند من الحصن في ظرف ثلاثة أيام، وأن يرحلوا عن طريق النيل، وألا يحملوا معهم سوى ما يكفيهم من القوت بضعة أيام، وأن يؤول الحصن إلي العرب بجميع ما فيه من الذخائر وآلات الحرب والعدة والعتاد، علي أن يؤدى السكان الجزية للمسلمين(٥٢).

وفي يوم عيد الفصح الاثنين ١٩ إبريل٦٤١ م، غادر البيزنطيون الحصن ودخلة العرب، وبدأت مرحلة هامة في قصة الفتح العربي لمصر . ويذكر الأسقف والمؤرخ المصري حنا النقيوسى، أن البيزنطيين أجهزوا قبل مغادرتهم الحصن علي عدد كبير من أقباط مصر كانوا محبوسين بداخل الحصن لامتناعهم عن ترك مذهبهم، والتحول إلي مذهب بيزنطة من ناحية، ولأن البيزنطيين ساورتهم الشكوك في خيانتهم للسلطات البيزنطية من ناحية أخرى، لهذه وصف حنا النقيوسى البيزنطيين بأنهم: "أعداء المسيح الذين فتنوا الناس عن دينهم وإيمانهم، وعصوا المسيح وأذلوا أتباعه..."(٥٣).

وقبل أن نمضي في عرض خطة إتمام الفتح العربي لمصر، لابد وأن نشير إلي موقف أقباط مصر من هذا الفتح (٥٤)، إذ يبدو أنهم أدركوا بعد تقدم

---

(٥١) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢١٣-٢١٥

(52) Diehl:op. cit. p. 549, محمد الشيخ: تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٣

(53) The Chronicle of john Bishop of Nikiu, cxv111,p.187-8

(٥٤) أطلق مؤرخو العرب علي حاميات هرقل لفظ "الروم" ولكنهم استخدموا لفظ "قبط" أو "أقباط" مرادفا للفظ المصريين. أنظر:

Butler: The Treaty of Misr, p. 29

وأنظر كذلك: سيدة الكاشف: مصر في فجر الإسلام ص٢ (ط ١٩٧٠)

جيش عمرو بن العاص أن المسألة أكبر من مجرد غـارة مـن غـارات العـرب، وأنه غزو منظم يهدف إلي طرد البيزنطيين من البلاد. ولهـذا فقد بـرز الأنبـا بنيامين من مخبئه، بعد أن اختفى نحو عشر سنوات قبيل الفتح، علـي إثـر عزله من منصبه واضطهاده علي أيـدي السـلطات البيزنطيـة(٥٥). ويقـال أنـه كتب بعد خروجه من مكمنه إلي إخوانه الأقباط يقـول: " إنـه لا تكـون للـروم دولة، وأن ملكهم قد انقطع، ويأمر القبط بتلقي عمرو، فيقال أن القبط الذيـن كانوا بالفرما صاروا يومئذ لعمرو إخوانا ". وعلي كل حال حـدد أقبـاط مصـر موقفهم بعد سقوط الفرما، ومالوا مع العرب ضد الروم، غير أن هـذا الميـل لم يأخذ شكلا عمليا إلا بعد سقوط حصن بابليون، وفتح العرب للفيـوم، وتـأكد انتصار العرب النهائي علي المقاومة البيزنطية(٥٦).

ولقد ساعدت سياسة عمرو بن العاص في مصر علي الفصل بين الأقباط والحامية البيزنطية قبيل موقعة عين شمس لا سيما الأقباط الذين حافظوا علي ولائهم للروم، وشاركوا في الدفاع عن الحصن، فاتصل عمرو برجلين من زعماء الأقباط وتحدث معهما حديثا طيبا رقيقا(٥٧)، وذكر وصية رسول الله صلي الله عليه وسلم بالأقباط، وعرض عليهم الإسلام وقال: "فمن أجابنا إليـه فمثلنـا، ومن لم يجبنا إليه عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنعة "، وكان لكلامـه أثـر عميق في نفسيهما، فردا عليه ردا جميلا، ثم اندلعـت بعـد ذلـك الحـرب في عين شمس، ولكن ليس هناك شك في أن قلوب الأقباط في مصر قد مـالت إلي جهـة العرب(٥٨).

---

(55) Hardy· op cit. p. 185

(56) The chronicle of John Bishop of Nikiu, CXV111,pp 187-8

(٥٧) محمد الشيخ المرجع السابق ص ٢٤

(58) Diehl op cit p 456

وبعد سقوط حصن بابليون أصبح تأييد الأقباط للعرب علنا، إذ أخذوا ينضمون صراحة للعرب، ويعملون في جانبهم، فحين شرع عمرو في السير إلي الإسكندرية لاستكمال الفتح، أصلحوا له الطرق وأقاموا الجسور والأسواق وأمدوه بالمؤن والعلوفة(٥٩). وخلاصة القول أن أقباط مصر وجدوا في فتح العرب لمصر فرصة للخلاص من حياة الظلم والتعسف التي عاشوها في ظل الحكم البيزنطي، ولم يكن ثمة ما يمنعهم من التعبير عن فرحهم وتأييدهم لهذا الفتح، ثم الانضمام صراحة إلي جانب العرب، بعد أن تأكدوا من نجاح هؤلاء في خطتهم لطرد البيزنطيين من مصر، وبعد سقوط حصن بابليون بالذات(٦٠).

وكان استيلاء عمرو بن العاص علي حصن بابليون بداية نصر كبير للعرب، إذ فتح لهم طريقا إلي الوجه القبلي، مثلما فتح الطريق إلي الوجه البحري و الإسكندرية، فبعد أن أخضع عمرو الجانب الشرقي كله من الدلتا، إذا بفتح حصن بابليون يجعله مسيطرا علي رأس الدلتا ويجمع في يده زمام وادي النيل، ولهذا ليس غريبا أن يقول المؤرخون، أن فتح حصن بابليون جاء نصف الفتح (٦١).

استقر رأي عمرو بعد ذلك علي المسير إلي الإسكندرية للاستيلاء عليها، فأرسل إلي الخليفة عمر ينهي إليه بما حدث ويطلب منه المدد وفي نفس الوقت بادر باتخاذ التدابير اللازمة لإدارة حصن بابليون والدفاع عنه، فشرع في ترميم وعمارة الحصن، ووضع به حامية من المسلمين بقيادة خارجة بن

---

(٥٩) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص ٦٤- ٦٥

(60) Butler op. cit. p. 265
Ostrogorski: op. cit. p. 103

(٦١) العريني: المرجع السابق ص ٤١٨-٤١٩

حذافة، ثم بدأ يتخذ الطريق إلي الإسكندرية (٦٢)، فسار علي رأس جنده بحذاء الفرع الغربي للنيل قاصدا أولا مدينة نقيوس التي كانت من المدن الهامة والمشهورة بآثارها، والتي كانت مقر أسقفية من أكبر الأسقفيات بمصر المسيحية، وتقع في موضع بالغ الأهمية من الناحية الحربية، لحفظها الطريق بين بابليون والإسكندرية (٦٣).

ولم يجد عمرو صعوبة في الاستيلاء علي نقيوس ، إذ لم تبد المدينة أية مقاومة فدخلها العرب في مايو سنة ٦٤١م، فلم يجدوا فيها جنديا واحدا ، مثلما لم يجدوا مقاومة في طرنوط (الطرانة)، وسلطيس ، أما كريون التي كانت أخر حصن في الطريق إلي الإسكندرية ، فقد استمر القتال فيها عشرة أيام اشتدت فيها المقاومة البيزنطية، إلا أن النصر كان في النهاية في جانب المسلمين، ففتحوا المدينة واستولوا علي حصنها(٦٤) ، واضطر البيزنطيون إلي الارتداد إلي الإسكندرية . وبسقوط كريون وارتداد البيزنطيين عنها ، فتح الطريق تماما إلي عاصمة مصر، فقد أخذ المسلمون يطاردون فلول البيزنطيين حتى أبواب الإسكندرية في يونيو سنة ٦٤١م(٦٥).

وتذكر الروايات أن قيادة الجيش البيزنطي في مصر كانت لا تزال في يد تيودور الذي أخذ يتراجع نحو العاصمة، منذ أن زحف المسلمون إلي نقيوس، وإن ظل تيودور وجنده يقاتلون العرب قتالا متقطعا أثناء ارتدادهم إلي الإسكندرية، بل إنهم أخذوا يدافعون عن البلاد قدر استطاعتهم خلال انسحابهم، وأبدي تيودور نفسه من البسالة حينئذ ما لم يكن متوقعا منه،(٦٦)

---

(62) Butler op. cit. p. 281
(63) Diehl: op. cit p. 549
(64) The Chronicle of John Bishop of Nikiu, CXVIII,pp.188-9
(65) Butler op. cit. p. 290
(66) Diehl op. cit p.550

وكان قد تلقي بعض الإمدادات من القسطنطينية،ولهذا تركزت مقاومة البيزنطيين عند كريون بصفة خاصة،التي كانت أخر معقل من معاقل الروم قبل مدينة الإسكندرية، ولهذا استمر القتال عندها -كما سبق أن أشرنا- نحو عشرة أيام (٦٧).

وكانت الإسكندرية عاصمة لمصر وكبري مدنها، كما كانت إحدى مدن الدنيا الهامة قديما، وكانت المركز الأول للنشاط السياسي والاقتصادي في مصر، لها أسوار شاهقة وأبراج قوية ودعامات متينة، فضلا عن وقوعها علي ساحل البحر مما يسهل اتصالها بالعاصمة البيزنطية، ويكفل لها حماية بحرية،ويمكنها من تلقي الإمدادات والمؤن والعتاد عبر البحر، حشد فيها البيزنطيون قوتهم الحقيقية، إدراكا منهم أنها مفتاح مصر الحقيقية، (٦٨) بل إن الإمبراطور هرقل كان قد أعلن أنه عازم علي الخروج إليها بنفسه ليمنع العرب من الاستيلاء عليها، لولا أن دهمه الموت في فبراير سنة ٦٤١م/٢٠هـ،حيث قضي وهو يحاول عبثا منع المسلمين من الاستيلاء علي أغلي درة في عقد إمبراطوريته ألا وهي مصر(٦٩).

وكانت حامية الإسكندرية لا تقل عن خمسين ألف رجل توافرت لديهم وسائل الدفاع والمؤن والزاد، وجري حماية هذه الحامية من ثلاث جهات من ناحية البحر شمالا، ومن بحيرة مريوط جنوبا، ثم من قناة حفرت غربا وسميت بقناة الثعبان(٧٠)، ولهذا لم يكن أمام العرب للوصول إلي المدينة

---

(67) Butler: op. cit. p. 288

(٦٨) العريني : المرجع السابق ص ٤٢٠-٤٢١

(69) Theophanes:The Chronicle of Theaophanes, p. 40,

المقريزي: خطط ج١ ص ١٦٤

(٧٠) العريني: نفس المرجع ص ٤٢٠

إلا جهة الشرق والجنوب الشرقي، مع ما في ذلك من مخاطر الاقتراب من أسوارها في هذه الجهة لوجود الرماة فوق الأسوار، التي تحميها الآلات القوية، في الوقت الذي لم يكن فيه لدي العرب شيء من آلات الحصار، ولم تكن لهم خبرة أو دراية بفنون الحصار والحرب لاقتحام المدن، بينما كان في أيدي البيزنطيين من العدة والعتاد ما يستطيعون به مقاومة المسلمين (٧١).

وعلي الرغم من أن العرب فتحوا من قبل الفتوح العجيبة في بلاد الشام ومصر، ولم تقف دونهم حصونها ومدنها، لشدة إيمانهم وثقتهم في إحراز النصر، إلا أن عمرو بن العاص حين وصل إلي الإسكندرية، وحمل جيشه علي التقدم إلي المدينة، وهاجم أسوارها تعرض لبعض الخسائر لما قذفته المجانيق من الحجارة الضخمة، وما رماه الرماة من فوق الأسوار، فاضطر العرب إلي الارتداد والابتعاد عن مدي رميها(٧٢)، وانتظروا أن يتجرأ العدو ويخرج إليهم ، إلا أن ذلك لم يحدث، ومع ذلك فإن مجرد مرابطة العرب بمعسكرهم علي مقربة من المدينة كان له أثر كبير علي المحاصرين، بعد أن قطع العرب صلات المدينة بسائر أنحاء البلاد، ونهبوا قصور الأغنياء في ضواحي المدينة والقريبة منها، وحازوا من ذلك غنائم وفيرة(٧٣).

أدرك عمرو استحالة اقتحام الإسكندرية لقوة أسوارها ومناعة حصونها، فضلا عن استحالة إحكام الحصار حولها، خاصة من جهة البحر، إذ لم يكن للعرب حينئذ أسطول، بل إن العرب كانوا لا يزالوا يرهبون البحر، لذا أدرك عمرو أنه لا سبيل إلي منع أسطول الروم من إمداد الإسكندرية بالمؤن والعتاد والرجال، ولهذا بادر بترك جانب من جيشه مرابطا لحصارها

---

(71) Diehl: op. cit. p. 549
(72) The Chronicle of John Bishop of Nikiu, CXIX, p. 189
(73) Butler op cit p 296

ومراقبتها، وقرر أن يسير بالجانب الآخرَ من الجيش لإخضاع بقية أنحاء الدلتا ، قبل أن يتعذر علي المسلمين التنقل فيها بسبب الفيضان(٧٤)، ولهذا فقد سار إلي دمنهور وسخا التي امتنعت عليه وأتعبت جنده كثيرا، ثم واصل السير إلي طوخ ودمسيس، حيث صادف مقاومة شديدة من قبل سكان هذين الموضعين، فارتد عنهما إلا أنه استمر في الفتح أكثر من عشرة أشهر، استولي خلالها علي عدة مواضع وأحرز غنائم وفيرة ثم عاد إلي حصن بابليون (٧٥).

وفي هذه الأثناء تطورت الأمور لصالح المسلمين في مصر وفي القسطنطينية، ففي مصر ثارت الفتنة ووقع الشقاق بين المدافعين عن الإسكندرية، وساءت العلاقات بين القادة البيزنطيين وتطور العداء والخلاف إلي نشوب معارك عنيفة بين المتنازعين، ولم يستطع القائد تيودور أن يقضي علي تلك الفتنة إلا بعد عناء شديد (٧٦). أما في القسطنطينية فقد أدت وفاة هرقل إلي أحداث خطيرة، إذ ولي بعده ولداه قنسطنطين(الثالث)الذي أنجبه من أودسيا وهرقل الذي عرف بهرقلوناس والذي كانت أمه مارتينا والتي تقرر أن تكون وصية علي ابنها هرقلوناس وكان قنسطنطين الثالث هو الأكبر والأكثر قبولا عند الناس وعند قادة الجيش ومجلس السناتو، فكأن الحكم كان حينئذ مشاركة بين الأخوين ومعهما مارتينا وصيه علي الأخ الأصغر (٧٧).

وتحت إلحاح مارتينا استدعي قنسطنطين الثالث قيرس من منفاه، لما اشتهر به هذا الرجل من الولاء لمارتينا والإستجابه لطالبها، كما تقرر استدعاء الوالي والقائد تيودور من الإسكندرية للتشاور فيما ينبغي اتخاذه من سياسة في

(74) Diehl: op. cit. p. 549
(75) The Chronicle of John Bishop of Nikiu, CXIX, p. 190
(76) Ibid. p. 190
(77) Theophanes : The Chronicle of Theophanes, pp. 40-41

مصر، وإذا نحينا جانبا رأي قيرس ومشورته في هذا الأمر. فقد استطاع تيودور أن يحمل الإمبراطور قنسطنطين الثالث علي أن يعد بإرسال امدادات كبيرة إلي مصر. وقائد جديد ليقود البيزنطيين في الإسكندرية. أي أن الرأي استقر علي مواصلة المقاومة والتصدي للمسلمين، ومحاولة إنقاذ الإسكندرية من حصار العرب لها (٧٨).

غير أن الأمور ما لبثت أن تغيرت سريعا، ففي ٢٥ مايو سنة ٦٤١م، توفي فجأة الإمبراطور قنسطنطين الثالث وانفرد بالعرش هرقلوناس بمشاركة والدته مارتينا حتى سبتمبر من نفس العام، وفي أثناء الفترة الواقعة بين مايو وسبتمبر سنة٦٤١م، تقرر إعادة قيرس إلي مصر وتكليفه بعقد صلح مع العرب، إذا تأكد أن الدفاع عن مصر أضحي مستحيلا(٧٩) ، ويتضح من ذلك أن الأمل كان لا زال يراود القسطنطينية في الإبقاء علي سلطان بيزنطة في مصر، إلا أن قيرس لابد وأنه عاد فحمل الإمبراطور والوصية ومجلس السناتو ورجال الدولة علي الانصياع لرأيه، بأنه لا سبيل إلي المقاومة، ولابد من الإذعان للعرب وعقد الصلح معهم (٨٠).

ولما وصل قيرس إلى الإسكندرية في ١٤ سبتمبر سنة ٦٤١م ، وبصحبته تيودور تلقاه الناس فيها بحماسة كبيرة وسرور بالغ. ويشير المؤرخ حنا النقيوسي إلي أن أهل الإسكندرية تملكهم الفرح فخرجوا "يعبرون عن سعادتهم ويرفعون الشكر لله علي عودة بطريرق الإسكندرية وقائدها"(٨١). واجتاز قيرس شوارع الإسكندرية وقد فرشت له الأرض بالمفروشات. وخفقت

---

(78) Diehl op cit p 549

(٧٩) العريني المرجع السابق ص ٤٢٢

(80) Butler op cit p 306

(81) The Chronicle of John Bishop of Nikiu, CXX, p- 191

فوق رأسه الأعلام والرايات من الحرير، وسار بين عبق البخور ووسط ترتيل الأناشيد، وازدحمت طرقات المدينة بالناس والمستقبلين، وحمل قيرس في يده أثرا دينيا عزيزا لعله كان صليبا به قطعة من صليب الصلبوت نفسه ومضي في موكبه حتى بلغ باب الكنيسة الكبيرة [٨٢].

استتبع ذلك قيام القائد تيودور بإعادة الأمن إلي الإسكندرية ، وطرد دعاة الفتنة والاضطراب من الوظائف الهامة، والعمل علي عودة الهدؤ والسكينة إلي عاصمة مصر، وفي نفس الوقت بدأ قيرس يفكر في تقوية بطريرقية الإسكندرية والاهتمام بأمر مصر ، أو بمعني أصح ما تبقي منها[٨٣]، الأمر الذي دفع المؤرخين والباحثين إلي محاولة تفسير ما كان يهدف إليه قيرس من الإجراءات التي اتخذها في تلك الآونة، ويتساءلون هل كان قيرس يهدف إلي مصلحته الشخصية ويؤمل أن تكون له السيادة والسلطان في مصر ويخطط لانفصالها عن الإمبراطورية البيزنطية حتى ولو تبعت العرب تبعية اسمية؟ أم كان يهدف إلى أن تنال البلاد بالمفاوضات أحسن ما يمكن أن تحصل عليه من المعاملة، بعد أن أدرك أن المقاومة أضحت مستحيلة، وأنه لا بد من الصلح مع العرب[٨٤]، أو هل كان قيرس وهو السياسي البيزنطي البارع يرى أن بوسعه أن يكسب أولئك العرب وأميرهم عمرو بن العاص، بما يمكن أن يبذله لهم من الأموال، مثلما كان يجري من اجتذاب الغزاة والطامعين، ولا بأس من إيهامهم بقدرة مصر علي المقاومة والصمود؟[٨٥]

---

(82) Ibid. p. 191

(83) Diehl op. cit. p. 550

(٨٤) العريني: نفس المرجع ص ٤٢٤

(85) Butler: op. cit. pp. 306-9

الواقع أن كثيرا من المؤرخين استبعدوا أن تكون لقيرس مصالح شخصية في ذلك، بل أشار بعضهم إلى أنه من السذاجة المفرطة أن يجري اتهام قيرس بالخيانة، وبأنه كان يخطط للانفصال بمصر في ظل تبعية اسمية للعرب، إذ ينبغي ألا ننسى أن قيرس استطاع أن يحصل من الحكومة البيزنطية قبل عودته علي تفويض بإجراء المفاوضات مع العرب[٨٦]، وأن حكومة العاصمة لا بد وأنها اقتنعت بأهمية هذه المفاوضات، التي أزمع قيرس إجراءها، إذا دعت إليها الحاجة، على الرغم من أن تفكيرها لم يتجه منذ البداية إلى التخلي عن مصر، أو استبعاد فكرة المقاومة، والدليل على ذلك ما حدث من إرسالها إمدادات جديدة إلى الإسكندرية لتعزيز مقاومتها وصمودها[٨٧].

وكيفما كان الأمر فقد بادر قيرس بالاتصال بعمرو بن العاص حوالي نهاية أكتوبر سنة ٦٤١م تمهيد للمفاوضات، وإظهارا لحسن النية[٨٨]،ولعل ما لجأ إليه قيرس من إجراءات ضد المخالفين في الإسكندرية ومثيري الفتنة، وكذلك تظاهره بالقوة والرغبة في استمرار المقاومة واستقبال الإمدادات المرسلة من القسطنطينية كلها أمور كان يداري بها حقيقة أغراضه وتفكيره في الإذعان للعرب من ناحية[٨٩]، ويحاول بها أن يحصل على أحسن الشروط في الصلح من ناحية أخرى. ولا شك أنه كان ينفذ بذلك أوامر الإمبراطور وتعليمات العاصمة البيزنطية، فقد خرج على رأس فئة قليلة من رجال الدين إلى حصن بابليون في الوقت الذي كان فيه عمرو بن العاص قد عاد إلى الحصن، بعد

(86) The Chronicle of John Bishop of Nikiu, CXX, p.191
(87) Diehl: op. cit. p.551
(88) The Chronicle of John Bishop of Nikiu, CXX, p. 193
(89) Butler: op. cit. pp. 309-18

فراغه من إخضاع الصعيد حتى مشارف طيبة، فاستقبل عمرو في الحصن البطريرق قيرس ورفاقه، ورحب بهم ما داموا قادمين للتحدث في الصلح، وانتهت المفاوضات بعقد الصلح، الذي اتفق فيه الطرفان على شروط ينبغي الالتزام بها، ووقع الصلح فعلا في ٨ نوفمبر سنة ٦٤١م(٩٠) أواخر سنة ٢٠هـ، وهو الصلح الذي عرف بصلح الإسكندرية أو معاهدة الإسكندرية، تمييزا له عن الصلح الذي سبق عقده في بابليون وهكذا تم للعرب فتح مصر كلها وتذليل آخر عقبة أمام رسوخ أقدامهم في ذلك القطر، ونصت شروط الصلح على:

- أمد الهدنة أحد عشر شهرا تنتهي في أواخر سبتمبر سنة ٦٤٢م/٢١هـ
- يدفع الجزية كل من دخل في العقد.
- يبقى العرب في مواضعهم خلال مدة الهدنة لا يسعون لقتال الإسكندرية، وأن يكف الروم أيضا عن القتال(٩١).
- ترحل حامية الإسكندرية عن طريق البحر ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم جميعا، ومن أراد منهم الرحيل برا فعليه أن يدفع كل شهر مبلغا معلوما من المال ما بقي في أرض مصر.
- ألا يعود جيش الروم إلى مصر أو يسعى إلى ردها.
- ألا يتعرض المسلمون لكنائس المسيحيين ولا يتدخلوا في أمورهم.
- أن يسمح لليهود بالإقامة في الإسكندرية.
- أن يبعث الروم رهائن من قبلهم مائة وخمسين من جنودهم وخمسين من غير الجنود ضمانا لتنفيذ العقد(٩٢).

---

(90) Diehl: op. cit. p. 551
(91) The chronicle of John Bishop of Nikiu, CXX, p.193
(92) Ibid.p.193

ولقد أورد المؤرخ المعاصر حنا النقيوسى هذه الشروط، وركز كثيرا على الشروط المتعلقة بأقباط مصر، وأشار إلي أنهم بمقتضى هذه الاتفاقية أمنوا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم[٩٣]، وأن ما تقرر عليهم من جزية كانت مقابل الحرية التي منحت لهم لمارسة عقيدتهم وشعائرهم الدينية دون تدخل من أحد، وأن هذه الجزية تراوحت بين نصف دينار وثلاثة دنانير على كل رأس، وتفاوتت بحسب اختلاف الأشخاص، وأعفى منها الشيوخ والمرضى والعجزة والأطفال وبعض الفئات الأخرى[٩٤].

وبدت هذه الاتفاقية في نظر كثير من المؤرخين، على أنها كانت تنازلا عن مصر للعرب وإنهاءا للحكم البيزنطي في مصر، وبداية تبعية مصر للدولة العربية الفتية، وراعى كل من عمرو بن العاص، والبطريرق قيرس أن تكون هناك مهلة لهذه الاتفاقية، حتى يتسنى له الحصول على موافقة كل من الخليفة عمر بن الخطاب والإمبراطور البيزنطي، وإقرارهما لشروط هذه الاتفاقية[٩٥].

ولما عاد قيرس إلى الإسكندرية، لم يجد صعوبة كبيرة في إقناع الوالي والقائد البيزنطيي تيودور بقبول الاتفاق، بعد أن شرح لهم مزايا الاتفاق وذلك في اجتماع شهده جمع من قادة الجيش وكبار رجال الدولة من المدنيين والعسكريين، فوافق الجميع على ما اتخذه قيرس من خطوات وأظهر الجميع ولاءهم له[٩٦]، على الرغم من معارضة بعض سكان الإسكندرية لهذا الاتفاق حين رأوا العرب يتقدمون إلى المدينة دون أن يتصدى لهم أحد، فاشتدت

---

(93) The Chronicle of John Bishop of Nikiu, CXX, p. 194

(٩٤) محمد الشيخ: تاريخ مصر الإسلامية ص ٣٠

(95) Vasiliev: op. cit pp.211-12

(٩٦) العريني المرجع السابق ص ٤٢٦-٤٢٧

ثائرتهم على قيرس وهددوا أن ينزلوا به الأذى، إلا أن قيرس نجح هذه المرة أيضا في امتصاص غضبهم، وتهدئة ثائرتهم بفضل ما اشتهر بـه من البلاغة والفصاحة، وبرر لهم سلوكه، وأوضح لهم موقفه وأقسم لهم أنه ما قصد سوي مصلحتهم ومصلحة قومه ومستقبل أبنائهم(٩٧) ، لأن العرب - كما خبرهم - قوم لا يتصدى لهم عدو إلا غلبوه، ولا شرعوا في فتح إقليم إلا ملكوه، لأن الله أراد لهم أن يملكوا الأرض، ويفتحوا مصر، فلم يكن أمام الروم إلا مصالحتهم، وإلا سوف تجري الدماء انهارا في طرقات المدينة، وتنهب الأموال، ومن يقدر له أن يبقي حيا كان لابد له أن يخسر كل ما يملك ويضيع أمره هباء(٩٨)

كما نوه قيرس بمزايا هذا الصلح، خاصة فيما يتعلق بالعقيدة، فمن أراد أن يعيش حيث هو في أرضه مسيحيا، كان له ما أراد، ومن أراد أن يرحل إلي أرض مسيحية، كانت له الحرية في ذلك أيضا، أي أن له الخيار بين الهجرة من مصر أو البقاء مع الإذعان للمسلمين والعيش في كنفهم(٩٩) .

وتشير الدلائل إلي أن قيرس قد نجح بذلك في استمالة الناس وإقناعهم بتأييد رأيه في الصلح، ورضي الناس بالتسليم وتقبل الوضع الجديد، وراحوا يجمعون الجزية التي رضي العرب بتقسيطها علي ثلاثة أقساط، أي أنهم كانوا مطالبين حينئذ بجمع ثلث ما كان مقررا عليهم من أموال، ولكنهم زادوا عليه مقدارا كبيرا من الذهب، لأدائه للمسلمين عن رضي ودون معارضة(١٠٠)، وكان ذلك في ديسمبر سنة٦٤١ م/المحرم سنة ٢١هـ .

---

(97) Diehl: op. cit.p.551
(98) Butler :op.cit.p.332
(99) Diehl:op.cit.p.551
(100) The Chronicle of John Bishop of Nikiu, CXX, p.194

ولقد بدا استسلام الإسكندرية علي هذه الصورة أمرا غريبا في نظر كثير من المؤرخين المعاصرين واللاحقين، وأمرا لا يمكن أن يتصوره المؤرخ أو يصدقه، بل إن هذا الاستسلام وبهذه الصورة جاء أمرا مختلفا عما يمكن أن يتصوره الناس، لأنها كانت أغنى وأثمن ما ملكه الروم[١٠١]، ولأنه كان بوسع الإسكندرية أن تصمد لحصار العرب مدة طويلة، بسبب سيطرة الأسطول البيزنطي على البحر وسهولة الاتصال بينها وبين سائر أملاك بيزنطة في مصر وفي خارج مصر، فضلا عن إمكان إمدادها بما تحتاج إليه من المؤن والزاد والعتاد والمقاتلين، ولأنها كانت من المناعة ما يجعل من العسير على عمرو بن العاص ومن كان معه من الجند أن ينالوا منها، لصعوبة حصارها حصارا كاملا، ولتعذر حصارها فترة طويلة[١٠٢].

وليس هناك من تفسير لذلك إلا إذا وضعنا في اعتبارا ما وقع من أحداث في العاصمة البيزنطية ذاتها، عقب وفاة الإمبراطور هرقل في فبراير سنة ٦٤١م، وما حدث في البلاط البيزنطي في الفترة التالية من مؤامرات ودسائس، مع ضعف خلفاء هرقل وصغر أعمارهم[١٠٣]، فتشير الروايات إلى قيام الجيش البيزنطي بتمرد خطير أدلى فيه قادة هذا الجيش بدلوهم، وشاركوا فيما حدث من فتن واضطرابات[١٠٤]، ولم يدع الجيش أمام الحكومة، فرصة للتفكير في إنقاذ مصر وحمايتها من العرب، في الوقت الذي قصرت فيه إمكانات الحامية البيزنطية في مصر عن الوفاء بهذه المسئولية، ولم يعد لها من القدرة أو الكفاية ما يمكنها من المضي في المقاومة طويلا، فضلا عما حدث

---

(١٠١) محمد الشيخ: المرجع السابق ص ٢٨

(١٠٢) العريني: المرجع السابق ص ٤٢٨

(103) Theophanes The Chronicle of Theophanes, pp.40-41
(104) The chronicle of John Bishop of Nikiu, CXX, p.196

في الإسكندرية من انقسامات وخلافات في الرأي وما ترتب على ذلك من تحطيم الروح المعنوية ، وما يمكن أن يظهر من شجاعة أو إقدام في مدافعة العرب(١٠٥).

ويمكن إضافة عامل جديد في هذا، هو كراهية الناس في مصر لبيزنطية، وسخطهم عليها لما جرى من فساد الحكم وثقل وطأة الضرائب وكثرة أنواعها، فضلا عما حدث من اضطهاد ديني للسكان واضطراب سياسي وفوضي في البلاد(١٠٦)، ولهذا ربما أمل الناس أن يجدوا في ظل السيادة العربية من الأمن والاطمئنان ما لم ينالوه في ظل السيادة البيزنطية، وفي ضوء ذلك يمكن فهم ما حدث من تعاطف الناس مع العرب، وعدم إظهارهم المعارضة لهم، ليس المصريين فحسب بل أيضا الموظفين البيزنطيين أنفسهم، إذ روى حنا النقيوسي روايات كثيرة في ذلك(١٠٧) ، فأشار إلى أن من بين كبار موظفي الإدارة البيزنطية من بذلوا المعاونة للعرب، خاصة حاكم الفيوم، كما أشار أيضا إلى ما كان يكنه المصريون من كراهية للسلطة البيزنطية، لما قامت به من اضطهادات دينية علي يد قيرس، وذكر أن سكان الفيوم لم يكتفوا بالاستسلام للعرب بل أيضا قتلوا كل من صادفهم من الجند البيزنطيين(١٠٨).

ولهذا لن يكون الغد عند غالبية السكان أسوأ من يومهم، ولن تكون الأحوال في نظرهم في مستقبل الأيام أشد هولا مما هي عليه في حاضرهم، في ظل تلك السيادة البيزنطية البغيضة بل كان هناك من الدلائل ما يشير إلى أنها ستكون أحسن كثيرا في ظل سيادة العرب، وما سمعوه عن سماحة العرب

---

(105) Butler: op. cit. pp. 234-5
(106) Diehl: op. cit. p. 552
(107) The Chronicle of John Bishop of Nikiu , CXX, pp. 194-5
(108) Ibid. pp.194-5

وعدلهم، وبغضهم لإراقة الدماء، أو إيقاع الظلم أو الأذى أو الاضطهاد بأحد، كل ذلك كان له ضلع فيما جرى من أحداث، وفيما أقدمت عليه الإسكندرية راضية من استسلام(١٠٩).

وعلى الرغم من كل ذلك، فلا ينبغي أن نقلل من شأن العرب أو نغمطهم حقهم فيما حققوه، فلا شك أنهم وضعوا خطة حربية طموحة للسيطرة على مصر لأهميتها وموقعها بالنسبة لدولتهم الناشئة، بعد فتحهم لبلاد الشام والعراق، مقدرين ما يمكن أن تتعرض له ممتلكاتهم هناك من تهديد بيزنطي برا وبحرا(١١٠)، واتخذوا من الأساليب الحربية والدبلوماسية ما يدل على أنهم فكروا وأعدوا وكانوا على أتم استعداد للقتال لإرغام عدوهم على الاستسلام، والنزول على إرادتهم، كما أكدوا أنهم كانوا على علم بأحوال مصر ووضعها المضطرب في ظل تعسف بيزنطة واضطهاداتها الدينية لشعب مصر ونجحوا في الإفادة من كل هذه الظروف، فلم يأت هذا الفتح مصادفة ولم يكن مجيئهم نزهة حسبوا استسلام مصر في نهايتها أمرا حتميا، وإنما جاء هذا الفتح حسب خطة حربية دقيقة وحساب لكل الظروف وبعد تفكير سليم في كل ما يكفل له النجاح(١١١).

شرع العرب بعد ذلك في إتمام فتح مصر، في الوقت الذي جرى فيه التصديق على معاهدة الإسكندرية، ففي ربيع العام التالي(٦٤٢م) أخضعوا بعض مدن الدلتا مثل رشيد والبرلس ودمياط وتنيس، وهذه الأخيرة كانت تقع

---

(١٠٩) محمد الشيخ: المرجع السابق ص ٢٥

(١١٠) العريني: نفس المرجع السابق ص ٤٢٩

(111) Camb. Med. Hist. Vol. 2,p.349

بالقرب من بور سعيد الحالية، وهذه المدن سقطت دون مقاومة تذكر(١١٢)، وكان العرب قد شرعوا قبيل توقيع المعاهدة في إخضاع الوجه القبلي، فاستولوا على طيبة عاصمة الجنوب، وأذعنت لهم بقية البلاد في الجنوب في يسر وسهولة، بعد توقيع المعاهدة في نوفمبر سنة ٦٤١م(١١٣)، فشرعوا بعد ذلك في إنشاء مدينة الفسطاط على أبواب حصن بابليون، حيث شيد بها عمرو أول مسجد في مصر، دلالة على انتقال مص إلى حكم المسلمين(١١٤).

ثم ما لبثت بيزنطة أن صدقت على المعاهدة، وأقرت الحكومة شروطها، ولهذا تأهب عدد كبير من الناس من الأغنياء والتجار لمغادرة الإسكندرية، والهجرة منها إلى بيزنطة، بينما بقيت أعداد أخرى من الناس في المدينة، ولم يعش البطريرق قيرس حتى يشهد الجلاء النهائي للبيزنطيين عن مصر والإسكندرية، إذ توفى في ٢١ مارس سنة ٦٤٢م(١١٥)، وجرى تعيين بطريرق خلقدوني خلفا له في يوليو من نفس العام، ولم يسع ممثلو الحكومة البيزنطية إلا أن ينفذوا شروط المعاهدة ويلتزموا ببنودها، وتولي هذا الأمر الوالي تيودور الذي تقرر تعيينه حاكما عاما علي مصر عقب وفاة قيرس كما عين قائد عام جديد للقوات البيزنطية يدعى قنسطنطين، لما تبقى لبيزنطة في مصر من أيام أو شهور(١١٦).

تولى كل من تيودور وقنسطنطين أمر سحب القوات البيزنطية من الدلتا،منتهزين فرصة موسم الفيضان لإتمام هذه العملية، حتى يسير الجلاء

(112) Butler: op. cit . pp. 350-7
(113) Diehl: op. cit. p. 553
(١١٤) ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج٤ص٧(ط بولاق ١٣٠٩هـ نشر Vollers)
(115) Butler: op. cit. p. 365
(116) Diehl: op. cit. p. 553

في يسر وسهولة، إذ استقل الجند السفن والقوارب إلى الإسكندرية توطئة لإبحارهم إلى بيزنطة، ولهذا قرر العرب إطلاق سراح من كان عندهم من الرهائن في حصن بابليون، ليلحقوا بأصحابهم في الإسكندرية. وفي ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢م أقلع الأسطول البيزنطي من الإسكندرية بمن كان عليه من بقايا الجيش البيزنطي(١١٧)، وانقضى أمد الهدنة في ٢٩ سبتمبر، أي بعد نحو أحد عشر شهرا من الاتفاق، وفتحت الإسكندرية أبوابها للعرب فدخل عمرو على رأس جيشه وسار في شوارع المدينة بين القصور العظيمة والأعمدة الهائلة والمباني الفخمة والآثار الرائعة، التي حفلت بها الإسكندرية في ذلك الوقت، وانتهى بذلك حكم بيزنطة في مصر، وانتهت سلطتها في هذا القطر العظيم بعد أن طال بقاؤها فيه عدة قرون(١١٨).

أعجب العرب كثيرا بعظمة الإسكندرية وفخامتها، وبهروا بما رأوه فيها من قصور ومبان وآثار وغرائب، وتردد صدى ذلك الإعجاب في الخطاب الذي يروي المؤرخون أن عمرو بن العاص بعث به إلى الخليفة عمر بن الخطاب، يعلمه فيه بالاستيلاء على الإسكندرية(١١٩)، ويشير فيه إلى أن "الله فتح علينا مدينة من صفتها أن بها أربعة آلاف قصر وأربعة آلاف حمام وأربعمائة ملهي واثنى عشر ألف بائع للخضر وأربعين ألفا من اليهود أهل الذمة"، وعلى الرغم من المبالغة الظاهرة في هذه الأعداد، إلا أنها تدل على ما أحدثته الإسكندرية من أثر عظيم في نفوس الفاتحين، وعلى ما تمتعت به المدينة حينئذ من عظمة وثراء وفخامة(١٢٠)

(117) The Chronicle of John Bishop of Nikiu, CXX, pp 199-200
(118) Butler op cit.p 368

(١١٩) ابن عبد الحكم. فتوح مصر ص ٨٢

(120) Vasiliev op cit vol 1, pp 211-212

وبدا عمرو من خلال الرسالة التي بعث بها إلى الخليفة، ومن واقع ما نقله عنه المؤرخون شديد الفخر بأنـه فتح مدينـة فريدة في عظمتـها وثرائـها وفخامتها، وأخضع للإسلام قطرا وافر الثراء شديد الخصوبة، ألا وهـو مصـر التي "يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ميمون الروحات"، وكان عمرو محقـا فعلا في كل ما أبداه من إعجاب، بل كان له أن يتيه فخرا لأنه وضع للعرب قدما ثابتة في شمال إفريقيا وقاعدة من الطـراز الأول ومـن طـراز فريـد لفتـوح أخرى لما وراءها ومركزا عظيما من مراكز الحضارة في ذلك الوقت[١٢١].

على أننا ينبغي أن نشير إلى رواية غريبة نسبت إلى عمرو بـن العـاص تدمير مكتبة الإسكندرية، ونسبت إلى الخليفة عمر بن الخطاب الأمر بتدميرها وحرقها، فنسرع إلى القول بأن هذه الروايـة جـانبت الحقيقـة تماما ودمغـت بالكذب والافتراء[١٢٢]، ورفضها الباحثون وأنكرها المؤرخون ودللوا على كذبها وافترائها، لأن هذه الرواية لم تظهر إلا بعد مضي نحو ستة قرون بعد سـقوط الإسكندرية في أيدي العـرب، وذلـك في حـد ذاتـه يكفـي للشـك وفي قيمتـها ويثبت كذبها[١٢٣]، بل ساق المؤرخون حججا أخرى أكثر دلالـة علـى كـذب هذه الرواية، وأوضح برهانا على افترائها، منها:

• أن المؤرخ ورجل الدين ذائع الصيت حنا النقيوسى المعاصر للفتـح العربـي تقريبا لم يشر من قريب أو بعيد بكلمة عن هذا التدمير المزعـوم، علـى الرغـم

---

(١٢١) محمد الشيخ: تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٨

(١٢٢) العريني : المرجع السابق ص ٤٣١

(١٢٣) وردت هذه الرواية في كتاب ابن القفطي المعروف باسم " أخبار العلماء بأخبار الحكماء" الذي ألفه سنة ١٢٢٧م أي بعد نحو ستة قرون من الفتح العربي لمصر.

من أنه كان مثقفا متعلما شديد الاهتمام بالنواحي الثقافية والفكرية، فلو أن شيئا من ذلك قد وقع لما تردد هذا المؤرخ في ذكره والإفاضة فيه(١٢٤).

• وثاني هذه الحجج والبراهين التي ساقها المؤرخون أن مكتبة الإسكندرية المعروفة، كانت قد اندثرت من زمن طويل قبل قدوم العرب، وما كان محفوظا في متحف الإسكندرية من كتب دمره الحريق الذي صحب ثورة السكندريين ضد قيصر، وذلك طبقا لإجماع الكتاب والمؤرخين القدامى، وحين تكونت بعد سنوات مكتبة السرابيوم، فإن هذه أتلفت وزالت سنة ٣٩١ م على الأرجح، حينما هدم المسيحيون هذا المعبد الوثني ودمروه وألحقوا به تخريبا شديدا، أو على الأقل تعرضت كتبها للنهب والسلب خلال تلك الأحداث(١٢٥).

• وثالث هذه الحجج والبراهين التي ساقها المؤرخون، أنه منذ بداية القرن الخامس الميلادي لم يشر مؤلف من الذين زاروا الإسكندرية، ومنهم من كان شديد الشغف بالنواحي الفكرية والعقلية إلى وجود مكتبة شهيرة أو نحو ذلك أو أشار إليها، وذلك قبل حلول العرب بنحو قرنين ونصف من الزمان(١٢٦).

• لذلك كله خلص المؤرخون في نهاية الأمر، إلى أن هذه الرواية عارية عن الحقيقة تماما وأن تلك القصة لم تزد عن كونها قصة مختلقة من أساسها وأسطورة لا ينبغي الالتفات إليها نهائيا(١٢٧)، إذ لم يكن العرب من أولئك الغزاة الذين حطموا معالم الحضارة الإنسانية، أو الغزاة الكارهين للثقافة أو العلم أو ما يمكن أن ينتجه العقل البشري، لأنهم أنفسهم هم الذين حرصوا

---

(124) The Chronicle of John Bishop of Nikiu, (Eng. Trans.)
(125) Diehl:op. cit . p.554

(١٢٦) بتلر: فتح العرب لمصر ص ٢٩٥-٣١٢

(127) Diehl:op. cit.p.554

على أن يحوزوا تراث الأمم كلها وما أنتجته الحضارات السابقة، وأظهروا رغبة جامحة في الإفادة من هذا التراث، وحدبا على العلم والتعلم، ومحاولة الانتفاع بما وصلت إليه الأمم قبلهم من إنتاج فكري وثقافي ومن مظاهر حضارية أخرى، إذ عكفوا على دراسة ذلك التراث وصححوا ما فيه من أخطاء، وأضافوا إليه الكثير، وخطوا به خطوات إلى الأمام، فكأنهم بدأوا من حيث انتهت الأمم قبلهم، وربما يكمن في هذا علو الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، وأنها كانت أعظم حضارة عرفتها الدنيا في ذلك الوقت.

ولم تمض إلا سنوات قليلة بعد الفتح العربي لمصر، إلا وحدثت محاولة بيزنطية لاستعادة الإسكندرية ومصر من أيدي العرب، حين دبت أساطيل الروم في البحر المتوسط تبغي طرد العرب من الإسكندرية واستعادة مصر كلها إلى حظيرة الدولة البيزنطية من جديد، لا سيما بعد عزل عمرو بن العاص عن مصر، وتولية أمورها لعبد الله بن سعد ابن أبي سرح، فقد توفي الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٢٣ هـ / نوفمبر سنة ٦٤٤م، وولي الخلافة بعده عثمان بن عفان، الذي بادر بعزل عمرو وإسناد أمور مصر كلها إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح(١٢٨)، الذي كان أخا له من الرضاع، وجرت ولاية عبد الله بن سعد في وقت ساءت فيه أحوال مصر واشتد فيه هذا الوالي الجديد مع أهل الإسكندرية، فبادر نفر من هؤلاء بالكتابة إلى الإمبراطور البيزنطي قنسطانز الذي انفرد بالحكم عقب وفاة هرقلوناس(١٢٩)، يطلبون منه النهوض لاستعادة

---

(١٢٨) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص ١٧٨ (ط توري)

(129) Theophanes: The Chronicle of Theophanes (Eng. Trans. By Harry Turtledove), p. 41

مصر، وأوضحوا له أنه ليس بالإسكندرية إلا حامية ضعيفة لا تقوى على دفع الجيش البيزنطي(١٣٠).

تحمس الإمبراطور قنسطانز كثيرا لمشروع استعادة مصر نظرا لأن فقدها أثر كثيرا في بيزنطة وألحق بها خسائر جسيمة، وأفقدها موردا هاما للقمح كان يسد جانبا كبيرا من حاجتها، فأمر الإمبراطور بإعداد قوة كبيرة في البحر المتوسط للهجوم على الإسكندرية، وكان الأسطول البيزنطي يسيطر في ذلك الوقت على الجزء الشرقي من البحر المتوسط ويعتبر أقوى أسطول في تلك المنطقة(١٣١)، في الوقت الذي لم يكن للمسلمين سفن في البحر، بل لم يكن العرب حتى ذلك الوقت أمة بحرية، ولم تكن لهم دراية بمدافعة مثل هذه الأساطيل.

ولم تمض سوى شهور قليلة حتى وصل الأسطول البيزنطي إلى مياه الإسكندرية بقيادة مانويل، الذي شرع في مهاجمة المدينة في نحو ثلثمائة سفينة، ثم ما لبث أن استولى على الإسكندرية بسهولة(١٣٢)، في ديسمبر سنة ٦٤٥م/٢٥هـ، ثم تقدم الجيش البيزنطي تحت قيادة مانويل مخترقا الدلتا ومدن الدلتا ينهب فيها ويغتصب من السكان ما بأيديهم من القمح والنبيذ والمال، دون أن يحفل البيزنطيون، هذه المرة، بمعاملة السكان معاملة الصديق، وإنما عاملوهم جميعا على أنهم أعداء، حتى بلغوا في تقدمهم مدنية نقيوس(١٣٣)، مظهرين التعسف والصلف، ماضين في فتح مدن الدلتا دون أن يلتفتوا إلى بعض مظاهر الفرح التي أظهرها فريق من السكان.

---

(١٣٠) بتلر· فتح العرب لمصر ص ٣٤٣

(١٣١) العريني . المرجع السابق ص ٤٣٢

(132) Ostrogorski op. cit p 103

(133) Butler:op. cit p. 471

وفي نفس الوقت ألح العرب في مصر على الخليفة عثمان بن عفان ليعيد عمرو بن العاص إلى مصر ليتصدى لجيش الروم قائلين له: إن لعمرو هيبة في قلوب الروم، فاضطر الخليفة عثمان إلى إعادة عمرو إلى مصر لطرد البيزنطيين منها(١٣٤)، ولم يتأخر عمرو بن العاص عن المجيء إلى مصر، حيث قاد المسلمين واتجه مباشرة لمواجهة الجيش البيزنطي عند نقيوس، وهناك دارت معركة ضارية منى فيها الجيش البيزنطي بهزيمة ساحقة، وارتدت فلوله إلى الإسكندرية للاحتماء بأسوارها، فسار عمرو في أثرهم، وتلقى خلال ذلك مساعدة المصريين ومعونتهم(١٣٥)، إذ أصلحوا له الطرق وما تخرب من جسور، وأقاموا له الأسواق وأمدوا جيشه بالمؤن والزاد.

ولما بلغ عمرو أسوار الإسكندرية، أدرك خطأه في ترك الأسوار قائمة، وأنه لم يبادر بهدمها بعد دخولها في المرة الأولى، كما أدرك خطأه الثاني بعدم ترك حامية قوية في المدينة، وتأكد في نفس الوقت أنه سوف يعاني هذه المرة كثيرا في حصار الإسكندرية، وفعلا لقي عمرو وجنوده شدة عظمى أمامها، ومنى جيشه ببعض الخسائر، واضطر أحيانا لمواصلة الليل بالنهار في حصارها(١٣٦)، وأرهق كثيرا جنوده في ذلك، حتى روى بعض المؤرخين أن جنديا صرخ في وجهه - من طول المعاناة والسهر- قائلا: " لم نخلق من حجارة أو حديد" وإنما نحن بشر تحتاج إلى الراحة والهدوء، ولكن عمرو لم يحفل به وظل يواصل محاصرة المدينة ليلا ونهارا ويشتد في حصارها حتى

---

(١٣٤) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٢١، اليعقوبي: تاريخه ج٢ ص١٨٩
ابن عبد الحكم فتوح مصر ص ١٧٥-١٧٨(ط توري) ابن الأثير الكامل ج٣ ص ٦٢

(135) Ostrogorskı op cit p 103
(136) Butler op cit p 474

أقسم لئن ظفر بالإسكندرية هذه المرة ليجعلنها" كبيت الزانية يؤتى من كل مكان" أي أنه سوف يهدم أسوارها وأبراجها ويجعلها مباحة من كل ناحية(١٣٧).

ثم ما لبث عمرو أن اقتحم الإسكندرية، ونفذ رجاله من أحد أبوابها، فاستولوا عليها عنوة وبحد السيف، فاجتاح جنده المدينة هذه المرة، وأجهزوا على كل من صادفهم من البيزنطيين، على الرغم من أن فريقا من البيزنطيين استطاعوا الهرب إلى سفن الأسطول الراسية في ميناء المدينة حيث لاذوا بالهرب بحرا، وهلك الباقون في المعارك التي دارت في شوارع المدينة، ومن الذين لقوا مصرعهم القائد مانويل نفسه وعدد من رجاله وكبار معاونيه(١٣٨)، وتم لعمرو السيطرة على المدينة في صيف سنة ٦٤٦م/٢٥هـ، بعد أن أفرغ المسلمون حصيلة هائلة من الغضب والضيق في المدينة لطول المعاناة في حصارها، ولما أظهره بعض سكانها من الفرح والتعاطف مع الجيش البيزنطي. وهكذا فشلت محاولة البيزنطيين لاستعادة الإسكندرية ومصر من أيدي العرب، وحرم البيزنطيون وللأبد من أغنى وأثمن ما ملكوه من أقطار(١٣٩).

وعلى الرغم من ذلك فكر الإمبراطور البيزنطي قنسطانز مرة أخرى في إعادة الكرة، ومحاولة استعادة الإسكندرية ومصر بعد هذه الأحداث بنحو عشر سنوات، ووجه حملة بحرية ضخمة سنة ٦٥٥م/٣٥هـ إلى مياه الإسكندرية، وكان العرب قد بدأوا نشاطهم البحري حينما أيقنوا ضرورة حماية سواحل أملاكهم في مصر والشام(١٤٠)، وعلى الرغم من حداثة البحرية

---

(١٣٧) ابن عبد الحكم. فتوح مصر ص ١٧٥-١٧٨ (ط توري)

(138) Diehl: op. cit. p. 555

(139) Ostrogorski: op. cit. p 103, Vasiliev op cit 1, p.212

(140) Butler op. cit. p. 489

الإسلامية، وقلة عدد جنودها حينئذ، إلا أن الأسطول الإسلامي نجح في إلحاق هزيمة قاسية بالأسطول البيزنطي ومنعه من إنزال جنوده على سواحل مصر ، كما نجح في تحطيم وحرق عدد كبير من سفن ذلك الأسطول في الموقعة التي أسماها المؤرخون المسلمون" ذات الصواري" والتي اشتهرت بهذا الإسم لكثرة الصواري التي تشابكت في هذه الموقعة[١٤١]، وتحول الهجوم البيزنطي الفاشل إلى كارثة خطيرة بالنسبة لبيزنطة، بسبب ما تعرضت له باقي سفن الأسطول من عاصفة شديدة أغرقت عددا آخر من تلك السفن، وما نجى منها تشتت وتفرق في مياه البحر، ووضعت هذه المعركة نهاية للتهديد الخطير الذي واجهته البحرية الإسلامية في بداية عهدها[١٤٢].

بادر عمرو بن العاص، بعد فتح الإسكندرية الثاني سنة ٦٤٦م بهدم أسوار الإسكندرية الشرقية فسواها بالأرض، برا بقسمه وحتى يتجنب مستقبلا أية مغامرة يقدم عليها البيزنطيون، وفي نفس الوقت لقيت المدينة جزاء مدينة مغلوبة على أمرها، لأنها تمردت على العرب[١٤٣]، فعوملت هذه المرة باعتبارها مدينة فتحت عنوة وبحد السيف لا صلحا . فأصبح وضعها مختلفا هذه المرة عن المرة الأولى بالنسبة لجباية الضرائب، لم يكن ثمة ما يبرر تمردها وتعاطفها أو على الأقل تعاطف بعض سكانها مع البيزنطيين، مثلما لم يكن هناك ما يبرر انتهاك بيزنطة ما سبق عقده من معاهدات، ومحاولة الاعتداء على مصر ولهذا يشير المؤرخون إلى أن العرب كانوا على

(١٤١) الكندي: الولاة والقضاة ص ٣٦

(142) Butler· op. cit. p. 489
(143) Diehl· op. cit. p. 555

حق في تشددهم مع أهل الإسكندرية(١٤٤)، ولذلك أرسل عمرو بن العاص طائفة من الأسرى الذين وقعوا في يده إلى الخليفة بالمدينة.

وفي نفس الوقت أسهمت هذه الإحداث في تغير نظرة العرب إلى الإسكندرية، فعلى الرغم من رغبة عمرو بن العاص الإقامة بها واتخاذها حاضرة للبلاد، حين أرسل إلى الخليفة يطلب منه الإذن بذلك قائلا: "مساكن قد كفيناها" إلا أن الخليفة أمره باتخاذ الفسطاط حاضرة للبلاد والانصراف عن الإسكندرية(١٤٥)، وكان عمرو قد حصل من الخليفة على موافقة بإنشاء الفسطاط، فأسهمت هذه الأحداث كلها في انصراف العرب عن الإسكندرية، وتغير نظرتهم لها لينتهي بذلك فصل هام في قصة هذه المدينة العريقة، وفصل هام أيضا في قصة السيادة البيزنطية في مصر(١٤٦).

وعلى هذه الصورة انتهت السيادة البيزنطية في مصر، وعبر مؤرخ معاصر عن هذا الحدث بقوله: " إن الناس جميعا قالوا إن ما حدث من طرد الروم، وانتصار العرب، إنما جلبه طغيان الإمبراطور هرقل وما أنزله من ظلم واضطهاد بأصحاب العقيدة الحقة (الأقباط) وذلك بمساعدة قيرس" ولا شك أن الجانب الأعظم من سكان مصر الأصليين، انحازوا إلى جانب المسلمين، بعد أن حلت الهزائم منذ البداية بالبيزنطيين، ولقد روى حنا النقيوسي- وهو دونوفيزيتي شديد التعصب- حقائق بالغة الدلالة على ميل المصريين للعرب وتفضيلهم إياهم على البيزنطيين(١٤٧)، ومما رواه هذا المؤرخ حوادث العصيان التي قامت بها القوات التي تتولى مسئولية الأمن الداخلي في كثير من جهات

---

(144) Butler: op. cit. pp. 484 -5

(١٤٥) السيوطي: حسن المحاضرة ج١ ص٥٧ (القاهرة سنة ١٣٢٧هـ)

(146) Diehl: op. cit. p. 555

(147) The Chronicle of John Bishop op of Nikiu, CXX, p. p200

مصر ومنها أيضا رفض كثير من الجند المصريين الاشتباك في معارك مع المسلمين، فضلا عن قيامهم أحيانا بمهاجمة الجند البيزنطيين وتسليمهم للمسلمين بعد تجريدهم من أسلحتهم، وحدث ذلك كثيرا وفي جهات مختلفة من أرض مصر، دلالة على التعاطف الذي أبداه المصريون مع العرب المسلمين[١٤٨].

بل إن أظهر ما أكدته الروايات، أن كثيرا من المصريين كانوا يبادرون باعتناق الدين الإسلامي والمحاربة في صف المسلمين ضد البيزنطيين، وفي الوجه البحري أدركت فرقة بكاملها عبث المقاومة ضد المسلمين، فقرر أفرادها الانحياز إلى جانب المسلمين، ومهاجمة كل من يعارض ذلك، وخلال المحاولة الأخيرة التي قام بها البيزنطيون لاسترداد مصر، كان موقف الأقباط في كثير من جهات مصر أكثر صراحة، إذ اتخذوا جانب العرب بالإجماع وعاونوهم بكل ما لديهم لاسترداد الدلتا، يضاف إلى ذلك اعتناق كثير من أهل الرأي منهم الإسلام، لينعموا في ظله بالأمن والهدوء، بعد أن افتقدوا ذلك زمنا طويلا[١٤٩].

وساعد على تقبل المصرين للعرب، وانعطافهم إلى صفهم، وقيام علاقة حسنة بين الجانبين ما أظهره عمرو بن العاص غداة الفتح من مهارة فائقة في معاملة السكان المصريين، والتسامح معهم وترك حرية العقيدة لهم، وهذه المسألة بالذات كان لها أثر عظيم في نفوس الناس، خاصة بع أن عاشت مصر فترة عصيبة في ظل الاضطهاد الديني، الذي قام به قيرس بأمر هرقل، وكان قيرس قد توفى قبل جلاء القوات البيزنطية عن البلاد، كما سبق أن أشرنا،

(148) Diehl: op. cit. p. 555

(١٤٩) العريني: نفس المرجع ص٤٣٥

وهو يشغل منصب البطريرق الخلقدوني، ولذلك تقرر تعيين بطريرق خلقدوني آخر ليحل محله لرعاية المذهب الخلقدوني في مصر ، إلا أن ولاية هذا البطريرق الجديد لم تتعد أسوار الإسكندرية[١٥٠].

وكان الأنبا بنيامين لا زال مختفيا يطوف أنحاء الصعيد في الوقت الذي أصاب كنيسته المونوفيزيتية الوهن والضعف، وكادت الضربات التي وجهت لهذه الكنيسة من قبل قيرس طوال عشر سنوات تودي بها ، ثم لم تعد المسيحية ذاتها بعد الفتح العربي هي الدين الرسمي، بل صار الإسلام هو الدين الرسمي للبلاد، يفصل المسلمون بمقتضى أحكامه فيما يقع من منازعات دينية، فترتب على ذلك منح الناس حرية دينية مطلقة ، وصاروا أحرارا في تدينهم، في الوقت الذي لم يحفل فيه المسلمون بصدق أو كذب قرارات مجمع خلقدونيا، ولم يعد الأقباط يخشون إظهارا عقيدتهم ومذهبهم وإيمانهم [١٥١]. ولهذه الأسباب أفاقت الكنيسة القبطية المونوفيزيتية، ونشطت لإثبات دعواها في أنها تعبر عن رأي الشعب المصري، وأنها تعتبر كنيسة الأمة المصرية ، ولهذا قرر عمرو بن العاص استدعاء الأنبا بنيامين وإعادته إلى مقره في الإسكندرية، فلقى استقبالا حافلا، وحظى بحفاوة زائدة، وأحاطه الأقباط بعطف شديد، وسط مظاهر الحماسة والاهتمام بعد أن احتجب في مخبأه نحو ثلاث عشرة سنة[١٥٢]، فكان لعودته إلى الإسكندرية أثر كبير في إصلاح أحوال الكنيسة المصرية والمذهب المونوفيزيتي، إذ كان الأقباط في أشد الحاجة إلى رجل صاحب خلق متين ورأي سديد، وفكر متزن يلي أمرهم ويقودهم في تلك الفترة الحرجة ، خاصة بعد أن تحول كثير منهم إلى المذهب

---

(150) Butler op cit p 439

(١٥١) العريني نفس المرجع ص ٤٣٦

(152) The Chronicle of John Bishop of Nikiu, CXX, p. 200

الخلقدوني مضطرين، خوفا من اضطهادات قيرس، ثم تحول بعضهم إلى الإسلام بعد اقتناع وتدبر وتفكير، ولهذا كان على الأنبا بنيامين أن يبذل جهودا صادقة لإعادة الكنيسة المونوفيزيتية إلى سابق عهدها وإلى أيام مجدها[١٥٣].

بادر الأنبا بنيامين إلى دعوة الذين تحولوا إلى المذهب الخلقدوني خوفا أو كرها إلى العودة إلى مذهبهم المونوفيزيتي، لجمع شمل المصريين وتوحيد كلمتهم، لكن لم يكن من اليسير عليه أن يدعو أولئك الذين اعتنقوا الإسلام إلى تركه والعودة إلى المونوفيزتية، خاصة وأن هذا التحول بالذات لم يحدث نتيجة إرغام أو إكراه، وإنما جاء نتيجة اقتناع وتدبر[١٥٤]، لما نادى به الإسلام من إخوة ومساواة، وما أظهره المسلمون من تسامح وعدالة، وما حققوه من أمن وأمان وطمأنينة، وكان بنيامين مقتنعا بأن من تحولوا إلى الإسلام، إنما تحولوا عن رضي وإيمان، فضلا عما أعلنه هؤلاء من أنهم آمنوا بأن هذا الدين يكفل لهم الخير في الدنيا والآخرة، فتحولوا إليه راضين مطمئنين، ولهذا لم يبذل الأنبا بنيامين جهدا لإعادتهم أو التأثير عليهم، وقصر همه على أولئك الذين تحولوا إلى الخلقدونية[١٥٥].

ثم شغل بنيامين نفسه بعد ذلك بإصلاح ما تهدم من أديرة، خاصة في وادي النطرون، ثم تلقي دعوة جماعية من الرهبان للذهاب إلى صحراء وادي النطرون، ليبارك كنيسة بنيت هناك، وهي كنيسة القديس مقاريوس[١٥٦]، فأجابهم بنيامين إلى ما طلبوا، وتوجه معهم في موكب حافل، حملت فيه

---

(153) Diehl op cit p 556
(154) Hardy op cit p 189
(155) Butler op. cit. p. 443
(156) Meinardus Monks and Monasteries of the Egyptian deserts P 55

وبين يديه المباخر وسعف النخيل، ونهض باسيل مطران نقيوس ليشكر الله على ما قام به البطريرق المحبوب من زيارة إلى الصحراء المباركة. وأن يرى من فيها من الآباء المقدسين والإخوة الطيبين الأبرار، ويشهد بها شعائر الدين القويم، ثم شكر الله على أن أنجا هذا البطريرق العظيم من أيدي الكفرة البيزنطيين، وحفظ قلبه من ذلك الطاغية الكبير قيرس، الذي شرده فترة طويلة، حيث عاد إلى أبنائه ليراهم ملتفين حوله مرة أخرى(١٥٧).

كما أنشأ بنيامين أيضا كنيسة القديس مرقس بالإسكندرية، فظلت كنيسة مقاريوس وكنيسة مرقس مقرا للبطريرقية قرونا عدة، حتى انتقلت البطريرقية بعد فترة طويلة إلى القاهرة بعد بنائها وحين تداعت مكانة الإسكندرية، وفقدت أهميتها، ولم تعد عاصمة سياسية لمصر، وتوفى الأنبا بنيامين بعد هذه الأحداث بسنوات في سنة ٦٦١م(١٥٨).

وتؤكد الروايات أن أقباط مصر، نعموا في ظل الإسلام بالطمأنينة والهدوء والأمان، بعد طول عذاب، ومن هذه الروايات مقالة باسيل مطران نقيوس التي أكدت هذه الحقيقة لأنها لا يمكن أن تصدر عن قوم يشعرون بمذلة أو استضعاف، بل تصدر عن أناس يبتهجون بالخلاص(١٥٩)، ولقد أشار بنيامين نفسه إلى ذلك بقوله: " حين أصبحت في بلدي الإسكندرية وجدت بها أمنا واطمئنانا، بعد خوف وبلاء بعد أن صرف الله عنا اضطهاد الكفرة (الروم) وبأسهم" وحتى أولئك الذين أظهروا تعصبا شديدا ضد المسلمين مثل حنا النقيوسي، اضطروا إلى الاعتراف بأن عمرو بن العاص لم يضع يده على شئ من أملاك الكنائس، ولم يرتكب هو أو جنده شيئا من السلب أو

(157) The Chronicle of John Bishop of Nikiu. CXX, p 200
(158) Meinardus op. cit p 55

(١٥٩) العريني المرجع السابق ص ٤٣٧

النهب(١٦٠). ولم يظهروا أي تعصب ضد الأقباط. بل إنه حرص على حماية الكنائس وحفظها. ومنع أي عمل يمس القائمين على أمورها أو المترددين عليها.

وربما لهذا أظهر المصريون فرحهم وسرورهم في حماسة بالغة لما جرى من عودة السلام والطمأنينة إلى ربوع مصر، وقدم جماعة من الرهبان على عمرو بن العاص فأحسن لقاءهم ورحب بهم، فأعلنوا ولاءهم وإخلاصهم لدولته(١٦١)، فأبقى عمرو ومن ولي بعده على ما وجدوه من نظام إداري، كما وافقوا على أن تظل اللغة اليونانية مستخدمة في دواوين الحكومة، كما تشهد بذلك الوثائق وأوراق البردي، التي ترجع إلى القرنين السابع والثامن الميلاديين(١٦٢).

وليس من شك في أن الفتح العربي لمصر، جدد في نفوس المصريين أعظم الآمال في حياة هادئة مقترنة بأمن ورخاء، لأن أخطاء الحكومة البيزنطية ومساوئ إدارتها في مصر تجلت في استغلال ثروات البلاد ونهب خيراتها، وأدت إلى سوء العلاقات بين المصريين وبيزنطة، فضلا عن أن الفتح العربي لمصر، أنهى فترة قاتمة من الاضطهاد لأقباط مصر وإذلالهم، وقضى على خلافات ونزاعات استمرت قرون عديدة، واستهل هذا الفتح مرحلة

---

(١٦٠) ونص حديثة في ذلك مترجما إلي اللغة الإنجليزية

"but he took none of the property of the Churches, and he committed no act of Spoliation or plunder, and he preserved them throughout all his days" john Bishop of Nikiu, CXX, p 200

(161) Diehl op cit p 556

(162) Ibid p 557

جديدة وحافلة في التاريخ المصري في العصور الوسطى نعم فيها المصريون بأمن وسلام في ظل الإسلام وتسامح المسلمين[١٦٣]

(١٦٣) العريني المرجع السابق ص ٤٣٨

أولا: المصادر العربية والمراجع العربية والمعربة:

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن الجزري):

- الكامل في التاريخ (١٢ جزءا - ليدن ١٨٦٦-١٨٧٤م)

ابن دقماق (إبراهيم بن محمد المصري ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦- ١٤٠٧م):

- الانتصار لواسطة عقد الأمصار (بولاق- ١٣٠٩هـ نشر المستشرق فولرز Vollers)

ابن عبد الحكم (عبد الله القرشي):

- فتوح مصر والمغرب والأندلس (ط هنري ماسيه- المعهد العلمي الفرنسي- القاهرة ١٩١٤)

البلاذري (أبو الحسن أحمد بن يحيي بن جابر)

- فتوح البلدان (ليدن ١٨٦٦م)

السيوطي (جلال الدين):

- حسن المحاضرة (القاهرة ١٣٢٧)

الكندي (أبو محمد بن يوسف):

- الولاة والقضاة (بيروت ١٩٠٨م gibb Memorial Series)

المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي):

- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (جزءان- بولاق ١٢٧٠هـ)

اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م):

- تاريخ اليعقوبي (جزءان- طبعة هوتسما Houtsma- ليدن ١٨٨٣م)

***

أسد رستم:

- الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب (جزءان- منشورات المكتبة البولسية- ط ثانية ١٩٨٨)

بتلر:

- فتح العرب لمصر (ترجمة محمد فريد أبة حديد- الطبعة الثانية١٩٤٦)

بل (آيدرس):

- مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي (ترجمة الدكتور / عبد اللطيف أحمد علي والدكتور / محمد عواد حسين- القاهرة سنة١٩٥٤)

جمال الدين الشيال (دكتور):

- تاريخ مصر الإسلامية (جزءان– ١٩٦٧ دار المعارف)

جيبون (إدوارد):

- اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها
  (ج١ ترجمة محمد أبو درة – مراجعة نجيب هاشم)
  (ج٢ ترجمة لويس اسكندر – مراجعة نجيب هاشم)
  (ج٣ ترجمة محمد سليم سالم – مراجعه محمد علي أبو درة)

حسين مؤنس (دكتور):

- دراسة في خصائص مصر ومقومات تاريخها الحضاري(القاهرة ١٩٨٩)

رءوف حبيب:

- تاريخ الرهبنة والديرية في مصر وآثارها الإنسانية علي العالم

سعاد ماهر وحشمت مسيحة:

- منسوجات المتحف القبطي

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور):

- أوروبا العصور الوسطي (جزءان– القاهرة ١٩٦٦م)

سيدة إسماعيل كاشف (دكتورة):

- مصر في فجر الإسلام من الفتح العربي إلي قيام الدولة الطولونية (الطبعة الثانية – القاهرة ١٩٧٠م)

السيد الباز العريني (دكتور):

- الدولة البيزنطية (القاهرة ١٩٦٠م)
- تاريخ أوروبا في العصور الوسطي (بيروت ١٩٦٨م)
- مصر البيزنطية (دار النهضة العربية– القاهرة ١٩٦٢م)

عزيز سوريا عطية ومنير شكري:

- عبقرية الأنبا باخوم وأثرها علي الرهبنة والحضارة الغربية

عمر طوسون:

- وادي النطرون ورهبانه

فشر:

- تاريخ أوروبا في العصور الوسطي (قسمان ترجمة د.زيادة و د.العريني ود.العدوي)

كانتور:

- التاريخ الوسيط (ترجمة د. قاسم عبده قاسم)

كرمب وجاكوب:

- تراث العصور الوسطي (مراجعة محمد بدران و د.زيادة - القاهرة ١٩٦٥م)

كولتون (ج.ج):

- الديرية أسبابها ونتائجها (ترجمة جمال الدين الشيال)

محمد محمد مرسي الشيخ:

- تاريخ الإمبراطورية البيزنطية (الإسكندرية ١٩٩٤م)
- تاريخ مصر الإسلامية (الإسكندرية ط ١٩٩٣ وط ١٩٩٨م)
- النظم والحضارة الأوروبية في العصور الوسطي (الإسكندرية ١٩٩٦م)
- تاريخ أوروبا في العصور الوسطي (الإسكندرية ١٩٩٠ والطبعات التالية)

مراد كامل:

- حضارة مصر في العصر القبطي (مطبعة دار العالم العربي-القاهرة)

نعوم شقير (دكتور):

- تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها (القاهرة ١٩٧٨م)

نقولا ناهض (دكتور):

- الموسوعة، اللجنة العلمية الاستشارية (القاهرة ١٩٨٧م)

نورمان بينز:

- الإمبراطورية البيزنطية (ترجمة د. حسين مؤنس ومحمود زايد)

ثانيا: المصادر والمراجع باللغات الأجنبية:

Grenfell and others:

- " New classical frogment and other Greek and latin papri"
  (Trans. by Grenfell and others – Oxford 1897-London 1953).

John of Nikiu:

- The Chronicle of John Bishop of Nikiu, (Enq. Trans.).

Maspero:

- Les paprus Beauge` (B. de l'Inst. Franc. d'arch. Or. 1912).

Procopius:

- Buildings of Justinian. (London 1886)
- De bello Vandalico. English Translation by Dewing. (London 1969).
- The Secret History, Trans. by Dewing (London 1969).

Zenon papyri (Trans. Edgar- le Caire 1925) "Des antiquites egyptiennes du muse`e du Caire. 3 Vol. (le Caire 1925-8).

Theophanes:

- The Chronicle of Theophanes, An English translation, with introduction and notes, by Harry Turtledove. (Philadelphia 1982)

***

Amelineou:

- La Geographie de L'Egypt Copte (Paris1893)
- Monuments pour servir a` L'Histore de L'Egypte Chretienne.
- Vie de samuel de Kalamoun (Mem. Miss. Arch. France. Du Caire IV, 2)

Arnold:

- The end of the Byzantine Empire (D. M. Nicol. 1979)

Aussaresses, F:

- LArme`e Byzantin a` la fin du vie D'apres le Strategos de l'Empereur Maurice (Paris 1909)

Bell, H. I:

- Egypt from Alexander the great to the arab conquest (Oxford 1966)
- Egypt and the Byzantine Empire (London1920)
- The Byzantine servile stare in Egypt- journal of Egyptian archoeolgy (JEA) Vol. 1 (London 1917)
- Egypt under the Early Principate, C.A.H.(Vol. 10)

Benz:

- The Eastern Orthodox Charch. (Chicago 1963)

Bre`hier. L:-

- Le Mond Byzantin les instution de l'Empire Byzantin. (Paris 1949)
- Vie et mort de Byzance (Paris 1947)

Burckardt. J:-

- The Age of Constantine the great. (London1964).

Bury. J. B.:

- History of the later Roman Empire- from the death of theodosius I to the death of Justinian. (New york 1958)

Butler. A. :

- The Arab conquest of Egypt (Oxford 1902)

Bynes & Moss:

- Byzantium

Cambridge Ancient History Vol. X, XII.

Cambridge Medieval History (8 Vol.) (Cambridge 1924)

Contor N. F.:

- The Medieval world 300-1300 (ed. by Contor N.Y. 1968)
- Medieval History. (New york 1964)

Chadwick, H.:

- The early Charch (London 1967)

Clarysse, w.:

- Etudes sur l'armee et la administration, (Ladig 1988)

Dalton:
- Byzantine Art and Archaeology.

Diehl, C.H. :
- Etude sur l'administration Byzamntin dans le exarchat de Ravenne. (Paris 1907)
- L'Egypt Chretienne, (Paris 1920)
- Histoire de l'Empire Byzantin (Paris 1920)
- L'Afrique Byzantin (Paris 1896)
- Justinien et la civilisation Byzantin au VI siecle.

Evetts:
- History of the patriarches

Gross. R.:
- The standard work on the later Roman Army, (Berlin 1920)

Hardy:
- Christian Egypt (New york 1952)

Helwein, N.:
- La police de villages Egyptienne A l'e`poque Romaine (le caire 1905)

Hodges:
- The early Charch. (N.Y. 1915)

Jones, A.H.M.:
- The Decline of the Ancient world.(London 1948).
- The Greek city from Alexander to Justinian (Oxford 1940)

Johnson, A.ch. :
- Egypt and the Romane Empire (Mich. 1951)
- BYZANTINE Egypte Economic Studies (Princeton 1949)

Jouguet, P. :
- La vie municipale dans l'Egypte Romaine (PARIS 1911)

Katz, S.:

- The Decline of Rome and the Rise of Medieval Europe (New york 1955)

Keen, S. :

- A History of Medieval Europe (London 1967)

Lemerle, p.:

- Histoire des Byzance. (Paris 1975)

Lot, F. :

- The end of the Ancient world and the Beginning of the middle Ages. (London1966)

Maclagan, M. :

- The city of Constantinople (New york 1968)

Matter:

- Histoire de l'Ecole d'Alexandrie

Maspero, J.:

- Histoire de Patriarches d'Alexanddrie (Paris 1923)
- L'Organisation militaire de l'Egypte Byzantin. (Paris 1912)

Meinardus, O.F.A.:

- Monks and Monasteries of the Egyptien deserts. (by the American unv. In cairo, Egypt 1961-1989)

Oman, S.ch.:

- A History of the Art of war in the Middle Ages. (London 1924)

Ostrogorski, g:

- A History of the Byzantine State (Trans. by Hussey- Oxford 1956)

Painter:

- A History of the middle Ages (New york 1954)

Parson, E.A.:

- The Alexandrian library.

Pirenne, H.:

- Mohamed and Charlemagne (London 1968)

Quatremere:

- Recherches sur la langue et la le`tterature de l'Egypt.
- Memoires geographique et Historiques sur l'Egypt. (Paris 1811)

Rice, C.T. :

- Byzantium (1969)
- The Byzantines (London 1962)
- Byzantine Art.

Rostovtzeff

- A History of the Ancient world, 2 vol. (Oxford 1928)

Rouillard,g:

- L'Aaministration civil de l'Egypte Byzantin. (Paris 1928)

Rowling, M. :

- Everyday life in Medievel Times. (London1973)

Savigny:

- The History of Roman law during the middle ages (Trans. by cathcart)

Simon:

- Histoire de l'Ecole d'Alexandrie.

Thompson, J.W.:

- The Middle Ages, 2 vols. (London 1931)

Van Berchem:

- L'Armee de Dicletien et la reforme Constantinienne. (Paris 1952)

Vasiliev, A.:

- The Byzantine Empire (Madison 1952)

Wiet, g.:

- Histoire de la Nation Egyptienne (l'Egypte Arab – Paris 1937)

المحتوي